معـاذ حسـن

الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني الحديث

في الساحل السوري حتى منتصف القرن العشرين

محافظة طرطوس نموذجاً



الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني الحديث

في الساحل السوري حتى منتصف القرن العشرين

Arwad Publishers

International Inc.

160 Morgan Prky

Zebulon, NC 27597 Phone: 9194007366 U.S.A

❖ معان حسن

❖ الاندماج الاجتماعي

❖ ارواد للطباعة والنشر

❖ الغلاف

❖الطبعة الأولى /2022

بالتعاون مع

أرواد للطباعة والنشر

طرطوس . شارع طارق بن زياد، شرقي الزراعة القديمة

0938470406-0945476915 -043 2225225

معاذ حسن

الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني الحديث في الساحل السوري حتى منتصف القرن العشرين

محافظة طرطوس نموذجًا

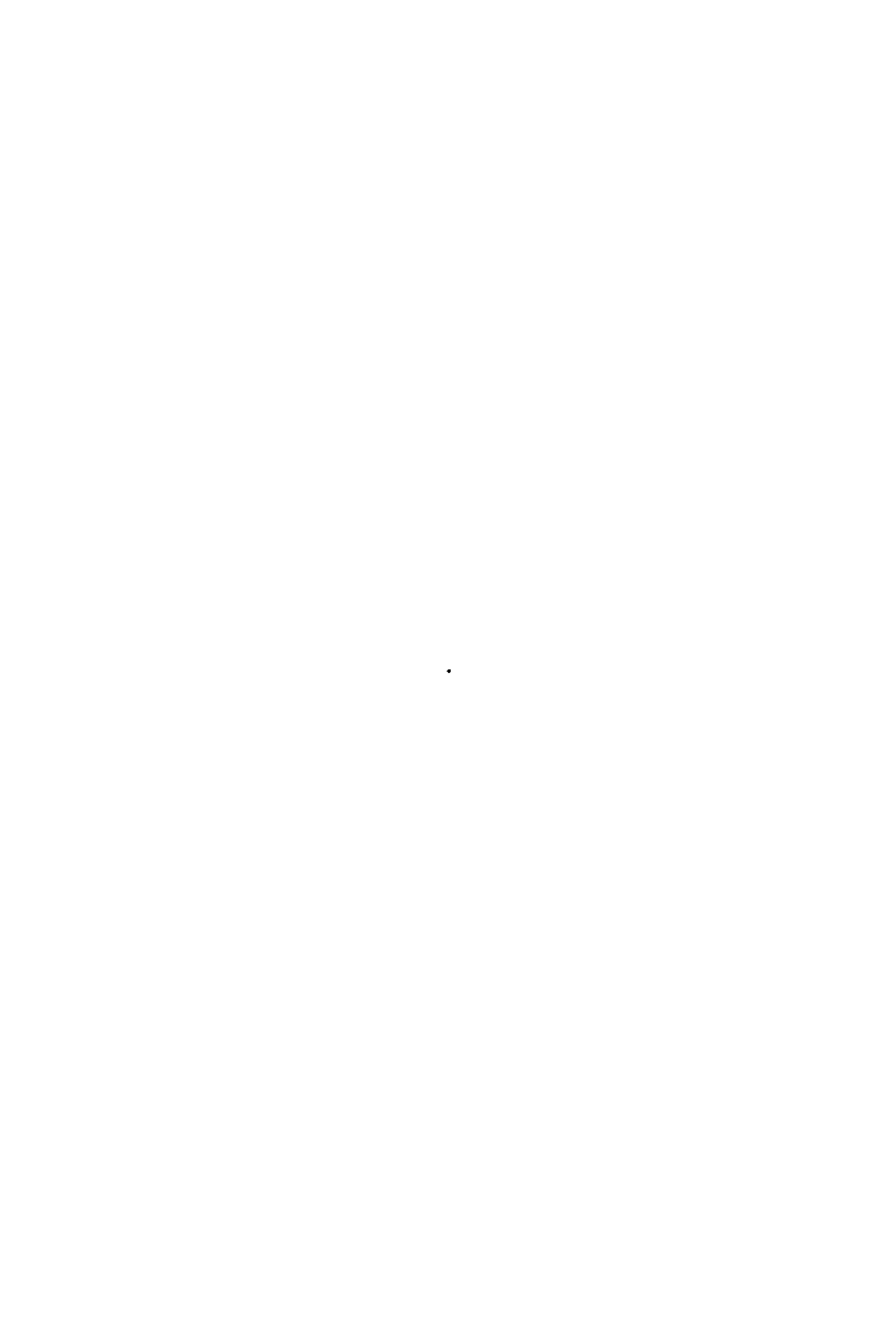
"إن التغيّر قانون الوجود، والاستقرار موت وعدم.. إنك لا تنزل إلى نفس النهر مرّتين فإن مياهًا جديدةً تجري من حولك أبدًا"

الفيلسوف اليوناني "هيراقليطس"

الإهداء

إلى حفيداتي وأحفادي،
رند – آدم – تالا – يزن – تيّا – ميلا – فانيسا – كرم – فابيان – نزيه

هذا الكتاب صفحةٌ صغيرةٌ متواضعةٌ من تاريخ مجتمع تنتمون إليه مهما بعدتم عنه يومًا ما، وفكرته الرئيسة تتضمّن بالعمق رسالةً لكم ولجيلكم أمل المستقبل الأفضل.



شكر خاص

أوجه شكري وبالغ تقديري للشخصيات التالية:

المهندس نبيه نبهان الذي رافقني بحماس كبير وبشكل مستمر في العديد من اللقاءات منذ بدايات التحضير لهذا الكتاب.

الأستاذ خالد عثمان الذي أعطاني الكثير من وقته بمرافقتي في سيارته الخاصة إلى بانياس وبلدة المرقب في العديد من المرات عام 2016.

الأستاذ محمد رئيف هيكل المختص بالآثار والتاريخ الذي استقبلني مرّات عديدة في لقاءات مُطوّلة بكلّ ترحيب وحماس، الأستاذ الذي بفضل ثقافته الشخصية ومعلومات ذاكرته الفنية والحاضرة دومًا عرفت الكثير عن طرطوس منذ بداية تشكّلها وحتى أربعينيّات القرن العشرين.

الآنسة أحلام يونس، والآنسة مي يونس، والسيدة (بشرى محمود يونس) وأخوهم السيد منذر يونس، الذين كانوا من أوائل المتحمّسين لمشروعي هذا وكانوا دليلي في لقاءاتٍ عديدةٍ مع شخصيّات في طرطوس من مختلف الطوائف.

إلى كل الأشخاص الذين التقيتهم محاورًا ومتسائلًا في كل المدن والبلدات والقرى التي زرتها والذي أثمر تجاوبهم معي هذا الكتاب. فأسماؤهم مثبتة في سياق الحديث عن بلداتهم وقراهم.

إلى الأستاذ (واعد معاذ حسن) الذي قام بمراجعة لغوية واسعة للكتاب مع بعض الملاحظات الضرورية.

مقدمة
في قصة هذا الكتاب

ورطة..!

بعد صدور كتابي الأول عن "سوسيولوجيا الإخفاق" في المجتمع العربي عام 2015 طرح عليّ صديق العمر الأستاذ (عبد الله ديب) فكرة إنجاز كتابٍ ثانٍ عن التحوّل الثقافي في طرطوس. أعجبتني -طبعًا- الفكرة، لكن على ألا تقتصر على الجانب الثقافي فقط فالثقافة لها مهادها الاجتماعي الذي هو بدوره له سياقٌ تاريخيّ اقتصاديّ – سياسيّ، الأمر الذي كنت أفكر به منذ عام 2004 إذ كانت تشغلني فكرة القيام ببحث اجتماعي عن بدايات الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني في الساحل السوري عمومًا منذ بداية عقد الثلاثينيّات في القرن العشرين وحتى منتصف الستينيّات ليس في طرطوس فقط على أن أقوم بإجراء لقاءاتٍ مع شخصيّاتٍ قديمةٍ كان وما يزال لها حضور اجتماعيّ ثقافيّ فاعل، لكن عدم نضوج الفكرة في ذهني تمامًا آنذاك، وعدم اكتمال القدرة اللوجستيّة للقيام بتغطيةٍ واسعةٍ كهذه، يُضاف إلى ذلك انشغالات أخرى ضاغطة وعديدة جعلتني – على الرّغم من بعض البدايات المتواضعة التي قمت بها يومذاك- أهمل مشروعي هذا مدة خمسة عشر عامًا لأبدأ العمل في سبيل إنجازه من جديد بتأثير رأي صديقي عبد الله، على أن يكون العمل بحثًا ميدانيًا حول محافظة طرطوس تحديدًا بصفتها أنموذجًا عن الساحل السوري، ولو بوتيرة بطيئة منذ عام 2016.

لكن هذه البداية الجديدة كان يتنازعها –أيضًا- الانشغال بفكرة إصدار كتاب آخر، فقد توقفت مرّة ثانية عن العمل في إنجاز هذا الكتاب لصالح كتابي الثاني بعنوان "فكرة الزمان والوعي التاريخي" الذي صد رعام 2019، ثم عدت لمتابعة مشروع هذا الكتاب بانشغال خاص لا ينازعه فيه أيّ انشغال آخر غير مسؤولياتي البيتيّة وظروفي الحياتيّة والنفسيّة الخاصّة.

مشكلتي مع هذا الكتاب - على الرغم من حبّي وحماستي الشديدة لفكرته - تتلخص في أني أعمل على مشروع بحثيّ يندرج ضمن اهتماماتي فعلًا، لكنه ليس ضمن اختصاصي في دراستي الجامعية أولًا، كذلك فهو يحتاج - حسب المخطط الطموح الذي كنت أحاول رسمه له - لفريق عمل بحثيّ

ميداني متخصص غير متاح لي يستطيع مساعدتي في تغطية واسعة للموضوع ولفكرة الكتاب ثانيًا.
لذلك فطيلة فترة إعدادي لهذا الكتاب ومنذ الأشهر الأولى لعام 2016 كنت أرى نفسي في ورطة لأني التزمت بوعد بيني وبين نفسي، ثم بيني وبين الأصدقاء والمعارف وكل من التقيت بهم من أجل إنجاز هذا الكتاب، لكن من دون امتلاك أدوات منهجيّة واضحة في البحث الاجتماعي - التاريخي تساعدني في عملي هذا.
لكنها ورطة مفيدة وممتعة لي في آن معًا! إذ كون المتابعة فيها خلقَ في نفسي تحديًا ذاتيًا خاصًا فتح أمامي مجالًا واسعًا لفهم البيئة المجتمعيّة التي أعيش فيها في إطار أوسع، وفهم بدايات تشكلها الحديث وحركتها الداخلية منذ بدايات القرن العشرين، بعيدًا عن زاوية نظر أحاديّة سطحيّة مناطقيّة - أو دينيّة طائفيّة - أو عشائريّة، وبعيدًا عن أيّ تحيّز أيديولوجي مسبق، وبعيدًا عن أيّ إملاء لأية جهة ما، مالية – سياسية – مذهبية.. إلخ.
على ما تقدم فهذه الدراسة كما تحوي المهمّ والمفيد والغنيّ كما أفترض، فهي –أيضًا ولا شك- تشكو من نقاط ضعف وهفوات عديدة وتقصير في الإحاطة الشاملة كما يشير إليه عنوان الكتاب. لذلك فأنا مستعد لتقبل أيّ رأيٍ نقديّ موضوعيّ أو ملاحظة منهجيّة علميّة يخصّان هذا الجانب، بل أعدّ ذلك تصويبًا يمكن استدراكه في طبعةٍ لاحقةٍ للكتاب في حال تم ذلك.

حول منهج الكتاب وموضوعه

من هذا الإشكال "الورطة" كما أسميته، بدأت تولد في ذهني العديد من العناوين والمحاور الرئيسة للكتاب، ثم اندفعت بحماسة كبيرة إلى لقاءات مع العديد من الشخصيات في بعض المناطق كنت أسجل محتواها على دفتر خاص، ثم قمت بتفريغها وإعادة صياغتها من خلال التنضيد على الكمبيوتر قبل أن تنضج في رأسي بدقّة خطة الكتاب وحتى عنوانه. لكن ما كان واضحًا في ذهني هو أنه كان - منذ ثلاثينيّات القرن العشرين - ثمة بدايات هادئة وصحيحة لتشكّل نسيج مدني حديث' في طرطوس كما في كل سورية، تشكّلَ ناتجٌ عن اندماجٍ مجتمعيّ جديدٍ بتأثير الحراك الناشئ من هجرة أبناء الريف إلى المدينة ليكون التأثير متبادلًا في سياق ظروف تاريخية عالمية مستجدة أهمها خروج مجتمعاتنا من عباءة الخلافة العثمانية بعد انهيارها مع نهاية الحرب العالمية الأولى، ودخول سورية والمنطقة مرحلة الاستعمار الغربي بعد (سايكس- بيكو)، الأمر الذي ولّد فكرة بناء

الدولة الوطنية الحديثة حتى في ظل الانتداب الفرنسي تأسيسًا لمرحلة ما بعد جلاء القوات الاستعمارية المنتدبة، وظهور أفكار اشتراكية بتأثير الثورة الروسية، وأفكار قومية جديدة بتأثير تطورات نزعة الدول القومية في أوروبا آنذاك، كبديل للمرحلة الإمبراطورية التي حكمت العالم طيلة القرون الوسطى.

لذلك كان عليّ أن أقرأ جيّدًا باستيعاب نقدي في لقاءاتي الأولى تلك، مصححًا ومعدّلًا على نحو مستمر منهجي في الكتابة، لأن التأمل في حكايات التفاصيل الصغيرة اليومية في الأحداث والوقائع هو ما يساعد على إنضاج أدوات البحث ومن ثم يبلور منهجًا خاصًا في الكتابة وموضوع الكتاب، لأنه يستدعي – دومًا - المزيد من الأسئلة التاريخية البعيدة واليومية الراهنة، ويفتح أبوابًا جديدةً في البحث تبدو في البداية مغلقةً على الذهن.

وبالعودة إلى موضوعنا حول الاندماج الاجتماعي في الساحل السوري خلال النصف الأول من القرن العشرين نقول:

ربما يتبادر إلى ذهن بعض القرّاء السؤال: لماذا عن الساحل تحديدًا؟

فعدا عن كوني ابن الساحل السوري من محافظة طرطوس، وأعيش منذ ولادتي حيث تعددت أمكنة إقامة الأسرة التي نشأت فيها بحكم وظيفة الوالد في العديد من مدن المحافظة وقراها (صافيتا – بانياس – طرطوس)، يُضافُ إلى ما سبق أني زرت أغلب قرى المحافظة ومدنها وبلداتها في فترات متعدّدة ومتباعدة من حياتي ولا سيّما خلال 38 عامًا من حياتي الوظيفيّة، ولاحظت التنوع الغني المتكامل في الحياة الاقتصادية والعادات والتقاليد الاجتماعية بين ريف ومدينة وسهل وجبل، ولمست في سياق ذلك كله تناغمًا اجتماعيًا جميلًا دام طيلة القرن العشرين أنتج ظواهرَ ثقافيّة غنية مهمّة ومتعدّدة قدّمت إلى القطر وللعالم العربي أسماء كبيرة. مع أن مؤشراتها الإيجابية بدأت تتراجع بوضوح منذ تسعينيّات القرن العشرين وبداية الألفية الجديدة! فيكون هذا التراجع هو السؤال المضمر في هذا الكتاب.

وقد لاحظت أن الدراسات الميدانية الإحصائية والسيوسيولوجية التي رصدت ذلك، بحدود ما أعلم، كانت قليلة ولا تفي بغرض الجواب عن ذلك.

وعلى أساس ذلك كانت خطتي الطموحة في البحث تتمحور حول فكرة تشكل سياق مجتمعي متنوع ومتعدد على مدى قرن كامل، وأعني به القرن العشرين الذي شهد ولادة دولتنا الوطنية الحديثة ومجتمعنا الجديد غداة

الخروج من عباءة الإمبراطورية العثمانية بعد تفككها أولا، والحصول على الاستقلال الوطني بعد جلاء المستعمر الفرنسي عن بلادنا ثانيا.
وهذا ما أسميه ببدايات التشكل المدني الحديث للعلاقات الاجتماعية، وهو ما وددت أن أبدأ منه حتى منتصف القرن العشرين، مسلطًا الضوء على بدايات النزوح وتشكل المدن، وعلى أولى الجماعات التي سكنت واستقرت، وعلى أصولها من أين أتت؟.. ثم تابعت اندماجها في السكن الجديد بعلاقات جديدة، وحاولت أن أرصد ملامحها الثقافية السابقة إن وجدت، وهل كونت ملامح ثقافية جديدة؟، متى بدأت وازدادت أو تطورت الهجرة من الريف إلى المدينة أو إلى الخارج كأمريكا مثلا؟ وما هي أكثر الأماكن التي شهدت ذلك؟ ولماذا؟
كيف انعكست الهجرة إلى المدينة على مجتمع القرية أيضا؟
كيف بدأ الاندماج في المدينة؟ وعلى أيّة أسس من العلاقات الاجتماعية؟
ما هو نمط العلاقات الاقتصادية السائد في البداية؟ وعلى ماذا كان يتمحور؟
ثم كيف بدأ يتغير؟ وما هي العوامل التي أدت إلى ذلك؟
ما هي التحولات المدنية والثقافية الطارئة والمهمة التي حصلت؟ ومن هم أعلامها؟
هدفي البعيد من البحث هو متابعة التغير الثقافي، فالثقافة المدنيّة - كما أزعم - في أيّ مستوى تكون فيه تبقى المؤشر على مستوى الحالة المجتمعيّة الحضاريّة التي يكون عليها أيّ مجتمع.
لكني أعترف بأنني لم أوفق بالبحث حسب خطتي الطموحة تلك لأسباب عديدة ذكرت أهمها في بداية هذه المقدمة، ومع ذلك فعزائي يكمن في أن هذا الكتاب يقدّم عرضًا اجتماعيًا موسّعًا عن طرطوس المدينة وبعض النماذج من ريفها يتضمن مفاتيح بحثية قد تغري باحثًا أو مؤرّخًا أو مجموعةَ عمل بحثية في علم الاجتماع لدراسة هذه المنطقة يومًا ما.

قد يلاحظ القارئ الكثير من حالات البوح الوجداني في الكتاب مع الإطالة في الحديث، بما يتجاوز السقف الزمني التاريخي لموضوع الكتاب وعنوانه، ولا سيّما عند التطرق لبعض المدن والقرى والبلدات، أو الإشارة المستفيضة لبعض الشخصيات فيها إما لأهميتها أومن باب الوفاء والإنصاف الموضوعي لها، أو لصلة القربى التي تجمعني بها، وما تفسير ذلك إلا أني عشت سنينًا طويلةً من فتوّتي وشبابي معها وفيها أو أني أنتمي بمولدي إليها، فيكون من الطبيعي أن يكتسي الكلام والوصف والتحليل ربّما

ملونةً بالهوى الداخلي لديّ، ومن قال أن التأليف والكتابة -حتى في أكثر الأفكار تجرّدًا- يكون له معنى وعمق من دون ألوان الهوى داخل الحروف والكلمات؟ لكن بالتأكيد ليس على حساب النظر الموضوعي المفترض.
فأنا ولدت في بلدة صافيتا التي ترعرعت فيها حتى من الخامسة، ثم عشت صباي الأول وبداية فتوتي في مدينة بانياس، ثم تابعت تكوين شخصيتي منذ سن الفتوة والشباب في مدينة طرطوس. وكنت في كل تلك المراحل من عمري أتردد باستمرار، خصوصا في الصيف، إلى قرية "الملاجة" التي ولد وعاش فيها جيل الآباء في عائلتي التي يعود نسب الأجداد فيها لقرية حمين المجاورة شرقا، وما زالت تربطنا صلات قرابة قوية فيها. فمجمل هذه الأماكن ساهمت في تكوين ذاكرتي وميولي وشخصيتي إلى ما أنا عليه اليوم. لذلك فمن الطبيعي أن يترك ذلك أثرا من الهوى في نفسي وتفكيري فينعكس ذلك الأثر بقبسات قليلة متناثرة من السير الذاتية لي فيها وبالتوسع والاسترسال قليلا في الحديث عنها متجاوزا السقف الزمني للتاريخ المفترض لموضوع وفكرة الكتاب كما يشير إليه العنوان.

أحب أن أشير -أيضا- إلى أن كل المعلومات التي أذكرها في هذا الكتاب هي مأخوذة بدقة وأحيانا بالحرف والكلمة من المصادر التي أذكرها تماما بالاسم والتاريخ، ولم أتدخل أبدًا فيها إلا عندما أضطر لتبيان رأيي الخاص، لكن بعد عرضها بدقة وأمانة.
لذلك أسجل هنا جزيل الشكر لكل من قابلته محاورا ومتجاوبا معي في مدينة طرطوس وفي كل المناطق التي زرتها كما هو مبين في الكتاب، وأسماؤهم موجودة بكل تفاصيل اللقاء فيه، فلهم مني مرة أخرى شكري الجزيل إذ لولا تجاوبهم معي لما كان هذا الكتاب أبدًا.
معاذ حسن



الباب الأول
مقدمات تاريخية وجغرافية

الفصل الأول
تمهيد نظري تاريخي عن السواحل والساحل السوري

الحراك الديمغرافي البشري على السواحل عمومًا

يبدو أن السواحل هي مركز العمليات والتحولات التاريخية وليس الدواخل – من الداخل –

يقول المؤرخ الأمريكي (جون أر. غيليس) في كتابه الماتع والمهم "ساحل البشرية" ترجمة د. ابتهال الخطيب، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية العدد 34 عام 2015م:

"أن معظم التطور الإنساني كان قد حدث ليس في المواقع المغلقة أرضيًا، ولكن حيث تلتقي اليابسة بالماء."

بتقديري إن هذا الكلام صحيح إلى حدّ كبير، خصوصًا أن الكرة الأرضية، كما نعلم جميعًا تتكون جيولوجيًا في القسم الأغلب منها بنسبة تقدر ب 75% من مياه البحار والمحيطات، وبنسبة 25% من اليابسة. فالبشر يعيشون في جزر كبيرة متفرقة ومتباعدة ضمن محيطات هائلة الاتساع من البحار والمحيطات.

ففي الداخل البري سهليًا خصبًا كان أم صحراويًا، كانت تقوم فيه مجتمعات زراعية أو رعوية قبائلية مغلقة، لكن على السواحل كانت حياة صيد ومغامرة دائمة عبر علاقة متجددة مع شواطئ البحار المتقلبة والمتغيرة دومًا، وسكان السواحل –أيضًا - لم يكونوا بحاجة إلى التنقل والهجرة وإنما هم مقيمون دومًا مع مغامرة الصيد على شواطئ بحار لانهاية لها في أفقهم المنظور، لذا فليس لهم ذاكرة قديمة بعيدة في المكان، هم جماعات ساحلية لا تعيش على الشواطئ بشكل طارئ بل تعيش فيها ومعها دومًا، لأن البحار عوالم متقلبة ومتجددة دائمًا، ففي فترات تكون هادئةً سلسةً وجاذبةً، وفي فترات أخرى تكون صاخبةً هادرةً ومخيفةً.

وعن طريق السواحل، طيلة القرون القديمة والوسطى في بحار العالم القديم، كانت تدخل الجيوش غازية، ومنها كانت تخرج بعد أن تحدث تخريبًا كبيرًا أو تغييرًا في الخارطة الجيوسياسية للداخل.

ويبدو أنّ أهم اكتشاف للمغامرة الإنسانية عبر التاريخ كانت عندما وطأت أقدام (كريستوف كولومبس) وبحارته عام 1492م أرض اليابسة على سواحل القارة الجديدة المكتشفة التي سميت لاحقًا بأمريكا.

لذلك ففي الزمن الحديث وبعد اكتشاف العالم الجديد الذي تزامن - أيضًا- مع اكتشاف طرق تجارة بحرية عالمية جديدة توسّعت حركة التجارة العالمية، ولنشطت الأسفار كثيرًا لأهداف وغايات متعددة، فتوسّعت بشكل كبير حركة التبادل التجاري، ونمت رؤوس الأموال الكبيرة والفائضة، وتكوّن - بفضل حركة الأسفار- أفق معرفيّ جديد للذهن البشري، وبدأت تتكون طبقات اجتماعية جديدة صاعدة، كما بدأت تظهر أفكار علمية وفلسفات معرفية جديدة ومختلفة كليًا، مما مهّد لثورات اجتماعية وسياسية وصناعيّة متلاحقة.

وهاجرت أعداد غفيرة من سكان العالم القديم في أوروبا، هربًا من الثورات والحروب الداخلية، انطلقت من السواحل عبر البحار بحثًا عن الثروة والحياة الأفضل في العالم الجديد المكتشف، فبدأ العالم يشهد تغيّرًا ديمغرافيًا كبيرًا ومستمرًا لدرجة صار فيها سكان السواحل الأصليين والقدماء مجرّد أقليات عرقية وإثنية، خصوصا في القارة الأمريكية المكتشفة.

وهكذا صارت العلاقة مع السواحل مختلفةً ومتغيّرةً بحيث تحولت في جانب كبير منها إلى استثمار أكثر من كونها علاقة تكيف؛ أي إنها حياة على السواحل أكثر من كونها حياة مع السواحل.

كل ذلك أنتج نمط علاقة مجتمعيّة جديدة ومتباينة لأغلب سكان السواحل في العالم.

الحراك الديمغرافي على الساحل السوري

لكن ماذا عن الساحل السوري الذي كان كل الكلام السابق توطئة لنتعرف على أهميته الخاصة ضمن الساحل البشري عمومًا؟

فالساحل السوري، أو ساحل بلاد الشام يمتّد من خليج الإسكندرون شمالًا حتى سواحل شبه جزيرة سيناء في مصر جنوبًا على طول 1000 كم تقريبًا.

أما ساحل الجمهورية العربية السورية الحالي فيبلغ 180 كم أي ما يعادل (65) ميلًا بحريًا أو 65 كم على خط الشاطئ.

ويرجع أصل تشكّل هذا السهل الساحلي المستقيم والطويل على ما يذكر المؤرخ (فيليب حتى) في كتابه "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" إلى "ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالدور

الثالث. وقد ترسبت فوق الطبقة الطبشورية([1]) في بعض الأماكن طمي أتت بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ولشرته، والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها أمواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من النيل".
ثم يتابع المؤرخ فيقول: "والساحل بكامله من أكثر السواحل استقامة في العالم فلا يوجد فيه خليج نهري عميق أو اي خليج آخر مهم إلا في الشمال حيث خليج إسكندرون. ومن هذا المكان حتى حدود مصر يكاد لا يوجد على مسافة 440 ميلًا أي ميناء بحري يستحق الذكر".

لكن أين تكمن اهميته الجغرافية والتاريخية؟:
يقول المؤرخ، أيضًا في مكان آخر إنه في عصور أقدم كانت مياه البحر المتوسط تغطي أراضي سورية بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي الهند، وكان ذلك خلال الحقبة الجوراسية البعيدة([2])، وخلال هذه الأحقاب الطويلة تراكمت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد للبحر المتوسط فتشكلت الصخور الكلسية التي تتألف منها معظم السلسلة الغربية في سورية، ثم حصلت في مراحل لاحقة حركات أرضية واسعة نتج عنها تضييق رقعة الساحل الطويلة وظهور سلسلة جبال عديدة ومرتفعة العلو بنسب متفاوتة على طول الساحل الغربي.
وطبعا كلنا يعرف أن أعلاها هي قمم جبال لبنان، تأتيها بالمرتبة الثانية قمة جبل النبي متى وجبل النبي يونس في محافظة طرطوس، فكانت سلسلة هذه الجبال سدًا فاصلًا بين البحر وما خلف هذه السلسلة ماعدا ممرات ضيقة نسبيًا قياسًا على طول هذا الساحل وهي:

---

[1] -: نسبة للعصر الطباشيري، أي وجود طبقات طباشير واسعة على مناطق واسعة من الأسطح الصخرية على الأرض بفعل ترسب كربونات الكالسيوم. "هو الثالث والأخير من عصور حقبة الحياة الوسطى الثلاثة، امتد من ≈ 145 إلى 66 مليون سنة مضت، لمدة 79 مليون سنة تقريبا. يسبقه الجوراسي، ويليه الباليوجيني من حقبة الحياة الحديثة". كما جاء في موسوعة الويكيبديا. (م ح).
[2] -: الحقبة الجوراسية البعيدة جدا في التاريخ الجيولوجي للأرض التي استمرت 65.3 مليون سنة وظهرت فيها الديناصورات الكبيرة، المصدر موسوعة الويكيبيديا. (م ح).

خليج الإسكندرون في الشمال، وبرزخ السويس في الجنوب، يتوسطهما وادي النهر الكبير شمالي طرابلس على الحدود السورية اللبنانية الحالية، ويبدو أن وادي هذا النهر كان من أهم الممرات أو الثغور الساحلية التي دخلت منها جيوش الغزاة عبر التاريخ إلى أغلب مناطق الداخل السوري والعمق العربي الصحراوي حتى إلى بلاد ما بين النهرين ووادي الفرات ومن ثم خرجت منه، كما كان معبرًا للتبادل الاقتصادي التجاري والثقافي.
وهذا يعني أن هذا الساحل الطويل شهد حراكًا ديمغرافيًا كبيرًا وقويًا، وتبادلًا تجاريًا وثقافيًا مهمًا منذ العصور القديمة والوسطى نظرًا إلى موقعه الاستراتيجي المهم في قلب العالم القديم.
وهكذا فكما تشكلت طبيعة هذا الساحل الجغرافية الحالية بفعل رسوبات هائلة قادمة من أماكن بعيدة، وحركات أرضيّة عميقة وواسعة تتالت وأحالت تشكّله به عبر الأحقاب الجيولوجية القديمة إلى طبيعته الحالية كذلك تشكلت حاضراته البشرية القديمة أو الحديثة، وتكوّنت حركته الديمغرافية بسكانه وقاطنيه عبر السنين من مزيج مختلف الأعراق البشرية التي مرت عبر هذه الثغور الجبلية والممرات الساحلية وبنت حاضراتها التي ما تزال شاهدة عليها.
فمنذ الفتوحات العربية الإسلامية[3] لبلاد الشام في القرن السابع الميلادي مرورًا بالحروب الصليبية في القرون الوسطى حتى حروب الإمبراطورية

---

[3] -: قد يتحفظ البعض وبشدة على تعبير "الفتوحات العربية الإسلامية" هنا، كما هو ملاحظ بكثرة في أيامنا هذه، من خلفيات ثقافية أو منطلقات أيديولوجية أو عرقية متعددة ومتباينة. لكني أستخدم هذا التعبير هنا للتمييز بين الغزوات التي قامت غلبتها بداية، في التاريخ القديم والوسيط على القوة والبطش ثم تراجعت وتلاشت تاريخيا دون أن تترك أثرا حضاريا ما يذكره التاريخ.
وبين الغزوات الأخرى التي قامت غلبتها بنفس الفترة التاريخية بداية، أيضا، على القوة العسكرية لكنها بعد استتباب الأمر لها أنتجت أثرا حضاريا كبيرا وهائلا كانت قد استوعبت من خلاله مجتمعات كبيرة وواسعة متعددة الأعراق والديانات والثقافات. وما زالت آثار هذا الاستيعاب، الديمغرافية والاجتماعية العقيدية، والمعرفية العلمية والفكرية الفلسفية باقية حتى اليوم، وهي بهذا المعنى كانت فتوحات أكثر من كونها مجرد غزوات عابرة.
طبعا دون أن يعني ذلك التغني بأمجاد عربية إسلامية غابرة أبدا، وإنما محاولة تشخيص تاريخي لمرحلة تاريخية قديمة لم تستطيع إعادة إنتاج نفسها من جديد في زمننا الحديث والمعاصر.

العثمانية وإبراهيم باشا منتصف القرن التاسع عشر في العصر الحديث حتى بدايات الاستعمار الأوروبي أوائل القرن العشرين تغيرت كثيرًا الخريطة الديمغرافية لسكان الساحل السوري وساحل سورية ولبنان اليوم بفعل كل هذه الأحداث والحروب.

هكذا تشكلت المجتمعات عبر التاريخ إذن، حيث كان للسواحل دور مركزي مهم في ذلك، وهكذا تتشكل على نحو مستمر أيضًا، فلا ثابت ولا مستقر للأبد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فيها، ولا أحد يحق له أن يدعي أنه أصل وفصل هذا المكان منذ بدء تكونه، أو أنه حق له بشكل دائم، فالحياة ومحورها الرئيس المجتمعات البشرية، تجري باستمرار كالنهر المتدفق ولا تتوقف أبدًا وتأخذ معها إلى القاع كل ما لا يستطيع مجاراة هذا التدفق وفهمه واستيعابه.

فالحروب الصليبية التي دامت طويلا 1096 – 1291م، واستقرت ردحًا طويلًا من الزمن في سواحلنا السورية ثم انهزمت ورحلت لكنها تركت - ولا شك - بعضًا من آثارها الباقية حتى اليوم، ليس من ناحية الأثر التاريخي العمراني فحسب بل ومن ناحية التركيبة الديمغرافية والسكانية والملامح البشرية، وهذا أمر طبيعي.

وكذلك حروب الإمبراطورية العثمانية التي كنّا جزءًا منها (ولاية بيروت – سنجق أو لواء طرابلس) تركت أثرها العمراني والسكاني الباقي حتى اليوم على الرغم من تفكك الإمبراطورية العثمانية وانهيارها منذ منتصف العقد الأول من القرن العشرين، وهذا ما فعله -أيضًا- إبراهيم باشا في غزوته لسورية والساحل السوري 1831 – 1841م.

وكذلك هذا ما كان من نتائج الاستعمار الأوروبي الحديث لمنطقتنا وسواحلنا، فعلى الرغم من كل الجوانب السلبية لمرحلة الاستعمار الفرنسي والأوروبي عمومًا كانت هناك بعض الجوانب الأخرى لبدايات الغزو الأوروبي للساحل السوري ومصر أهمها:

أولا: الاطّلاع على الأفكار الجديدة في أوروبا، ولاسيّما لأفكار الثورة الفرنسية التي كان أول من نشر مبادئها نابليون بونابرت في بيانه إلى الشعب المصري فور نزوله مع قواته على الشواطئ المصرية كما تُجمع المصادر التاريخية، ومن ثم ظهور الإرهاصات أو المقدمات الأولى لأفكار

عصر النهضة العربي التي كان مركزها الرئيس مصر وكانت بلاد الشام وأطرافها المدينيّة والريفية أحد أهم مجالاتها الحيوية([4]).
ثانيا: بداية الخلخلة في مجتمع القرية القديم شديد الانغلاق ما فسح المجال لظهور مؤشرات بدايات النزوح إلى المهاجر البعيدة أولا، ومن ثم إلى المدينة والساحل ثانيًا.
فمعروف أن حركة الهجرة من الريف إلى المدينة في ساحلنا هنا بدأت مقدماتها الأولى في العقد الثاني من القرن العشرين مع بدايات الانتداب الفرنسي على سورية، ثم تكثّفت أكثر بعد الاستقلال مع الدولة الوطنية الحديثة، فأغلب المدن الساحلية كطرطوس وبانياس كانت بالأصل- كما يذكر بعض أصحاب الذاكرة القديمة من أهاليها - بساتين وسهولا زراعيّةً مملوكةً لملاكٍ كبارٍ بعدما كانت تابعة لقلاع وحصون مجاورة في السابق من الزمن، ثم توسعت بفضل النزوح الدائم لها لتتشكّل على صورة مدنية حديثة.

تقديم موجز حول طبوغرافيا الساحل السوري-:
صحيح أن أفكار هذا الكتاب سوف تتمحور - قدر الإمكان كما أسلفت - حول طرطوس المدينة والمحافظة بصفتها نموذجًا لتجمّع سكانيّ كبير على الساحل السوري بتشكله وتحولاته السكانية والاجتماعية - الاقتصادية والثقافية خلال نصف قرن، إلا إنه ربما قد يكون من المفيد بدايةً أن نلقي نظرة الطائر من علٍ على الشريط الساحلي الطويل الأم الذي تموضعت فيه طرطوس وتمفصلت ديمغرافيًا مع محيطها القريب أو البعيد بفعل الجغرافيا والتاريخ.
لذلك أقصد بتعبير الساحل السوري في هذا التقديم الموجز السهل الساحلي السوري الكبير الممتدّ على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرون شمالاً حتى شبه جزيرة سيناء جنوبًا، وينحصر بين البحر

---

[4] -: لعل من المهم هنا الإشارة للدراسة الجميلة والقيمة التي نشرها ابن طرطوس الكاتب والمترجم الدكتور (إياس حسن) في كتاب بعنوان "النهضة والأطراف – يوتوبيا المثقفين في الساحل السوري خلال عشرينيات القرن العشرين صادر عن دار الفرقد دمشق سورية طبعة ثانية عام 2011" حيث يشير فيها إلى الأشكال والمستويات والدلالات التي تجلى فيها تأثير عصر النهضة العربي في الأطراف؛ أي المدن والبلدات البعيدة عن العواصم أو المدن الكبيرة ومن ثم بين المدن وأريافها المحيطة.

والجبل بمساحات متفاوتة جدًا حسب اقتراب المرتفعات الجبلية من البحر وابتعادها عنه، بين الضيق كما في جبال لبنان والكرمل في فلسطين، والاتساع المتفاوت نسبيًا في باقي الامتداد الساحلي.
ويبدو أن اقتراب بعض المرتفعات الجبلية العالية من البحر بشكل مباشر في بعض الأماكن أعطى لسكان هذه المواقع عبر التاريخ القديم طبيعة جغرافية استثنائية وإمكانية استراتيجية كبيرة في مقاومة الغزوات العسكرية القادمة من البحر، بينما بقيت فتحات السهول الساحلية الأخرى فيه والأكثر اتساعا بمثابة ثغور يمكن الدخول منها بسهولة، وهذا التشكيل الجغرافي المتعرّج لهذا الامتداد الساحلي الطويل رسم بدوره الكيفيّة التي تشكل فيها أنثروبولوجيًا - ديمغرافيًا في مراحل تاريخية متعددة بحيث امتنع التشكل السكاني فيه على الانغلاق العرقي - الإثني أو الديني – الطائفي على الرغم من الطابع الثقافي العربي الذي احتواه منذ الفتح الاسلامي لبلاد الشام عمومًا.

الطبوغرافيا السورية:-
على هذا الأساس أرى أنه من المفيد أن ابدأ بمقطع من كتاب "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" للمؤرخ الدكتور (فيليب حتي)([5]).
فتحت عنوان "مسرح الحوادث" يقول:
"إن الصفة البارزة للطبوغرافيا السورية هي تناوب الأراضي المنخفضة والأراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضًا وتتجه من الشمال إلى الجنوب. ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق طولانية من هذا القبيل بين البحر البادية.".
يستعرض المؤرخ (فيليب حتي) بالتفصيل هذه المناطق وهي:
1-:السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقي من شبه جزيرة سيناء جنوبًا إلى خليج الإسكندرون شمالاً.
2-: خلف السهل الساحلي من جهة الشرق تأتي السلسلة الغربية وهي سلسلة الجبال والهضاب التي تبدأ من مرتفعات "الأمانوس" عند خليج الإسكندرون في الشمال "وتمتد حتى جبل سيناء المرتفع في الجنوب".

---

[5] -: فيليب حتي "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" ترجمة الدكتور جورج حداد - عبد الكريم رافق، دار الثقافة – بيروت 1982م

3-: خلف السلسلة الغربية شرقًا – أيضًا - يأتي حوض التصدع أو الزحول الذي يتوسّط هذه المناطق الطولانية، ويمتد من الشمال عند المنعطف الغربي للعاصي في سهل متسع يسمى العمق مرورًا بارتفاع عند حماة ثم يمتد جنوبا في سهل البقاع اللبناني حتى وادي الأردن وصولًا الى البحر الميت.

4-: السلسلة الشرقية التي تبدأ من "نقطة جنوبي حمص وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي على طول واحد وارتفاع واحد تقريبًا، ثم تنحدر من حرمون بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي الجولان، ومن هناك تستمر في شرق الاردن وتنتهي في جبل سعير جنوبي البحر الميت".

5-: بادية الشام وهي منطقة السهوب والأراضي القاحلة والرمال الموجودة خلف تدرجات هضاب شمال شرق حوران وشرقي الأردن، وهي التي تشكل بادية الشام كتتمة لصحراء بلاد العرب الكبرى، كما تفصل سوريا عن العراق.[6]

لكن ما يهمنا هنا بالتأكيد هو السهل الساحلي الذي يقول الدكتور (فيليب حتّي) عن تكونه الجيولوجي أنه يرجع بالأصل "الى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالدور الثالث، وقد ترسب فوق الطبقة الطبشورية في بعض الأماكن طميٌ أتت بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته."[7]

ويرى الرحّالان الباحثان محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك في كتابهما التاريخي الاجتماعي التوثيقي المهم "ولاية بيروت"[8] الصادر لأول مرة في بيروت عام 1333هـ – 1917م أن "الناحية المأهولة منذ القدم في سورية هي الأسياف البحرية الكائنة بين خليج إسكندرون، وأرض مصر البحرية التي ينتهي بها حد البحر المتوسط".

ثم يتابع الباحثان قولهما قائلين"

---

[6] -: الصفحات من 31 حتى 47

[7] -: المرجع السابق ص31.

[8] -: (محمد رفيق بك) و (محمد بهجت بك) ولاية بيروت – القسم الشمالي الوية طرابلس واللاذقية. دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة ثالثة 1987 .. نسخة الكترونية ص6 المدخل.

"لا يفوتنا أن البلاد السورية الممتدة من (المادداغ([9]-(amanus) إلى سيناء على طول يقرب من ألف كيلو متر، وعرض مائة وخمسين تنقسم إلى بضع مناطق من حيث العوارض الطبيعية والإقليم والتكامل التاريخي .... ولن هذه البلاد لم يأهلها السكان على نسبة واحدة في كل مناطقها، ولا في كل ناحية من تلك المناطق، حتى إن سكانها يفترقون منذ القدم باعتبار الأمزجة والمعتقد إلى أقسام متعددة.

وقد احتفظ سكان سورية بكيانهم في الأزمنة الغابرة لما كانت بلادهم مصونة من التحكم الأجنبي، إما في حكم ما أسموه من دول متفرقة وإما في حكم دول مجتمعة.

أما سكان السواحل الذين هم أقل نفرًا من سكان الداخل فقد أقعدهم العجز عن رد غارة الفاتحين الذين اكتسحوا بلادهم طمعًا في ثروتها الطبيعية، فخسروا استقلالهم، وخضعوا للسلطة الأجنبية، وكانوا أسرى قوانينها."([10]).

أردت من هذه الاقتباسات الطويلة نسبيًا الإشارة إلى الموقع الحيوي المضطرب والمفتوح دائمًا للساحل السوري عبر التاريخ تمهيدًا لفهم حركته الديموغرافية والتشكل السكاني الحديث فيه في العصر الحديث وتحديدًا خلال الفترة التي يشير إليها الكتاب.

لكن منذ منتصف القرن العشرين حدثت تحولات جيوسياسية كبيرة على طول هذا الساحل، وانقسم بتسميات عديدة كالساحل الفلسطيني والساحل اللبناني والساحل السوري، تبعًا للتقسيمات الإدارية والسياسية للدول التي تشكلت نتيجة اتفاقية "سايكس- بيكو" الشهيرة، على الرغم من أن التسمية العريضة والكبيرة له في الدراسات البحثية والاستراتيجية ما زالت تشير إليه بالساحل السوري أو ساحل بلاد الشام.

وعلى خط هذا السهل الساحلي الطويل تقع محافظة "طرطوس" كما نعرفها اليوم.

---

[9] -: بحثت عن أصل ومعنى كلمة "ماداغ" على النت فهمت أنها تعني بالتركية مرتفعات التزلج السياحي على الثلج، وبما أنها مرتبطة هنا بكلمة "amanus - أمانوس" فهذا يعني إشارة للمرتفعات الجبلية التي تقع شمال جنوبي خليج الإسكندرون.

[10] -: "ولاية بيروت" المدخل ص3.

الفصل الثاني
تمهيد تاريخي موجز عن التشكل المجتمعي – السياسي لبلاد الشام

السياق التاريخي

نعرف جميعًا أن بلاد الشام عمومًا، والساحل السوري منها، كانت خاضعة تاريخيًا منذ القرن السادس عشر وحتى مطالع القرن العشرين للإمبراطورية العثمانية التي كانت شكلاً سياسيًا من أشكال سلالة الأمر الإسلامية غير العربية الحاكمة لبلدان العالم العربي الإسلامي منذ انتصار الجيش العثماني بقيادة السلطان (سليم الأول) على جيش المماليك بقيادة السلطان (قانصوه الغوري) في موقعة "مرج دابق" عام 1516م قرب حلب، حيث تابع العثمانيون بعد ذلك زحفهم جنوبًا باتجاه عاصمة المماليك في مصر، فاكتمل انتصارهم النهائي على جيوش المماليك في معركة "الريدانية" قرب القاهرة عام 1517م مُنهين بذلك حكم المماليك بصفتها سلالة إسلامية حاكمة غير عربية أيضًا، كانت حاكمةً للعالم العربي الإسلامي منذ عام 1250م وحتى 1517م أي مدة قرنين ونصف من الزمن، لكن ضمن إطار حكم سياسي شكلي لخلفاء بني العباس في القاهرة([11]).

---

[11] -: كثرت مؤخرا في العديد من الحوارات الشخصية في بلادنا العربية أو على مواقع التواصل الاجتماعي، وحتى في بعض أدبيات المقالة أو البحث التاريخي عبارة أو مصطلح "الاحتلال أو الاستعمار العثماني لبلاد الشام!" وهنا أود التدقيق النقدي في هذا المصطلح الذي أراه غير دقيق بالإجمال لأن التاريخ البشري طيلة العصور التاريخية القديمة وحتى نهايات العصور الوسطى و بدايات انهيار مرحلة الامبراطوريات الكبيرة كلاحم كبير وأساسي للشعوب مع مطالع العصور الحديثة كان التاريخ البشري يمر في حالة سيولة وتشكل جيوسياسي لم يكتمل، بحيث تكون الغلبة فيه للأقوى، ولم تكن نشأت مفاهيم أو مصطلحات الدولة الوطن والأمة والمواطنة، لذا فالإمبراطورية العثمانية كانت تعبيرا عن لاحم مجتمعي لشعوب عديدة كانت تخضع لها كغيرها من الإمبراطوريات الكبيرة في زمانها.
أما مفاهيم ومصطلحات الاحتلال والاستعمار.. إلخ فنشأت حديثًا مع بداية تشكل الدولة الأمة في أوروبا، ومع تفكك إمبراطورياتها الكبيرة السابقة لصالح تشكل الدول والأمم الرأسمالية الحديثة فيها، فانتقلت عدوى ذلك إلى بقية الشعوب والأمم أثناء انفكاكها عن اللاحم الامبراطوري السابق ومنها الإمبراطورية العثمانية، وما نتج عن ذلك من تطلع اقتصادي سياسي عسكري خارجي للدول الأوروبية

إلا إن خارطة الإمبراطورية العثمانية توسّعت أكثر بعد ذلك وبلغت أوج اتساع لها في القرنين السادس عشر والسابع عشر بفعل تقدم جيوشها القوية آنذاك، فشملت مناطق عديدة في أواسط آسيا، وجنوبي أوروبا، وشمال افريقيا.
لذلك فالإمبراطورية العثمانية كانت قوية وواسعة ومتمكنة بحيث أنها وحّدت العالمين العربي والإسلامي من جديد بعد طول تمزق وشتات منذ سقوط بغداد على يد المغول عام 1258م بعد فترة ضعف وتشتت وحروب داخلية عديدة طويلة أصابت الدولة العباسية.
تلمّس شكل الحكم السياسي في الإمبراطورية العثمانية منذ قيامها وحتى أوائل القرن الثامن عشر تقريبًا على تحكّم مركزيّ شديد بفعل القوة العسكرية الكبيرة وبحكم عدم وجود منافس عالمي قوي لها آنذاك، لذلك تمكنت هذه الإمبراطورية من تثبيت حدودها الجغرافية الواسعة لمدة طويلة، وكان اللاحم المجتمعي – السياسي لشعوب هذه الإمبراطورية قاطبة هو اللاحم "العثماني" وليس الديني الإسلامي كما يقول البعض، على الرغم من أن دين الدولة الرسمي كان الإسلام فعلًا وهو مصدر التشريع([12])

الحديثة للاستحواذ على مناطق ثروة ونفوذ في مناطق عديدة من العالم بفعل القوة الدافعة للثورة الصناعية للنظام الرأسمالي الأوروبي الناشئ والحديث فحدثت الاحتلالات ونشأ الاستعمار.
لهذا أرى أن مصطلح الاحتلال أو الاستعمار العثماني لبلاد الشام ليس صحيحا علميا في البحث التاريخي، بينما الصحيح -كما أفترض هنا- هو الحديث عن المرحلة العثمانية في التاريخ العربي الإسلامي.

[12] -: يقول المؤرخ الإنكليزي (توينبي): "الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة في التاريخ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية، .... إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة، ... إن أيًا من الدول الأوروبية الاستعمارية التي أخذت مكان الدولة العثمانية، سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستمرة كما أدارتها الدولة العثمانية، فهذه الدول عندما استولت على تلك الأقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة، على الرغم من أن استيلاءها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى، ... إن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت خير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا، وإن الدولة العثمانية هي الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية."

وكان النظام الإداري لهذه الإمبراطورية الواسعة يقوم على قاعدة تقسيم كافة مناطق الإمبراطورية إلى مناطق إدارية سياسية سميت بالولايات تحكم من قبل رجال يعينهم الباب العالي في إستنبول، أما نظام العلاقة الاجتماعية - الاقتصادية الذي كان يحكم العلاقة بين الولايات وحكامها من جهة وبين المركز في إستنبول من جهة ثانية فكان يقوم على نظام "التيمار" أي الإقطاع الحربي الذي يعني أن كل منطقة ضمن الولاية يتحكم بها رجل، وهو غالبا عسكري كبير من الإنكشاريين أو غيرهم، أو من الخدم المقربين من الباب العالي، يستطيع تأمين الضريبة المستحقة عليه، على ألا تنقص عن 20000 أقجة، كما يستطيع تأمين القوة العسكرية اللازمة من ضمن منطقته وإرسالها تحت تصرف الباب العالي في أوقات الحروب الخارجية.
إلا إن هذا النظام تحول منذ بدايات القرن السابع عشر، ربما تحت تأثير ضرورات إعادة هيكلة إدارية اقتصادية للسلطنة، إلى نظام الالتزام، الذي يعني تسليم كل منطقة ضمن كل ولاية إلى شخصية محلية من أسرة كبيرة قوية وغنية يلتزم المقاطعة لمدة عام أو أكثر بموجب عقد رسمي يسمى "عقد التزام" يسجل في إحدى المحاكم الشرعية المنتشرة في الولايات كافة مقابل بدل نقدي معين يدفعه للوالي ومن ثم للباب العالي، ويحق له بموجب هذا العقد تنظيم شؤون المقاطعة والتحكم فيها بموجب القوانين العثمانية، وتقدير الضرائب وجبايتها من الفلاحين والفعاليات الأخرى، وتنظيم قوة عسكرية محدودة صيانةً لأمنه وأمن المنطقة وأمن أبنائها، ووضعها تحت تصرف الباب العالي في حال الحروب الخارجية للسلطنة.
وهكذا فنظام الالتزام أسّس لنظام مجتمعيّ محليّ جديد بعيدًا عن التدخل المباشر لمركز السلطنة الرئيس في إستنبول إلّا في الحالات الطارئة والضرورية، فكلّ المناطق صارت تُحكم من قبل ملتزمين محليّين، هم بالأصل زعامات محليّة عشائريّة وأهليّة قديمة، تكونت منهم طبقة سُميّت بـ "الأعيان المحليّون" الذين لهم الوظيفة نفسها لبقية منظومة الأعيان الآخرين الذين يعينهم الباب العالي من خارج المنطقة، كالوالي وحاكم السنجق والقضاة ورجال الإفتاء وشيوخ الطرق الصوفية ... إلخ، ويتلخّص دورهم في ضبط العلاقة بين أبناء المنطقة في المجتمع المحلي الذي هم جزء من

المصدر: كتاب "موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية السياسي والعسكري والحضاري" تأليف: (يلماز أوزتونا)، ترجمة: (عدنان محمود سلمان)، مراجعة وتنقيح" (د. محمود الأنصاري)، الدار العربية للموسوعات 2010 ص9.

نسيجه الاجتماعي وبين الوالي ممثل السلطة المركزية كوسطاء بين الطرفين من خلال التزامهم مقاطعاتهم والتحكم بها بالمعنى الإداري لكلمة تحكم، مقابل إدارة جباية الضرائب فيها ودفع ما يترتب على الملتزم للسلطة المركزية بموجب عقد الالتزام الموقع بينه وبين ممثلي السلطة بإشراف القاضي الشرعي والمحفوظ في المحكمة الشرعية، الأمر الذي أسّس وكرّس لزعامات محلية إقطاعية من داخل كل بيئة أو منطقة وليس من خارجها وقد ترافق ذلك – أيضًا - مع بدايات تحجيم دور الإنكشارية في الجيش الذين تمّ إقصاؤهم منذ أوائل القرن السابع عشر، أي فترة إعادة تنظيم الجيش العثماني وتحديثه بعيدًا عن القوام الإنكشاري القديم له ولا سيّما بعد الهزائم التي أصابت الجيش العثماني في ذلك الوقت في حروبها مع الجيش القيصري الروسي نتيجة الضعف الذي أصاب الفيالق الإنكشارية فيه.

لذلك بدأت تظهر منذ تلك الفترة وطيلتها وخصوصًا منذ بدايات القرن الثامن عشر زعامات محلية بوظيفة "أعيان محليّون" لدى كل الملل المحلية من دون تمييز بين ملّة وأخرى، دينيّةً طائفيّةً كانت أم قبليةً، بمسميات جديدة وبتزكية من الباب العالي في إستنبول، وما تزال أجيالها اللاحقة تتكنى بتلك التسميات حتى اليوم ككنية (خير بيك) الموجودة بكثرة في ريف اللاذقية وجبلة وحماة، كذلك ألقاب مثل "الشيخ"، ليس بمعنى المنزلة الدينية وإنما بمعنى الوجاهة الاجتماعية والمركز المتنفذ، و "المقدم" و "المير"([13]) ...إلخ.

لكن منذ بدايات ظهور منافس قوي جديد كانت له أطماعه الجديدة في بلاد الأناضول "روسيا القيصرية" يُضافُ إلى ذلك بروز قوة دولية أخرى في أوروبا كالنمسا والدولة الفارسية في الشرق التي كانت تعادي التوسع الإمبراطوري العثماني، الأمر الذي ترافق مع انتهاء زمن السلاطين الأقوياء لصالح سلاطين اللهو والفساد الذين ابتعدوا عن مسائل الدولة

---

[13]- " توجد دراسة تحليلية مهمّة وموثقة بهذا الموضوع بعنوان " التحول من النظام التيماري إلى نظام الالتزام في لواء طرابلس العثماني _ تشكل شريحة الأعيان المحليين العثمانيين في جبل العلويين في القرنين السابع عشر والثامن عشر" للكاتب والباحث السوري (محمد جمال باروت) نشرت في مجلة "أسطور" التي تصدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" العدد /5/ كانون الثاني يناير 2017. والدراسة موجودة بنسخة إلكترونية على النت.

الكبرى وتركها بيد الوزراء ورجال الحاشية الكبار المقربين من المركز، الأمر- أيضًا - الذي أدى تدريجيًا إلى الفساد الإداري والضعف العام في أجهزة السلطنة والدولة.

ثم منذ بداية القرن الثامن عشر ظهر التحدي الأكبر للإمبراطورية العثمانية وجهاز دولتها الإداري، التحدي الذي تمثل بظهور الرأسمالية الأوروبيّة التوسعيّة الجديدة وما تحمله من حداثة وقيم وأفكار جديدة وسلاح أكثر تفوقًا بما لا يقاس، وبظهور حركات تمرد على خلفية انتماءات قومية لبعض شعوب الإمبراطورية ولاسيّما في جنوب أوروبا، وقد بدأت تظهر نخب سياسية عسكرية وثقافية في إطار الإمبراطورية العثمانية تطالب بالحداثة والتحديث لمواجهة مخاطر التحديات الجديدة، ولتفادي أثرها على سلامة الإمبراطورية العثمانية على نحو لا يهدّد وجودها، فبدأت تظهر أفكار الإصلاح والتحديث في المؤسسات العسكرية، ثم في إطار الشكل الإداري السياسي للحكم الذي كان قائمًا منذ البداية، فظهرت لأول مرة في تاريخ الإمبراطوريات في العالم منذ العصور الوسطى ما يسمى ب " التنظيمات" التي كانت محاولة لإعادة بناء الدولة بولاياتها وعلاقة الولاة بمناطقهم على أسس دستورية قانونية جديدة تأخذ من أفكار التنظيم السياسي المدني وأشكاله، تلك الأفكار التي كانت تظهر وتتبلور في أوروبا أنذاك، وكان تسلسل ذلك حسب الباحث الدكتور (وجيه كوثراني) يبدأ من عام 1839م "تاريخ إصدار أول خطوط التنظيمات المعروفة بخط "كل خانة"، وكان من أهم بنوده وتوجهاته إلغاء نظام الالتزام، بعدها انطلقت سلسلة من التدابير والإعلانات والإصدارات التنظيمية والقانونية، وأهمها الخط الهمايوني عام 1856 الذي ركز على المساواة بين الجماعات والطبقات، ثم قانون الولايات عام 1864 الذي نص على وجود مجالس إدارية منتخبة من مستوى القضاء إلى مستوى الولاية. واستتبع ذلك سلسلة من القوانين التي تنظم أحوال "التبعية العثمانية" والمقصود الجنسية 1869 وتنظيم القضاء وتوزعه بين محاكم شرعية ومليّة ومحاكم نظامية، كما صدرت قوانين تنظم أحوال التجارة والمعاملات، وتسجيل الأرض ومسحها، والبلديات وصلاحياتها.

وفي هذا السياق نفسه، أعلن دستور 1876 الذي أطلق تعبير "القانون الأساسي" للسلطنة، بينما أطلق تعبير "الدستور" على مجمل التنظيمات العثمانية، بما فيها القانون الأساسي."([14])

خلاصة:-

أردت القول من خلال هذه الإضاءة التاريخية الموجزة أن بلاد الشام عمومًا ومنها مناطق وبلدات الساحل السوري، كما في طرطوس ومناطقها، بدأت بالتشكل الحديث مجتمعيًا واقتصاديًا وإداريًا منذ مطالع القرن العشرين داخل رحم السلطنة العثمانية، وبتأثر كبير بكل التحوّلات والمخاضات التي كانت تعيشها الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر وحتى انهيارها النهائي في بدايات القرن العشرين مع نهاية الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918م. ومن ثم لا يمكن فهم كل التحولات اللاحقة على مختلف المستويات في مجتمعاتنا من دون فهم مقدماتها التاريخية الأولى، أو بتعبير أدق من دون فهم السياقات التاريخية التي أنتجتها وولدت في إطارها.

وعندما جاءت مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا في عشرينيّات القرن العشرين لم تعمل سلطات الانتداب على القطع التام مع موروثات المرحلة العثمانية بل يمكن القول إنها تعاملت مع أهم الرموز المجتمعية الفاعلة التي تكرّست منذ المرحلة العثمانية بكل أجيالها التالية، مع أنها عملت على تطوير بعض البنى التحتية للمجتمع السوري وأدخلت الكثير من التحديثات الإدارية والقوانين للبلديات ومؤسسات الدولة واهتمت أكثر في قطاع التعليم وشق الطرقات، ربما خدمة لتحركات الجيش الفرنسي، أي إنها عملت على تحديث التشريعات والقوانين بما يتلاءم مع إدارة سلطات الانتداب، مع ذلك لا بد من القول أن كل هذه الاجراءات كانت نقلة نوعية مهمّة في مجال التحديث المجتمعي.

فكما أن تحديث عهد التنظيمات العثمانية كان فوقيا ونخبويا، إداريا وتشريعيا وسياسيا على مستوى المراكز العليا في السلطنة، فرضته التحديات الداخلية والخارجية للسلطنة العثمانية كما ألمحت سابقا، ولم يمس

---

[14] -: د. (وجيه كوثراني) "التنظيمات العثمانية والدستور: بواكير الفكر الدستوري نصا وتطبيقا ومفهوما" دراسة منشورة في العدد الثالث من دورية "تبين" آذار عام 2013، التي يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، نسخة الكترونية ص5.

علاقات الحياة الريفية الفلاحية والبدوية اليومية الواسعة في القاع المجتمعي داخل السلطنة العثمانية، بحيث بقيت تحت هيمنة زعامات الإقطاع السياسي – الديني القروسطي القديم والعادات والتقاليد المتخلفة، كذلك كانت تحديثات مرحلة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان فوقية ولخبوية بحيث إنها تركت القاع المجتمعي العريض والواسع، سواء في المدينة أم في الريف، على نسبة كبيرة من التهميش كما هو منذ عهد السلطنة العثمانية. وربما هذا يفسر إلى حدّ كبير الميل الراديكالي الثقافي والسياسي، القومي – اليساري كما ظهر لدى نخب ثقافية سياسية جديدة في عهود الدولة الوطنية بعد الاستقلال وتأثير ذلك على المزاج الشعبي العام، خصوصًا في الأرياف التي كانت تظهر فيها تلوينات طيف ثقافة مجتمعية واسعة تتأرجح بين التقاليد والأعراف القروسطية القديمة وبين الأفكار القومية والثورية اليسارية الاجتماعية الجديدة، لكن من دون حامل مجتمعي قوي حاسم لأي طرف، حيث لعبت المؤسسة العسكرية لاحقًا، التي استمالت وجذبت بأعداد كبيرة أبناء الطبقات الفقيرة وخصوصًا الريفية منها، دور الحسم هذا الذي أوصل أغلب مجتمعاتنا العربية اليوم إلى متاهات عصيّة وقاسية، وهذا له مجال آخر في البحث والتحليل ليس هو موضوع كتابنا هذا.

مع ذلك يمكن بسهولة ملاحظة أن هذا التجاذب الصراعي بين العلاقات والتقاليد القديمة المتخلفة والانتماءات القبلية الدينية والطائفية والعشائرية من جهة، وبين أفكار الحداثة والتقدم ومجتمع المواطنة، في إطار الوعي العام وثقافته الشعبية، ما زال قائمًا ويسجل نقاطًا أعلى بكثير لصالح الطيف الأول قياسًا على تطلعات وآمال أصحاب الطيف الثاني، وهذا ما يشير إلى أن موروثات العهد العثماني، بل وما قبله، ما زالت موجودة بقوة في القاع المجتمعي العريض لأن كل ممكنات الحداثة والتحديث ربما بقيت ضعيفة أوتمت إعاقتها بقوة ممنهجة داخليًا وخارجيًا، وعلى الأغلب بسبب الاثنين معا.

لكن ما يهمني في هذا الكتاب كما يشير إليه عنوانه، هو مقدمات التشكل المدني الحديث من خلال ديناميكية الاندماج الاجتماعي المتجددة باستمرار خلال النصف الأول من القرن العشرين، وذلك بدراسة نموذج الساحل السوري عمومًا.

الباب الثاني
طرطوس ومناطقها



الفصل الأول
طرطوس المدينة

تقع طرطوس الحالية، المدينة والمحافظة، على بقعة من السهل الساحلي السوري حاليًا، بتماس مباشر مع شاطئ البحر المتوسط "عند التقاء خط الطول 35 درجة-52 دقيقة-30 ثانية، وخط العرض 33 درجة-30 دقيقة-30 ثانية، وبذلك تتمتع بمناخ معتدل (مناخ البحر الأبيض المتوسط) على السواحل، ومناخ معتدل ومائل للبرودة على المرتفعات الجبلية صيفًا، وبارد ماطر في الشتاء على السواحل مع تساقط الثلوج على المرتفعات الجبلية" كما جاء في (الويكيبديا – الموسوعة الحرة) على النت.
وهي تشكل مع محافظة اللاذقية الخط الساحلي الوحيد للساحل السوري الحالي، على طول35 ميلًا بحريًا (65 كلم) تقريبًا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط وذلك بعد التقسيمات الجيوسياسية التي أجرتها فرنسا وإنكلترا لمنطقة بلاد الشام فيما عُرف في الأدبيات السياسية الحديثة باتفاقية "سايكس- بيكو" عام 1916، وجرى تنفيذها فور نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918م بحيث تمّ الفصل والاقتطاع الجغرافي للساحلين اللبناني والفلسطيني بمسميات جديدة، لبناني – فلسطيني كحدود جغرافيّة سياسيّة مستقلّة عن الساحل السوري التاريخي الكبير كما أشرت سابقًا.
ويقابلها غربًا على مسافة 5 كم في البحر جزيرة "أرواد" المأهولة بالسكان منذ التاريخ البعيد، الجزيرة التي كانت مملكةً بحريّةً تضم فيما تضم إليها منطقة برية واسعة مقابلة لها، منها ما هو بساتين ومزارع كسهل طرطوس الحالي، ومنها ما هو منشآت عمرانية مدنية كـ"عمريت" التي منها تبدأ وتمتد شرقًا طرقات جبلية لمرور القوافل التجارية والعساكر باتجاه الداخل.

خلفية تاريخية:-

ربما يكون معروفًا للجميع أن طرطوس عبر التاريخ تشكّلت وظهرت كثغرة ومرتكز ساحلي تابع لمملكة أرواد باتجاه البر منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد أيام الفينيقيّين، كما تذكر العديد من المراجع التاريخية، لكن بحدود ما أعلم من المراجع المتاحة التي اطلعت عليها لم أستطع الحصول على معلومة تاريخية متّفق عليها حول متى نشأت ككيان حضريّ مستقل، وربما بحكم موقعها الجغرافي السهلي المفتوح نسبيًا ولاسيّما من

جهة الجنوب باتجاه سهول عكار ووادي النهر الكبير الجنوبي كأكبر ثغرة مفتوحة من البحر إلى الداخل، عن طريق محور (تلكلخ، قلعة الحصن، حمص) حاليًا فقد كانت السيطرة عليها من قبل الغزاة تحصيلَ حاصل وأمرًا سهلًا جدًّا؛ حيث إن تضاريس موقعها الجغرافي هذا لا يسمح بوجود موانع دفاعية طبيعية قوية تحميها إلا بعد دخولها وبناء تحصينات قوية داخلها وحولها ولا سيّما من جهة البحر، فكان موقع طرطوس يقوى ويضعف ربما بتأثير عاملين رئيسين:

أولهما:- من خلال السيطرة على جزيرة أرواد كما في التاريخ القديم، وربما من هنا جاءت تسميتها أيام الفينيقيين، "أنترادوس"، مقابل أرواد، ويُفهم من ذلك أنها تابعة لمملكة أرواد ولمن يسيطر عليها.

فقد ذكر الباحث في الآثار الأستاذ (محمد رنيف هيكل) في كتابه الموسوم "طرطوس ملتقى الحضارات"([15]) أنه " في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى ق.م تلاشت مملكة عمورو وبرزت قوة الفينيقيين البحرية والقوى الآرامية في سورية، وبسبب القضاء على مملكة أوغاريت وتنامي قوة أرواد وامتداد نفوذها في السيطرة على السهول الساحلية والمناطق الجبلية المجاورة، وحاجتها للخشب اللازم لبناء سفنها وازدياد قوتها، اصبحت أرواد (أرادوس) مركزًا للزعامة السياسية الفينيقية الشمالية، بملك أو من دون ملك في الفترة الهيلينية، وسيدةُ اتحاد كبير من المدن يشمل مناطق واسعة تقع بين البحر ونهر أورنت (العاصي)، بما فيها جبل الحلو ومدينة ماريامين، باستثناء هضبة تلكلخ والبقيعة ووعر حمص، وقد لاقى هذا الاتحاد تقدير الإغريق واحترامهم، فلم يكن ملزمًا بتقديم جزية الأراضي لإنشاء المستعمرات الهيلينية في سورية".([16])

ثانيهما:- من خلال السيطرة على قلاع مناطق أخرى وحصونٍ قريبةٍ منها كمنطقة خراب مرقية والمرقب المنيعة([17]) كما في العصور الوسطى

---

[15] -: محمد رنيف هيكل، "طرطوس ملتقى الحضارات" سلسلة دراسات تاريخية اثرية (9) الصادر عن دار إيـاس للطباعة والنشر – طرطوس – سورية عام 2018م.

[16] -: المرجع السابق ص 34.

[17] -: توجد دراسة مقتضبة مهمّة وماتعة تقع في 44 صفحة مدعمة بالصور والخرائط حول هذه المرحلة بعنوان "عكّاز الساحل – خراب مرقية" تأليف الأب: (الياس يعقوب) صدرت الطبعة الأولى منها عام 1999 عن دار التوحيدي للنشر سورية حمص.

ولاسيّما أثناء حقبة الحروب الصليبية على الساحل السوري، لذلك كان أيّ مرور عسكري خارجي عليها خلال تلك الحقبتين التاريخيتين الطويلتين يترك آثاره عليها كما تشهد على ذلك آثارهم الباقية حتى اليوم.

لكن ربما كانت حقبة الحروب الصليبية ودخول الفرنجة الذين سيطروا عليها بالكامل عام 1102م وبقاء حامية كبيرة لهم فيها حادثًا مفصليًا مؤشرًا لبداية التأسيس لطرطوس بصفتها حاضرةً مستقلةً نسبيًا للأسباب التالية:

1-: بحكم حاجتهم الكبيرة لها كقاعدة عسكرية ومرفأ تجاري - حربي على شرقي المتوسط من خلال الاهتمام ببناء تحصيناتهم الدفاعية القوية داخلها.

2-: من خلال الاهتمام بتوسيع بناء كنيسة السيدة العذراء القديمة فيها التي تُجمع بعض المصادر أن بناءها يعود إلى ثلاثمائة عام بعد ميلاد السيد المسيح، على أنقاض معبد فينيقي قديم، ومن ثم توسيع بنائها بتحويلها إلى كاتدرائية كبيرة وجميلة في القرن الثالث عشر عام 1220م إذ قد صُممت معماريًا على شكل القلاع الأوروبية الحصينة، وصارت شاهدًا حتى اليوم على النمط العمراني للفترة الصليبية في الساحل السوري.

3-: وبذلك صارت طرطوس معبرًا رئيسًا للحجّاج المسيحيّين الوافدين من أوروبا إلى بيت المقدس في فلسطين، بقصد التبرك ب"أيقونة العذراء" التي رسمها القديس لوقا خصيصًا للكنيسة القديمة قبل الحروب الصليبية بزمن طويل كما تُجمع أغلب المصادر التاريخية أثناء مروره فيها في طريقه من بيت المقدس إلى أنطاكية، ومع ذلك فقد سرقها الفرنج مع جملة مسروقات أخرى من الكاتدرائية عند هزيمتهم النهائية عام 1276م وأخذوها معهم، وتُعدّ رمزًا للطابع المعماري لمرحلة الحروب الصليبية التي شهدتها المنطقة.

ثم يأتي في مرحلة تاريخية لاحقة بعد هزيمة الفرنجة النهائية أيام المماليك من الساحل السوري، حين بدأت إرهاصات تشكل طرطوس بصفتها حاضرة مستقلة عن الجوار تكتمل، ولا سيّما في العهدين المملوكي والعثماني، ثم في مرحلة تالية طيلة فترة الانتداب الفرنسي، كما يشهد على ذلك أيضا الطابع العمراني المتنوع للأبنية والآثار المتبقية التي يدل طرازها المعماري على مرحلة من تلك المراحل، ثم إن طبيعتها السهلية بمحيطها الواسع نسبيًا والممتد شرقًا وجنوبًا ساعدها خلال فترة الانتداب الفرنسي على سوريا لتكون منطقة أملاك بساتين ومزارع مملوكة.

لذلك افترض هنا أنه خلال تلك المراحل الثلاث بدأ يتشكل رويدًا رويدًا ارتباط وجودها الاقتصادي ومن ثم الاجتماعي بالجوار البري الساحلي

القريب أو البري البعيد وبشكل خاص ريف المناطق الجبلية المحاذية لها من جهة الشرق ليتوسع بعد ذلك شمالاً وجنوبًا باتجاه الداخل السوري.

طرطوس المدينة منذ أوائل القرن العشرين:-

بداية أرى أنه من المفيد الإشارة إلى الفارق في السياق التاريخي لتشكل كلٍّ من مدينتي طرطوس واللاذقية التي نمت بصفتها حاضرةً مدنيّةً ومركزًا اقتصاديًا في وقتٍ مبكرٍ جدًا إذا ما قسنا نموها بنمو طرطوس، وذلك بسبب هجرة أبناء الريف الجبلي لطرطوس المبكرة إلى بلاد المهجر، ربما منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، هربًا من الفقر والظلم وسفربرلك، وطلبًا للرزق فيما وراء البحار البعيدة بسبب شحّ موارد البيئة الجبلية الوعرة فيها حيث لم يكن لطرطوس -أيضًا- مرفأ تجاري مهم يقوم مقام قاعدة تجارية اقتصادية تعمل على جذب أبناء الريف الجبلي المحاذي شرقًا للنزوح إليها من أجل العمل وكسب الرزق، كذلك لم يكن لها أيّ مركز إداري يذكر في العهد العثماني، على العكس من مدينة اللاذقية التي كان مرفؤها يعاد الاهتمام به منذ أواخر القرن الثامن عشر مع تحول اللاذقية إلى مركز ولاية بدلًا من جبلة الأمر الذي أدى إلى تطور عمراني – تجاري مبكر في اللاذقية ومحيطها عمل على تعزيز العمل الزراعي وزيادة إنتاجه في الريف الجبلي المجاور من أجل التصدير إلى الخارج خصوصا في زراعة التبغ وتصديره بكميات كبيرة إلى مصر وغيرها، وبهذا الصدد يكتب ابن اللاذقية وعضو المحكمة الابتدائية فيها آنذاك (الياس صالح لاذقاني 1839 – 1885م) القريب العهد بتلك الفترة في كتاب مذكراته اليومية التوثيقي المهم "آثار الحقب في لاذقية العرب"([18]) قائلًا تحت عنوان "في تجارة اللاذقية" ([19]):

---

[18] -: الياس صالح لاذقاني "آثار الحقب في لاذقية العرب" كتاب مخطوط .. المكتبة العثمانية .. تحقيق وتقديم: (د. الياس جريج) صادر عن دار الفارابي بيروت لبنان الطبعة الأولى كانون الثاني 2013م ص178.

يشير إلى ذلك-أيضًا- بتحليل مركز الباحث (محمد جمال باروت) في دراسته المشار إليها سابقا "التحول من النظام التيماري إلى نظام الالتزام .." تحت عنوان "العلاقات الخلفية والأمامية بين بلدة – مرفأ اللاذقية والجبل: كرخانة التبغ" ص67.

[19] -: -: المصدر السابق ص 178.

"إن الأصناف التجارية التي تُصدّر من اللاذقية هي التبغ والحنطة والشعير والقطن والسمسم والذرة البيضاء والإسلاج والصوف والأخشاب والشمع والصابون وجلد البقر والغنم وعظام الحيوانات، وأهمها التبغ وهو جنسان جبلي وجدار، فالجبلي هو ما يعالج بالتدخين فيكتسب اسودادًا مع لمعان ورائحة عطرة يستفيدها من دخان الحطب الذي يوقد تحته ...". ثم يذكر في مكان آخر من الكتاب كيفية الاهتداء بالصدفة، بفعل العصيان المتكرر لأهالي قرى الجبل والحروب المحلية وحملات التأديب المتعددة، إلى طريقة التدخين هذه، بسبب التخزين الطويل في المنازل أثناء الحملات التأديبية على قرى الجبل وتعرضها لدخان نار التدفئة في المنازل، حيث لاقت استحسانًا وطلبًا كبيرًا عليها في بعض البلدان المستوردة لها خصوصًا مصر.
ربما لهذه الأسباب لم يشهد الريف الجبلي في اللاذقية موجاتٍ هجرة واسعة نحو بلاد المهجر وراء البحار البعيدة مما أدى إلى مزيد من النمو العمراني السكاني والتطور الحضري في اللاذقية في وقت مبكر جدًا مقارنةً بنمو طرطوس.

محاولة في فهم تكوّن طرطوس الحديثة منذ بداية القرن العشرين
كي نفهم جيّدًا كيف ومدى بدأت تظهر طرطوس كبلدة صغير، أو "قصبة"، بمعنى قرية كبيرة فيها بعض المواصفات الأولى لتكون البلدة سيكون من أهم المراجع المتوفرة حول ذلك هو كتاب "ولاية بيروت" القسم الشمالي، المشار إليه سابقًا، الذي نشر لأول مرة عام 1917، للرحّالين الباحثين(محمد رفيق بك التميمي) مدير المدرسة التجارية، و(محمد بهجت بك) مدير المدرسة السلطانية، اللّذين قاما بجولة استطلاعيه ميدانية بتكليف من والي بيروت آنذاك (عزمي بك أفندي) الذي كلّفهما عام 1914 بالبحث الميداني الاستطلاعي للقسم الشمالي من ولاية بيروت حسب التقسيمات الإدارية العثمانية آنذاك على الخط التالي: طرابلس الشام – حلبا – تلكلخ – برمانة – طرطوس – بانياس – جبلة – صهيون – اللاذقية. ، بعد أن كانا قد أجريا بحثًا استطلاعيًا ميدانيًا في القسم الجنوبي من الولاية من بيروت حتى بيسان في فلسطين جنوبًا.
لذلك فكتاب "ولاية بيروت" يُعدّ -على ما أزعم - أول بحثٍ استطلاعيّ ميدانيّ شامل لمدن شريط الساحل السوري وبلداته في القرن العشرين؛ إذ يقدم إحاطةً جغرافيّةً بشريّةً اجتماعيّةً ثقافيّةً – تعليميّةً تاريخيّةً واسعةً حسب

ذلك التاريخ لكل المناطق التي مر فيها الرحلان، فصار مرجعًا كلاسيكيًا حول المنطقة المدروسة يعتمد عليه الباحث والدارس للمنطقة حتى اليوم، وهنا تكمن ريادته وأهميته خصوصنا أن صاحبيه، وكما يفهم من قراءة الكتاب ومقدمته، قد أنجزا عملية الاستطلاع الميداني خلال مدة زمنية قصيرة لا تتجاوز الشهرين في وقت كانت وسيلة التنقل الأساسية فيه هي الأحصنة في مناطق جبلية وأودية وعرة.

وعلى ما يبدو فإن السلطات العثمانية آنذاك، بعد الانقلاب الاتحادي على السلطان (عبد الحميد) عام 1908 كانت بصدد تتريك ولاياتها العربية وتنظيمها على أسس حديثة، وتريد من أجل ذلك بداية الاعتماد على هذا المسح الواسع الذي يتناول البيئات الطبيعية والجغرافية وعدد السكان في كل بلدة أو ناحية، وتوزعهم حسب الطبقات الاجتماعية كما حسب الأديان والطوائف والمذاهب والحياة الاقتصادية والعادات والتقاليد الاجتماعية وتقدير مجموع دخل كل طبقة وثروتها.... إلخ.

من هذا المنطلق أرى من المفيد نقل الاقتباسات التالية من كتاب ولاية بيروت" عن طرطوس، وكانت تسمى يومذاك عشية الحرب العالمية الأولى عام 1914 "قصبة طرطوس"، كي تساعدنا أكثر على فهم بدايات تكوّن طرطوس البلدة ... ثم المدينة.

دخل الرحلان طرطوس على جيادهما من جهة الشرق قادمين من "برمانة" أي "الدريكيش" كما نسميها اليوم:

"قصبة" طرطوس[20]

"ثم بعد برهة تراءت لنا جزيرة أرواد، كأنها صدفة ترصعت بها زرقة البحر وبشرتنا بقربنا من طرطوس ... فأخذنا نقترب من طرطوس التي كان منظرها متناه في اللطف ببيوتها البيضاء الناصعة، وها نحن ندخل القصبة من بين ألواح الصبار المحيطة بها.

إن قصبة طرطوس مركز ناحية طرطوس التابعة إلى لواء طرابلس الشام مبنية على الساحل الشرقي من البحر، ويوجد شمالها سهل واسع ثم "نهر الحصين" ومن ورائه الحقول الفسيحة ومشجرات الزيتون، أما جنوبها فهو عبارة عن السهول ومن وراءها مصب نهر "الغمقة".

---

[20] -: ولاية بيروت – مرجع مذكور سابقًا، الاقتباسات مأخوذة من الصفحة من 367 حتى 371.

إذا نظرنا إلى طول هذه القصبة من الشمال إلى الجنوب وهو يربو عن ألف متر، ثم إلى عرضها من الغرب والشرق الذي لا يتجاوز ثلاثمائة مترا، وعلمنا أنها محاطة بالبساتين، يحصل لدينا فكر إجمال بهيئة هذه القصبة التي كانت على شكل المستطيل."
ثم يتابعان توصيفهما لطرطوس من داخلها قائلين:
"إن هذه القصبة المسورة بسورين متداعيين، السور الشرقي والغربي، تتألف من أربعمائة أو خمسمائة بيتا، وتنقسم إلى أربع محلات. وتسمى الناحية الوسطى منها باسم "الساحة" و "الخندق". والناحية الجنوبية باسم "الخراب" أو "النصارى" ويسمى القسم الشمالي باسم "البرانية". وأحدث هذه المحلات وأصغرها هي محلة "البرانية".
والأبنية الجديدة في طرطوس تشبه أبنية الشام في محلة المهاجرين. وأكثر هذه البيوت عبارة عن طابقين تحتوي غرفتين أو ثلاث، وكلها مبنية بالحجارة. أما البيوت القديمة فإنها تشبه البيوت القديمة في بيروت وصيدا وكلها مستورة بالسطوح المطلية. ويسمون هذه السطوح "عدسة"، ولا أثر يستحق الذكر في هذه القصبة غير جامعيها ومسجدين، وعمارة مهمة من آثار الصليبيين، وكنيسة أو كنيستين للروم الأرثوذكس، وبناء على وجودها في موقع تجاري وجد فيها أكثر من ثلاثمائة حانوتا. ويوجد في داخل القصبة طريقان، الواحد يمتد من الشمال إلى الجنوب، والثاني يبدأ من شرق السور الغربي، ويتصل بالآخر في الناحية الجنوبية.
ثم يوجد خارج القصبة طريق يمتد إلى طرابلس، وآخر إلى اللاذقية، وفي الجنوب الشرقي منها طريق الخريبات، وفي الشمال الشرقي طريق صافيتا أيضا.
أما ماء القصبة، فإنها في ضيق عظيم بسببه. لأن جميع الآبار التي فيها، يكون ماؤها مالحًا بسبب قربها من البحر. هذا وإن وجد فيها بضعة صهاريج فإنها محدودة. ويوجد فيها من الآبار العامة، بئر الخراب، وبئر الساحة، ثم بضعة آبار بين البساتين يمتاح منها الماء بمحركات بخارية.".
ثم ينتقلان لوصف الحالة الاجتماعية في طرطوس فيسجلان:
"توجد في هذه القصبة التي يناهز عدد سكانها "5000" نسمة طائفتان كبيرتان يفترقان عن بعضهما في الدين، وهما الطائفة الإسلامية والطائفة المسيحية. وعدد الإسلام هنا يناهز ثلاثة أرباع المجموع وكلهم من السنيين.
ونستطيع أن نقسم الطائفة الإسلامية إلى ثلاث طبقات من حيث الثروة وتوجد في الطبقة الأولى أربع عائلات. بعضها من صيدا وبعضها من

بيروت ومرقب. وعدد أفرادهما يناهز مائتي نسمة. ويروى أن أغناهم يملك ثروة تناهز 100 ألف ليرة. وأن ربع الناحية ملك لهم. ومجموع أراضيهم يبلغ 10 آلاف دونم. وهم يشتغلون بالزراعة والتجارة معا. ودخلهم السنوي يقرب من 4000 ليرة. وليس لهذه العائلة الوجيهة سيطرة على المزارعين، ولا تتغلب عليهم. لأن تمسكهم المفرط بالاقتصاد وحنكة الزراع الساحليين ودربتهم لم تترك لم تدع امكانا للتغلب والسيطرة. أما العائلات الثلاث الأخرى، ليسوا في الغنى على درجة الأولى ولكن دخل أقلهم غنا لا ينقص عن ألف ليرة في السنة. وهؤلاء أيضا يشتغلون تارة بالزراعة وأخرى بالتجارة.

أما الطبقة الثانية فهي الطبقة الوسطى. وهم متوسطون في الاقتدار. ولا يزيد عددهم عن بضعة أفراد. وليس لهم ذلك النسب الذي رافق القرون كأرباب الطبقة الأولى. ولم يحصلوا على ثروتهم هذه الا بتعاطي التجارة، وأرباء النقود. ولهم من الدخل السنوي على الدرجة المتوسطة ما يتراوح بين 400 و700 ليرة. أما الطبقة الثالثة فأربابها العامة والزراع وهم مفطورون على الحلم والسكينة، ويبالغون في الكد والكدح. ويشتغلون إما بالبيع والشراء البسيط أو يكونون مزارعين عند أصحاب الأملاك وأقلهم دخلا يحصل على ألفين أو ثلاثة غرشا في السنة. ويوجد بينهم مقدار مائة شخص يربو دخلهم السنوي على مائة ليرة. أما تحصيل أفراد هذه الطبقة فهو ابتدائي بسيط ولا يوجد في هذه القصبة أحد متخرج من المدارس العالية، حتى ولا في التالية. ثم عدد الذين يوجدون في المدارس الابتدائية لا يزيد عن عشرة في المائة. ثم لا نجد وظيفة اجتماعية لنساء في طرطوس البتة.

أما نصارى طرطوس، فيمكن أن نفرقهم مثل المسلمين إلى ثلاث طبقات. ويوجد بينهم بضعة أشخاص من الأغنياء، حصلوا على ثروتهم بإقراض الدراهم إلى الذين يزمعون السفر إلى أميركا، والآن لكل واحد منهم ثروة تناهز خمسة آلاف ليرة. ومع هذا فقد يروى أن دخلهم قبل الحرب كان يفيض عن بضع آلاف ليرة. ودرجة هؤلاء باعتبار التحصيل ناقصة أيضا.

أما باقي النصارى فانهم يحصلون على معيشتهم بتعاطي البيع والشراء ولنذكر هنا أن التجارة في طرطوس هي في أيدي المسلمين. ولا يوجد بين النصارى منهم إلا مقدار عشرة أشخاص فقط يبلغ دخلهم السنوي إلى مائة ليرة.

والمسيحيون هنا ليسوا أعلى من المسلمين بكثير من حيث العلم والتحصيل. ولا يزيد عدد من يعرف القراءة والكتابة بينهم عن خمسة عشر في المائة. ونساؤهم محرومات من التحصيل البتة. ولا جرم أن حياة عائلاتهم أنظم وأرجح من حياة عائلات المسلمين.

ويجب علينا قبل إنهاء هذا البحث أن نشير إلى عدد الذين هاجروا إلى أميركا.

هاجر من هذه القصبة إلى أميركا مقدار 300 شخصا، ثلثهم من النصارى وخمسون من النصيريين، أما الباقون فهم من المسلمين السنيين. وقد كان هؤلاء المهاجرون يرسلون إلى الناحية([21]) 4000 ليرة في كل سنة.".

ثم يستعرض الكاتبان باقتضاب الأحوال الاجتماعية في ناحية قصبة طرطوس، أي ريفها المجاور، كما يفهم القارئ من طريقة عرض الكتاب وأسلوب الوصف فيه حيث يبدأن القول:

"إذا صرفنا النظر عن سكان قصبة طرطوس نجد أن عدد سكان الناحية عبارة عن 3000 نسمة، ثلثاهم من المسلمين والثلث من النصارى، فالمسلمون كلهم من النصيريين .... وهؤلاء النصيريون ليسوا منهمكين باقتناء الأسلحة النارية، لذلك لم تكن فيهم تلك الطبائع الموجودة في سكان الجبال. إن النصيريين في طرطوس يشتغلون بالزراعة إما على عهدتهم، وإما مزارعين عند غيرهم. أما قدرتهم المالية فهي على درجة بسيطة بصورة لا تتجاوز دخل أغناهم مائة ليرة في السنة، وهذه الدرجة في الغنى توجد في كل قرية من القرى."

أما نصارى الناحية فهم من المارونيين. ويقطنون قرية "الخربيات" وهم يشتغلون بالزراعة، وخاصة بالزيتون واستحصال الزيت. ويروى أنهم لا يهتمون بمآكلهم ومشاربهم، أو بالأصح إنهم يصلون من التقتير إلى درجة يرون فيها كل شيء كثيرا عليهم وانهم يدفنون نقودهم في الأرض حتى لا تصل أيديهم إليها.

وهؤلاء أيضا لا نصيب لهم من العلم والتحصيل، وحياتهم الاجتماعية ليست بشيء ولا تفرق عن حياة مجاوريهم شيئا.".

---

[21] -: يقصد بالناحية هنا محيط قصبة طرطوس الجبلي الريفي، فالكاتبان يميزان في كتابهما بين القصبة والناحية.

ثم يختتمان حديثهما عن طرطوس، عندما قررا مغادرتها إلى بانياس لمتابعة مهمتهما الاستطلاعية، بكلمات رشيقة معبرة عن الطباع جميل تركته طرطوس في نفسيهما حيث يقولان:
"أقمنا في طرطوس مدة وكنا نخال أننا نعيش في إحدى المحلات المهملة من بيروت. لأن هذه القصبة كانت تشبه محلات الإسلام في بيروت. وتظهر هذه المشابهة بصورة محسوسة في منازلهم، وحوانيتهم، وجميع حياتهم الاجتماعية، وفي لهجتهم أيضا. ومع هذا فلا ننكر أننا كنا قريبين من أن نحب هذه القصبة. إذ كنا نراها متناهية في اللطافة ببيوتها البيضاء، وبحرها، وبصفائح صبارها، ثم بجميع أشجارها. ولا سيما أنها كانت بالنظر لما شاهدناه في الأنحاء الداخلية من القصبات والقرى، بقعة معمورة لها حظ وافر من الحياة والمدنية. ولهذا كنا نراها لطيفة لدرجة حملنا هذا الارتياح والاستحسان على أن نغضي عن جميع نقائصها.
ولو كان الوقت متسعا لآثرنا أن نلبث في هذه القصبة بضعة أيام، لنزيل ما ألم بنا من وعثاء السفر، ونريح أذهاننا وأجسامنا في حضن ذلك البحر الخضم، ومع هذا فقد كنا نتعزى بأن طريقنا سيتبع الساحل ونقنع بهذه التسلية ونؤثر الإسراع إلى الاصقاع الشمالية.
عزمنا على مغادرة طرطوس في صباح الغد. وقد قيض لنا الحظ نسمة بليلة هبت من وراء أبعاد البحر الأبيض، وزارت مرقدنا في تلك الليلة التموزية وأخذت تنفحنا بأنفاس مؤنسة كمروحة لطيفة حتى انبلج الصباح.".
أفترض أن الاقتباسات السابقة من كتاب "ولاية بيروت" توضح لنا بشكل جلي الصورة المجتمعية سكانيًا واقتصاديًا وثقافيًا - تعليميًا التي كانت عليها طرطوس أوائل القرن العشرين، الأمر الذي يؤسس لفهم التحولات التالية التي طرأت عليها لاحقا حتى منتصف القرن العشرين.
وثمة مقاربة أخرى لوصف طرطوس في تلك الفترة أفادني بها ابن طرطوس، الباحث وعالم الآثار الأستاذ محمد رئيف هيكل الذي شغل رئيس دائرة الآثار والمتاحف في طرطوس بين عامي 1970 – 2001م، في لقاء خاص معه بتاريخ 25 | 12 | 2016، حيث يقول إنها منذ أوائل القرن العشرين وحتى منتصفه تقريبًا كانت تتألف -كونها بلدة صغيرة- من ثلاثة أحياء هي: الساحة، والخراب، والبرانية.
أما حي الساحة فهو مركز الأحياء القديمة والأوابد التاريخية في البلدة منذ العصور القديمة تاريخيًا، وأما الخراب فهو الحي الذي يقع إلى جنوب الساحة ويلاصقها ويقع فيه السوق التجاري آنذاك، وأما البرانية فهو الحي

الذي بدأ بالظهور خارج (براءة) البلدة لجهة الشمال، منذ بدايات تشكل ملامح الدولة السورية الحديثة أثناء مرحلة الانتداب الفرنسي ولذلك سمي بالبرانية، وإلى الغرب من البرانية بدأ منذ أوائل القرن العشرين بالتوسع باتجاه حي الميناء وشارعه المسمى شارع (الميناء) الذي فتحه الكابتن الفرنسي(جيرنياس)، وقد أسماه الكابتن باسمه على لوحة نحاسية.
أما مرفأ أرواد الحالي الذي يقع في الجهة الغربية الجنوبية لحي "الخراب" على الشاطئ فقد كان بمنزلة "سقالة"؛ أي رصيف جانبي أو مرسى مؤقت لقوارب الصيد والتنقل وملجأ لها في أوقات العواصف.
ومع بدايات نزوح أهالي الريف إلى طرطوس في ذلك الوقت كانوا يسكنون في منطقة الخراب بداية متجاورين مع سكان الحي من مسلمين ومسيحيين، ومن هنا جاءت التسمية المتداولة حتى اليوم في دوائر النفوس " خراب إسلام وخراب مسيحية" تبعًا للهوية الدينية للشخص، وعندما بدأت عودة بعض المغتربين المهاجرين سابقًا إلى أمريكا الجنوبية كأهالي قرية "بحنين" الذين فضلوا السكن في طرطوس على قريتهم، شرعت من خلالهم عملية إعمار جديدة توسعت من خلالها -أيضًا- أحياء البلدة القديمة شرقًا وشمالًا وجنوبًا، كحي الصالحية مثلًا، الذي بناه بشكل أساسي بدايةً أبناء قرية "بحنين" المغتربين بعد عودتهم، وكانوا يشترون الأراضي من مالكيها من بيت الحاج صالح، لذلك سمي بحي "الصالحية"، كما توسعوا عمرانيًا بانتشارهم في أماكن أخرى كحي البرانية ومنطقة المشبكة.

أهم أقدم العائلات التي سكنت طرطوس في تلك الفترة:
حاولت جهدي البحث عن أقدم العائلات التي سكنت طرطوس المدينة بعد اكتمال تحولها إلى حاضرة مستقلة. لكن تاريخ البدء بمشروع هذا الكتاب، عام 2016م، ربما كان عائقًا في تسجيل معلومات أكثر دقة مما حصلت عليه بسبب رحيل أغلب أصحاب الذاكرة الخصبة الأوسع والأغنى من الأجيال القديمة.
لذلك اعتمدت في تسجيل المعلومات وتدوينها على ما بقي في ذاكرة أشخاص من أبناء طرطوس الحاليين متفاوتي الأعمار من أبناء وأحفاد الأجيال القديمة ممن سمحت الظروف بالالتقاء بهم.
وسأبدأ بما أفادني به الباحث الأستاذ محمد رئيف هيكل في لقاء خاص معه بتاريخ 25 / 12 / 2016م، ثم أكد لي المعلومة نفسها في لقاء آخر معه بعد 5 سنوات بتاريخ 25 / 9 / 2021، إذ يرى أنه قبل عام 1814م لم يكن

يوجد سكان في طرطوس، وإنما كانت ممرا للرعيان وقوافل البدو. لكن على إثر مقتل الجاسوس الفرنسي الضابط (بوتان)، واسمه الحقيقي كما عرفت من مصادر على النت ـ (فانسون ايف بوتان 1722 - 1813) المعروف بمهماته التجسسية المتنقلة بين الجزائر وبلاد الشام آنذاك، على يد شخصين من أبناء الطائفة الإسماعيلية قرب "نهر الخوابي- الحصين"، في منطقة ما زالت تسمى ب "البلاطة".

وعندما عرفت بالأمر الجاسوسة الإنكليزية الموجودة في المنطقة (أستر ستانهوب)، واسمها الكامل كما عرفت بعد البحث -أيضًا- عنه في النت هو (هستر لوسي ستانهوب 1776م – 1836م) المعروفة بمغامراتها وأسفارها التجسسية في بلاد العرب وخاصّةً سوريةَ ولبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكانت صديقةً مقرّبةً جدًا من (بوتان)، شكت الأمر إلى (بربر آغا) حاكم ولاية طرابلس آنذاك فأهدته مسدسا، ثم ضغطت على الحاكم بطلب تجهيز حملة على قرى الإسماعيليين لينتقم لها انتقامًا كبيرًا على مقتل صديقها (بوتان)([22])، وفعلًا تمّ تجهيز الحملة فهرب سكان تلك القرى باتجاهات عديدة ومنها إلى صافيتا، لكن بحكم المشاكل العديدة التي تولدت عن وجودهم في صافيتا تم الضغط عليهم مرة ثانية وترحيلهم إلى

19: قرأت تفصيلًا وافيًا لهذه الحادثة حسب فهم لغة ذلك الزمن في كتاب بعنوان "مصطفى أغا بربر حاكم طرابلس واللاذقية 1767 – 1834م تأليف الأب (إغناطيوس طنوس الخوري) من الرهبانية اللبنانية ، الناشر : جروس برس – طرابلس لبنان 1985م. الصفحات 150 – 156.

وفيها يسرد المؤلف موضحًا حسب معلوماته الخاصة أن حملة (بربر اغا) كانت كبيرةً على جبال "النصيرية" بتوجيه من والي عكا انذاك (سليمان باشا)، وبضغط وتحريض من الإنكليزية (ستانهوب) نفسها، وكان هدفها الأساسي الانتقام من طائفة "الحشاشين النصيرية؟!" كما يسميها المؤلف الأب (إغناطيوس)، ووصلت إلى "قلعة الكهف" الوعرة والمخيفة التي كان يتحصن فيها بعض أبناء هذه الطائفة وقد تم دك حصونها المنيعة وتدميرها والفتك بشكل قاس وبشع بزعمائها وقاطنيها، لكن الحملة -أيضًا- التي استمرت حوالي 5 أشهر أصابت أذى وقتلًا وتدميرًا كبيرًا في أغلب قرى تلك الجبال "النصيرية" كما يسميها المؤلف، وصولًا حتى حدود اللاذقية لسببٍ ثانٍ وهو التمرد المستمر لأشقيائها، وتهرب زعماء هذه الجبال من دفع الضرائب الأميرية المترتبة عليهم.

ويذكر المؤلف كل ذلك بناء على أخبار بعض من أبناء ومؤرخي ذلك العصر موثقة بأسماء أصحابها التي يشير إليها في كتابه.

مناطق أخرى كمنطقة القدموس، ومنطقة ثانية لم تكن مأهولة في ذلك الوقت، وهي طرطوس الحالية، فيبدأ تشكل العائلات الحالية في طرطوس القديمة منذ ذلك الوقت، ويبدو أن أولى العائلات التي مكنت طرطوس آنذاك، وشكلت حي المناحة القديم - الحالي بفعل هذا التهجير، واستقرت بعد أن تحولت مذهبيًا إلى الاسلام السني - وما تزال – هي:
(صقر – الحاج حسين – شقرا – بصل – هدلا – مرجاني – برهوم).
ومع حملة إبراهيم باشا المصرية على بلاد الشام عام 1830 بدأت تفد عائلات أتت مع الحملة أو نشأت عنها وصارت تستقر وما زالت حتى اليوم فيها كعائلات (الجندي – المصري – هيكل).
ثم بدأت تفد عائلات جديدة أخرى كعائلة البغدادي من بغداد في العراق، وعائلة الطرابلسي من طرابلس في لبنان، وعائلة النابلسي من نابلس في فلسطين، وعائلة الترجمان من بعلبك – شيعة بالأصل.
أما العائلات المسيحية فجاءت بداية من "بهرمين" بين الدريكيش وطرطوس، وبعضها الآخر من منطقة مشتى الحلو والكفرون، وعائلة البربارة من لبنان، وعائلة بيت العرنوق – في الأصل بيت العرّوق، حيث جيء بهم من تدمر بصفتهم ساسة خيل عند بيت العدرا في قلعة الخوابي وزمرين في البداية، ثم انتشروا في المنطقة وصاروا عائلة كبيرة.

أشهر العائلات التي تسكن طرطوس حتى اليوم
مع ذلك لا بأس من ذكر أشهر العائلات التي تسكن طرطوس حاليًا منذ أوائل القرن العشرين وكما نقلتها في لقاءات متعددة مع شخصيّات من طرطوس كالأستاذ (مصطفى أبو خضر)، والسيد (مفيد نخلة حوش)، والآنستين (مي محود يونس) و(أحلام محمود يونس)، لهم شكري وتقديري على تعاونهم بما أفادوني به، مع ذكر أصل المكان الذي جاءت منه كل عائلة حسب المعلومات المتوفرة كما قيلت لي، لكن بعد إعادة النظر فيها وتدقيقها مع الأستاذ (محمد رئيف هيكل) بتاريخ 4 / 10 / 2021:

ا-: العائلات الإسلامية-:
بيت يونس: أصل الجد من نابلس "جبل النار"، وجدّ الوالد مدفون في طولكرم.
بيت حاج صالح.
بيت خضر – أبو خضر "عائلة واحدة": أصلهم من فلسطين.

بيت حاج حسين العثمان: الأصل من فلسطين.
بيت عثمان آغا الترجمان: أصول شيعية من بعلبك في لبنان، وثمة راي آخر حول أصلهم سمعته من الأستاذ (مصطفى خضر) يقول: إمّا أن جد العائلة كان في مركز مرموق في الدولة العثمانية فتكنى بالعثمان، وإمّا أنهم كانوا يشتغلون بالترجمة أيام الدولة العثمانية فسمّوا بالترجمان.
بيت طيارة: الأصل من حمص.
بيت منصور: نسبة لاسم شخص وليس لعائلة، لكون كل الطوائف وملها الإسلامية والمسيحية في طرطوس يوجد فيها كنية منصور، وحسب السيد (مفيد نخلة حوش) فإن عائلة بيت منصور الإسلامية أصلها من طرطوس القديمة أبًا عن جدّ.
بيت هيكل: الأصل من مصر.
بيت السيد: عائلة قديمة في طرطوس.
بيت المجذوب: الأصل من المغرب.
بيت السوريتي.
بيت البغدادي: الأصل من بغداد.
بيت الحاج حسين.
بيت المبيض.
بيت الشعار.
بيت حنوف.
بيت المرقبي: الأصل على الأرجح من مصر.
بيت الكردي: أسر عدّة تُكنى بالكردي، هم بالأصل أكراد، ومتعددة تلك الأماكن التي جاؤوا منها، ويقول السيد (مفيد حوش) أنهم بالأصل قديمون في طرطوس، وأصل الكنية عندهم "شحادة".
بيت الأرناؤوط: بالأصل جاؤوا من ألبانيا.
بيت صيداوي: من صيدا بلبنان.
بيت رفاعية: من حمص.
بيت لطش: الأصل من زمرين.
بيت نعمان.
بيت ريحان.
بيت يحي.
بيت الشاحوط.
بيت الريس.

بيت الصباغ.
بيت الزين: يقال إن أصلهم من الأردن.
بيت شيخ ديب.
بيت فتوح.
بيت شقرا.
بيت زمريني: من زمرين.
بيت الشاحوط.
بيت الصباغ.
بيت الأطرش: نسبة لاسم شخص واحد كان يملك ناعورة وهي ليست عائلة قديمة، الأصل على الأرجح من السويداء.

أبرز الفعاليات الاقتصادية التي اشتهر بها آنذاك بعض تلك العائلات:
بيت هيكل: تجارة الزيت.
بيت سلمى: تجارة عامة.
بيت الريس: تجارة عامة.
بيت منصور: تجارة عامة.
بيت يونس: تجارة عامة ومحطة وقود.

2-: العائلات المسيحية-:
بيت الضيعة: الأصل لبناني من "أميون".
بيت اليازجي: من المشتى والكفرون أو من المرمريتا.
بيت منصور: أصلهم من طرطوس حسب السيد (مفيد حوش).
بيت نادر: (شاهين) من الخريبات.
بيت إبراهيم (الموراني): الأصل من الخريبات.
بيت قنيزح: الأصل من لبنان.
بيت حوش: الأصل من حوران.
بيت الحريري: الأصل من صافيتا.
بيت رفول: الأصل من طرطوس.
بيت لحدو: الأصل من الجزيرة السورية.
بيت عرنوق: أصل التسمية "عرّوق" جاؤوا من تدمر بصفتهم سلسة أحصنة عند بكوات آل عدرا في زمرين.
بيت دانيال: الأصل من ساعين.

بيت عكاري: من سهل عكار.
بيت برباره: من لبنان.
بيت إصطفان: الأرجح من لبنان زغرتا.
بيت طباع: الأرجح من لبنان.
بيت الشيخ: الأصل من مرمريتا.
بيت المقدسي: بالأصل من القدس.
بيت البيروتي: بالأصل من بيروت.
بيت البربارة: بالأصل من لبنان.
بيت المعماري: بالأصل من لبنان، وكانوا يعملون بحرفة البناء ولاحقًا بتجارة الزيت.
بيت البيطار.
بيت الحموي.
بيت ندور.
بيت الخوري.
بيت الحداد.
بيت الصائغ: يقول الأستاذ (هيكل) إن أصل التسمية لبيت الصايغ "بيت الكبريت" نسبة لـ (حنا جرجي الكبريت)، أصلهم يونانيّون، سكنوا جزيرة أرواد زمنًا ما ثم هجروها إلى طرطوس.
بيت منصور.

أبرز الفعاليات الاقتصادية التي اشتُهر بها بعض تلك العائلات:
بيت منصور: محطة وقود، تجارة عامة، نواعير.
بيت قنيزح "الصايغ": صياغة.
بيت رفول: تجارة عامة، زيوت.
بيت اليازجي: تجارة عامة، منشرة أخشاب.
بيت حوش: سيارات عامة.
بيت إصطفان: التعليم العام "مدرسة خاصة".
بيت إسحاق: الأصل من حماة، الأب الأول جاء طرطوس ليعمل في التصوير السريع ثم لحقه أخوته وصاروا عائلة في طرطوس.

أقدم العائلات المسلمة العلوية من أصل ريفي مجاور التي سكنت طرطوس:

بيت الحامد.
بين الضابط.
بيت معلا.
بيت حمصية.
بيت أميرة.
بيت الشاعر.
بيت محي الدين.
بيت علي يونس.
بيت الموعي.
بيت زريق.
بيت زغبور.
بيت الشنبور.
بيت خضور.
بيت العزّيتي.
بيت نبهان.
بيت العياط.
بيت إسماعيل.
بيت أبو فرد.
بيت حماد.
بيت خضور
بيت السيد.
بيت الشاعر.
بيت الشيخ.
بيت محي الدين.
بيت شقرا.
بيت قدور.
بيت الحداد.

أبرز الفعاليات الاقتصادية التي اشتهر بها بعض تلك العائلات:

بيت الضابط: أرزاق، سيارات شحن.

بيت حمصية: تجارة علمة، حدادة، ميكانيك.
بيت قميرة: كتّاب في دوائر الدولة.
الأصل في التعدد والتنوع والخبرة في الحياة، ودلالة الأسماء

وقبل أن أختم عن اشهر العائلات وأصلها في طرطوس أودّ أن أذكر معلومات أرى من المفيد ذكرها في الكتاب وردت في اللقاء الحواري مع السيد (مفيد نخلة حوش 83 عام) في منزله بتاريخ 12 / 12 / 2020، أفادني بها مشكورًا، بحضور زوجته وابنه السيد (ميشيل حوش)، والآنستان (مي وأحلام محمود يونس)، وأخوهما السيد (منذر محمود يونس)، وذلك عندما تم استعراض أسماء أقدم للعائلات الإسلامية والمسيحية وأكبرها بطرطوس وأصلها، فقال لي السيد (مفيد) بعد استعراض هذه العائلات أن ثلاثة أرباع العائلات المسيحية في طرطوس منذ 50 عامًا وحتى اليوم هي غريبة بحيث أنها وفدت إلى طرطوس من أماكن عديدة مختلفة، ويعطي مثلًا عن أصل عائلته "بيت حوش" الذين يعيشون في طرطوس منذ سنين بعيدة، فهو من طرطوس لأنه من مواليدها، بينما أصل والده من اللاذقية، أمّا أصل أجداده لأبيه فهم "حوارنة" من مناطق حوران في الجنوب السوري حيث ما تزال كنية "حوش" موجودة هناك للعديد من الأسر المسيحية، ويعود نسبهم للعرب "الغساسنة" الذين سكنوا المنطقة قديمًا.
وعندما سألته عن أصل كنية "الشيخ" كونها واحدةً من أكبر العائلات المسيحية في طرطوس اليوم أجابني فورًا أن لقب أو كنية "الشيخ" ليست خاصة بالإسلام أو العائلات الإسلامية، بل هو لقب يشير إلى المركز أو المرتبة الاجتماعية، وأعطاني مثالًا على ذلك "آل الجميّل" المسيحيين في لبنان إذ إن لقب الشيخ الذي يسبق الاسم تتوارثه الأجيال في العائلة حتى اليوم.
ثم تدخّل ابنه السيد (ميشيل) ليدعم رأي والده فأعطاني أمثلة واقعية عن التسميات عند عائلة "بيت عرنوق" المسيحية العريقة والمالكة الكبيرة في طرطوس، التي لا تبلغ نسبة التسميات المسيحية فيها أكثر من نسبة 3%، بينما أغلبية الأسماء فيها تكون مثلًا: نوار، مروان، وضاح، رماح، سمير، إياد، فراس، بسام، حسان، غسان ... إلخ، بينما التسميات المسيحية مثل واكيم، نقولا، جوزيف قليلة جدًا بين أبناء العائلة.
ثم أضاف السيد (مفيد حوش) معلومة عن بيته قائلًا إنه هو نفسه قام بتسمية ولدين عنده أسماء غير مسيحية: ربيع، و غيث، ثم أضاف أنه توجد -أيضًا-

عند بعض العائلات المسيحية الأخرى في طرطوس أسماء ذات طابع إسلامي بحت مثل (محمود ضيعة) و(محمود نادر)، و(مصطفى نادر).
وبالعودة إلى أصل الكنى في العائلات ذكر السيد (ميشيل) أن العديد من الكنى لبعض العائلات سواء مسيحية أم إسلامية يعود أصلها للعمل الذي اشتهر فيه الأباء أو الأجداد سابقًا كعائلة "الفاخوري" مثلا التي اشتهرت بعملها في "الفخار".
وكذلك فإن جذ عائلة بيت الحريري كان اسمه (نقول إلياس) لكن لكونه كان "مأمور حرير" ويشتغل بالحرير غلبت عليه تسمية "الحريري" عند أترابه، وحمل أبناء العائلة بعده لقب الحريري حتى هذا اليوم.
من جهتي أذكر -أيضًا- أني قرأت في رواية "صخرة طانيوس" للكاتب والروائي اللبناني (أمين معلوف) منذ سنوات عديدة معلومة مهمّة تتفق مع الأراء التي طرحت في حديث بيت السيد (حوش)، وهي أن العائلات المسيحية الأرستقراطية الكبيرة المالكة التي يسبقها لقب
شيخ" في بعض قرى جبل لبنان منذ أواخر العهد العثماني، التي تسكن "الحارة الفوقا" حسب تعبير (معلوف) في روايته كانت تسمي أبناءها بأسماء توحي بالقوة ومجد الماضي، أو مستوحاة من التاريخ الإسلامي تأكيدًا على موقعها النبيل اجتماعيًا وتميّزها وترفّعها عن عائلات الفلاحين المسيحيين الفقراء الذين يسكنون في "الحارة التحتا" حسب تعبير (معلوف) في روايته، مشيرًا إلى موقعهم المتدني اجتماعيًا، فكانوا "يطلقون على أبنائهم أسماء القديسين، بطرس، بولس، جريوس، روكز، حنا، أفرام، واكيم...وكذلك في بعض الأحيان يختارون لهم أسماء توراتية كأيوب، وموسى، وطوبيا."([23])، وأزعم أن تفسير ذلك سيكولوجيًا يعود في الأغلب وليس دائمًا إلى توق الجماعات الفقيرة التي تعاني من بؤس مجتمعيّ واضح إلى مخلّص أو شفيع، وخصوصًا عندما يكون المجتمع الذي تعيش فيه يعاني من حالة اضطراب أهلي ديني طائفي، فإنها تستحضر مستنجدةً شاكيةً من أعماق اللاوعي لديها رموز الشخصيات الدينية التي لها قدامة عندها، وتسمي مواليدها بأسمائهم كمتكأ دينيّ – دنيوي يكون بمنزلة حبل نجاة تتعلق به، على العكس من الفئات أو الطبقات المالكة الأعلى مرتبة والأقوى فهي ليست بحاجة لهذا الوهم كي تتعلق به.

---

[23] -: أمين معلوف، "صخرة طانيوس رواية ترجمة: نهلة بيضون، دار الفارابي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى 2001 " ص 50.

بدايات التحديث الإداري والخدماتي والعمراني في طرطوس

كما ذكرت سابقًا كانت طرطوس في بداية القرن العشرين تعدّ حسب المصطلح العثماني "قصبة" أي قرية كبيرة أقرب للبلدة، لكن بعد الخروج من الحقبة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى ومع بداية حقبة الانتداب الفرنسي على سورية منذ عام 1920 بدأ التحول المجتمعي المكاني والعمراني في طرطوس يأخذ شكل نقلة نوعية لصالح التجمع المدني الأوسع، وكي أوضّح أهم تفاصيل هذه النقلة سوف أستعين بما جاء في محاضرة كان موضوعها الرئيس "طرطوس القديمة مع تأسيس الدولة السورية الحديثة" ألقاها الأستاذ المهندس (علي السوريتي)، رئيس مجلس مدينة طرطوس السابق، بتاريخ 1 / 10 / 2018 ضمن نشاطات جمعية العاديات بطرطوس التي كانت تقام في صالة بهو "طرطوس القديمة"، وكنت قد حضرتها واستمعت إليها باهتمام بالغ لدرجة أني سجلت أغلب ما ورد فيها، لذلك أرى من المفيد جدًا أن أستعيد في السطور التالية مُلخّصًا بدقة وبكل أمانة بعض ما جاء فيها وبما له علاقة بموضوعنا هذا خصوصًا جهة التحديث الإداري والخدماتي والعمراني الذي هو بمنزلة العتبة الأولى للدخول في أيّ تحديث وتطوير فعلي.

يقول الأستاذ (علي) إن بدايات التحديث الإداري في طرطوس كانت منذ عام 1924 عندما أحدثت سلطات الانتداب الفرنسي "المجلس البلدي" في طرطوس حيث "بدأت أعمال البلديات " في البلدة، وكان توالي عدد أعضاء المجلس منذ تلك الفترة يتطور بتناسب مع عدد السكان، ففي البدايات كان عدد الأعضاء أربعة ثم صاروا خمسة فستة وهكذا، وأن سجلات هذا المجلس كانت عبارة عن دفاتر أو كرّاسات صغيرة يكتبون عليها محاضر الجلسات والأعمال المنجزة في خدمات البنى التحتية في المدينة مثل منهل ماء في الحي الفلاني، وعمود كهربا في أحد الشوارع، وإذا ما ضربنا مثلًا نجد أنه قد تم تدشين إنارة شارع الميناء لأول مرة في نهاية الأربعينيات حيث كانت توجد مولدة كهرباء واحدة موضوعة ضمن هنكار من التوتياء تعطي الكهرباء لكل مدينة طرطوس آنذاك، وكانت تقع شرق ثانوية البنات "رياض حجار" حاليًا، وبجانبها تم بناء خزان ماء عام 1932، وكان يروي كل مدينة طرطوس بعد أن تم عمل شبكة مياه وأرصفة وأطاريف وزفت .. إلخ، إضافة إلى تحديث الإدارات الموجودة والأنظمة والقوانين بشكل تم فيه تجاوز السائد من الأنظمة والقوانين الموروثة عن العهد العثماني القديم

المتخلف والظلامي وكانت هذه ناحيةٌ إيجابيّةٌ تُسجل للفرنسيين آنذاك عندما وضعوا قانون بلديات جديد ومالية لكل المنشآت التي كانت موجودة.
وإلى جانب مسألة الخدمات فإن التعليم الحكومي في سورية بدأ في تلك الفترة أيضًا، فأحدثت في طرطوس مدرستان حكوميّتان كانتا تصرّان على تدريس اللغة العربية بشكلٍ أساسي في المدارس على الرغم من مناهضة السلطات الفرنسية لذلك، وأنشئت مدارس خاصة عدّ في نهاية الثلاثينيات أهمها مدرسة (اللاييك) ومن ثم مدرسة (إصطفان) التي كانت في البداية مقرًا خاصًا لسكن كادر مدرسة (اللاييك) ومبيتهم، ثم تحول بناؤها فيما بعد إلى مدرسة خاصة، وإلى جانب هذه المدارس هناك مدرسة راهبات "القلبين الأقدسين"، وهي إحدى مدارس مؤسسة فرنسية كبيرة في المنطقة كان مستوى التعليم فيها أعلى بكثير من غيرها لدرجة أن أغلب العائلات الكبيرة كانت تسجل أبناءها في (اللاييك) أو في (القلبين الأقدسين)، فالشاعر السوري الكبير (أدونيس) درس في (اللاييك) وكذلك غيره من الأدباء اللبنانيين والسوريين وكان الجهاز التدريسي فيها أغلبه من الفرنسيين واللبنانيين وبعض السوريين.
وفي عام 1945 في عهد الرئيس (شكري القوتلي) تم تدشين ثانوية التجهيز الرسمية في طرطوس كأول ثانوية في المحافظة، وكان طراز بنائها من حيث ارتفاع الأسقف فيها وبهوها الواسع وملاعبها وباحتها يناظر مدرسة (اللاييك) الفرنسية، وهي لذلك ساعدت على ربط طرطوس بمحيطها الريفي الواسع جنوبًا وشرقًا وشمالًا بحيث بدأ يرتادها منذ ذلك الوقت أبناء قرى الريف الجبلي للدراسة فيها مما عزز علاقة ربط مدينة طرطوس بمحيطها الريفي الواسع هذا.
أما حدود المدينة في ذلك الوقت فلم تكن تقتصر على حي الساحة فقط حيث آثار كنيسة الفرسان الصليبية وقلعتها، بل كانت حدودها ممتدة من مكان ثانوية البنات الحالية باتجاه الشرق نحو المجمع الحكومي الحالي، ثم تتجه جنوبًا نحو المشبكة، غربًا باتجاه برج الطاحون، فهذه هي كانت حدود المدينة القديمة بكل سكانها من مسلمين ومسيحيين، وكل ما هو خارج أسواق هذه الحدود يعدّ خارج المدينة، لكن بعد انتشار الكهرباء والسيارات بدأ التطور العمراني يظهر عندما بدأ السكان يخرجون من حدود المدينة القديمة لتتشكل نتيجة ذلك أحياء جديدة في مراحل زمنية متتالية وصارت مدينة طرطوس تتوسع.

أما النمط العمراني الغالب داخل حدود طرطوس القديمة التي ذكرت فهو النمط الكولونيالي الفرنسي الذي تتميز الأبنية فيه من الداخل بوجود القناطر المثلثة والأسقف العالية والإنارة الجيدة جدًا داخلها، ومن أمثلة ذلك أبنية وبيوت ما زالت موجودة كالبناء الموجود في مدخل الساحة بعد "كازية يونس" بيت حاج حسين، وبيت يونس الذي يقع في نهاية الخندق ملاصقًا للكازية، وبيت آخر كان الطابق الأرضي منه يُستخدم مقرًا لمصرف التسليف الشعبي سابقًا، وهو الآن مقرٌ لمصرف الإبداع، ويعود زمن بنائه إلى عام 1933، وهناك بيت عكاري قبل أن يهدم، وفي الساحة توجد بيوت عدّة من الطراز الفرنسي كبيوت بيت الترجمان، وفي شارع الميناء يوجد - أيضًا- منزلان، وكذلك بيت بشير هيكل مقابل بيت يونس من جهة الشرق الذي هو قيد الهدم الآن، يُضاف إلى ذلك مدرسة (اللاييك) التي بنيت على النمط الفرنسي، ومدرسة إصطفان التي كانت بالأساس مقرًا للسكن لمدير مدرسة اللاييك وأساتذتها، وهناك شارع الوحدة الذي يبدأ من المشبكة وينتهي على البحر "الكورنيش، إذ كان مليئا بالأبنية ذات الطابع الفرنسي كبيت لطف الله يازجي وبيت الدكتور وديع جرجس وفندق الجمهورية وبيت الشاعر وفندق دانيال.

وقد بنى الفرنسيّون العديد من الجسور حول المدينة كجسر نهر الغمقة، وجسر نهر الحصين، وجسر نهر مرقية.

لكن التحديث الأهم في ذلك الوقت كان في عملية مسح الأراضي والعقارات عندما بدأت عمليات التحديد والتحرير للقيد العقاري في طرطوس التي عرفت باسم مخططات "دورافور" نسبة للمهندس العقاري الفرنسي دورافور الذي حضر مع فريق عمل طوبوغرافي فرنسي خاص لإجراء مسح عقاري دقيق للساحل السوري وطرطوس استمر من عام 1933 حتى عام 1936 عندما أُنجز بشكل دقيق وكامل.

الحياة الاجتماعية الاقتصادية في طرطوس وأشهر فعالياتها حتى منتصف القرن العشرين

يقول المهندس الأستاذ (علي السوريتي) في محاضرته المذكورة آنفًا إن الحالة الاجتماعية والاقتصادية في طرطوس في تلك الفترة كانت جيّدةً بحكم أن طرطوس كان يوجد فيها نسبة كبيرة من الذين حازوا على تحصيل علمي متقدم في الخارج، الأمر الذي جعل طرطوس متطورةً مجتمعيًا عن سواها من المدن السورية في الداخل، فطرطوس بحكم وجودها على ساحل

البحر كانت علاقتها التاريخية دائمة مع حضارات بلدان بحرية أخرى بحكم التبادل التجاري بين شرق المتوسط وغرب المتوسط منذ أيام الفنيقيين وما كان يستتبع ذلك من تبادل علمي ثقافي.

وبخصوص الوضع الاقتصادي فلم تكن توجد فوارق كبيرة بين العائلات الغنية والفقيرة بسبب أن الحياة الاقتصادية كانت تعتمد على الزراعة بشكل أساسي من دون صناعة متطورة، مع حركة تجارة متواضعة تعتمد بعض الحوانيت والدكاكين التي تلبي الحاجات الاستهلاكية اليومية إضافة إلى بعض الحرف البسيطة كالحدادة والخياطة و"كلدرجية"؛ أي صناعة الأحذية وتصليحها، وحرفة صنع عربات الطنابر مع إطاراتها التي برع فيها الأرمن بالإضافة لحداء البغال والخيول.

فالمدينة كانت صغيرة بحرف متواضعة مع علاقات اجتماعية بسيطة لكنها عميقة، بالإضافة لعلاقات كانت تولد بقوة مع محيطها الريفي لأسباب تجارية تبادلية وتعليمية.

أما عن أقدم العائلات المالكة في طرطوس وأكبرها من حيث المساحة من مختلف الطوائف، وعن الحياة الاقتصادية فيها آنذاك فقد أفادني الأستاذ (محمد رنيف هيكل) في لقاء معه بتاريخي 25 / 9 / 2021 و 4 / 10 / 2021 بالمعلومات التالية:

عائلة بيت المقدم وأصلهم من لبنان، وكانت حدود ملكيتها تصل حتى قرية المطاهرية قرب عمريت.

عائلة بيت المحمود وعائلة بيت عدرا، اللتان كانت أملاكهما تشمل مناطق قلعة الخوابي شرقًا، و السهل البحري غربًا حتى قلعة المرقب شمالًا.

وعائلة بيت الحامد (أحمد أفندي الحامد)، وعائلة بيت عبد الرزاق الترجمان، وعائلة بيت صبرة، فهذه العائلات كانت تتوزع أملاكها في أغلب سهول طرطوس حتى حدود الجبل مع قسم كبير من أراضي سهل عكار جنوبًا.

أما بقية العائلات المالكة الأخرى مثل بيت هيكل، وبيت منصور، وبيت طيارة، وبيت فتوح، وبيت الترجمان، وبيت المرقبي، و بيت حاج حسين، فكانت تستحوذ على ملكيات أصغر بنسب متفاوتة وأغلب أملاكها بساتين زيتون وعلى نحو أقل بعض الأصناف الأخرى من الأشجار المثمرة كالحمضيات، لذلك كان يوجد في طرطوس 5 مكابس زيتون داخل المدينة، و3 مكابس خارجها في محيطها القريب.

فعلى سبيل المثال كان (عبد الله بيك عبد الرزاق) يشتغل في تجارة المكابس على مستوى سورية، ثم فتح محطة محروقات كازية "اسو" داخل المدينة، ثم معمل ثلج، ثم طاحون حبوب.

وكان (بشير هيكل) يعمل في تجارة الزيت والحبوب، إذ صار أول تاجر مسلم سني في بيروت، وخامس تاجر فيها بعد 4 مسيحيين.

كذلك اشتغل (عبد السلام هيكل) بتجارة الزيت والفستق، وبعد افتتاح المرفأ انتقل للاستثمار في حاويات المرفأ.

أبناء بيت الصباغ اشتغلوا بالتجارة، وأبناء بيت لطش اشتهروا بالحلويات.. وتجارة البرادات وصيانتها، وأبناء بيت محي الدين اشتغلوا بدايةً بتجارة الخضرة ثم انتقلوا إلى الاستثمار في البحر والنقل البحري، وعمل أبناء بيت قدور في التجارة العامة، وهم من أقدم التجار في طرطوس.

أما عن العلاقات الإدارية والتجارية فكانت في أغلبها مع طرابلس بلبنان الحالي، والعمل الزراعي كان يقوم بشكل كبير على بساتين الزيتون، لكن خلال فترة الانتداب الفرنسي حدث تنوّع في النشاط الاقتصادي، فبدأت تظهر حرف جديدة كالنجارة والحدادة التي اشتهر بها بيت الحداد من لبنان، ومع مجيء الأرمن ظهرت صناعة الطنابر أوّلاً، ثم مهنة التصوير والأبواب الحديدية وتصليح الدراجات العادية، ثم في مرحلة العهد الوطني بعد الجلاء تطورت كثيرًا هذه الحرف وتنوعت أكثر تماشيًا مع بداية تطور النشاط الاقتصادي عمومًا في سوريةَ.

أقدم دور العبادة في طرطوس

ثم يتابع الأستاذ (هيكل) حديثه عن دور العبادة بطرطوس فيقول إن أقدم جامعين في طرطوس هما:

جامع (أبي بكر الصديق – البلدية حاليًا)، الذي كان بالأصل برج مدخل المدينة القديمة، ثم تمّ تحويله إلى جامع، وبُنيت مئذنته العثمانية عام 1850.

الجامع العمري في حي الساحة وهو بناء عثماني أيضًا، بني عام 1850.

لكن مع تزايد عدد سكان طرطوس المسلمين، بحيث لم يعد بإمكان هذين الجامعين تلبية احتياجات طقوس العبادة لهم فكروا بتحويل مبنى الكاتدرائية القديم إلى جامع يصلّون فيه، فهذا المبنى كان مهجورًا منذ زمن بعيد، وأسموه "الجامع الكبير"، وبنوا له مئذنة، وكان يؤم الصلاة فيه الشيخ (بهاء السيد) عمّ الشيخ (عبد الستّار السيد)، لكن الجنرال (غورو) بعد دخول الفرنسيين منع المسلمين من الصلاة فيه وحوله إلى مستودع للأشغال

العامة، ثم تمّ تسجيله من قبل الشيخ (تاج الحسني)[24] بناءً أثريًا، وفي بداية العهد الوطني أيام الرئيس (شكري القوتلي) تمت تسميته بصورة نهائية متحف، يضم الآثار التاريخية المكتشفة في محيط طرطوس.

أقدم الشهادات الجامعية والكفاءات العلمية والمهنية في طرطوس

أما عن أقدم الشهادات العلمية فيذكر أن أول من حصل على شهادة البكالوريا في طرطوس هما (محمد هيكل) و(عدنان أديب)، وهذا يعني أن كل الأساتذة الذين كانوا يقومون بالتدريس بداية هم من حملة (المترتفيكا).

لذلك فالرعيل الأول من المعلمين أصحاب الكفاءات العالية هم :

الأستاذ (إلياس ندور) الذي كان شاعرًا وأديبًا، وكان يُدرّس أكثر من مادة؛ لغة فرنسية، وفيزياء، وكيمياء، وأدب عربي، والأساتذة (منير حموي، أنطوان صايغ، وحنا قنيزح الملقب بالزعيم الذي عُيّن عام 1936 بداية مُدرّسًا بقرية "القمصية"، و (منيف رفقة، ونقولا خوري، ورضا الضابط)، وكل هؤلاء تعلّموا في المدارس الفرنسية سواء في الكلية الوطنية "اللاييك" أم في مدرسة "عينطورة" بلبنان ثم صاروا مُدرّسين في مدارس طرطوس، فكل هؤلاء الأساتذة كانوا مليئين بالمعارف والخبرات ضمن اختصاصاتهم، فكانوا -أيضًا- صادقين ومخلصين في عملهم إلى درجة كبيرة.

ولمزيد من التفصيل حول الرعيل الأول من الأساتذة، سواء من داخل طرطوس أو من خارجها، الذين أدّوا دورًا رياديًا مهمًا في نشر التعليم في طرطوس يمكن العودة إلى كتاب الأستاذ (هيكل) المشار إليه سابقًا بعنوان "طرطوس ملتقى الحضارات" حيث يستعرض فيه بالتفصيل أسماء شخصيات هذا الرعيل الأول، مع بعض المعلومات عن حياتهم وأعمالهم([25])، أختار منهم الأسماء التالية:

قيصر محفوض: "مؤسس الكلية الوطنية بطرطوس".

يوسف الباني: "الذي انفصل عن قريبه (قيصر) وأسّس الكلية الوطنية في بانياس، وكان يُدرّس اللغة العربية مع الخوري (حنا طنوس) من لبنان".

---

[24] -: رئيس الجمهورية السورية في فترة الانتداب الفرنسي بين عامي 1941 – 1943.

[25] -: محمد رئيف هيكل "طرطوس ملتقى الحضارات" مرجع مذكور سابقًا، الصفحات 98 – 99 – 100 – 101.

ثريا زكريا من "جبلة": "التي كانت تحث الأهالي على إرسال بناتهم إلى المدرسة في ثانوية البنات بطرطوس".
روز حرفوش من "لبنان": التي كانت صاحبة شخصية قوية وحازمة فيما يخصّ التوجّه نحو التعليم الصحيح والهادف.
نقولا الخوري وزوجته المعلمة (بديعة): اللذان كانا نموذجين يحتذى بهما في الإخلاص لمهنة التعليم.
محمد مجذوب: "إضافة لكونه عضوًا في فرقة طرطوس المسرحية امتهن التدريس، فعمل مُدرّسًا للأدب العربي في ثانوية بنين طرطوس ، له مؤلفات عديدة في موضوعات مختلفة".
فايز اسطفان: "مُدرس وصاحب مدرسة خاصة، فتح باب العلم أمام الكثيرين".
فؤاد عرنوق: "أستاذ رياضيات".
شحادة اليازجي: "أستاذ الأدب العربي وشاعر، يأتي المسجد ويلقي قصيدته التي تدعو للمحبة، وله مدح في الرسول".
حنا قنيزح: مر الحديث عنه في بداية هذه الفترة.
إبراهيم الحامد: "عُرف بجده ونشاطه ومحبته للطلاب كأب لهم."
أنطوان صائغ: "من المخضرمين درّس الفرنسية والرياضيات بنجاح، وصار قدوة لطلابه يتمثلونه في انضباطه التام، واهتمامه بمصلحة الجيل الناشئ."
هيفاء بيطار "صافيتا"، زينب هارون "اللاذقية"، فاطمة عمقية، أمينة سليمان "أخت بدوي الجبل": "وكان لهن دورٌ كبيرٌ وفعّالٌ في تعليم البنات".
سليم عرنوق: "الإداري السمح والأستاذ القدير، عمل في العراق وطرطوس."
بهجت منصور: "مُدرس تاريخ، ومحاضر وشاعر وأديب."
المعلمان الشيخ عبدالله المجذوب والأب إبراهيم ضومط: كانا من أوائل المعلمين الذين امتهنوا حرفة التعليم في المدارس الرسمية، كانا يخرجان إلى باحة المدرسة خلال الفرص يتأبط كل منهما ذراع الآخر يتحاوران والابتسامة الحلوة تعلو شفتيهما، رافعَين بذلك الشعار المعروف "الدين لله والوطن للجميع".
وبالعودة إلى حديث اللقاء مع الأستاذ (هيكل) فإنه يذكر لي بعض أقدم أسماء الشخصيات للمهن التالية.

المحامون -: تحسين هيكل - عبد السلام المحمود - أحمد المحمود - محمود حاج حسين – لطف الله عرنوق – لطف الله بازجي – محي الدين مرهج دكتوراه حقوق من السوربون.
أدب عربي-: د. محمد حاج حسين.
الصيادلة-: قبل الصيدليات النظامية كان يوجد شخص اسمه (جرجي الفرمشالي) قرب الكنيسة، لم يكن صيدلانيًا نظاميًا وإنما يفهم بالأدوية التي كانت في ذلك الوقت.
أول صيدلية في طرطوس هي صيدلية خيرالله ضيعة أواخر الأربعينيات، وثاني صيدلية هي صيدلية معماري، ثم صيدلية هاني منصور.
الأطباء-:
أوائل أطباء طرطوس هم: الدكتور (وجيه محي الدين)، الدكتور (بشور)، الدكتور (زكريا) من اللاذقية، الدكتور مدحت عرنوق، الدكتور حنا إلياس، الدكتور زكي مهنا، الدكتور حسن قدور.
ثم أخبرتني الآنسة (مي محمود يونس) في إحدى زياراتي المتكررة لبيت "آل محمود يونس" المحترمين بتاريخ 17 / 11 / 2021 أن عمها الدكتور (أحمد يونس) تولد طرطوس ١٩٢٥ كان قد حصل على شهادتي الثانوية العامة السورية الفرع العلمي والفرع الأدبي معًا في وقت واحد، ثم درس الطب في الجامعة الأميركية ببيروت، وتخرج فيها عام ١٩٤٣، ثم حصل على شهادة الاختصاص في الجراحة العامة وسافر إلى أميركا وعمل في مشافي "غرينفيل ميشيغان" وحصل على البورد الأميركي في الجراحة، بقي في ميشيغان ٢٥ سنة وأخذ لقب بروفيسور عالج خلالها ٢٥٠٠٠٠ مريض من دون أخطاء، وخلال زياراته إلى بلده سورية في مدينة طرطوس أجرى عمليات جراحية لأهل مدينته من دون أتعاب، وآخر المطاف استقر في واشنطن حيث توفي هناك عام ٢٠٠٧ م.

الفصل الثاني
صور من بدايات الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني الثقافي في طرطوس

كانت طرطوس في بداية القرن العشرين وكما أسماها كاتبا كتاب ولاية "ولاية بيروت" المشار إليه سابقًا أشبه ب "القصبة"؛ بمعنى أنها أقرب لقرية كبيرة تسكنها طائفتان دينيتان فقط هما الإسلام والمسيحيّة، في حيّين متجاورين بحيث كل حي تسكنه طائفة، ولذلك تمت تسمية كل حيّ منهما فيما بعد باسم يدلّ على طائفة ساكنيه؛ خراب إسلام وخراب مسيحية، فكان يتم تعريف الشخص بهويته الدينية والطائفية فيها كما في كل القرى الأخرى في ذلك الوقت الموروث عن زمن الإمبراطوريات الكبرى في العالم قبل نشوء الأمم والدول الوطنية الحديثة ضمن إطار تاريخي جديد وواسع لتشكل المدن الكبيرة والمتوسطة، التشكّل الذي نما وتطور بتأثير عوامل عدّة أهمها نزوح أهل الريف إلى المدينة، ونشوء علاقات مدنية جديدة فيها، اجتماعيًا وثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا، تجاوزت فيه بنسب متفاوتة بين مدينة وأخرى الانتماءات القبلية الريفية الأولى بهوياتها الدينية وخلفيّاتها الطائفية سواء للفرد أم للجماعة، بتأثير النزوح الوافد تبعًا لسرعته وكثافته.
وتشكل طرطوس بصفتها مدينةً لم يشذ عن هذه القاعدة؛ إذ إنه منذ أواخر عشرينيات القرن العشرين بدأت هجرة أبناء الريف المجاور إليها بأعداد قليلة بداية وبوتيرة بطيئة، لكنه ظل مستمرًا ويزداد حتى كانت النقلة النوعية فيه أوائل ستينيّات القرن العشرين.
في السطور التالية سأحاول تسليط الضوء على تأثير هذه الهجرة على طرطوس منذ بدايتها، خصوصًا منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، في كيفية تشكل مناخ مدني جديد للعلاقات الاجتماعية الدينية - الثقافية فيها، وكيف انعكس ذلك على أبناء الريف الوافدين إليها من خلال بعض التجارب الشخصية ذات الدلالة المهمّة التي استطعتُ الحصول على معلومات حولها، والتي أسست لاندماج مجتمعيّ جديد فيها بتشكل مدنيّ حديث.

من تجربة الشاعر (أحمد علي حسن)

روى لنا والدي الشاعر (أحمد علي حسن) في لقاء صوتيّ مسجل معه أنه في بدايات نزوحه من القرية إلى طرطوس أوائل ثلاثينيات القرن العشرين

تعرف لأول مرة على وجود صحف تنشر مقالات لأشخاص، وذلك من خلال صديقه من حمين الأستاذ (عبود أحمد) الذي كان قد سبقه إلى طرطوس، عندما عرّفه على جريدة لبنانية اسمها "الصرخة"، تصدر في طرابلس لصاحبها (أحمد زكي الأفيوني)، التي كان ينشر فيها الأستاذ (عبود أحمد)، إذ قد نبه والدي إلى ضرورة قراءة المجلات والنشر فيها، الأمر الذي ولّد دافعًا طموحًا لديه للكتابة والنشر ورؤية اسمه في الجرائد.
وصادف أن والدي كان قد تعرّف على شخص من طرطوس اسمه (مصطفى الطابع)، وكان صاحب مكتبة ووكيل مجلة مصرية تصدر في القاهرة اسمها "هدي الإسلام"، وكان يزوّده بها وببعض الصحف والدوريات الأخرى ليقرأها، فصار الوالد يقرأ ويحاول تقليد كُتّاب هذه الدوريات في كتابة مقالة، ونجح مرة في كتابة مقالة بعنوان "تنبه أيها المسلم" عرضها على السيد (مصطفى الطابع) الذي أحالها بدوره إلى الأستاذ (محمد المجذوب) في طرطوس، وكان كاتبًا مطلعًا ومتمكّنًا، ليدقق ويصحح فيها ثم أرسلها المجذوب إلى مجلة "هدي الإسلام" التي نشرتها في أحد أعدادها عام 1935مع صورة شخصية بتوقيع الشاب المسلم العلوي (أحمد علي حسن) من طرطوس في سورية.
ثم يروي أنه مع بدايات وجوده في طرطوس تعرف لأول مرة على وجود منابر تلقى عليها محاضرات لجمهور متعطش للمعرفة، وكان ذلك في مدرسة "اللاييك" التي كانت تستضيف شخصيات ثقافية من لبنان وأسماء أدبية مرموقة، والطريف الجميل في الأمر أن أمثال والدي صغار السن آنذاك لم يكن مسموحًا لهم الدخول فكانوا يسترقون السمع من الشبابيك، كما أخبرنا والدي ليتعرفوا على ما يحدث ويقال في الداخل، وبذلك بدؤوا يتعرّفون على المنابر ودورها وأهميتها.
وفي الوقت نفسه كان الدكتور(وجيه محي الدين)، كما يقول الشاعر أحمد علي حسن من ذاكرته الغنية، أول طالب من الجبال العلوية استطاع أن يدرس الطب في جامعة دمشق، وقد لاحظ الفرق الكبير بين المدينة بآفاقها المفتوحة لأبنائها وبين الريف الجبلي الذي ينتمي هو إليه بآفاقه المغلقة أمام أبنائه، فكان يجتمع أيام العطلة الصيفية عندما يعود من دمشق بكافة الشباب القريبين في جواره في الريف الجبلي ليمرّنهم على القراءة والخطابة والكتابة، ويجيب على تساؤلاتهم الفضولية عن المدينة وعن دمشق تحديدًا، لأنه كان يرى أن من أهم أسباب تخلف أهل الريف والنظرة المريبة الخاطئة لهم كما لمسها شخصيًا من البعض في دمشق آنذاك تكمن في الفجوة الكبيرة

أو القطيعة شبه التامة أنذاك بين الريف والمدينة، فكان يحاول ردم هذه الفجوة ووصل هذه القطيعة مذ كان طالبًا، وعندما تخرّج طبيبًا وفتح عيادة له في طرطوس فكر بإصدار مجلة ثقافية أدبية فتح لها مكتبًا خاصًا في عيادته أسماها "النهضة" 1936 – 1939، بمعنى نهضة أبناء الجبل نحو العلم والمعرفة الحديثة، والانفتاح على عالم المدينة الحديث الذي كان يتشكل آنذاك، مجلة كانت إحدى مهامها تعريف أبناء الريف بمواهبهم الحقيقية والمثمرة معرفيًا في حال توفر لها من يشجعها بشكل صحيح، وإيصال صوتهم إلى الخارج في المدن في سورية والعراق بحيث كان يصر على إسلامية العلويين وضرورة اندماجهم المجتمعي الهادئ في المدينة، لذلك كان يستكتب فيها شبابًا من الريف ومن المدينة، وكانت هيئة تحريرها تضم أسماء أدبية ثقافية اجتماعية تعاونت معه بصدق وحماس من مختلف الطيف الديني الطائفي والثقافي في طرطوس آنذاك.

من تجربة الدكتور (حسن الحسن)([26])

وفي السياق ذاته أرى أنه من المفيد هنا تسجيل بعض المقتطفات ذات الدلالة المهمة والقوية في سياق عنوان هذه الفقرة عن الاندماج المجتمعي في المدينة، المستمدة من تجربة الدكتور (حسن الحسن) وسيرة حياته التي يلاحظ القارئ فيها نفسًا ملحميًا فعلًا كما أوردها في مذكراته بعنوان "المنار"([27]).

فالدكتور (حسن الحسن) المولود عام 1919 في قرية حصين البحر، التي تبعد عن طرطوس مسافة 12كم شمالًا وتتربع على رابية مطلة على البحر تأخذ شكل نجمة، كما يقول الدكتور (حسن) في مذكراته، بدأ بتعلم قواعد اللغة العربية عام 1932 بعد أن أتمّ حفظ القرآن الكريم، وتزوج عام 1937، فحاول أن يكون رجل دين بداية لكنه أقلع عن ذلك محتفظًا بإيمانه وتقيته في سريرته ليتعلم حِرفًا مهنيّةً عدّة يستطيع من خلالها تأمين لقمة

[26] ـ: الدكتور حسن الحسن هو طبيب، وأحد الوجوه الاجتماعية المدنية البارزة في طرطوس في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو من مواليد عام 1919م في قرية حصين البحر التابعة لطرطوس.

[27] ـ: المنار" مذكرات الحاج الدكتور حسن الحسن، إصدار دار قرطاج، طرطوس 2004م

العيش مع زوجته، لكنه لم يُوفق في ذلك، وعلى الرغم من الصعوبات فقد كان يواظب على التعلم والمطالعة، إلى أن رُزق بأول مولود له عام 1938، الأمر الذي منحه دفقة أمل مشرقة في الحياة، وزاد من حماسته لمزيد من طلب العلم فقرّر عام 1939 تعلم اللغة الفرنسية على يد الأستاذ (حنا قليزح) من طرطوس الذي كان يعمل مدرّسًا في قرية حصين البحر، ثم تابع تعلم اللغة الفرنسية عام 1940 في مدرسة "السودا" عند الأستاذ (نقولا شحود) الذي وافق على إدخاله المدرسة إلى جانب طلاب الصف الخامس الابتدائي، وكان يمشي يوميًا من قريته إلى السودا ويعود في طريق وعرة إلى نهاية العام الدراسي حيث تقدم إلى امتحان الشهادة الابتدائية في اللاذقية ونجح فيها عام 1941. فكبر طموحه أكثر بهذا النجاح الأولي ثم طلب من والده مساعدته ودعمه في إتمام دراسته الابتدائية في طرطوس، وهذا ما كان... إذ استأجر بيتًا في طرطوس وصار يأخذ دروسًا خاصة في بيته بداية على يد الأستاذ (فايز إصطفان) الذي كان معيدًا في "اللاييك"، فأنهى له دروس مواد المرحلة الإعدادية في عام واحد لقاء مبلغ 200 ليرة سورية، ثم أدخله طالبًا نظاميًا في (اللاييك) وحصل على شهادة البريفيه – الإعدادية منها في حزيران 1942، ثم أكمل دراسته في (اللاييك) حتى حصل على شهادة البكالوريا – القسم الأول عام 1944.

ثم انتسب إلى التجهيز الأولى بدمشق ليدرس فيها مقيمًا، تاركًا زوجته وولديه عند والده في القرية، ويحصل منها على شهادة البكالوريا القسم الثاني وهنا يقول بالحرف: "إن دخولي إلى التجهيز الأولى بدّل الكثير من حياتي إذ فاجأني بما لم أكن أنتظره ولا أعلمه من قبل وكان الطلاب الليليون من كل أنحاء سوريا"[28].

ثم يتابع مستعرضًا دهشتهم منه عندما عرفوا أنه علوي؛ لأن نظرتهم أو فكرتهم المسبقة كما وصلت إليهم عن العلوي مختلفة تمامًا، فبدا يتودّد إليهم ويشرح ما وجب شرحه بهذا الخصوص من أجل تغيير النظرة الملتبسة وغير الصحيحة عن شخصية العلوي الذي هو في النهاية مسلم يقول بالشهادتين ويؤدي الواجبات والفرائض المطلوبة من المسلم، وكانوا ينصتون إليه بانتباه وتفهم.

نجح في البكالوريا القسم الثاني عام 1945 وعاد بعد ذلك إلى القرية حيث ابتهج أهله وأقرباؤه بنتيجته هذه، الأمر الذي دفعه لأن يكمل في جامعة

[28] -: المرجع السابق ص87.

دمشق بكلية الطب مدعومًا مرة أخرى من والده وأهله جميعًا، وفي الجامعة لاحظ النظرة الملتبسة نفسها عن العلويين من زملائه وأساتذته لكن بدرجة أخف من التجهيز يسميها الاستغراب من كون طالب علوي يدرس الطب كما يقول، فكان هذا مدعاة لحوارات هادئة بينه وبينهم كوّن من خلالها صداقاتٍ قويّةً ومتينةً مع الكثير منهم ولا سيّما أنهم كانوا ينصتون بانتباه إلى حديثه ويتفهمونه جيّدًا، وهنا بدأ يتملكه شعور بالمسؤولية بضرورة لعب دور اجتماعي نشط يهدف إلى إخراج أبناء طائفته "من حالة الانزواء في الظل والظلام إلى حيث تغمر الأشعة جميع الكائنات"([29]) حسب تعبيره. فوضع لنفسه هدفًا يتلخص في ثلاث نقاط أعرضها هنا كما كتبها حرفيًا:

"ورأيت أن قيامة العلويين لا تقوم إلا على أركان ثلاثة:

1-: ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية بالعلن لا بالاختباء.

2-: طلب العلم واكتناز الثقافة.

3-: السكن في المدينة بكثافة والاشتراك مع الآخرين في صنع الحضارة والحب والتلاقي فيما بينه وبين كل فئات الشعب فيخرج من جموده في القرية ويتفاعل مع كل المواطنين."([30]). وعندما تخرّج في كلية الطب عام 1952 يحمل شهادتها كانت حياته كما يستعرضها في مذكراته ترجمةً عمليّةً لتلك الأهداف الثلاثة التي رسمها لنفسه منذ سكن طرطوس وافتتح عيادته فيها في كانون الثاني عام 1953، بالإضافة إلى اهتماماته المتعددة في شؤون قريته حيث كان يسهم مساهماتٍ فعّالةً في افتتاح مدارس حديثة فيها للذكور وللإناث، وفي شق الطرقات من وإلى قريته وغير ذلك من المتابعات الأخرى.

وتتوّج نشاطه الفعال في طرطوس بالتعاون مع العديد من الشخصيات الأخرى، وعلى الرغم من العديد من المضايقات والصعوبات والعراقيل أمام بناء جامع الإمام علي بن أبي طالب في طرطوس تم الحصول على الترخيص اللازم لذلك من وزارة الأوقاف بتاريخ 1954، وشراء الأرض المخصصة بمساحة 975 مترًا مربعًا في العام نفسه من وقف المجلس الملّي للروم الأرثوذكس التي كان رئيسها آنذاك الصيدلي (خير الله الضيعة) بمبلغ 5000 ليرة سورية، وبإشراف المهندس (محمد حاج صالح) من طرطوس الذي وضع المخطط الهندسي للبناء كما هو قائم الآن في حي الرمل، حيث

---

[29] -: المرجع السابق ص 95.

[30] -: المرجع السابق ص95.

انتهى البناء فيه عام 1964، فكان أول جامع يبنى للعلويين في مدن الساحل السوري كما يقول، ثم تلته جوامع أخرى في بانياس وجبلة واللاذقية والقرداحة وحمص وصافيتا .. إلخ.

من تجربة المربي الكبير الأستاذ (منير الحموي)

كنت قد ذكرت في المقدمة أنه منذ عام 2004 كانت تشغلني فكرة القيام ببحث اجتماعي عن بدايات الاندماج الاجتماعي والتشكل المدني في الساحل السوري عمومًا وليس في طرطوس فقط على أن أقوم بإجراء لقاءات مع شخصيات قديمة كان وما يزال لها حضور اجتماعي ثقافي فاعل، لذلك كنت قد أجريت منذ ذلك الوقت القليل من اللقاءات التي احتفظت بالمدون، والأهم فيها وإحداها كانت مع شخصية مجتمعية تربوية وثقافية مهمة كما جسدها في سيرة حياته أستاذ اللغة الفرنسية في مدارس طرطوس منذ ثلاثينيات القرن العشرين الأستاذ القدير (منير الحموي) قبل وفاته بأعوام، حيث كان اللقاء بحضور وتسهيل من قبل المربي والأستاذ القدير(رزق الله معماري) فله مني جزيل الشكر.

لذلك فالسطور التالية هي خلاصة أجوبة بخط يده عن أسئلة كنت قد كتبتها له، كما هي خلاصة حوار شفهيّ معه عندما سلمني إجاباته بتاريخ 6 / 12 / 2004.

يقول الأستاذ الحموي:

كانت بداية تعرفي على الثقافة والأدب في النصف الثاني من الثلاثينيات بعد أن تخرجت من دار المعلمين باللاذقية وباشرت بالتعليم في اليوم الأول من تشرين الثاني عام 1934، وكان الدافع إلى ذلك ما بذله المدرّسون من فرنسيين وعرب من نصائح وإرشادات تحثّنا على التزود من العلم والمعرفة، فصادف ذلك هوى في نفسي ورغبة في اكتساب المعرفة إلى أقصى حد ممكن.

ويطيب لي هنا أن أذكر أحد هؤلاء المدرّسين وهو السيد (لاترويت Latrouite)، وكان ينتمي إلى جماعة المفكرين الأحرار، وما أفضل وأنبل ما كان يغرسه في نفوس طلابه من بذور المحبة للوطن والتضحية في سبيله.

وكان من الطبيعي في تلك المرحلة أن يكون اختلاطي بفئة من الإخوان الذين يجمعني بهم الانسجام الفكري والرؤيا الواحدة والتطلع إلى مستقبل أكثر رقيًا، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأديب محمد المجذوب،

والأستاذين في مدرسة (اللاييك) أحمد الجندي وصالح العلي والأستاذ إبراهيم الحامد ولاحقًا الشاعر الكبير نديم محمد، وغير هؤلاء من الزملاء الكرام.

قضيت شطرًا من حياتي في مدينة طرطوس مما يجعلني أهلًا للتحدث عن طبيعة العلاقات الاجتماعية التي عايشتها من حيث الوضع الطائفي من مطلع الثلاثينيات، التي ما تزال قائمة على حالها إلى يومنا هذا، والواقع إن طرطوس بتعدد طوائفها ومذاهبها وبتنوع سكانها من أصليين ووافدين إليها من القرى والمدن السورية القريبة أو البعيدة لم تعرف الطائفية في يوم من الأيام، بل كانت -دائمًا- مثالًا يحتذى به في وحدتها الوطنية ومتانة أواصر الألفة بين أبنائها، يدل على ذلك ما نراه اليوم وبعد مرور أكثر من سبعين عامًا من تبادل الزيارات بين مختلف شرائحها، العلاقات التي أضحت سنة وشريعة حتى في عهد الانتداب الفرنسي.

ومن ذكرياتي في هذا المجال أن الشيخ عبد الله المجذوب والخوري جبرائيل ضوميط وهما معلمان في إحدى المدارس الابتدائية كانا يتجولان بين التلاميذ خلال فرص الاستراحة وقد تشابكت ذراعاهما وكان ذلك في الأعوام من 1935 حتى 1937، أي في زمن الحكم الفرنسي.

وكان يتم تبادل الزيارات بين مختلف الطوائف خاصة في الأعياد، وكانوا أحيانًا يخرجون بشكل مشترك للتنزه في البرية بمناسبة بعض المواسم الدينية مع عرض مشاهد مختلفة في الكرنفال والتنكر ...

كان النشاط الأدبي في الثلاثينيات مقتصرًا على حفلات التأبين والحفلات الدينية وعلى بعض المحاضرات تلقى في مدرسة (اللاييك) خاصة من قبل محاضرين سوريين ولبنانيين وأجانب.

أما الصحف التي عرفها الساحل السوري فقد كانت متنوعة، فمن دمشق "القبس" و "الإنشاء" و "الدبور" ، ومن اللاذقية "المنار" و "الرغائب" و "الاعتدال" و "اللاذقية" و "الشاطئ" وجميعها منذ الأربعينيات.

ومن مصر "المقتطف" و "الهلال" و "الرسالة".

وبعد الأربعينيات ازداد عدد القراء وكثرت الصحف والمجلات التي تصل الساحل السوري عمومًا والواردة من مصر ولبنان والخليج العربي إلى جانب الصحف والمجلات السورية.

كان كتابا: "مجاني الأدب" و "جواهر الأدب" وهما من تأليف الآباء اليسوعيين من أولى الكتب المطبوعة التي يجب أن يقرأها الطالب في مختلف المدارس السورية من عربية وأجنبية وذلك خلال العشرينات،

وربما كان كتاب "مجاني الأدب" أول كتاب مطبوع قرأته وهو يتضمن مجموعة من القصص التاريخية والأدبية ومن الأبيات المتفرقة ومن الحكم والامثال.
قبل أن تكون "اللاييك" كان في طرطوس قبل الثلاثينيات مدرسة خاصة انشأها السيد يوسف البالي والدكتور قيصر محلوض، ثم نشب الخلاف بينهما وانفرد الدكتور محلوض بالمدرسة وباعها إلى البعثة العلمانية "اللاييك".
وتابع السيد يوسف البالي مسيرته التعليمية فأسس مدرسة خاصة في البساتين من أعمال بانياس، نقلها بعد ذلك إلى بانياس عام 1930، ثم ابتاع السيدان دعاس بشور و فايز إصطفان مدرسة (اللاييك) وحولاها إلى مدرسة خاصة لا تزال حتى اليوم، وقد تخرج من مدرسة المعلم يوسف بطرطوس نخبة من الطلاب الذين يُعدون الرعيل الأول من المتعلمين بطرطوس، كما تخرج من اللاييك مجموعة أخرى من الطلاب تولوا فيما بعد مناصب عالية في مجال النيابة والإدارة والجيش والقضاء.
وكان الاقبال على (اللاييك) شديدا، يفد إليها الطلاب من لبنان وسورية، وكانت الدروس باللغتين العربية والفرنسية، وتعتمد في ذلك على فئة مختارة من الأساتذة والمدرسين من سورية ولبنان وفرنسا.
منذ الأربعينيات كان في طرطوس دارٌ للسينما حملت اسم سينما الأمير تبعتها على التوالي ثلاث دور أخرى هي العباسية والكحلة والصفطلي، وكانت أغلب الأفلام المعروضة آنذاك إمّا أفلام رعاة البقر وإمّا أفلام طرزان مع بعض الأفلام الغرامية.
ومن وسائل الفرجة الأخرى للكبار وللصغار كان يوجد -أيضاً- صناديق العجائب – الحكواتي – أبو حشيش "كراكوز" ترقيص السعادين في الشوارع.
كانت المدارس الرسمية قليلة في طرطوس في ذلك الوقت، حيث اقتصرت بدايتها في العشرينيات على ابتدائية للبنين وابتدائية للبنات ثم تجهيز للبنين وتجهيز للبنات في الأربعينيات.
وكذلك الأمر للمدارس الخاصة التي اقتصرت على مدرسة (اللاييك) التي سبق ذكرها، وراهبات القلبين الأقدسين في الثلاثينيات، ومدرسة ابتدائية للأرمن في الثلاثينيات أيضا، وكان في طرطوس مكتبة أنشأها الفرنسيون تضع كتبًا في العربية والفرنسية يرتادها من يشاء من طالبي العلم ومركزها سرايا الحكومة.

وفيما يخص التجاوب مع نمط الحياة الحديث الذي كان بدأ يظهر في ذلك الوقت كان هناك ثلاث فئات من الناس:
الأولى هي فئة الطاعنين في السن الذين كانت استجابتهم معدومة مع الحديث، فآثروا المحافظة على التقاليد والعادات والمفاهيم القديمة للمجتمع، وعدّوا التخلي عنها من باب الكفر والإلحاد والإخلال بالشرف والفضيلة.
الثانية وهي فئة متوسطي الأعمار الذين أخذوا جانب الاعتدال فكانت استجابتهم ضعيفة وفضلوا أن يقفوا بين القديم والحديث إلى حدّ ما.
الفئة الثالثة وهي التي تضم الجيل الناشئ أو جيل الشباب، فهؤلاء بالغوا في التطرف وتخلى شطر كبير منهم عن القديم نهائيًا، وأخذوا بمظاهر الحضارة الحديثة من دون جوهرها، فاكتفوا بالقشور معرضين عن اللب.
كان أبناء الساحل السوري -عمومًا- شديدي التأثر بأفكار النهضة المصرية الحديثة وشخصيّاتها، إلى حدّ كانت الأكثرية تردد أسماء مصرية جديدة عليها من أمثال شوقي وحافظ وطه حسين والعقاد والمازني والحكيم ومحفوظ وغيرهم الكثير الذين أخذت مؤلفاتهم تتدفق كالسيل على جميع ربوع العالم العربي ومنه سورية وأهلها وساحلها.

تجربة المرأة الشاردة (مريم علي حسامو)
بتاريخ 1 / 4 / 2017 التقيت مع مدرس التاريخ السابق، قبل وفاته بعام ونصف تقريبًا، الأستاذ (مصطفى أبو خضر) في منزله بطرطوس، وكان حواري معه حوارًا مفيدًا جدًّا من خلال استعراض أفكارٍ من ذاكرته عن مدينته ونشأتها وتحوّلاتها.
ولعله من الحكايات المهمّة جدًّا التي رواها لي، التي تُعدّ نموذجًا لرحابة الاندماج الاجتماعي مدنيًا في طرطوس بشكل مبكر الحادثة التالية:
(مريم علي حسامو) هي بالأصل من قرية "البطحانية" في ريف طرطوس الجبلي، جاءت من قريتها إلى مدينة طرطوس عام 1950 عندما كانت في سن العشرين، هاربة من الفقر والتخلف والقهر الذي يترجمه زوجها عليها بالضرب المبرح يوميًا.
وعندما تمكنت من الهرب والوصول إلى طرطوس آنذاك مشيًا على الأقدام وهي حافية القدمين لفتت انتباه أحد أصحاب المحلات القريبة من طريق اللاذقية – طرطوس القريب من حي البرانية حاليًا وهو من بيت الجندي، فاستوقفها وسألها عن حاجتها وسبب مشيتها كالشاردة هكذا.

وعندما حكت له ما جرى لها أوصلها إلى زوجته وكانت من بيت آل "الخضر"، فاستقبلتها ورحّبت بها وعاشت معها في البيت حتى توفيت صاحبة البيت.
هنا انتقلت للعيش الدائم في بيت أخ صاحبة البيت التي توفت، وقضت عمرها كله عزيزة كريمة فردًا من الأسرة، إذ كانت تهتم بتربية الأطفال الذين كانوا يبادلونها حبًا بحب وتقديرًا بتقدير، مع أنها كانت دائمًا تفضل الذكور على الإناث وتميّزهم باهتمامها الخاص لهم.
حتى أنه صار يتكون عندها أحيانًا، بفعل العشرة الطويلة، ردّات فعل عصبية وحادة مع الجميع مثلها مثل أي فرد في الأسرة، والكل كان يتقبل منها ذلك ويستوعبها على هذا الأساس.
وقد كان لها راتبها الخاص إلى جانب مصروفها الشخصي وخزانتها الخاصة، ومن خلال مضيفيها وعلاقاتهم الواسعة في المدينة صار لها مبادراتها الخاصة بحيث تعرفت على أغلب العائلات في طرطوس واندمجت بشكل كبير وواسع مع مجتمع المدينة.
تعرّف أهلها على مكان تواجدها بطرطوس بعد ذلك، وعندما لاحظوا المكانة الكبيرة التي تتمتع بها بين أهلها الجدد من آل الخضر بطرطوس لم يطلبوا منها أو يلحّوا على عودتها إلى القرية، ثم إنها لم يخطر ببالها العودة أبدًا سوى زيارات خاطفة عدّة للقرية تعود بعدها إلى أهلها الجدد.
من جهتي رأيت هذه الشخصية المتميزة بشكل سريع عندما كنت في اللقاء نفسه الذي أتكلم عنه الآن في بيت الأستاذ (مصطفى خضر)، وبعدما دخلت علينا (مريم) وكان ينادونها أيضًا بـ (فضة) وسلمت علينا وحدثتنا مع ابتسامة جميلة بشكل واعٍ وهادئ لاحظتُ أنها ما زالت محافظة حتى ذلك الوقت على لهجتها القروية وكأنها نزلت من القرية منذ يومين.
وبعد حديث سريع استأذنتنا بالخروج كي تصلي وقت المغرب، حيث كان الوقت -فعلاً- وقت المغرب .
ثم فهمت أن شخصية (فضة) شخصية مركبة رحبة رائعة غنية إنسانيًا، وجميلة مليئة بالمحبة والوفاء لكل من حولها، وتألق هذا الجانب فيها أكثر عندما التقت صدفة في بداية حياتها بمن يتفهم فيها هذا الجانب ويعاملها بكل محبة وتقدير ووفاء. لذلك فإن الأستاذ (مصطفى خضر) بعقله المنفتح ووجدانه الإنساني الرهيف كان يراقب تصرفاتها وأسلوب تعاملها مع الجميع بهدف التعمق في فهم شخصيتها لدرجة أنه كتب قصيدة قصيرة باللغة المحكية تلخص شخصيتها المركبة هذه بلسانها، فالقصيدة فيها تحليل

لتناقضات هذه الشخصية الإنسانية البسيطة في لحظات قهر وضعف أو لحظات قوة وبأس وتألق، كتبت بصيغة "أنا فضة..."، قصيدة تفيض حبًا بهذه الشخصية في الوقت نفسه الذي ترصد فيه سلبياتها وتناقضاتها.

وبعد شهور عدّة علمتُ أن (فضة) مريضة جدًا من خلال زيارة ثانية لمنزل ذلك الشخص الكريم الأستاذ (مصطفى خضر) أخبرني أن الاهتمام بها من قبل الجميع وهي مريضة يفوق الاهتمام بأي شخص آخر في البيت، فهي عاشت في هذا البيت عزيزة كريمة وكانت تقوم بتربية أطفال الأسرة كلهم الذين يبادلونها المودة والتقدير لنسبيهما، وعندما تحين ساعتها فستموت عزيزة كريمة أيضًا.

وبتاريخ 13 / 10 / 2019 توفيت مريم علي حسامو (فضة) وقد نُعيت باسم "عموم آل حسامو و(أبو بكر) و(أبو خضر) و(الجندي) و(خليل) في طرطوس وقرية البطحانية"، كما ذُكر في ورقة النعي اسم حفيدها (عبد الجليل عبد الرزاق خليل) الذي هو آخر طفل ربّته في بيت الأسرة الذي عاشت فيه، إذ تعلق بها وتعلقت به.

وقد كتب على ورقة النعي أيضًا: تقبل التعازي في صالة الرحمة بطرطوس لمدة ثلاثة أيام للرجال.. وثلاثة أيام للنساء في منزلها.

وكنت أنا -كاتب هذه السطور- أحد المعزّين فيها في صالة الرحمة، ورأيت وفدًا صغيرًا من أهلها في القرية يستقبل المعزّين إلى جانب من عاشت معهم طيلة عمرها باندماج كامل.

عرضت هذه الحكاية الواقعية باقتضاب لأشير إلى مثال واحد من أمثلة بدايات الاندماج الاجتماعي والتشكّل المدني الحديث في مدينة طرطوس منذ أواخر النصف الأول للقرن العشرين، ولأدلّل على سعة الرحابة الإنسانية التي كان يتمتع بها أبناء مدينة طرطوس.

الفصل الثالث

صور من الحياة الاجتماعية - السياسية في طرطوس حتى خمسينيات القرن العشرين

يرى الكثير من المنظّرين أن الحياة السياسية في أيّ مجتمع مدنيّ حديث التكون هي التعبير الأرقى لأشكال التفكير الاجتماعي الحاصل فيه، لما تتضمّنه من حالة صهر مجتمعيّ لمختلف الطيف الموجود فيه على خلفية الاندماج المدني الحاصل، خصوصًا أنها تقوم أساسًا على تجاوز حال الانتماءات الريفية وموروثاتها القبلية الأولى، دينية، وطائفية، وعشائرية، وعائلية، الموروثات التي يحملها المهاجر معه إلى المدينة، فهي بذلك تنقل الاصطفافات المجتمعية من حال الاصطفافات العمودية القائمة على أساس الهويات الدينية والمذهبية والعشائرية والعائلية إلى مستوى متقدم من الاصطفافات الأفقية القائمة على أفكار المواطنة والقناعات الفكرية والثقافية والسياسية.

وطرطوس، كما مرّ معنا، هي كغيرها من المدن المتشكلة حديثًا على شريط الساحل السوري منذ بدايات القرن العشرين، لذلك فقد بدأت تظهر فيها ميول سياسية متعددة ومبكرة منذ فترة الانتداب الفرنسي، ثم بدأت تنضج وتتوضح حدودها وتكبر بعد الجلاء وتأسيس الدولة الوطنية الحديثة في سورية، بحيث ظهرت فيها منذ منتصف الأربعينيات اصطفافات سياسية مبنية على ميول سياسية واضحة تتوزع بين أكبر تنظيمين في منطقة طرطوس آنذاك وأقواهم وهما "الحزب الشيوعي السوري"، و"الحزب القومي الاجتماعي السوري".

ولأن الكتابة عن تجربة الحياة السياسية منذ تلك الفترة تحتاج إلى كتاب مستقل أوّلًا، ولكون أغلب أبناء جيل تلك الفترة غادروا الحياة ولم يبق إلا بضع ذاكرة شفهية متناثرة هنا وهناك عند الأبناء وما تلاهم فسأكتفي هنا بنقل بعض الصور القليلة التي استطعت الاطّلاع عليها وهي تتدرج في أربعة مستويات:

1-: مستوى النضال السياسي الوطني ضد الاحتلال الفرنسي.

2-: مستوى زعامات القوى التقليدية الموروثة التي كانت تتبوأ الانتخابات النيابية على أساس زعامات دينية طائفية وعشائرية أوّلًا، وبالاعتماد على

قوتها المادية الراجحة ثانيًا، وهذا ما يكشف هشاشتها البنيوية منذ البداية، وعدم قدرتها على إنجاز مشروع مجتمعيّ حديث ومستمر.
3-: مستوى الحوار السياسي الهادئ وموضوعه التبشير بأيديولوجية وليدة للفكرة القومية السورية.
4-: مستوى النضال السياسي الاجتماعي الراديكالي بمضمونه وأهدافه كما كان يجسّده الشيوعيّون الأوائل.

صورة من النضال الوطني ضد الفرنسيين
كانت ثورة الشيخ صالح العلي المسلحة في الجبال هي أبلغ وأقوى تعبير عن هذا النضال ضد المستعمر الفرنسي.
وفي هذا الخصوص يورد الأستاذ (محمد رئيف هيكل) في كتابه المذكور سابقًا إذ يقول([31]):
"قامت ثورة الشيخ صالح العلي مع آل المحمود منذ اللحظات الأولى منددة بالاستعمار الفرنسي والتقسيم، وكانت الصرخة الأولى في 15 / 12 / 1918 في وجه فرنسا، وحدثت الكثير من المعارك: الشيخ بدر الأولى والثانية، والقدموس، ووادي العيون، وطرطوس، ووادي جهنم، وبانياس، ووادي ورور، وقدمت الكثير من الشهداء منهم: مصطفى خير بك وابنته عزيزة، محمود ضو' عزيز بربر، علي زاهر، محمد علي إسماعيل، حسن أبو النصر، محمد خليل، أبو محمد قلاعي ... وكثيرين غيرهم ..، وكان عبد الرزاق المحمود سكرتيرًا للثورة ومشرفًا على الشيفرة والمراسلات التي ترد من الملك فيصل وغيره إلى الشيخ.".
ثم يتابع في مكان آخر قائلًا: "وكان الشيخ صالح إبّان الثورة عندما يأتي إلى طرطوس متخفيًا يقيم في منزل القاضي (نديم صيداوي) في حيّ البرانية، بجانب شارع الميناء، ويتصل سرًّا مع من يشاء، ويبيت فيه كفرد من أفراد الأسرة".
وهذا يعني أن ثورة الشيخ صالح العلي كانت مدعومة -أيضًا- بنشاط سياسي وطني معارض بشدة لسلطات الانتداب الفرنسي داخل طرطوس التي كانت قد بدأت تتكون وتنمو كمدينة حقيقية.
فبالعودة مرة ثانية لمحاضرة المهندس الأستاذ (علي السوريتي) التي أشرت إليها سابقًا يذكر أن بعض الأشخاص أو الطلاب الوطنيين في مدرسة

---

[31] -: "طرطوس ملتقى الحضارات" مرجع مذكور سابقًا الصفحات 92- 93.

(اللاييك) بإدارتها الفرنسية كثيرًا ما كانوا يرفعون العلم الوطني السوري في باحتها مع تنظيم مظاهرات داخل المدرسة تطالب بالحرية والاستقلال مما أدى إلى فصلهم من قبل إدارة المدرسة.
كما يذكر أنه في عام 1943 زار الرئيس الفرنسي الجنرال (شارل ديغول) مدينة طرطوس، وتوجد صور تظهر كيف تم استقباله بشكل منظم وبحشد رسمي طلابي شعبي يتقدمهم الضباط الفرنسيون وعائلاتهم والراهبات فالطلاب مع وجهاء المدينة ورجال الدين الإسلامي والمسيحي في الساحة أمام الكاتدرائية القديمة "المتحف حاليًا.
لكن الذي حصل أثناء ذلك أن أحد الأشخاص الوطنيين من "آل المحمود" الذين كانوا هم و"بيت الترجمان" في المدينة يؤازرون بشكل مادي قوي وفعال ثورة الشيخ صالح العلي في الريف رفع العلم الوطني السوري أمام الجنرال ديغول وقام مع ثلاثة شبّان معه بترديد شعارات ضد الاستعمار الفرنسي فتمّت ملاحقتهم بعد أن هربوا، ويبدو أن هذه الحادثة تركت انطباعًا قويًا لدى الجنرال ديغول بقوة الحس الوطني ورفض الاحتلال في طرطوس كما في سورية كلها، لذلك عجّل بعملية جلاء قواته عن سورية فيما بعد.
فطرطوس بتعداد سكانها الذي كان يتراوح بين 10000 – 15000 نسمة ساهمت مساهمة فعالة مع بقية المدن والمناطق السورية في الحصول على الاستقلال النهائي عام 1946.

عن تجربة الانتخابات النيابية في طرطوس

بالعودة إلى مذكرات حياة الدكتور حسن الحسن وسيرته في كتابه "المنار" المشار إليه سابقًا نلمح -أيضًا- صورةً من صور معارك الانتخابات النيابية في ذلك الوقت وكيفية تشكل الاصطفافات فيها وراء المرشحين، وسوف أقتبس مقطعًا مطوّلًا نسبيًا من المذكرات بشكل يكفي للإضاءة على هذا الجانب كونها بلسان أحد الشهود المهتمين الذين عايشوا تلك المرحلة بوعي تامّ لها.
يقول الدكتور الحسن([32]):

---

[32] -: الحاج الدكتور حسن الحسن "المنار" مرجع مذكور سابقًا، الصفحات 116، 117، 118، 119. حيث يتحدث صاحب المذكرات عن بعض التفاصيل في الانتخابات النيابية في طرطوس في ذلك الوقت وآلياتها.

"كان السيد (رياض عبد الرزاق) ذو قوة وغلبة في طرطوس وقضائها فهو يتمتع بغنى مادي زائد وينفرد في زعامة الطائفة السنية في طرطوس وثراؤه وتعدد موارده واتساع أملاكه المنتشرة في عشرات القرى جعلت أبناء هذه القرى يرتبطون به ربطا اقتصاديا سياسيا يصعب الفكاك منه.
حاول البعض من المسلمين السنة مغالبة رياض في الساحة السياسية فخسروا السباق. فلا السيد علي أغا المحمد – ابن عم رياض – ولا السيد محمود بك المحمود – قلعة الخوابي – ولا ولداه من بعده المحاميان أحمد وعبد السلام استطاعوا أن يقفوا أمام نفوذ رياض وبسطة يده على عموم القضاء.
استمر في زعامة المسلمين السنة – نقول بالمذهبية لأنها كانت الأساس في الانتخابات النيابية – ووقف معه إلى جانبه أكثرية المسيحيين لارتباط مصالحهم به ولكونه صاحب النفوذ الأول الذي تبرر المصلحة مداراته والالتفاف حوله ومثلهم كان الاسماعيليون يوالونه لحاجتهم إليه سياسيا واقتصاديا.
كان العلويون – الممزقون بالعشائرية – بعضهم معه وتارة ضده بحيث لا تلتقي العشيرتان معا في اتجاه واحد ... وكل عشيرة هي طائفة قائمة بذاتها فإذا ما ترشح ضد رياض زعيم عشيرة معينة استطاع رياض وسهل عليه شراء أصوات العشائر الأخرى، ولذلك كان هو النائب الدائم بلا منازع يأمر وينهي في دوائر الدولة ... والكل يطلبون رضاه – وموظفو الدولة لم يكونوا محصنين أمام مثل هذا النفوذ .... أما الطائفة السنية فكانت له إذ لا ينازعه فيها أحد منهم.
أعترف وأقول إنه كان يتمتع بأخلاق طيبة عصمته من الإضرار بالناس وجنبته إيذاء مشاعر الآخرين أو ضرب مصالحهم كما أنه كان مستقيما في سلوكه الخاص فزاد ذلك من تقوية نفوذه وانتشار ذلك النفوذ بين الطوائف... وأعترف أخيرا بأنني عرفته وصادقته – وأنا طالب – واحترمت دماثة أخلاقه لكني أبقيت فاصلا بيني وبينه لأنه اعتاد أن يكون أصدقاؤه أتباعا له، وهذا يخالف طبيعتي ...."

صورة من أدبيات الحوار السياسي في طرطوس آنذاك

بالعودة إلى التسجيل الصوتي الخاص من ذاكرة والدي، (أحمد علي حسن)، الذي أشرت إليه سابقًا يذكر من جملة ما يذكر أنه خلال مرحلة الانتداب الفرنسي على سورية صارت تتأسس أحزاب كالحزب الشيوعي والحزب

القومي السوري وحزب البعث، فصارت مجموعات الشباب في المدينة تتوزع على هذه التنظيمات، وهنا يذكر والدي أن لقاءً طويلاً استمر ساعتين في المنشية جمعه آنذاك بأحد الأعضاء في الحزب القومي الاجتماعي السوري واسمه (إلياس قلبزح) الذي حاول جاهدًا إقناعه بالانتساب إلى الحزب القومي السوري فكانت خلاصة اللقاء أن والدي أصر على فكرة أن الله خلق الإنسان حرًّا من كل قيد، والحزبية على الرغم من أهدافها النبيلة في خدمة المجتمع وإصلاحه أو تغييره إلا إنها في النهاية قيد يتعارض مع حريته الشخصية ومع ما يفكر به بصفته فردًا حرًّا، لذلك فخدمة المجتمع في حال الحرية أفضل وأهم من خدمته في حال القيد، فكان رد الأستاذ قلبزح قائلاً: "لا ألومك بل ألوم نفسي لأني لم أمتلك البيان الذي يستطيع إقناعك".
كان هذا اللقاء والحوار العقلاني الهادئ فيه كما عرضه والدي يشير إلى مناخ من الحوار السياسي المدني الرحب الغني والمفيد لكل الأطراف في ذلك الوقت.

صور من تجربة أحد الشيوعيين القدامى المؤسسين في طرطوس:
بداية أود أن أنقل حادثة جريئة وطريفة جرت في الجامع العمري بطرطوس عام 1954 كما نقلها لي بإعجاب أكثر من مرة الأستاذ (محمد رنيف هيكل) في لقاءاتي المتكررة معه وخصوصا بلقائي الأخير بتاريخ 4 / 10 / 2021:
فالذي حدث أنه استضاف مفتي طرطوس عام 1954 أحد ناشطي جماعة الإخوان المسلمين المصريين الهاربين من ملاحقة النظام المصري في عهد (جمال عبد الناصر)، ودعاه إلى الصلاة والخطبة في الجامع، وأثناء الخطبة تعرض الخطيب المصري بالذم للشيوعيين، وكان حاضرًا بين المصلين أحد الشيوعيين المتحمسين في طرطوس آنذاك وهو السيد (خضر لطش) الذي قاطع الخطيب المصري قائلاً: أنا شيوعي مسلم.
فرد عليه الخطيب قائلاً: لا أنت مسلم فقط.
فرد عليه السيد خضر: لا أنا شيوعي مسلم.
فرد عليه الخطيب قائلاً مرة أخرى: أنت مسلم فقط.
فرد عليه السيد (خضر لطش) بصوت عال وكأنه يهتف مؤكدا: لا!!!! أنا شيوعيييي مسلم.

مما جعل جمهور المصلين في الجامع، وكان الأستاذ هيكل بينهم كما قال، يضحكون بسخرية مضمرة من الخطيب وكانوا يصفقون للسيد (خضر لطش).
لكن ثمة صورة أخرى قد تكون أكثر تفصيلا ووضوحا، ولا تخلو من دلالات كبيرة وقوية تكفي لإعطاء صورة واضحة عن بقية المشهد الاجتماعي - السياسي في طرطوس في تلك الفترة، وذلك من خلال اطلاعي منذ عقد ونصف من الزمن على مخطوط غير منشور يعدّ مذكراتٍ شخصيّةً لأحد أبناء ذلك الجيل وهو المناضل الشيوعي القديم (محمد ياسين عبد الرحمن)، وأصله من قرية "رأس الكشوفة" التابعة إداريا لمنطقة صافيتا، لكنه كان يعيش ويعمل في حرفة التجارة في طرطوس. وكنت قد التقيت به قبل وفاته بعام في زيارة خاصة له نسيت تاريخها، فتحدثنا مطوّلا ثم أعارني مخطوطة مذكراته تلك لأقرأها وأعيدها له وهذا ما تم فعلا، لكني أثناء مطالعتي لهذه المذكرات التي أذهلني فيها المقدرة الذهنية على الإحاطة الاجتماعية السياسية الواسعة في منطقتي طرطوس وصافيتا وريفهما قمت بتسجيل بعض الفقرات القليلة منها على دفتر خاص، وعندما بدأت بالإعداد لهذا الكتاب حاولت جهدي الحصول على هذه المخطوطة مرة ثانية من بعض أقاربه أو معارفه لمراجعتها مراجعة دقيقة، لكني لم أستطع ويبدو أنها فقدت بعد وفاته.
لذلك فالسطور التالية هي بعض اقتباسات متفرقة سجلتها بخط يدي من مخطوطة مذكراته تلك، اقتباسات وجدتها بين أوراقي القديمة بطريق الصدفة أعرضها هنا كما سجلتها بكل أمانة ليطلع عليها القارئ بدلالاتها الواضحة والمقترحة بقصد فهم الحياة الاجتماعية والسياسية في طرطوس في ذلك الوقت.
يقول بداية أنه قصد طرطوس لأول مرة برفقة أخيه عام 1934 بعد أن كانت سنة 1933 سنة جافة أدت إلى أزمة خانقة تتحكم بالنفوس، فوجد أن طرطوس في تلك الفترة لم يكن فيها شيء يميزها عن "قرية متقدمة" كما يقول، ثم يضيف في مكان آخر "وكانت طرطوس لا تختلف بكثير عن قرية كبيرة" وأجرة الغرفة بالشهر كانت ليرة سورية واحدة وأجرة محل كبير ليرة ونصف شهريًا، كانت البيوت والمخازن على قلتها ليس لها من يستأجرها فكان بعض المستأجرين يطالبون بتخفيض الأجرة، كان ذلك عام 1939.

أما عن ميوله السياسية الباكرة فيلاحظ بداية أنه في عام 1936 ظهر على المسرح حركة "الكتلة الوطنية" المؤيدة للاستقلال وتوحيد البلاد السورية، كما برز بالمقابل دعاة الانفصال الذين يعارضون توحيد البلاد بدواعي اللامركزية لجعل محافظة اللاذقية "دولة العلويين المستقلة" بحماية فرنسا - طبعًا- وبوحي منها، كما يصف.
تشكلت ميوله السياسية على خلفية ذلك أولًا نحو "الحزب القومي الاجتماعي السوري" حيث كان يرى أن الإقبال على الحزب تكون نتيجته تقليصًا لنفوذ الزعامات المحلية وغزوًا لها في عقر دارها ... ويقول إن الثقافة الحزبية كانت تنصبّ على نفخ الروح الحزبية في نفوس الأعضاء وإيهامهم أنهم "أبناء الحياة".
لذلك يرى أن بعض المشايخ والزعامات في بعض قرى صافيتا كانت تحارب انتشار الحزب القومي الاجتماعي السوري فيها.
ثم يتحدث عن صراع بين ثلاثة اتجاهات سياسية مبكرة في منطقة صافيتا، هي الحزب القومي السوري، والكتلة الوطنية باتجاه وحدة سورية، ودعاة الانفصال بدعم من فرنسا، وكيف أن دعاة الانفصال دعموا الحزب ضد الكتلويين على الرغم من خلافهم معه، فقائمقام صافيتا آنذاك كان انفصاليًا يعطي الأوامر للحزب ضد الكتلويين مقابل ظهوره العلني كحزب في المنطقة، أما مدير ناحية الدريكيش فكان كتلويًا وكان يحارب ويطارد أعضاء الحزب على الرغم من كونه أقل مرتبة من القائمقام.
ثم يكتب حول الفكرة نفسها سطورًا تكشف عن وعيه المبكر ببعض تناقضات الحزب القومي السوري آنذاك، فيقول نصًا:
"فقد كان يوسف الحامد يتظاهر بأنه ضد الحزب لكونه من دعاة الانفصال، ويقاوم الكتلة الوطنية ويقاوم ابن عمه حامد المحمود لانتمائه، إلا أن أعضاء الحزب ومنهم خدمه ينتسبون للحزب فهل توصلوا بهذه العبقرية أن يعملوا سرًا ضد أوامره وهم شبه أميون؟".
ثم يذكر أسماء بعض أعضاء الكتلة الوطنية وهم: (عبدالله العبدالله، إبراهيم الخوري' بولس دبية، إضافة إلى (منير العباس) و(شوكت العباس).
-: "مع بداية الحرب العالمية الثانية وإبان اغتصاب لواء الاسكندرون هاجر الأرمن قاصدين طرطوس والمدن السورية ونزلوا على أبواب طرطوس من الجهة الشمالية واستوطنوا في الأراضي وبين أشجار الزيتون، كما كان يرافقهم عدد من العرب السوريين.

-: عام 1942 حصلت انتخابات عامة لانتخاب نواب في ظل الانتداب الفرنسي نجح (رياض عبد الرزاق) و(حامد المحمود).
-: في أواخر عهد الانتداب كان (إلياس جورجي) هو منفذ الحزب القومي الاجتماعي أو أمين الداخلية فيه في طرطوس.
-: أما ممثل الشيوعيين فكان (بدر مرجان). ويبدو أن الاثنين من لبنان.
-: عزالدين الحامد شغل منصب مدير ناحية طرطوس، ووالده يوسف نائب صافيتا، وخاله حامد المحمود نائب طرطوس، وذلك في عام 1942.
وحدث مرة أن ضرب (عزالدين الحامد)، صاحب المذكرات (محمد ياسين عبد الرحمن) على وجهه فأقام الأخير دعوى عليه، لكن الدعوى بقيت طويلاً في حال مدّ وجزر بين النائب العام بميوله إلى الكتلة الوطنية وقاضي التحقيق بميوله إلى الانفصاليين، الذي كان يخفي الدعوى ويقول بأنها لدى النيابة العامة، بينما النائب العام ينكر ذلك ويدفع بها ويقول بأنها في دائرة التحقيق.
وعندما تشكل وفد برئاسة أحد رجال الدين لحل مسألة الدعوى المقامة استطاع هذا الوفد بتدخل من قبل الأفندي (يوسف الحامد) أن يقنع المدعي بحل وسط وهنا يقول كاتب المذكرات بالحرف: "كما أن الأفندي بعد أن تدخل شخصيًا فقد يرى بتعنتي أني لم أبقِ له شيء من كرامته عندي، وكأنني لا أعرفه وهذا ضمنا لا ارتضيه.".
يمكننا هنا أن نسجل ملاحظة وهي أن مقومات الحياة المدنية الصحيحة لم تكن قادرة بعد على إنجاز قطع نهائي نفسي داخل الشخصية المركبة الطموحة مثله، مع جذر العلاقات الإقطاعية الريفية السابقة التي يحاول مغادرتها، لكن فجر العلاقات المدنية الوليد آنذاك كان كفيلاً بذلك ولو ببطء.
-: "قائد فصيل الدرك بطرطوس كان نقيبا اسمه (الحجي) لأنه اشتهر ظاهرا بالورع والتقوى أما باطنا فهو قاس لصالح الاقطاع والمشايخ الكبار".
-: "كان من أبرز أعيان العلويين في طرطوس أهالي قرية حمين وكان المرحوم الدكتور (وجيه محي الدين) قد جمعهم لتوحيد الكلمة وجمع شملهم في اتجاه لا محدود نحو العرب والإسلام، فكان منهم بعد وفاته جمع كلمتهم نحو حمين مهد العبقرية والنبوغ، كما يزعمون."
وعن تجربته بالحزب الشيوعي يكتب:
"(بدر مرجان) عام 1942 هو المعتمد والمنظم للحزب الشيوعي في محافظة اللاذقية وشمال لبنان، كان يسكن على جسر "تل الترمس". اجتمع

بدر مرجان مع (سعيد سمعان) ومع (وديع الورع) وعقدوا أول اجتماع في طرطوس في بيت المدعو (وديع الورع) وكانت حصيلة هذا الاجتماع تشكيل أول لجنة منطقية للحزب الشيوعي في طرطوس على الوجه الآتي:
عبد الكريم [illegible] عبدو الضيعة، محمد ياسين عبد الرحمن، أمين الحلاق، الياس قنيزح. وكان ذلك بدون قاعدة للفرق على أن تكون هذه المنطقية منطلقا لتشكيل الفرق الحزبية، أي إن هذه اللجنة المنطقية كانت نواة الحزب الأولى بطرطوس".

طيارة

-: "قرر الحزب الشيوعي بطرطوس الاحتفال بعيد الجلاء، شارك المحاميان أحمد وعبد السلام المحمود مع علي آغا المحمد بهذا الاحتفال، وجلب الآغا على نفقته الفرقة الموسيقية من طرابلس، وأقيم الاحتفال في مقهى (عبده الضيعة) وساحته، ألقى أحمد المحمود خطابا أشاد فيه بالمواقف الشيوعية وقال في آخر كلامه :"إذا كانت هذه الشيوعية كما علمنا فالله يشهد أنني الشيوعي الأول في طرطوس"، وألقى بعده الأستاذ (حسن لطش) كلمة المنظمة الحزبية، وكانت مكتوبة إلا إنه كان يضيف عليها كلمات ارتجالية فتخرج عن حدود المراقبة، فحمل على الحكام الرجعيين الذين يحاولون ربط الوطن بعجلة الاستعمار والاحتلال بقصد القضاء على قدسية الجلاء وطمس معالمه، وكان قائد الشرطة يسمع هذا التنديد مما دعاه إلى أن يأمر الشرطة باعتقال الخطيب ومصادرة الخطاب' إلا إنه تم تمزيق الخطاب ولم تستطع الشرطة من العثور عليه وقدّم الحزب احتجاجه على هذا التدبير الذي فيه امتهان لكرامة المواطنين .. وتمت الحفلة بسلام".

-: "كان (رياض عبد الرزاق) الزعيم التقليدي لطرطوس، ويرى الحزب أنه أصبح هدفًا ويجب تقليص نفوذه عبر تأييد من يطن مقاومته، وكان الأحق بهذا التأييد آل المحمود وهم يسعون لتوظيف طاقاتهم بالاستعانة بمن يستطيع مقاومته والأقرب إليه هو ابن عمه الآغا. لذلك أيدوه ودفعوه لترشيح نفسه لأنه الأقوى لتحمل نفقات المرحلة المادية، وقد تم ترشيحه واكتسبوا سمعة المعارضة في طرطوس، وبطبيعة الحال فكان الحزب يؤيد آل المحمود وكان بجانب صداقته مع آل المحمود، إذ انضم الحزب القومي السوري إلى رياض عبد الرزاق وأخذت المعركة طابعًا بين اليمين واليسار إذ كان بجانب رياض لنيس إسماعيل وبنفوذ ولده بديع إسماعيل، وكان موقف السلطة مؤيدًا لهذا الجانب ويقاوم الأفكار الشيوعية ضمنًا.
استفاد الحزب الشيوعي من دعمه لهذا المرشح بالسماح له بالنشاط في القرى لمدة شهر وتقوية تنظيماته وزيادة عددها ومقاومة رشوة الأصوات".

-: لم نكن نلقى من رياض عبد الرزاق أيّ عداء يوجه إلينا إلا اعترافه بأن الحزب الشيوعي كلفني بمقاومته أموالاً طائلةً وهذا هو النصر الذي أحرزوه. وهذا المال هو من الشعب وإليه. وإذا كان نجح وعاد نائبًا فالفضل بذلك يعود للمال، وكان رياض بذاته يعترف في عوامل نجاحه، وباعتماده على ماله كان يتحدى من يخاصمه. وكان الحزب إذ يعلن عن انتصاراته يستطيع أن يؤكد أنه لا يوجد شيوعيٌ قبض ثمن صوته".
-: المهندس (أنطون ثابت) وزميله (جورج قازان) من لبنان كانا يعملان في قصر البيك، ويشرفان على بناء قصر (رياض عبد الرزاق).
-: "حدثت مشادة على مشارف "الشيخ بدر" بعد قرية "بعزرانيل" بين وفد الحزب الشيوعي السوري ومجموعة من شباب الحزب القومي السوري كانوا يلاحقونهم في سيارة أخرى بعدما تم توجيه شتائم وإهانات للشيوعيين من قبل القوميين، فتم على إثر ذلك زيارة وفد من الحزب الشيوعي لمحافظ اللاذقية واسمه آنذاك (عادل العظمة)، وكذلك تمت مقابلة قائمقام طرطوس الذي أكد أن الانتخابات ستجري بكل حرية مع تأمين سلامة الناخبين".
-: "لقد كان الحزب الشيوعي يتمتع بتأييد شعبي في طرطوس وازداد نفوذه في أوساط بعض المسؤولين، ومنهم من كان يتظاهر بالتقدمية ليكسب رضى الشيوعيين".
ثم يعرض المناضل الشيوعي القديم (محمد ياسين عبد الرحمن) الذي كان قياديًا في منظمة طرطوس في فترة الأربعينيات والخمسينيات كما يُفهم من مذكراته صورةً من صور التضييق الشديد من قبل الأجهزة الأمنية المختصة آنذاك على كوادر الحزب الناشطة، أعرضها هنا لدلالتها المهمة في الكشف عن أساليب السلطات في مواجهة النشاط السياسي المعارض آنذاك.
ففي أحد الفترات يتم اعتقاله ليتم التحقيق معه من قبل ضابط مختص قام أثناء التحقيق بتعذيب وحشي له كما يصف في مذكراته لمدة ثلاثة أيام متتالية، فنشرت جريدة "نضال الشعب" الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوري تحقيقًا عن أسلوب المحقق الوحشي أحاله للمحكمة البدائية قيد المحاكمة، وكان رئيس المحكمة يدعى (عبد الحليم قدور)، وله صديق اسمه (أديب الأرسوزي) شقيق الأستاذ (زكي الأرسوزي)، إذ كان يتمتع بنفوذ لدى رئيس المحكمة وهما من أنصار الحزب العربي الاشتراكي، وكانت صداقته مع كاتب المذكرات (محمد ياسين عبد الرحمن) وكأنهما في حزب واحد، ويُعرفُ عن (أديب الأرسوزي) الذي يكنى (أبو فيصل) أنه كان

محترفًا في السياسة يتكلم ما يشاء ولا يخشى شيئا، لذلك يكتب عن لقائه به فيقول:
"فلقد تحدثت معه بما يجري وأطلعته على ما يحيكه (رمزي العظم) ممثل النيابة وما الدافع له إلا لاستيلائه على تخت من خشب الزيتون دون أن يكلف نفسه شيئًا من ثمنه، فنقل أبو فيصل (أديب الأرسوزي) هذه الملابسات إلى الرئيس وحصلت على وعد بأن القاضي لنزيه وله من مبادئه ووجدانه ما يطمئن نفسي كما أنه لا يخضع لأي ضغط يوجه إليه من أي كان، وللحصول على الغاية المنشودة كان بدوره ساعد على التعارف مع المحامي الأستاذ (درويش الذوني) الذي تبرع للدفاع علي وعن رفاق اتهموا للادعاء. وعقد موعد الجلسة برغم أن ممثل النيابة (رمزي العظم) وبظنه أني فريسة، كان الرئيس يتظاهر بالتجاوب معه فلم أكن أحسب له حسابًا إذ كنت على موعد مسبق ببراءتي. وقد توجه الرئيس نحوي قائلًا: ما هذه الأعمال التي تقود للإعدام؟
فقلت يا سيدي الرئيس إن الدعوى وما فيها من إدعاء ليست بأكثر من مؤامرة عليّ من شخص دبرها وحاكها لغاية في نفسه.
قال الرئيس: عليك أن تكشف عن اسم هذا الشخص كي تطلع المحكمة على ملابسات الدعوى.
قلت: يا سيدي الرئيس إني أرى أن التصريح عن هذه الشخصية لا يقل بخطورته عن الحكم عليّ من جانب المحكمة وعسى أن يكشف عن اسمه خلال سير الدعوى وتفرعاتها.
وكان واضحًا أن ما أعنيه أنه سيظهر حقده بشكل حماقة سيبديها خلال مطالعة النيابة وكان الأمر، فعندما وقف (رمزي العظم) قال: إن هذا الشخص الماثل أمامكم هو المعتمد للحزب الشيوعي بطرطوس وموظف لدي جريدة "نضال الشعب" وهو المسؤول لتأمين كل ما يتعلق بالحزب وأن محله مركز للشيوعيين تؤمه من المدينة والقرى المجاورة ليأخذوا منه تعليمات بكل ما يلزم من أمور حزبية وأن النيابة العامة ترى في القيام بهذه المهمات جريمة تستحق الإعدام، وبالإضافة لذلك فإن الأستاذ حمدي المحمود كان أعطى شهادة عن علم وتأكيد عن مسؤولية هذا الشخص، وهذه الشهادة كافية من الأستاذ لإدانته وهي واضحة في هذه الدعوى.
وهنا توجه الرئيس وقال: شو هادا يا محمد ياسين؟
فقلت له: كل ما في هذه المطالعة هو بمضمونه لا أساس له من الصحة ولا يتجاوز حدود المؤامرة وكما قلت إن التعريف عن هذه المؤامرة لا يقل

خطورة عن الحكم وعفوا من محكمتكم أن تعفيني عن هذا التصريح وتأخذ علمًا عن سير هذه الدعوى والتهويل بها.
وكان الرئيس على اطلاع عما نشرته الجريدة وما وصلت به رمزي العظم بالحماقة وسليل العائلة المتهارة وكان واضحًا أن الدعوى وكأنها بيني وبين رمزي العظم.
وجاء دور محامي الدفاع الأستاذ (رشيد اللوني) فقال:
إن هذا المنشور الذي تقوم الدعوى بموجبه وهو موقع بتوقيع الحزب الشيوعي السوري خارج عن نطاق طرطوس التي يقيم فيها محمد ياسين وليس له أية علاقة بها. أما نحن إذا أخذنا بواقع هذا المنشور وما احتواه وسلمنا بأنه موقع حتى باسمه فلا نرى فيه ما يستوجب المحاكمة إذ هو تمجيد بذكرى الجلاء والدفاع عن الاستقلال مع الانتقاد للحكام الذين يتعاونون مع المستعمرين، ولما كان الأظناء إنما سبقوا إلى هذه المحكمة بتهمة توزيع نشرات سياسية وكان الرجوع إلى هذه النشرات جميعها يتبين أنها تتعرض إلى جملة أمور:
1-: انتقاد صريح لرجال الحكم وطعن بجدارتهم ووطنيتهم.
2-: انتقاد صريح لسياسة الحكومة بصورة عامة.
3-: انتقاد صريح، بل وصف لحالة البلاد والمجتمع وعرضه لمآسي العمال والفلاحين والبطالة الخانقة التي يعانيها هؤلاء وأزمة الغلاء التي استفحل أمرها وانتقاد لتدخل الحكومة في الانتخابات ومحاولة جر البلاد لمشاريع استعمارية.
4-: تدخل الحكومة الإنكليزية في سياسة البلاد وخضوع رجال السياسة لأهوائها وتأمين مصالحهم.
5-: صدور هذه النشرات من الحزب الشيوعي وتوزيعها من قبل أعضاء هذا الحزب. إن ما احتوته هذه النشرات من الحزب الشيوعي يستهدف اطلاع الرأي العام أوّلًا والقيام بالدعاية الحزبية ثانيًا والتشهير بمفاسد الحكم وخطل رجال السياسة ثالثًا.
إن ما تشمله هذه البيانات من نقد وتجريح وتسفيه لرجال الحكم يقضي بجواز النظر فيه وإقامة دعوى بحق من تناولتهم تلك البيانات بدعوى شخصية وليس بإشارة القضية شكوى من أجل خدمتهم.
ثم يتابع المتهم الشيوعي (محمد ياسين) كاتب المذكرات في مكان آخر نهاية المحاكمة وصدور الحكم النهائي، فيكتب وكأنه ينقل من تفصيلات قرار المحكمة:

"أما انتقاد سياسة الحكومة الداخلية والخارجية فإن الدستور صان حرية النقد وإذا لم تضمن حرية الرأي والصحافة حقًا مثل هذا النقد فماذا تعني إذا؟. ولما كانت التهمة الملصقة بالأظناء كما ذكر آنفا فلا تطولها أية عقوبة قانونية وكان ليس لهم ادعاء شخصي من أحد من المطعون بهم من رجال الحكم، وكان الحاكم العسكري لم يضع يده على هذه القضية باعتبارها تؤثر على أمن الدولة، وكان القضية مقيدة بمقتضى القوانين النافذة.

ولما كان ما أسند إلى الأظناء لا يخرج عن مقتضيات ممارسة الحق بحرية الرأي والكتابة ولهذه الأسباب فإن المحكمة قررت البراءة مما أسند للأظناء.

وكان هذا القرار صفعة موجهة للنائب العام وطعنا بمطالعته وكنت قدمت نسخة منه مع دفاع الأستاذ (درويش الذولي) إلى جريدة نضال الشعب كما أخذت منه جريدة التلغراف اللبنانية وجريدة الشرق، كما نقل المهندسان أنطون ثابت وجورج قازان مضمون الدعوى إلى بيروت.

الفصل الرابع

بدايات النشاط الثقافي - الفني في مدينة طرطوس

أسماء ثقافية أدبية بارزة -:

إن مستوى الحال الثقافية المتشكلة في أي مجتمع يعكس في النهاية المستوى المدني المتقدم فيه في لحظته الآنية، كما يعبر عن تطلعات التجاوز والنهوض وآمالهما الدائمين باتجاه المستقبل المنشود.

ففي طرطوس بدأت تظهر منذ ثلاثينيات القرن العشرين أسماء ثقافية بارزة ومهمة، بعضها من داخل المدينة، وبعضها من أصل ريفي نزح باكرًا إليها، وكان ظهور هذه الأسماء آنذاك أبلغ دليل على نضوج تشكل مدني حقيقي ناتج عن حراك الاندماج الاجتماعي الحاصل.

وسوف أستعرض في السطور التالية أهم تلك الأسماء النهضوية والرائدة فعلًا، التي تتوفر مراجع عديدة عنها على النت سوف أعتمد عليها.

لكني آثرت أن أبدأ بما جاء في محاضرة للأديب الأستاذ (علم عبد اللطيف) بعنوان "أعلام النهضة الثقافية في طرطوس مع تأسيس الدولة السورية الحديثة" كان قد ألقاها -أيضًا- في قاعة طرطوس القديمة بتاريخ 2 / 10 / 2018 ضمن فعاليات جمعية العاديات بطرطوس، وكنت قد استمعت جيّدًا إليها وسجلت ملخصًا بعض أهم ما جاء فيها خصوصًا تجربة مجلة النهضة وصاحبها الدكتور (وجيه محي الدين)، وتجربة الأديب والكاتب (محمد المجذوب)، وتجربة الأديب الدكتور (محمد حاج حسين) ..

1-: الدكتور وجيه محي الدين 1908 – 1939 وهو من مواليد قرية "جورة الجواميس" التابعة اليوم لطرطوس، تلقّى دراسته في مدرسة "الفرير" بطرابلس ثم انتقل إلى مدرسة "عين تورة" بلبنان، ثم عاد ليتلقى علومه في كلية الشرق الوطنية بطرطوس حيث حصل على شهادة البكالوريا عام 1929، ثم انتسب إلى كلية الطب بدمشق التي تخرج منها طبيبًا عام 1936، وكان شابًا تملؤه الحماسة للعمل الوطني ولمحاولة تغيير الواقع البائس للمحيط الذي ولد فيه، لذلك قرّر إصدار مجلة "النهضة"، يقول في مقال افتتاحي في العدد الأول الصادر من المجلة بتاريخ في شهر تشرين ثاني 1937 إن فكرة إصدار مجلة كانت تساور نفسه منذ مطلع دراسته الطب، ثم يستعرض أهدافه التنويرية من إصدار المجلة التي تتلخص بالكفاح ضد الرجعية والطائفية الممقوتة، وبث روح التآلف والإخاء

بين مختلف أبناء الشعب، وستكون هذه الصحيفة منبرًا حرًّا تتبارى فيه مختلف الأقلام الأدبية والثقافية العالية التي تضحي من أجل تحقيق المثل العليا، على أمل أن نتوصل إلى إصدار الصحيفة بشكل أسبوعي تثير مختلف المواضيع حتى السياسية منها خدمة للشعب والبلاد.

كان (وجيه محي الدين) مثقفًا طليعيًا وشاعرا رقيقًا كما يبدو من قصائده المنشورة في مجلة النهضة، صدر من المجلة منذ تشرين ثاني 1937 وحتى وفاة الدكتور وجيه محي الدين /10/ عشرة أعداد فقط حيث كان صاحبها ومديرها المسؤول، بينما كان الشاعر حامد حسن رئيس التحرير في العدد الأول، ثم تناوب على رئاسة التحرير فيها كلّ من الشاعر نديم محمد، ومحمد عبد الرحيم، وعبود أحمد، ويوسف أحمد علي، وبعد وفاة الدكتور (وجيه) أكملت المجلة صدورها في ثلاثة أعداد، وكان صاحباها -آنذاك- المحامي (زاهي عرنوق) و(محي الدين محي الدين) منذ نيسان 1939، ومدير الإدارة المحامي (يوسف تقلا) من حمص، وسكرتير التحرير (محمد عبد الرحيم)، ثم توقفت عن الصدور بعدها في تموز 1939.

حفلت المجلة بمواضيع مهمة ومتقدمة في موضوعاتها الثقافية والمعرفية التنويرية، فمثلا كان في العدد الأول دراسة بعنوان "مذهب النشوء وأثر الوراثة"، و"هل حققت المدنية كل أحلام الإنسانية"، و"أثر الفرد في المجموع"، و"الفيلسوف ابن سينا بعد 900 سنة من وفاته"، و "المنزل والمدرسة"، و"الأدب الشعري في هذه البلاد"، و"علماؤنا والتأليف"، و(العراك العالمي بين الأدبين البرجوازي والشعبي"، يُضافُ إلى ذلك الهوية الأدبية الواضحة للمجلة من شعر ونثر وترجمات، وقد لاقت قبولا وإقبالا لافتين من مثقفين وأدباء متعطشين للكتابة يقدّمون إبداعاتهم وإنتاجاتهم، لذلك كان لتوقفها بعد وفاة صاحبها الدكتور (وجيه محي الدين) ما يشبه الصدمة عند كل المتحمسين لها لأنه كان يهمهم أن تبقى مشروعًا ثقافيًا تنويريًا في منطقة لا توجد فيها صحافة ولا مجلات، لأنها كانت منبرًا لأفكارهم وإنتاجهم الأدبي.

يشار -أيضًا- إلى أن الدكتور (وجيه) قد فتح عيادة طبية في مدينة طرطوس، وكان يهتم بمرضاه كثيرًا، خصوصًا الفقراء منهم الذين قلما كان يتقاضى أجور المعاينة منهم كما ذكر ذلك (زاهي عرنوق) و(محي الدين محي الدين) في العدد الذي صدر بعد وفاته مباشرة، وعندما اجتاح مرض التيفوئيد جزيرة أرواد سنة 1938 ذهب بنفسه إليها لمداواة المرضى

المصابين فيها حيث بذل جهده، لكنه أصيب بالمرض بالعدوى فتم نقله إلى بيروت للمعالجة لكنه توفي بالمرض الذي أراد إبعاده عن الناس.
محمد المجذوب 1907 – 1999 هو أديب سوري ولد في طرطوس في بيت يعمل في التجارة وله صلة بعلوم اللغة العربية، تلقى دراسته الأولى في الكُتّاب ثم في مدارس الدولة العثمانية ثم على الشيوخ ومنهم عمه الشيخ (عبد الله المجذوب)، توفي والده وهو في الخامسة عشرة فتحمل عبء المسؤولية وحده وتزوج في السادسة عشرة، شارك في النضال ضد الفرنسيين وتعرض للمطاردة والسجن والاضطهاد مع إخوانه المناضلين.
بدأ سنة 1936 عمله في سلك التعليم في سورية ثم هاجر إلى المدينة المنورة حيث عمل مدرّسًا في الجامعة الإسلامية حتى نهاية حياته.
بدأ نشاطه العلمي والأدبي وهو دون العشرين حيث نظم قصيدة وطنية نشرتها له إحدى الصحف المحلية، ثم توالى إنتاجه العلمي والأدبي حتى بلغت مؤلفاته حوالي / 50 / مؤلفًا تنطلق معظمها من الرؤية الإسلامية وتعكس أحداث عصره في سورية وعلى مستوى العالم الإسلامي. كان من أول الداعين إلى الأدب الإسلامي من خلال مقالاته وبحوثه في مجلة "حضارة الإسلام"، وقد جُمعت فيما بعد في كتابه "مشكلات الجيل في ضوء الإسلام"، وبسبب حبه الشديد للمطالعة والمعرفة منذ الطفولة كان يقرأ الكتب على ضوء السراج.
الأستاذ المجذوب رجل عصامي مكافح قضى شبابه كله يكدح في مختلف الأعمال للنهوض بمسؤولياته نحو إخوته وأولاده، وقد نال الجائزة الأولى لجامعة الدول العربية عام 1948 على نشيده الوطني الذي نظمه حيث تم اختياره من بين مئة نشيد، وقد مضى في طلب المزيد من العلوم والثقافة معتمدًا على جهده الشخصي ومثابرته، ومن بين مؤلفاته التي قاربت الخمسين نذكر فيما يلي أهمها:
"فضائح المبشرين"، و"اليوبيل الفضي الذهبي"، و"المرشد في الأدب العربي"، و"نار ونور"، ديوان شعري كتب له مقدمته الشاعر الكبير "بدوي الجبل"، و"من تراث الأبوة"، ومسرحية ثم مجموعة قصصية "طنين"، ثم كتاب "صور من حياتنا"، وكتاب "غرناطة"، وقصص أخرى مجموعة في مجموعات قصصية.
ومن كتبه أيضًا: "أدب عربي" للسنة الأولى في الجامعة الإسلامية، ثم للسنة الثانية "دروس من الوحي قصص وعبر"، و "مشكلات الجيل في ضوء الإسلام"، و" تأملات في المرأة والمجتمع"، و"مشاهد من حياة

الصديق"، و"همسات قلب" ديوان شعر كبير، و"قصص من سورية"، و"مدينة التماثيل"، و"قاهر الصحراء"، و"ثورة الحرية"، و"الكواكب الأحد عشر"، و"بطل من النار"، و"من أجل الإسلام"، و"أبيات ثلاث"، و"كلمات من القلب"، و"بطل من الصعيد"، وقصص أخرى "دماء وأشلاء"، و"قصص لا تنسى من تاريخنا"، و"أفكار إسلامية" وكتب أخرى عديدة.

عاد من السعودية إلى اللاذقية سنة 1996، فلزم بيته ولم يغادره إلا للضرورة واعتزل الناس وأكب على أوراقه وقلمه وألف أربعة كتب ثم وافاه الأجل في يونيو 1999.

محمد حاج حسين 1914 – 1989 ولد في طرطوس وتعلم في مدارسها حتى حصل على الشهادة الثانوية فيها، ثم سافر إلى مصر عام 1933 حيث حصل على شهادة الماجستير في الأدب العربي بجامعة القاهرة عام 1937، تعرف في مصر على عمالقة الأدب العربي كالمازني والعقاد وطه حسين ومصطفى أمين، حيث كان الأخيران أستاذين له.

بدأ نشاطه الأدبي في جريدة البلاغ القاهرية وهو ما يزال طالبًا في الجامعة، ثم عاد إلى سورية ليمارس فيها مهنة التعليم في ثانويات اللاذقية، ثم عُين مديرًا للمعارف فيها في مطلع الخمسينيات وتابع دراسته العليا في مصر عام 1956 وحاز على شهادة الدكتوراه بامتياز مع درجة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام 1960، وتسلم شهادته من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بحضور الدكتور (طه حسين)، وعُين مديرًا للمعارف في الرقة إثر عودته إلى سورية، وسافر عام 1965 إلى المملكة العربية السعودية حيث عمل فيها أستاذًا للأدب العربي في جامعة الملك عبد العزيز في جدة.

استمر في نشاطه الأدبي ونشر العديد من الأبحاث والمقالات في مختلف ألوان الأدب في الدوريات السورية واللبنانية والمصرية والسعودية، وكان متقنًا للغتين الإنكليزية والفرنسية ويملك مكتبة ضخمة جمعها في حياته وفيها الكثير من الكتب القيمة والنادرة.

أصدر مؤلفات عدّة مثل: (عبقرية الأدب العربي) عام 1944، و(عباقرة الفكر في حياتهم العاطفية) عام 1956، و(الكميت بن زيد حياته وشعره) 1978، ونشر كتابًا في المسرح عام 1970 سماه (الحقيقة المرة) ضمّنه العديد من التمثيليات، أما إنتاجه الأبرز هو التأليف القصصي والروائي أذكر منها: (جنازة قلب) عن دار اليقظة دمشق عام 1950، و(جوع لا يرحم) بيروت 1953، و(ملكة الجمال) دمشق 1954، و(اعترافات

الشيطان) دمشق 1954، و(ثلاث شفاه) دار ابن المقفع 1955، و(زاوية في الجنة) دار الأجيال دمشق 1971.
عُرف محمد حاج حسين بريادته لأدب القصة والرواية إلى جانب رواد آخرين كعلي خلقي وشكيب الجابري وفؤاد الشايب، وأوضح في مقدمة كتابه الأول (عبقرية الأدب العربي) الجزء الأول عام 1944 أنه بدأ في معالجة الأدب وهو في السابعة عشرة من عمره عندما كان طالبًا في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في القاهرة، وانصرف إلى نشر قصصه ومسرحياته في الدوريات العربية، وصرّح عن كتابته روايات عدّة لم يطبع منها شيئا، وقال إنها تعالج مشكلاتنا الاجتماعية ومعضلاتنا النفسية.
وبالإضافة لما ذكره المحاضر الأستاذ علم عبد اللطيف حول الأديب الدكتور (محمد حاج حسين) أحب ان أشير إلى أنني قمت مع جمع من الصديقات والأصدقاء المهتمين بالشأن الثقافي بتاريخ 18 / 7 / 2018 بزيارة منزله قبل الهدم، الذي يقع شرق حاووز المياه القديم مباشرة بدعوة من ابنه الدكتور (المرتجى حاج حسين) وأخيه الدكتور (أحمد حاج حسين) حيث تم اللقاء في رحاب مكتبته الضخمة القيمة والغنية فعلًا، وكانت هذه الزيارة فرصة للحديث عن شخصيته الثقافية الرائدة وما تركه من أثر أدبي بديع وجميل، خصوصا أنه ينتمي إلى الرعيل الثقافي والأدبي نفسه الذي ظهر في النصف الأول من القرن العشرين وتألق أكثر في النصف الثاني منه، الذي كان من ضمنه الأديب الشاعر الأستاذ أحمد علي حسن والأديب الشاعر الأستاذ حامد حسن في طرطوس، وكانت تربطهم جميعًا علاقة صداقة شخصية قوية معززة بهاجس المعرفة والإبداع الأدبي والهم المجتمعي والوطني الواحد.
لذلك سوف أنشر فيما يلي القصيدة التي رثى فيها الشاعر أحمد علي حسن صديقه الأديب الدكتور محمد حاج حسين بعد وفاته بعنوان "وفاء الأدب"، حيث تم نشر القصيدة كاملةً في عدد شهر نيسان 1990 من مجلة "الثقافة" التي كانت تصدر في دمشق لمؤسسها ورئيس تحريرها الأديب الأستاذ (مدحت عكاش).
فهذه القصيدة تلخص عمق الاندماج المجتمعي واللقاء المدني الصحيح وما عكساه من متانة اللقاء والتعايش والمحبة والتعاون في طرطوس بين أديبين كبيرين في ذلك الوقت، أحدهما نازح من الريف والثاني ابن هذه المدينة العريقة.

وفاء الأدب

شعر: أحمد علي حسن

مهداة إلى روح الصديق الغالي الدكتور محمد حاج حسين

أحرى بمثل وفائك الأدب ⠀⠀ وأحق نحوك بالذي يجب

ماذا وراء الحرف من أثر ⠀⠀ يرضيك إلا المنطق الذرب

لك يا محمد من جواهره ⠀⠀ ما تعرف الأبحاث والخطب

تبقى تحدث عنك مخلصة ⠀⠀ وتشير نحو بيانك الكتب

لغة كما قد شئتها حملت ⠀⠀ ما يشتهي منها .. ويرتغب

عربية الأسلوب صافية ⠀⠀ في مثلها يتحدث العرب

ولك الرواية أنت فارسها ⠀⠀ إن جد فيها الجد واللعب

تعطي الحوار فمن أشعته ⠀⠀ وبيانه تساقط الشهب

وتطيب في إلهامها قصص ⠀⠀ تنزاح عن أشخاصها الحجب

عالجت فيها شأن من حرموا ⠀⠀ وفضحت فيها أمر من كلبوا

وتهيم روحك وهي سارحة ⠀⠀ في أفقها تنأى ...وتقترب

روح يضيق بها المدى سعة ⠀⠀ وحجى به الأفاق تنسكب

تجلو برأيك كل مضطرب ⠀⠀ وسواك منه للرأي يضطرب

هذا الكميت وأنت صاحبه ⠀⠀ غنيت فيه، فهزنا الطرب

أحييت من تاريخه أثرا ⠀⠀ قد كاد في التاريخ يغترب

وجلوت عن صدق عقيدته ⠀⠀ وذهبت فيه لا كما ذهبوا

وكشفت عما قد تنازعه ... مما تثير بنفسه الريب

الكوفة الخضراء مرتعه ... ولآل هاشم عنده أدب

أنت الذي تحلو مداركه ... إن حدثوا عنها وإن كتبوا

لك في الصراحة عالم شرع ... ولقد يدلس غيره الكذب

تأبى على التاريخ سيرته ... إن لم يكن للصدق يكتتب

طهرت نفسك من بوائقه ... وبرئت مما تفعل العصب

إني لأنكر بيننا سببا ... صدق المقال به هو السبب

وحوار من تأبى سجيته ... وطباعه افك الألى شغبوا

يا أيها المنهار من تعب ... الراحة الكبرى لنا تعب

طرطوس عند ثراك باكية ... وعلى فراقك فهي تنتحب

فقدت كبير رجالها أدبا ... فبمن يعيش ويسلم الأدب

ستظل في تاريخها قلقا ... ما دامت الأقلام والكتب

زاهي عرنوق 1907 – 1969

المعلومات التالية عن الأديب (زاهي عرنوق) مأخوذة عن موقع "معجم البابطين" التابع لمؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري:

ولد زاهي فاضل عرنوق في بلدة متن بيت عرنوق (اللاذقية - غربي سورية) وتوفي فيها،

قضى حياته في سورية وجنيف.

تلقى تعليمه قبل الجامعي في مدرسة (اللاييك) باللاذقية، ثم قصد جنيف فحصل على شهادة الحقوق منها أوائل الثلاثينيات.

عمل محاميًا، ثم قاضيًا في مدينتي الحسكة والقامشلي حتى وفاته.

كان عضوًا في مجلس الأمة «الموحد بالقاهرة» زمن الوحدة بين مصر وسورية.

نشط في العمل الصحافي، فتولى إدارة مجلة النهضة الأدبية حتى عام 1939، والمقصود هنا مجلة "النهضة" التي أسسها في طرطوس الدكتور وجيه محي الدين كما أسلفت سابقًا.

الإنتاج الشعري:

له قصيدة نشرت في مجلة النهضة الأدبية الجزء الثاني - السنة الثانية - سورية 1939.

المتاح من شعره قليل، نظمه على الموزون المقفى، في الأغراض المألوفة، له قصيدة بعنوان «كان لي في الضلوع» يشيع فيها الحزن والأسى والإحساس بالغربة، فتنزع في لغتها ومعانيها إلى الرومانسية، لغته عذبة رقيقة، ومعانيه واضحة، وخياله قديم، يحرص في هذه القصيدة على بعض تقاليد المأثور، حيث يخاطب الشاعر من يتخيلهم معارضين له أو شامتين به، ويكرر النداء، وينتهي إلى المعنى الذي بدأ به.

الشاعر حامد حسن 1915 – 1999

المعلومات التالية عن الشاعر (حامد حسن) مأخوذة من مواقع عدة على النت منها موقع "الويكيبيديا"، وموقع "معرفة"، وموقع "شبكة بحوث وتقارير ومعلومات":

(حامد حسن معروف): شاعر وأديب وباحث سوري، عُرف بلقب «سنديانة الشعر».

من مواليد يناير 1915 في قرية (حبسو) التابعة لمنطقة الدريكيش في محافظة طرطوس السورية، تلقى تعليمه في (اللاييك) بطرطوس، وفي كلية القديس يوسف (الأداب العربية المدرسية)، وعمل في حقل التعليم 18 عامًا، فدرّس اللغة العربية وآدابها في الدريكيش، وأصبح مديرًا للثانوية الأرثونكسية في «السودا - طرطوس»، وعُين في لجنة الشعر في المجلس الأعلى للأداب والفنون والعلوم الاجتماعية في دمشق، انتقل عام 1936 من وزارة التعليم إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومي السورية، فعمل في المراكز الثقافية وفي مديرية التأليف والنشر. أحيل عام 1975 إلى التقاعد للشعر والبحث، بدأ النشر في ثلاثينيات القرن العشرين ووضع نشيد جامعة الدول العربية عام 1948، وهو عضو جمعية الشعر، وترأس فرع اتحاد الكتاب العرب في طرطوس لسنوات عديدة.

تابع حامد حسن تحصيله العلمي في معهد الأداب الشرقية - قسم اللغة العربية في مدينة طرطوس وفي بعض مدارسها، واستمر في التحصيل العلمي بنفسه وارتفع بمستواه الثقافي بلا معلم حتى صار معلمًا ومدرسًا

للعربية وآدابها في الكثير من المدارس والثانويات الخاصة، وأول عمل متميز قام به في المجال الثقافي كان في مجلة «النهضة» لصاحبها وجيه محيي الدين إذ عمل رئيسًا لتحرير هذه المجلة.
وفي عام 1938 شارك في اليوبيل الذهبي الذي أقيم للشيخ سليمان الأحمد والد الشاعر «بدوي الجبل» في اللاذقية بالتعاون بين المجمع العلمي العربي والفعاليات الأدبية والسياسية من لبنان وسورية، فقد ألقى قصيدة أثنى عليها المحتفى به، كما أعاد ترتيب قصة «امرؤ القيس والعذارى» وصاغ تصورًا آخر لها فلفت إليه أنظار كبار الشعراء والأدباء في الوطن العربي،
وفي المسابقة التي أعلنت عنها الأمانة العامة للجامعة العربية في عام 1948، على مستوى الوطن العربي لاعتماد نشيد دائم للجامعة، فازت قصيدته واحتلت الدرجة الأولى على جميع القصائد واعتمدت نشيدًا للجامعة العربية حتى اليوم.
وقف حامد حسن بين شعراء عصره الكبار أمثال بدوي الجبل وعمر أبو ريشة ونديم محمد وشفيق جبري والجواهري ونزار قباني وغيرهم، فكان نظيرًا لهم، له من أسلوبه وعباراته وقوافيه وسحر الوزن والاختيار في البحور الخليلية ما جعله يتفرد بخصائص شعرية حققت عناصر الإبداع في العمل الأدبي، فهو محافظ ومجدد في آن واحد يتمتع بالأصالة والبساطة المتوارثة ويحافظ عليها، ويتطلع إلى الحاضر بعين الرسام الماهر فتأتي لوحته واضحة المعالم والسمات ممزوجة بفنية منتقاة من الواقع تجسد هموم الإنسان العربي في وطنه المطعون بآلاف المدي والخناجر.
بدأ النشر في الثلاثينيات، وهذه هي أعماله مرتبة حسب أجناسها الكتابية

الشعر

ثورة العاطفة - شعر (أربعة أجزاء) - طرابلس، لبنان 1939.
المهوى السحيق - تمثيلية شعرية - طرابلس، لبنان 1942.
عبق - شعر - دمشق 1960.
أضاميم الأصيل - شعر - دمشق 1968.
كرز وجوع - شعر .
المجموعة الكاملة (المجلد الأول - قصائد الرثاء) ٢٠٠٣ م.

أوبريتات

أفراح الريف - أوبريت 1964.
الريف الثائر - أوبريت 1965.

مسرحيات

الخنساء- مسرحية 1968.

دراسات

في سبيل الحقيقة والتاريخ - دراسة- الأرجنتين 1945.

المكزون السنجاري بين الإمارة والشعر والفلسفة والتصوف - اربعة اجزاء -دراسة، (ج1، 1970 /ج2، 1972/ج3، 1988/ج4، 2000).

صالح العلي ثائرا وشاعرا - دراسة ومختارات - دمشق 1974.

الشعر بنيةً وتشريحا - دراسة مؤسسة الوحدة - دمشق 1987.

الجمالية في الشعر العربي.

ومن مخطوطاته المعدّة للطباعة: مجموعة «أغاريد» وهي شعر للأطفال، و«محاكمة التاريخ العربي»، و«الخنساء» تمثيلية، و«المتنبي ماله وما عليه»، و«المعري ما له وما عليه».

الشاعر أحمد علي حسن 1917 – 2010

توجد إضاءة تفصيلية كافية على تجربة الشاعر أحمد علي حسن الحياتية والأدبية – الفكرية منذ بداية تفتح موهبته الأدبية الشعرية في القرية وحتى نزوحه إلى المدينة أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، في "الباب الثالث" عند الحديث عن قرية "الملاجة".

الشاعر نجم الدين الصالح 1927 – 2010

ولد الشاعر نجم الدين الصالح في قرية بمنة (الدريكيش) محافظة طرطوس سنة 1927، وتلقى تعليمه في الدريكيش، ودمشق، وحلب، واللاذقية، حاز على الإجازة في الحقوق من جامعة دمشق وعمل في المحاماة إلى جانب عمله في تدريس اللغة العربية، وتنقل في مناصب إدارية عدة، ثم انتخب عضوًا في مجلس الأمة أيام الوحدة بين مصر وسوريا 1960، كما انتخب عضوًا في مجلس الشعب السوري دورات عدة.

وعُرف الشاعر نجم الدين الصالح بنشاطه السياسي والأدبي فكان واحدًا من دعاة القومية العربية والوحدة العربية والتقدم والتطور، وقد أوقف الكثير من قصائده من أجل نصرة أبناء الشعب الفلسطيني في نضالهم العادل والمشروع ضد الهمجية الصهيونية.

وحسب الموقع الرسمي لوزارة الإعلام السورية ترك الشاعر نجم الدين الصالح تراثًا شعريًا مهمًا، جُمع في دواوين عدة من بينها: زنبقة ونجم، والغاب المسحور.. وقد ظل الشاعر يكتب الشعر وينشره حتى أواخر أيامه.

نشاط مسرحي باكر ورائد في طرطوس -:
في حديث من أحاديث الذاكرة الجميلة بتاريخ 27 / 2 / 2019 عن طرطوس في النصف الأول من القرن العشرين مع الأستاذ (محمد رئيف هيكل) المهتم، والباحث بشؤون الآثار والتاريخ الإجتماعي لمدينة طرطوس ومحيطها حدثنا عن نشاط مسرحي باكر ورائد لمجموعة من شباب طرطوس المتحمسين والناشطين في ثلاثينيات القرن العشرين:
نشأت في طرطوس سنة 1930 – 1931 أيام الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان أول فرقة مسرحية بإدارة (شفيق طجمية) (عبد القادر العدوي) (حسين عارف طيارة) (علي الشيخ المرقبي) (الأستاذ محمد المجذوب)، وكانت تقدم عروضها في طرطوس وطرابلس وبيروت واللاذقية وأحيانًا في دمشق، وكانت أكثر أفكار مسرحياتهم وموضوعاتها تصب في إطار التنديد بالمستعمر الفرنسي والتهكم عليه، ومن الأغاني التهكمية ضد المستعمر الفرنسي التي كانوا يرددونها دائمًا أغنية يقول مطلعها:
"شللوب شللوب ابتلعوها ... كبسوا الشنطة وسرقوها "
ومن أغانيهم -أيضًا- يومها أغنية معروفة كثيرًا اليوم من دون أن تنسب إلى مؤلفها الحقيقي، ومؤلفها الحقيقي حسب الأستاذ (محمد رئيف هيكل هو (شفيق طجمية) من طرطوس، وقد أداها (دريد لحام) في إحدى مسرحياته، يقول مطلعها:
"لولالي لولالو... الله محيي شوارعك يابلادنا ."....
وحسب الأستاذ هيكل فإن (شفيق طجمية) في طرطوس كان يلقب يومذاك بـ (يوسف بك وهبي) يُنظر إليه على أنه عميد للمسرح في طرطوس بسبب اهتمامه ونشاطه المسرحي الكبير.
كذلك كان يوجد في طرطوس محاولة رائدة في مجال مسرح خيال الظل "كريكوز عيواظ" وكان مؤسسه في طرطوس فنان اسمه (سليمان معماري).
أما المعلومة الأبرز التي أفادني بها الأستاذ محمد رئيف هيكل وتأكدت منها من بيت آل يونس هي أن المطربة السيدة (أم كلثوم) كانت قد غنت في بداياتها في طرطوس بتاريخ غير معروف، تحديدًا في مقهى "كازينو" الذي يعود لبيت آل يونس "بناية الأوقاف حاليا"، مُلاصقًا لسينما الأمير سابقًا.
ويُذكرُ أن الفنان الأستاذ (محمد عبد الوهاب) في بداية شبابه غنى -أيضًا- في طرطوس في مكان قرب المشبكة حاليًا، وقد كان هذا المكان ساحة خلاء

تسمى "البحتري"، وتقع خلف كراج طرابلس "العبد ديب" لجهة الغرب، وقد عرفت من الآنستين (أحلام ومي يونس) أن الفنان محمد عبد الوهاب تمت استضافته إقامةً ومبيتًا آنذاك في بيت والدهما السيد (محمود يونس).

صالات السينما في طرطوس وطقس عروضها بين الأمس واليوم:

كما كان يوجد في طرطوس، حسب الأستاذ هيكل أيضًا، خمسة دور سينما منذ خمسينيات القرن العشرين وهي:

سينما الأمير- سينما النجمة – سينما العباسية – سينما الدنيا – سينما السبع إضافة لسينما الشرق التي كانت عروضها صيفية في الهواء الطلق على السطح وكان مكانها مقابل سينما السبع.

أما بخصوص سينما الامير فقد علمت من بيت يونس "مي وأحلام وبشرى " أيضًا أنها كانت بالأصل بناءً خاصًا للأوقاف فاستأجرها والدهم السيد (محمود يونس) مستثمرًا لها دارًا للسينما لمدة طويلة إلى أن تركها عام ١٩٦١ لأسباب خاصة، ثم تتالى عليها المستأجرون حتى هدمت.

عن صالات السينما.. وطرطوس الساعة 9 ليلا

وهنا أود، كوني كنت وما أزال محبًا للسينما وطقس عروضها الجماعية في صالات واسعة منذ سنين فتوتي أن أشير إلى دور صالات السينما الثقافي سابقًا، وإلى تأثيرها في تشكيل ذائقة ثقافية فنية جمعية قياسًا على عروض اليوم المتواضعة جدًا.

ففي إطار العروض السينمائية الدورية التي كان يستضيفها -مشكورًا- لأعوام عديدة "مركز الشعلة المهني للعلوم التجارية" بطرطوس، ثم توقفت منذ عامين تقريبًا، وكان يختار أغلب أفلامها صديق العمر الأستاذ (عبد الله ديب) المهتم جدًا بالسينما وتاريخها.

تم مساء 21 | 9 | 2019 عرض الفيلم الأمريكي "The straight story قصة ستريت" للمخرج الأمريكي (ديفيد لينش) إنتاج عام 1999.

فكرة الفيلم بسيطة لكنها آسرة جدًا، فالفيلم ينتمي إلى سلسلة أفلام الطريق التي أنتجت في أمريكا، حيث تُبنى أحداث الفيلم من خلال مشاهدات الشخصيات الرئيسة فيه وهي في رحلة سفر بري طويل ضمن الولايات المتحدة الأمريكية.

فهذا الفيلم يبني أحداثه ويصورها بشكل جميل وأخاذ أثناء سفر "ستريت" وهو مريض في عمر ال80 من ولاية إلى أخرى بعيدة على جرار زراعي صغير جدًا مخصص بالأصل لجذ عشب الحقل في البيت، ليرى أخاه

المصاب بجلطة وكان لم يره منذ أكثر من 30 عامًا، وأثناء رحلته هذه التي أصر على متابعتها على هذا الجرار بطيء السرعة يتعرض للعديد من الصعوبات والأعطال ويلتقي بالعديد من الناس الذين يتعرف عليهم ويساعدونه في بعض المشاكل والأعطال.
طيلة الرحلة نحس بحنين نوستالجي لزمن مضى ولن يعود، لذلك لشخصياته التي على قيد الحياة ما زالت متمسكة به بعناد، في الوقت الذي نلحظ فيه أجيالًا جديدةً صارت تسابق الزمن على الدراجات الهوائية بسباق المسافات الطويلة على الطريق نفسه الذي كان يمشي عليه جرار (ستريت).
الفيلم وكما وصل لي أثناء المشاهدة لأول مرة، هو مرثية هادئة لجيل القرن العشرين في أمريكا، حيث أن أغلب الشخصيات الرئيسة في الفيلم من جيل واحد تقريبا بين ال 70 - 80 عام، جيل الحروب البشعة في الخارج، خصوصًا الحرب العالمية الثانية، الذي انعكس في الداخل بروذًا جافًا قاسيًا حتى في العلاقات بين الأخوة.
يمكن أن يقال في الفيلم الكثير على الرغم من بساطة الفكرة فيه التي لم تكن على حساب البناء المشهدي الجمالي والحوارات الحميمية والدافئة والموسيقى الرائعة التي كانت جزءًا من سيناريو الفيلم وليست إضافة عليه..

--

ما أود الإشارة إليه بعد هذا العرض الموجز هو أني أميل لإسقاط فكرة الفيلم كما فهمتها ونوهت إليها هنا على جيلي، جيل الحنين النوستالجي لأيام السينما وصالاتها في طرطوس، لأني بعد انتهاء عرض الفيلم ومناقشته في المركز بتمام الساعة 9 ليلًا خرجت منه بقصد العودة إلى البيت فكانت شوارع المدينة تتهيأ لتصير خالية من حركة الناس والسيارات، وعلى وشك إغلاق المحال التجارية.
فانتابتني، بتأثير من الفيلم، عدوى الحنين والرثاء لطرطوس التي أعرفها في عقدين من الزمن، منذ منتصف الستينيات وحتى منتصف الثمانينيات من القرن العشرين عندما كان فيها أربع صالات سينما تعرض يوميًا قبل الظهر وبعد الظهر إلى جانب حفلتين في المساء بحيث يبدأ عرض الحفلة الثانية بتمام الساعة التاسعة والنصف وغالبًا تكون مخصصة للعائلات، وهذا التقليد متوارث في عروض السينما في طرطوس وربما في غالبية المدن السورية آنذاك، وكان ينمو ويترسّخ بوصفه ظاهرة منذ الخمسينيات مع اكتمال نمو طرطوس حاضرةً مدنيّةً، إن لم يكن من قبل أيضًا.

لذلك كانت الساحة الرئيسة في طرطوس تسمى حتى اليوم بـ "المشبكة"، كونه يشتبك ويلتقي فيها مداخل ومخارج عدّة للمدينة، ويتقابل فيها صالتان كبيرتان للسينما "المسبح - والعباسية، اللتان تم هدمهما نهائيًا اليوم وقد سوّيتا بالأرض".
فحركة الناس في بدايتها مساء، والمحلات التجارية والباعة الجوالون مع عرباتهم التي يتحلق حولها الناس، وازدحام الجمهور أمام الصالتين وشباك التذاكر ولا سيّما في اللحظة الحاسمة بين خروج رواد الحفلة الأولى وانتظار رواد الحفلة الثانية الدخول إذ كان أغلبهم عائلات، كل ذلك كان أشبه بمهرجان يومي.
وبعد انتهاء الحفلة الثانية هذه كثيرًا ما كانت تبدأ حوارات الذائقة النقدية، فنيًا وجماليًا وفكريًا حول الموضوع، حول الفيلم وتتعدد، إما في مشاوير ليلية هادئة صيفًا أو داخل البيوت شتاءً، أو في اليوم التالي، وكان ذلك بمستوى تدريب على تكوين ذائقة فنية نقدية جماعية حول السينما واتجاهاتها الحديثة آنذاك خصوصًا أن أغلب الأفلام التي كانت تعرض كانت حديثة وذات مستوى فني عالي المستوى، وأذكر هنا معلومة مهمة سمعتها من الكاتب المسرحي السوري الأستاذ (سعدالله ونوس) ابن طرطوس – قرية "حصين البحر" في لقاء وحيد جمعني به أواخر ثمانينيات القرن العشرين في منزل الصديق الأستاذ (محمد كامل الخطيب) حيث سمعته يقول متذكرًا أيام الشباب في طرطوس أنه وجيله المهتم والمتابع للثقافة والسينما آنذاك كان يقرأ عبر الصحف أن فيلمًا مهمًا أُنتج حديثًا في أوروبا وتم إطلاقه للعرض الجماهيري، ثم بعد أسبوع يقرأ مرة ثانية عنه في الصحف أنه وصل إلى بيروت للعرض الجماهيري، ثم في الأسبوع التالي يصل طرطوس للعرض في إحدى صالاتها.
كل ذلك انتهى وغاب منذ أكثر من أربعة عقود من الزمن.
لذلك لم أفاجأ عندما سمعت من شابة كانت تحضر معنا لأول مرة عرض الفيلم الأخير الذي قدمت إضاءة موجزة لفكرته، تقول أن حضور السينما فيه متعةٌ وجمال لكن ضمن طقس العرض الجماعي فقط وأنها لم تحضر طيلة عمرها، 28 سنة، في صالة سينما إلا مرة أو مرتين في صالة الكندي؟!!.
فاليوم غابت صالات دور السينما بشكل شبه نهائي في طرطوس باستثناء عروض صالة "الكندي" التابعة للمؤسسة العامة للسينما التي ما عاد يرتادها إلا العدد القليل وفي عروض نهارية إن تمت.

ظاهرة الفنان (محمود الحاج 1944 - 1994):-
على الرغم من أن الحديث عن ظاهرة الفنان الموسيقي (محمود الحاج) لعدّ تجاوزًا للسقف الزمني المحدد في عنوان الكتاب عن مدينة طرطوس إلا إنني أحسبه من الشخصيات الفنية المهمة المخضرمة كونه ولد وتأسس فنيًا في النصف الأول من القرن العشرين في بيئة ريفية صغيرة ومحافظة نسبيًا وهي "قرية زمرين"، ثم انطلق في فضاء المدينة أوائل النصف الثاني لدرجة استطاع فيها أن يكون أهم ظاهرة فنية موسيقية في طرطوس، بل واحدة من أجمل الظواهر الفنية الموسيقية في سورية خلال النصف الثاني من القرن العشرين، لذلك لا أرى أنه من المناسب أن أختم الحديث عن بدايات النشاط الثقافي - الفني في طرطوس من دون ذكر الفنان (محمود الحاج).
توجد العديد من المقالات والمراجع على النت عن حياة وأعمال هذا الفنان الراحل، لكني سأكتفي بعرض بعض المعلومات وتلخيصها كما وردت في مقال كتبه عنه ابن طرطوس وصديقه المقرب جدًا منه وهو الشاعر (حيان حسن)، نشرته أسبوعية "ملحق الثورة الثقافي" التي كانت تصدر في دمشق العدد 447 تاريخ 8 / 2 / 2005.
يقول كاتب المقال عنه: "انحدر محمود الحاج من وسط ريفي محافظ إلى حد ما تجاه بعض القضايا الفنية لينخرط في أجواء المدينة واستطاع ضمن هذا العالم أن يعيد قراءة تراث بلده الأصيل وأن يتواصل معه بقراءة جديدة وواعية فقدم هوية خاصة باللحن الساحلي حيث قدم منذ بداياته عشرات الأغاني الخاصة ذات الطابع المحلي الجميل، ومن هنا تأتي أهمية محمود الحاج الفنان المبدع.
ولد الفنان الراحل عام 1944 وفي منتصف الستينيات، تخرج من حلب مدرسا للموسيقى ليتابع على الفور نشاطه التعليمي والفني بالتوازي، وأخذ اسمه ينتشر في محافظة طرطوس كمدرس ناجح وملحن مبدع منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته عام 1994.
كان أول نشاط له في أواخر الستينات عندما أسس أول فرقة فنون شعبية عرفتها محافظة طرطوس.
انطلقت أغانيه في البدايات مشبعة بروح التراث الفولكلوري للبيئة المحلية مثل أغاني" طوّلوا طوّلوا – نعمت الشارع – ماجانا طوّل ما جانا – طوق الحلوة – حلوة طرطوس – بحرية".

لذلك يرى الباحث الموسيقي الفنان الأستاذ (زياد العجان) أن الراحل (محمود الحاج) كان محطة فنية الطلق منها كل فناني محافظة طرطوس دون استثناء.
على من ألحانه بعض أهم المطربين السوريين آنذاك منهم مصطفى نصري، ومصطفى فؤاد، وممن دلدشي، ونهاد فتوح، وتدرب على يديه في طرطوس العديد من الأصوات الجميلة والقديرة مثل معين الحامد، وجورج خوري.
كان يركز على أهمية الكتب التعليمية والموسيقية لذلك اهتم واشتغل بتأليف الكتب في الموسيقى مثل كتابي "مع الموسيقى" و"حرف وأغنية".
إضاءة موجزة على تطور طرطوس بعد منتصف القرن العشرين

دور مرفأ طرطوس في إعمار المدينة :-
موجة النزوح الكبير من أهالي الريف باتجاه طرطوس بدأت في أوائل الستينات عندما بدأ العمل في إنشاء مرفأ طرطوس والحاجة إلى أيدي عاملة كثيرة لا يمكن تأمينها من سكان البلدة الصغيرة، فبدأت تظهر الأحياء الأخرى الجديدة بفعل هذا النزوح الكبير كـ "حي الرمل" الذي يقع على مساحة رملية كثيفة طويلة على شاطئ البحر لجهة الجنوب من طرطوس، ثم مع بداية السبعينيات بدأت طرطوس تتوسع شرقًا بدءًا من خاصرتها الشرقية "المشبكة" التي صارت فيما بعد مركز المدينة الكبيرة.
فمن الخاصرة الشرقية هذه للمدينة التي كانت على تماس مباشر مع الطريق الدولي الذي يربط اللاذقية بدمشق مرورًا بحمص بدأت تتشكل بصفتها نقطة استراحة للباصات الكبيرة وركابها، ومن ثم بدأت تظهر فيها كراجات عدّة للسيارات العمومية الصغيرة لنقل الركاب بين طرطوس وطرابلس وبانياس وجبلة واللاذقية، وبين طرطوس وريفها الجبلي الذي بدأت موجات نزوح كبيرة منه باتجاه المدينة قصد الدراسة والعمل والسكن، وبذلك صارت هذه المنطقة تتكون منذ ذلك الوقت وما زالت نقطة المركز الرئيس لمدينة طرطوس منذ منتصف الستينيات من القرن العشرين وسميت بـ "المشبكة"، ربما لأنها تأسست على نقطة تشابك والتقاء كل محاور الطرق والاتجاهات داخل طرطوس وبين طرطوس وخارجها من جميع الاتجاهات.
منذ بداية السبعينيات التي شهدت مد خط سكة الحديد من الداخل إلى مرفأ طرطوس ومن ثم لاحقًا إلى مرفأ اللاذقية وربطها بشبكة الخطوط الحديدية

في سوريا ككل لضرورات اقتصادية أولا وخدماتية سياحية ثانيا بدأ التوسع العمراني بدءًا من نقطة المركز "المشبكة" في الاتجاهات الشرقية والجنوبية والشمالية، فظهرت أحياء جديدة بنمط عمراني حديث ومختلف ولا سيّما بفعل تأسيس مؤسسات ودوائر إنتاجية وخدمية جديدة أخرى يرتبط عملها بوجود المرفأ، منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين.

ثم تطورت أرصفة المرفأ وساحاته ومرافق تشغيله مع تقنياتها الجديدة منذ منتصف السبعينيات لدرجة صار يؤمّن فرص عمل للآلاف من أبناء المحافظة في مختلف مستويات العمل فيه، كما للعديد من أصحاب الكفاءات العالية من أبناء المحافظات السورية الأخرى خصوصًا بعد أن تم ربطه اقتصاديًا بشبكة الخطوط الحديدية السورية.

كما أنه صار بمرور الوقت وبفعل التجربة والخبرة يخرّج خبرات كفاءات تقنية ومهنية عالية لسورية في مجال العمل والنقل البحري.

الباب الثالث
محيط طرطوس السهلي والجبلي

الفصل الأول
سهل عكار وبلداته السورية

كنت أشرت في مستهل الحديث عن فرضية بدايات تشكل طرطوس بصفتها كيانًا حضريًا مستقلًا مع بداية اندماجها الاقتصادي والاجتماعي مع محيطها الجغرافي – الديمغرافي البري الواسع من جميع الجهات، بعد أن كان وجودها مرتبطًا إلى درجة كبيرة بأفقها البحري كنافذة بحرية ونقطة عبور، ومرتكز بري لجزيرة "أرواد".
لذلك بعد الإشارة السريعة إلى تكوّن طرطوس المدينة وتشكلها كما أسلفت في الصفحات السابقة لا بد، حتى تكتمل الصورة نسبيًا عن طرطوس، من الإضاءة بقدر ما هو متاح لي من معلومات استقيتها -أيضًا- من لقاءات مع بعض أبناء تلك المناطق، على بعض الأماكن والبلدات في محيطها سواء السهلي الساحلي الجنوبي منه أو الجبلي الشرقي. ولأنه يتعذر علي بإمكاناتي المتواضعة كوني غير متخصص في علم الاجتماع، القيام بمسح ديمغرافي – سوسيولوجي – ثقافي شامل، الأمر الذي يحتاج أيضا إلى ورشة عمل متخصصة في ذلك، فسوف أختار نماذج من تلك البلدات والأماكن والقرى التي لعبت، كما أزعم، دورًا مفصليًا في ذلك سواء على المستوى التاريخي البعيد أم على المستوى الاقتصادي والاجتماعي حديث العهد.

السهل الساحلي "سهل عكار"-:
يسمى سهل عكار بهذا الاسم، كما يشير بعض ممن قرأت لهم على النت، لوقوعه بتماس مباشر على ساحل خليج عكار البحري في لبنان، حيث تسمي الحكومة اللبنانية المساحة التابعة لها جغرافيًا وبشريًا منه بقضاء عكار، والمعروف أنه في السابق، قبل تأسيس دولة لبنان الكبير عام 1920، كانت مجمل مساحة سهل عكار هي منطقة جغرافية بشرية واحدة من دون حدود سياسية تفصله إلى قسمين لبناني وسوري، حيث كانت تعود أغلب ملكية مساحاته الكبيرة لأسرة بكوات إقطاعيين متنفذين من "آل المرعب" في لبنان قبل تأسيس الدولة اللبنانية الحالية خلال العهد العثماني، كون "آل المرعب" ،كما يقول الكثير ممن التقيتهم، هم من أصل تركي عثماني، لذلك أعطتهم السلطنة لقب الباشا والبيك والآغا مع الأراضي

الواسعة الشاسعة، فتملكوا سهل عكار بأغلب مساحته، حيث امتدت حدود ملكيتهم، كما أفادني ابن المنطقة المهندس الأستاذ (محمد مشرقي) بتاريخ 3 | 4 | 2016، من الشمال والشمال الشرقي حتى حدود أملاك "بيت العباس" في قرية الطليعي، وأملاك "بيت بشور" في صافيتا، إذ كان المالك الأكبر من بكوات "آل مرعب" هو (عبود بيك)، وكان مركز سكنه في السهل في قرية "بني نعيم".

يتابع المهندس (محمد مشرقي) فيقول: لكن منذ عقد الخمسينات من القرن العشرين بدأ يظهر شكل من أشكال ملكية الأرض للفلاحين، ظهر نتيجة اعتراف المالك الإقطاعي بجهد الفلاح مما يترتب عليه مع الوقت الاعتراف -أيضًا- بحصة للفلاح، وهذا كان بداية انحسار

ملكية الإقطاعي الكبيرة ونهاية ظلمه الشديد، فبدأت حصة الفلاح تكبر خصوصًا بعد قرارات الإصلاح الزراعي التي صدرت تباعًا منذ أوائل ستينيّات القرن العشرين.

فسهل عكار في قسمه اللبناني اليوم يمتد على مساحة 776كم2 كما جاء في موقع "معرفة" اللبناني.

أما مساحته في القسم السوري فتبلغ كما جاء في موقع "طرطوس" السوري في مقال تمّ نشره بتاريخ 1 حزيران 2011، حوالي 26625.5 هـ منها 18640.3 هـ في محافظة طرطوس و 7985.2 هـ في محافظة حمص، والأراضي القابلة للزراعة من مساحة السهل 22321 هـ موزعة كما يلي :

سقي سليخ / 14442 / هـ وسقي مشجر 1359 هـ .

وبعل سليخ 245.6 هـ وبعل مشجر 4061.5 هـ وأحراج 653.1 هـ ومروج ومراعي 470.3 هـ وأراضي غير قابلة للزراعة 3180.2 هـ 0

لذلك فسهل عكار في قسمه السوري هو منطقة سهلية ساحلية واسعة تمتد من جنوب حدود طرطوس السورية شمالًا وحتى النهر البارد جنوبًا شمال لبنان، ثم باتجاه حدود محافظة حمص في "تلكلخ" وأملاك بلدتي "صافيتا" و "الصنصافة" شرقًا، ويضم بلدات وقرى عدّة منها ما تشكّل بعد تراجع ملكية "آل مرعب" وانحسارها و توزيعها أو تركها مباحة لأبناء القرى الجبلية المجاورة، حيث نزح العديد من العائلات باتجاه هذا السهل الخصب لتملكه واستصلاحه، واستوطنت فيه مُشكّلةً العديد من القرى الجديدة، وربما من جراء ذلك تشكّلت منطقة سكنية جديدة كبيرة وواسعة تتطور سياحيًا باستمرار قريبة من شاطئ البحر، منذ منتصف القرن العشرين، هي بلدة "المنطار" التي قامت على أنقاض مدينة أو بلدة فينيقية قديمة تسمى "مينا

تور"، لاتزال بقاياها في "تل المنطار" الأثري، وهي تقع اليوم على الخط الرئيس طرطوس الحميدية طرابلس.
لذلك يُعدّ سهل عكار الذي يضم اليوم عشرات القرى والبلدات الصغيرة منطقة أراضي زراعية سهلية بعلية غنية بالمياه الجوفية خصبة للغاية، بل يعد من أهم الأراضي الزراعية وأخصبها في سورية ولاسيّما الحمضيات والخضار وبعض الأشجار المثمرة مع إمكانية كبيرة متاحة لتربية الحيوانات المنتجة للحليب والألبان، وبذلك يكون أحد خزانات سورية الاقتصادية الكبيرة والمهمة.
وبحكم كونه ثغرةً جغرافيّةً واسعةً وكبيرةً مفتوحةً من البحر باتّجاه العمق الداخلي شرقًا فقد كان منذ العصور التاريخية القديمة ممرًا للجيوش وحركة التنقل وقوافل التجارة كما تدل على ذلك العديد من الشواهد التاريخية الباقية حتى اليوم، كالتلال الأثرية العديدة مثل "تل كزل، تل عدس، تل المنطار.."، وقلاع "قلعة العريمة، قلعة يحمور.." وأبرشية "سمكة".
لكن ما يسترعي الانتباه أكثر في سياق موضوع هذا الكتاب وفكرته إلى جانب ما تقدّم تشكل بلدتين جديدتين في سهل عكار، متجاورتين جدًا، حتّى درجة التداخل في بعض الأحياء، منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بفعل تداعيات لأحداث سياسية إقليمية كانت تعصف بالمنطقة أنذاك، أيام الخلافة العثمانية، أعطيا لسهل عكار أهمية جديدة مضاعفة في علاقته مع طرطوس أولًا ومع سورية ثانيا، هما بلدة "الحميدية" وبلدة "عرب الشاطئ" اللتان سأتكلم عن كل منهما بشيء من التفصيل:

خلفية تاريخية موجزة عن أصل سكان الحميدية الحاليين:-
إن أصل أغلب سكان بلدة الحميدية الحاليّين من جزيرة "كريت" اليونانية، إذ يعود تاريخ وجود المسلمين في اليونان عمومًا، كما يشير إلى ذلك العديد من المصادر التاريخية، إلى النصف الأول من القرن الهجري الثالث وتحديدًا عام 210هـ عندما دخلت جيوش المسلمين بعض الجزر اليونانية أنذاك ومنها جزيرة "رودس" في سياق الحروب الإسلامية مع البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على تلك الجزر بالكامل تقريبًا، وكان تعداد المسلمين فيها بين مدّ وجزر خلال فترة تاريخية طويلة حتّى مجيء حقبة الخلافة العثمانية وتكوين إمبراطوريّتها الواسعة التي شملت فيما شملت الجزر اليونانية بدءًا منذ عام 1460م، فازدادت أعداد المسلمين فيها بشكل كبير ونشأ مجتمع إسلامي قوي في اليونان بتعايش تام مع المسيحيين وغيرهم

من سكان الجزر اليونانية، وعلى الرغم من أن العثمانيين اعترفوا بحقوق الكنيسة الأرثوذكسية ورعاياها محاولين استيعابها في إطار إمبراطوريتهم إلا إن النفور الداخلي كان يتراكم في النفوس طيلة قرنين من الزمن، إلى أن نضجت مقدمات الثورة اليونانية، أو ما سُمّيت بحرب الاستقلال اليونانية في عام 1821م بتأثير الصحوة القومية في أوروبا الحديثة آنذاك وتأثيرها على شعوب الإمبراطورية العثمانية المتعددة، من أجل الانفكاك عن الإمبراطورية العثمانية وإعلان الاستقلال النهائي، ولاسيّما مع بدايات التحلّل والضعف اللذين أصابا الإمبراطورية العثمانية منذ بدايات القرن التاسع عشر، حيث لاقت دعمًا قويًا من أقوى الدول الأوروبية آنذاك "فرنسا وبريطانيا وروسيا" فكان إعلان قيام دولة مملكة اليونان الحديثة عام 1831م بدعم من الدول الأوروبية المذكورة الحدث الذي أدى في النهاية بعد سقوط السلطنة العثمانية وقيام الدولة التركية الحديثة إلى تبادل سكاني كبير "تهجير قسري" بين اليونان وتركيا على خلفية الانتماء الديني الطائفي ومعاييره بموجب اتفاقية "لوزان" في كانون ثاني عام 1923م، حيث تمّ تبادل ما يقارب مليوني إنسان بين مسلمي اليونان الذين هُجّروا قسرًا إلى تركيا، ومسيحييّ مناطق الأناضول التابعة للدولة التركية الحديثة الذين هُجّروا قسرًا إلى اليونان.

أما في جزيرة "كريت" اليونانية، حيث يعود تواجد المسلمين بأعداد كبيرة فيها إلى عام 825م -212هـ عندما وطأت أرض الجزيرة مجموعة كبيرة من المهاجرين المنفيّين من مسلمي عرب الأندلس بقيادة (أبو حفص عمر البلوطي) الذين ثاروا على مجون أمير الأندلس وظلمه آنذاك (الحكم بن هشام الربضي) بعد أن تمكن منهم وأنهى تمردهم فرحلهم عبر البحر ليتخلص من ما بقي منهم، فكانت وجهتهم الأولى الإسكندرية أولاً إلى أن تمّ طردهم منها بإيعاز من الخليفة العباسي (المأمون) إلى وجهة أخرى في البحر، فكانت جزيرة كريت الخاضعة آنذاك للبيزنطيين هي الأقرب لهم، حيث تقول بعض المصادر أن سكان الجزيرة تعاونوا مع هؤلاء الأندلسيين بسبب كرههم لظلم البيزنطيين لهم وسوء إدارتهم، لذلك فقد تأسلمت أعداد كبيرة من سكان الجزيرة بعد ذلك، فنشأ نتيجة لذلك مجتمع إسلامي مزدهر مجتمعيًا واقتصاديًا في جزيرة كريت، لم يحاول إقصاء غير المسلمين أو تغيير دينهم، وقد حاول البيزنطيّون مرات عديدة استرجاع الجزيرة، وبقيت الأمور غير مستقرة حتى استطاع العثمانيون وضع الجزيرة تحت حكمهم مع اليونان، فازدهرت أحوال المسلمين فيها من جديد إلى أن قامت حرب

الاستقلال اليونانية عام 1821م التي أشرت إليها سابقًا، فشارك فيها قسم كبير من سكان الجزيرة التي بقيت تحت حكم السلطنة العثمانية على الرغم من استقلال اليونان عام 1831م، إلى أن قامت حركة تمرد كبيرة من سكان كريت ضد الحكم العثماني عام 1896م استطاع العثمانيون في البداية قمعها والقضاء عليها، لكن تدخل القوى الإقليمية الكبرى "إنكلترا، فرنسا، روسيا" مرة أخرى قلب موازين القوى لصالح ثورة أهالي كريت فتم استقلال جزيرة كريت عن السلطنة العثمانية وضمها نهائيًا إلى اليونان عام 1898م.
لكن ما حدث بعد ذلك أنه جرت ضغوط كبيرة وقوية على سكان كريت المسلمين، ربما بتشجيع وضغط من الدول الكبرى نفسها، لتغيير هويتهم ومعتقداتهم الدينية من الإسلام إلى المسيحية، وعندما رفضت الأغلبية ذلك بدأت مقدمات حرب أهلية داخلية في الجزيرة عانى منها المسلمون كثيرًا ظلمًا وقتلًا، وتمّ منعهم من ممارسة طقوس العبادة الخاصة بهم من دون ظهير محلي أو دولي يدعمهم، فآثروا الهجرة والخروج من الجزيرة عبر البحر حاملين معهم معتقدهم الديني إلى مكان آخر، فاستجاب لهم السلطان العثماني آنذاك "عبد الحميد الثاني"، وعمل على إنقاذهم عبر نقلهم بشكل آمن إلى أماكن أخرى تابعة للسلطنة العثمانية على شواطئ شرق البحر المتوسط في ليبيا ولبنان وسورية، وكانت بلدة "الحميدية" الحالية إحدى المحطات النهائية لبعضهم حيث بنى لهم مستوطنة سكنية نموذجية جنوبي طرطوس حاليًا وسميت ب "الحميدية" تيمّنًا باسم بانيها السلطان (عبد الحميد).

الحميدية ــ عرب الشاطئ:-
لذلك في الحديث عن الحميدية بعد هذه اللمحة التاريخية الموجزة جدًا سوف أعتمد بشكل كبير على المعلومات التي أفادني بها أحد أبنائها ووجوهها الاجتماعية الناشطة والبارزة وهو الأستاذ محمد سلمان (أبو نبراس) في لقاءين مطوّلين معه.. بتاريخ 24|2|2016م و27 / 3 / 2016م.

بدايات الهجرة:-
بدأت الهجرات أو النزوح بإرادة من السلطنة العثمانية من جزيرة كريت اليونانية عام 1894م
نتيجة اتفاق خاص بين السلطنة العثمانية والبريطانيين اقتضى ترحيل المسلمين من جزيرة كريت.

توزّع المهجّرون المسلمون في مناطق عديدة من ليبيا وتركيا ومناطق بلاد الشام (سوريا الحالية).. أما الذين قدموا إلى الساحل السوري فقد بُنيت لهم في البداية مخيمات في طرابلس إلى أن تم بناء بلدة خاصة بهم في منطقة تقع شمال طرابلس بناءً على مخطط هندسي حديث جدًّا آنذاك بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني سميت بـ(الحميدية)، أما مهجرو منطقة دمشق فقد وفدوا قبل 25 عاما وسمي بحي (المهاجرين).

أما أصل مسلمي جزيرة كريت فهم من عرب قرطبة في زمن (الحكم بن هشام) أحد ملوك الطوائف في الأندلس الذين اختلفوا معه وثاروا عليه بسبب لهوه الشديد ومجونه فسموا بثوار "الربض" كنية بمكان اعتصموا فيه في ثورتهم، وبعد صراع دام 7 أيام اتفقوا مع (الحكم) أن يرحلوا من قرطبة بعد أن أمّن لهم مراكب شراعية للرحيل باتجاه الإسكندرية، فتصدى لهم والي الإسكندرية بناء على تعليمات الخليفة العباسي (المأمون) الذي عدّهم من سلالة ألد أعداء بني العباس "بني أمية"، فغيروا اتجاههم شمال شرق في البحر إلى أن وصلوا جزيرة "كريت" التي نزلوا فيها واستوطنوا.

أغلب الوافدين –المرحّلين- من جزيرة كريت سكنوا بداية في تجمع مؤقت في خانات مدينة طرابلس حتى تم بناء بلدة "الحميدية" بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني وفق مخطط تنظيمي حديث جدًّا آنذاك، ثم تم نقل أغلبهم إلى البلدة المذكورة التي سميت باسم الحميدية تيمّنا باسم السلطان الذي أمر ببنائها، وما يزال بعضهم الآخر موجودًا في مدينة طرابلس اللبنانية حاليًا..،

تم بناء "الحميدية" كما ذكرنا وفق مخطط تنظيمي حديث ما زال موجودًا ويؤخذ به، وضعه مهندس فرنسي آنذاك، أخذ المخطط شكلًا شطرنجيًا في بناء المساكن التي تحيط بها أربع باحات أو ساحات رئيسة وبأحجار رملية قوية ومنضدة مسقوفة بالقرميد الفرنسي، وتوزعت حسب المخطط 3 أفران في محيط البلدة بحيث تكون في متناول الجميع ..، كما لحظ المخطط ضرورة وجود شبكة صرف صحي للبلدة فكان فيها -فعلًا- أول شبكة صرف صحي في المنطقة.

كما لحظ المخطط ضرورة الاتساع للبلدة من الجهة الشرقية وفق متطلبات الأجيال اللاحقة الجديدة فترك من الجهة الشرقية ما يسمى عقاريًا بـ"البقشات"، لكل عائلة بقشة أي قطعة أرض مساحتها (1200م2) متناسبة من حيث توزع السكان حسب قربهم أو بعدهم عن البحر كنسق أول ونسق ثاني.

أسماء العائلات التي سكنت "الحميدية منذ البداية-:
تارزلاكي-كوكالاكي-مولاكي-خلاصاكي-جولاماكي-موبهاكي-
بساراكي-باشازاكي-مديراكي-سليمالاكي التي تحولت لاحقا إلى "الهرش".
وما تزال هذه التسميات تكنى بها أغلب الأسماء للمواليد الجدد في العائلات حتى اليوم، ويشير نهاية تسمية أصل العائلات بحرفي (كي) إلى الأصل الكريتي لهذه العائلات جميعها.
أول عمل قام سكان الحميدية آنذاك هو مقالع الحجر الرملي المتوفر على الشاطئ القريب منهم، ثم عندما توفر لهم إمكانية بناء زوارق صيد بحري صغيرة اتجهوا نحو الصيد البحري، وقسم منهم صار يعمل في الزراعة.
أهالي "الحميدية" يتميزون بانفتاح اجتماعي واسع يدل عليه التزاوج الواسع مع جيرانهم باختلاف الطوائف والأعراق، والانسجام الاجتماعي التام مع وافدين جدد قدموا البلدة من السهل الريفي الشرقي الواسع المجاور لهم وسكنوا فيها، وما زالت المقبرة الوحيدة في البلدة تجمع الموتى من الجميع من دون تفريق، ولعل السبب في ذلك يعود إلى قدوم هؤلاء للسكان من منطقة حضارية قديمة (جزيرة كريت) في اليونان، كما يقول السيد محمد سلمان.
يقدر عدد سكان أهالي "الحميدية" في البداية بحدود |1000| نسمة، واليوم يبلغ عدد سكانها حوالي |4000| من أصل كريتي، من مُجمل سكان الحميدية الإجمالي البالغ |7500| نسمة، حيث بدأ يفد إلى الحميدية سكان جدد من قرى السهل المجاور -كما ذكرنا سابقًا- منذ ثلاثينيات القرن العشرين لأسباب اقتصادية زراعية "الإصلاح الزراعي لاحقًا أواسط القرن العشرين"، واجتماعية لعل أهمها انفتاح سكان الحميدية من أصل كريتي ومهاراتهم المتميزة.
أول مدرسة في منطقة سهل "عكار" أنشئت في الحميدية حوالي عشرينات القرن العشرين، وإداريًا كانت "الحميدية" أول ناحية في المنطقة تتبع لها قرى عدة حتى حدود ناحية صافيتا في الشرق.
لم نعثر على أي كتاب أو دراسة توثق تاريخ "الحميدية" وعادات سكانها وأمزجتهم الاجتماعية، باستثناء مخطوط رواية للصديق الجميل الطيب الذي أفادنا بأغلب ما تقدم الأستاذ (محمد سلمان) الذي درس الأدب العربي في الجامعات السورية، وكان يعمل مُدرّسًا للأدب العربي في مدارس البلدة طيلة سنوات حتى التقاعد، الذي نتمنى له طول العمر والسلامة وإصدار

الرواية قريبًا وغيرها من الإبداعات وهو في أتم العافية والصحة وألق الروح الذي لمسناه فيه.

شخصيات طريفة لافتة في بلدة الحميدية:

ظهرت شخصية قوية لا تهاب شيئًا، وفي الوقت نفسه كانت شخصيّةً طيّبةً جدًا وطريفةً، تنطوي على عمقٍ إنسانيٍّ كبيرٍ في بلدة الحميدية من عائلة "مديراكي" وقد عُرفت هذه الشخصيّة باسم "الشرشور"([33]) نسبة إلى قبضة العتّالة المسماة "الشرشور" التي كان يمسكها كثيرًا في بواكير فتوته وشبابه كونه كان يعمل منذ الصغر عتّالًا، ثم إنه كان يستخدمها لأغراض أخرى كثيرة إذا استدعت الضرورة كما كان يقول دائمًا حسب ما روى عنه السيد محمد سلمان الذي كان يعرفه جيّدًا، وتجمعهما جلسات وديّة كثيرة.

عمل (الشرشور) بعد ذلك في البحر فمارس الصيد البحري بمهارة كبيرة على مراحل عديدة، من الأسلوب اليدوي إلى استخدام قوارب الصيد.

كان يحترم كل الأديان ولا يميز بينها، ويروى عنه أنه قرّر ذات يوم أن يتعمّد ليصبح مسيحيًا، وبعد تعميده كان يقصد كنيسة قرية مجاورة للصلاة أحيانًا، وفي إحدى المرات عاد ليقول كل الأديان مثل بعضها، تختلف في شكل الطقوس لكنها في النهاية والعمق تشبه بعضها فامتنع بعد ذلك عن قصد الكنيسة للصلاة.

كان ميله الدائم في الحياة "حب بلا حدود" حسب تعبيره المفضل كما يُروى عنه.

لذلك كان كريمًا مضيافًا، ويرغب باستقبال كل الغرباء الوافدين إلى الحميدية بقصد الزيارة والاطلاع، في بيته.

وعشية موته كانت وصيته: كفّنوني كمسيحي.. وصلّوا عليّ كمسلم.

كما كانت توجد شخصية أخرى شبيهة بالشرشور، وكان زميلًا له في مهنة الصيد البحري اسمه (فائق كردي) من أصل كريتي أيضًا، وكنية الكردي له

---

33 -: شخصية (شرشور) هذه موجودة بالصوت والصورة في فيلم وثائقي - تسجيلي بعنوان "اليونانيون العرب - The Arab Greeks" من إخراج (هلا مراد) وهي فنانة وإعلامية لبنانية – سورية من أصل يوناني كريتي. والفيلم موجود على قناة اليوتيوب لمن يرغب بمشاهدته.

وهـــذا رابـــط الفـــيلم: https://www.youtube.com/watch?v=WH-dP_ULw5M.

تعود لاسم جده الذي كان يسمى باليونانية "تشورت" أي كورد، وربما يكون من أصل كوردي فعلا.
كان كزميله الشرشور كريمًا مضيافًا مُحبًا للآخرين، ويهوى استقبال جميع الضيوف الأجانب في بيته على اختلاف مللهم وجنسياتهم، وكان يجيد اللغات اليونانية والإنكليزية والفرنسية والعربية.

اللغة:
استطاع القادمون الأوائل تعلم اللغة العربية عن طريق التأقلم مع الجوار العربي، إلا إن تأسيس المدرسة بشكل مبكر في الحميدية لعب دورًا أساسيًا في تعليم الأبناء والأجيال اللاحقة اللغة العربية بشكل تام.
ومن اللافت أيضًا - كما حدثني الأستاذ محمد سلمان - أن أغلب القادمين من الريف المجاور الذين سكنوا الحميدية بجوار أهاليها الكريتيين قد تعلموا اللغة اليونانية بلهجتها الكريتية من جيرانهم حتى درجة التحدث بها.
كما تعلموا من الكريتيين مهنة قلع الحجارة واكتساب مهارة الصيد البحري، وهذا يؤشر بشكل كبير على طريقة التفاعل الجديد بين الأهالي في المنطقة السهلية – الجبلية المذكورة القريبة من شاطئ بلدة الحميدية، مُشكّلين بذلك نشاطًا اجتماعيًا مشتركًا جديدًا منذ بدايات القرن العشرين.

حي عرب الشاطئ
يقع حي عرب الشاطئ على تماس مباشر يصل إلى درجة التداخل مع القسم الكريتي من الحميدية، إلا إن كل سكان هذا الحي من أصل عربي، وأغلبهم بالأصل من سكان بادية دير الزور كما حدثني أحدهم وهو السيد (قاسم كيشاوي)، الذي قال لي إن أقدم عشيرة قدمت إلى هذا المكان هي من بادية دير الزور هي عشيرة "الجحيشات" نسبة إلى القوم الذين يقودون الآخرين وهم يركبون الحمير كما قال.
فعرب عشيرة "الجحيشات" هم أقدم من سكن هذه البلدة منذ عام 1857م بسبب نزاع عشائري طاحن حدث آنذاك بين هذه العشيرة وتجمع عشائر أخرى في بادية دير الزور سمي بتجمع عشائر "العقيدات"، مما أدى إلى نزوح أبناء هذه العشيرة في أنحاء شتى ومنهم الكثيرون ممن جاؤوا إلى الساحل السوري وسكنوا بداية في مكان قريب من نبع "عين الزبدة" ثم في منطقة عقارية تسمى "البرجية"، ثم إلى منطقة قريبة تسمى "اللّحى" قرب

نهر الأبرش، ومن ثم في عام 1895 تم بناء حي عرب الشاطئ بتماس مع الحميدية واستقروا فيه حتى اليوم.
وتتفرع اليوم عن عشيرة الجحيشات العائلات التالية:-
الكشاوي- المصطفى – غريب – إبراهيم – محمد – ياسين –شويش-
ويشكلون الغالبية العظمى، لذلك سميت بداية بـ"عرب الجحيش" ، ثم تم تغيير الاسم في عهد الرئيس جمال عبد الناصر أيام الوحدة مع مصر وأطلق عليها اسم (عرب الشاطئ).
ثم تتالى مجيء عشائر أخرى جديدة إلى عرب الشاطئ من مناطق مختلفة مثل:
عشيرة نعيم التي قدمت من لبنان ومن عوائلها بيت خلف وإسماعيل.
عشيرة الحدايدة ومنها عائلات الجبل نسبة لأصلهم الجبلي.
عشيرة الزريقات التي قدمت -أيضًا- من لبنان ومنها عائلة غزيّل.
يبلغ عدد سكان عرب الشاطئ حاليًا حوالي 7500 نسمة، بينما في عام المجيء كانوا بضعة مئات قليلة فقط.
بدأ أبناؤهم التعلم بدخولهم مدرسة الحميدية التي بقيت تخرّج أجيالهم المتتالية حتى بداية السبعينيات من القرن العشرين حيث تم إنشاء مدرسة خاصة بهم وما زالت تخرج حتى نهاية المرحلة التأسيسية أي الشهادة الإعدادية.

تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عرب الشاطئ:-
في لقاء خاص مع المهندس الأستاذ محمد كيشاوي وهو من أبناء عرب الشاطئ ومن عائلة الكيشاوي التي تتفرع من العشيرة الأقدم والأقوى في "العرب" ميّز بنباهة ودقة بين ثلاثة مراحل مر فيها أبناء عرب الشاطئ منذ سكناهم القديم في منطقة الشاطئ قرب الحميدية.
فهو يؤكد ما أشرنا إليه بداية من أن أبناء عرب "الجحيشات" سكنوا بداية في منطقة البرجية ثم انتقلوا إلى منطقة تسمى "اللحى" تقع على ضفاف نهر الأبرش، لكن ما جذبهم وشجعهم على الاقتراب أكثر من الشاطئ هو البدء ببناء بلدة الحميدية بداية تسعينيات القرن التاسع عشر بتوجيه من السلطنة العثمانية آنذاك في عهد السلطان عبد الحميد والحاجة إلى مزيد من اليد العاملة في عملية البناء.
بدؤوا بمغادرة منطقة "اللحى" باتجاه شاطئ البحر الذي كان يرعبهم منظره بداية من بعيد وهم بالأصل أبناء صحارى وكثبان رملية فقط.

أخذوا يشاركون في العمل مع بقية العمال الأخرين، ومع الوقت شرعوا بالاستيطان النهائي قرب الشاطئ، وعند اكتمال بناء بلدة الحميدية كانوا قد استقروا فيها بعد مغادرتهم مرحلة البداوة الرعوية وأشكالها في حياتهم ومعيشتهم متّجهين نحو المرحلة الريفية الزراعية الأكثر تطوّرا، فتعززت علاقتهم بالأرض وزراعتها وبتربية المواشي حيث إنهم يسكنون في أرض سهلية خصبة وواسعة، وكانت أنذاك مشاعًا وكان بعضها مملوكًا لبعض كبار الإقطاعيين في لبنان.

ثم اشتغلوا بمقالع الحجارة والصيد البحري، لكنهم اتجهوا أكثر نحو النقل البحري إلا إنهم تمكنوا وبرعوا في النقل البري أكثر من باقي مجالات العمل، وقد يعود هذا لإرث علاقتهم البدوية السابقة بالنقل والتنقل عبر الصحاري على الجمال.

ومع مرور الوقت ومن خلال تشابك هذه التحولات الاجتماعية والاقتصادية في حياتهم ومعيشتهم وبعلاقتهم بالأخرين حولهم بدؤوا الدخول في المرحلة المدنية بامتياز منذ النصف الثاني من القرن العشرين حيث يملك أغلب أهالي عرب الشاطئ اليوم واحدًا من أكبر أساطيل النقل البري الثقيل في الساحل السوري، إلى جانب عملهم وإمكاناتهم الكبيرة في النقل البحري أيضًا، حيث تملك بعض عائلاتهم أسطول نقل بحري كبير، كما سافر واغترب عبر البحار أغلب شباب عرب الشاطئ.

وتلك مفارقة مهمة تُسجّل لعشيرة عرب الجحيشات التي تعود أصل التسمية تلك ربما إلى قيادة القطيع وقد قدموا من أعالي الصحاري العربية، إذ يتبوؤون اليوم مكانة كبيرة في تجارة النقل البري والبحري على السواء، ويتمتعون بفضل ذلك بإمكانيات مادية كبيرة ووفيرة.

ومع ذلك ففي كل بيت تقريبًا في عرب الشاطئ ما يزال يوجد ما يشبه مشغلًا صغيرًا لصنع الحصر من القش والقصب وهو عمل تقوم به النساء فقط ومردوده المادي يعود لهن فقط حتى داخل البيت وليس للرجل، وهذا يؤكد على أهمية استقلال المرأة الاقتصادي المنتج،

لذلك يتمتع أهالي عرب الشاطئ كجيرانهم الأقرب أهالي الحميدية بانفتاح اجتماعي واسع في حياتهم الخاصة أو تعاملهم مع محيطهم بحيث بات يشكل هذا المحيط السوري الواسع من سهل عكار بفسيفساء مجتمعية جميلة تلخص الفسيفساء السوري عمومًا، وقد لخّص لي محدثي الشاب السيد "قاسم كيشاوي" هذا التنوع والتناغم فيه قائلًا:(الجمال في التنوع).



الفصل الثاني
نماذج من الريف الجبلي التابع لطرطوس

تجمع قرى منطقة نهر الخوابي

تعد قرى منطقة نهرالخوابي التي تبعد عن طرطوس شرقًا بين 20 – 25 كم، وهي إحدى أقدم التجمعات السكانية المأهولة في جبال محافظة طرطوس، وتمتاز من حيث الطبيعة بجمالها الخاص وأراضيها الزراعية الخصبة كونها تنتشر وتتجمع بمسافات ليست بعيدة عن بعضها في منطقة جبلية وعرة منخفضة نسبيًا، تشكل أحد أحواض ضفاف مجرى نهر الخوابي الذي ينبع من الجرود الجبلية البعيدة بالقرب من منطقة وادي العيون، وترفده ينابيع عديدة على جانبي مجراه الطويل ليلتقي بعد منطقة قرى نهر الخوابي بنهر "قيس" الذي ينبع بدوره من جرود منطقة الدريكيش في وادي جميل يسمى "ملتقى النهرين"، ثم يصبّان في مجرى واحد طويل نسبيًا على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من طرطوس. وهذه الإشارة السريعة لجغرافيا النهر تعني فيما تعني اللقاء البشري والسكاني، كحال ينابيع وروافد مجرى النهر، بين جميع أبناء القرى على ضفاف النهر في مجراه الطويل هذا، وقد اخترت الحديث هنا عن هذا التجمع من القرى لخصوصيتها أوّلًا ولانفتاحها المستمر على الجوار ثانيًا، والذي ساعدني على ذلك هو لقاء مهم مع أحد أبنائها المختصّين بالتاريخ عمومًا وبتاريخ منطقته خصوصًا.

لذلك فالمعلومات الواردة أدناه هي قسم من حديث مع ابن منطقة نهر الخوابي المهتم بتاريخها جيدًا الأستاذ (خضر قاسم حسين) مدرس التاريخ سابقًا، والمهتم بتاريخ منطقته جيدًا، وذلك في لقاء خاص معه بتاريخ 7 | 10 | 2016 قبل وفاته بعامين، أنشرها هنا بكل أمانة كما رواها لي شخصيًا من دون أيّ تعديل عليها من قبلي:

يرى الأستاذ خضر أن وجود أهالي قرى منطقة نهر الخوابي يعود إلى الفترة التي أعقبت حملات الاضطهاد والقتل والمذابح التي تعرض لها أتباع المذهب الإسماعيلي خلال أطوار عديدة من التاريخ الإسلامي على يد خلفاء مسلمين، تحت تهم باطلة كالإلحاد والزندقة والهرطقة والخيانة.. إلخ، وبتحريض رجال دين غلاة متطرفين كانوا في خدمة هؤلاء الخلفاء

خصوصًا خلال العهد السلجوقي، مما اضطر الذين لجوا من هذه المذابح البحث عن ملاذات آمنة لهم، فكانت فكرة شراء القلاع الحصينة كقلاع مصياف، والقدموس، والكهف القريبة من المناطق الساحلية في سورية.
وكانت هذه القلاع تعتمد على الدعم المالي الذي كان يأتيها من قلعة (الموت) الرئيسة التي أسسها (حسن الصباح)، لكن بعد سقوط قلعة (الموت) نهائيًا عام 1256م صار عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فتحولوا نحو الاهتمام بالبيئة الجبلية الصخرية الوعرة المحيطة بهم، فاستطاعوا تحويل أراضيها إلى أراض خصبة وبساتين مثمرة أسسوا فيها قراهم الجديدة ومن هذه القرى تجمّع قرى منطقة نهر الخوابي وهي (خربة الفرس، بحوي، بيت قاسم، بيت أبو خليل، عتر زيتي، كفرية، بيت دبة، الملوعة ...... إلخ)
لذلك يعد وجود سكان قرى هذه المنطقة هو الأقدم في هذه الجبال، وقد لعبوا دورًا مهمًا في مقاومة الغزوات المغولية والصليبية للمنطقة بالتعاون مع الجيوش الإسلامية منذ ذلك الوقت، ولعبوا الدور نفسه في منع تقدم الصليبيّين نحو الداخل السوري.
كما تعرضوا خلال العهد العثماني – كما يقول الأستاذ خضر - لألوان شتى من الاضطهاد والملاحقات والقتل، ولعل آخرها كانت محاكمة كبار زعماء منطقة نهر الخوابي الدينيين في قلعة دمشق بداية القرن العشرين عام 1901، أواخر عهد السلطان عبد الحميد بتهم باطلة ومن ثم الحكم عليهم بأحكام تتراوح بين الإعدام والسجن لسنين عديدة مع الأشغال الشاقة أو الحبس المؤبد.
لكن الحدث المأساوي الأكبر الذي مرّ على سكان هذه المنطقة في التاريخ الحديث كانت بدايته عام 1918، عندما بدأ التحضير للفتنة بينهم وبين جيرانهم من سكان المنطقة الجبلية عام 1918، بتحريض إنكليزي– فيصلي نسبة للملك فيصل آنذاك، الذي كان أداة بيد الإنكليز الذين يريدون إثارة المشاكل والمتاعب للوجود الفرنسي على الساحل السوري رغم اتفاقهما العلني المبرم على تقاسم المنطقة العربية (الشرق أوسطية) بينهما حسب صيغة اتفاقية (سايكس- بيكو) المعروفة.
فالمعروف أن فرنسا وبريطانيا وروسيا كانوا يعملون كقوى دولية استعمارية كبرى آنذاك كل لحسابه الخاص، فاتفقوا على تقاسم تركة الرجل المريض (الإمبراطورية العثمانية في أواخر عهدها)، وكانت فرنسا تطمع بسوريا وفلسطين حتى الموصل الأمر الذي لم تقبل به إنكلترا، أما روسيا

فبعد الثورة البلشفية فيها عام 1917، تخلت عن أطماعها كليا في المنطقة وانشغلت بشأنها الداخلي وبتوجهات دولية أخرى مختلفة كليا.
لذلك استمر تنافس الأطماع بالمنطقة، وبقي منحصرا بين فرنسا وبريطانيا، وعلى الرغم من اتفاقهما الشهير المعلن (سايكس- بيكو) إلا إنهما كانتا تعملان في الخفاء وعبر عملاء مع ضخ المال والسلاح اللازم على إفشال أو إعاقة وصول الدولة الأخرى إلى أطماعها الخاصة وكما تريد، وهذا تفصيل طويل ليس هنا مجال التوسع فيه، لكن ما أودّ الإشارة إليه هو أنه على الرغم من الاتفاق على أن تكون منطقة الساحل السوري حتى الشمال (كيليكيا) والجنوب حتى بيروت لفرنسا بينما يبقى الداخل السوري تحت إدارة عربية كمملكة عربية سورية يحكمها الأمير فيصل بن الحسين كانت فرنسا مصرّة على السيطرة على الداخل السوري بالكامل، لذلك حاولت بريطانيا جهدها ومن خلال الملك فيصل وأركانه ضخ عملاء ومال وسلاح في المنطقة الساحلية لإثارة الفتن بين طوائف سكانها لعرقلة المشروع الفرنسي في السيطرة الكاملة السهلة والمريحة على الساحل، فكان لها ما أرادت، لكن ليس على حساب فرنسا التي تمكنت من السيطرة في النهاية خصوصًا أنها استثمرت الفتنة والانقسام بين السكان لاستمالة شريحة كبيرة منهم معها بحجة حمايتهم لأن الغريق مستعد لأن يتعلق برأس الثعبان لينقذ نفسه من الغرق، كما أشار محدثي الأستاذ خضر قاسم، وإنما على حساب أهالي وسكان الساحل وبالأخص المنطقة الجبلية القريبة من طرطوس في منطقة الشيخ بدر، حيث تم التحضير لفتنة كبيرة بين السكان كان ضحيتها سكان قرى منطقة نهر الخوابي.
وفعلًا نجحت خطة بريطانيا عبر الملك فيصل وأعوانه في محاولة إيقاظ الفتنة، لكن كيف بدأ التحضير لها:
هنا يشير محدثي الأستاذ (خضر قاسم) بالاعتماد على مصادره الخاصة وعلى شهود عاصرهم، أو مازالوا على قيد الحياة، أنه منذ بداية شهر نيسان 1918 بدأت سلسلة من اللقاءات والاجتماعات الدورية في (قلعة الخوابي) التي كانت تحت سيطرة ملاك ومتنفذين من "آل المحمود" وبتحريض من الإنكليز والملك فيصل بقصد إثارة الفتنة بين أهالي المنطقة الذين ينتمون إلى طوائف دينية متعددة (سنيّة علويّة إسماعيليّة مسيحيّة).
وقد عُقدت الاجتماعات بشكل دوري في قلعة الخوابي، ومنطقة الشيخ بدر، وفي قرية (القمصية).

لكن أثناء اجتماع "الشيخ بدر" الذي حضره عدد من الزعماء للتشاور بشأن الخطوات التي يجب اتخاذها تشكلت هيئة ضمت الزعماء: محمود مصطفى المحمود، أحمد المحمود، محمود المحمود، الشيخ صالح العلي، وبعض وجهاء ومشايخ الطائفة العلوية، وممن حضر المؤتمر أيضا مندوبو الحكومة الفيصلية بدمشق، وبعض الزعماء الأخرين، ومن بين الحضور كان العلامة الشيخ سليمان الأحمد والد الشاعر بدوي الجبل من منطقة جبلة، الذي انسحب فورًا من الاجتماع بعد أن عرف الهدف الحقيقي منه، محتجًا ورافضًا رفضًا قاطعًا ما سيقوم به المؤتمرون، ألا وهو - كما أشار الأستاذ (خضر قاسم) - دعوة زعماء الطائفة الإسماعيلية إلى اجتماع يعقد في الشيخ بدر لتصفيتهم أثناء الاجتماع، كما فعلت تركيا قبل هذا بوقت قصير.
ثم يتابع محدثي قائلا: أنه على الرغم من انسحاب الشيخ سليمان الأحمد، أصر الباقون على عقد الاجتماع الذي استمر ثلاثة أيام من تاريخ 15 | 11 | 1918 حتى 17 | 11 | 1918، وتوجيه الدعوات إلى زعماء الطائفة الإسماعيلية التي كانت الأضعف آنذاك كضحية سهلة، بتهمة غير صحيحة وهي اتصالها بجنرال فرنسي على الرغم من أن الفرنسيين لم يكونوا وقتها موجودين في الساحل السوري، ولم يكن بالإمكان وقتها نهائيًا لأي شخص من هذه القرى الفقيرة المعزولة الاتصال لا عن طريق البر أو البحر بجنرال فرنسي أو غير فرنسي.
لكن الأستاذ (خضر قاسم) يعود ويؤكد معلومات يعرفها من أشخاص ثقة عنده عاصروا تلك المرحلة، قائلًا إنه وللأمانة التاريخية يمكن القول من خلال ما وصل عن طريق التواتر نقلًا عن الذين اكتووا بنار الفتنة أن الشيخ (صالح العلي) بعث برسالة غاية في السرية والأهمية إلى أحد زعماء الإسماعيليين، الذي كان صديقًا مقرّبًا لديه، وهو الشيخ (محي الأحمد) من قرية "عقر زيتي" يعلمه فيها أن الهدف من الاجتماع هو تصفية زعماء الإسماعيليين الذين سوف يحضرون، وطلب منه عدم الحضور حتى لو كانت الدعوة تحمل توقيعه، كما طلب من ناقل الرسالة المحافظة على سريتها وإلا تعرض للقتل.
ثم يقول متابعًا على لسان السيد أحمد محي الدين محمد عيزوقي من قرية "كفرية" الذي عاش المرحلة فأخبره: أن الشيخ صالح العلي عرض على والده (محمد صقر عيزوقي" الذي كان صديقًا للشيخ صالح العلي ، عن طريق طرف ثالث، تأمين حياته وحياة أفراد أسرته وأمواله إذا رغب

الانتقال من منطقة نهر الخوابي إلى منطقة "السلمية"، حيث يمكنه هناك إيجاد الملاذ الآمن.
لذلك يقول الأستاذ خضر أنه إذا دلت هذه المواقف للشيخ صالح العلي على شيء فإنها تدل على نبل وطيب معدن وصفاء شخصه، وعلى حسه الإنساني المرهف، كما تدل على أنه لم يكن غدارًا ولا خؤانًا.
لكنه يعود فيستدرك ليشير أن الشيخ صالح العلي كان محكومًا بضغوط عدة منها داخلي ومنها خارجي مما اضطره إلى قيادة ما اتفق عليه المجتمعون في قلعة الخوابي، ولو عن بعد ضد جيرانه من الإسماعيليين.
فالضغوط الداخلية كانت تتلخص بأن سادة قلعة الخوابي والمنطقة منذ أيام العثمانيين "آل المحمود" كانوا سابقًا قد عملوا على تخليص الشيخ صالح العلي من ورطة تهمة قتل دركيين عثمانيين في قرية "كاف الجاع" وهاهم الآن يطالبونه برد الجميل، إضافة إلى رغبة عدد من أتباع الشيخ صالح بالتخلص من وجود الإسماعيليين في المنطقة والاستحواذ على أملاكهم.
أما الضغوط الخارجية فتتلخص بضغوط الحكومة الفيصلية بدمشق التي كانت تابعة للبريطانيين وبعض مناصريها في حماة ومن بعض مناطق الداخل السوري وبعض زعماء الساحل كآل المحمود وغيرهم، حيث كانت تهدف هذه المخططات إلى إشعال الفتن الطائفية في بعض المناطق التي تطمع فيها فرنسا في سورية، خصوصًا مناطق الساحل، بقصد إثارة المتاعب في وجه فرنسا لإجبارها على الانسحاب من المنطقة الساحلية كما تصور الذين لا علم لهم بالسياسة الغربية الاستعمارية.
فقد كان مندوبو الملك (فيصل بن الحسين) يعملون، كما يقول الأستاذ (خضر قاسم)، يدًا بيد مع عملاء بريطانيا وجواسيسها على إشعال نار الفتن الطائفية بدل العمل على توحيد الجبهة الداخلية وتحصينها لمجابهة الغزاة سواء أكانوا الفرنسيين أم البريطانيين، وهذه الغلطة التاريخية أفشلت مخططات الملك فيصل الذي انساق بالكامل وراء ما كانت تزيّنه له بريطانيا ودوائرها الاستعمارية في المنطقة، من دون أن يفكر هو بالنتائج التي سوف تترتب على المؤامرة القذرة تلك، ولهذا جاءت النتائج مخيبة لأماله، وهادمة لكل ما بناه، فقد دفع عرشه ثمنًا لأخطائه التي لا حصر لها، ثم صار يتوسل بريطانيا بغية الحصول على عرش جديد في العراق.
أما الأسباب الخاصة للحساسية بين قلعة الخوابي وسكان قرى نهر الخوابي فتعود برأي الأستاذ خضر إلى إقدام نفر من قلعة الخوابي على سرقة رؤوس من المواشي– الماعز - العائدة إلى أهالي الخوابي الإسماعيليين

وأخذها إلى القلعة، فرد نفر جاهل من الإسماعيليين على التحدي، حيث ساقوا مواشي قلعة الخوابي إلا ما يخص (عبد القادر رضوان) وأهله إلى قرية عقر زيتي، علمًا أن الشيخ (محي الدين الأحمد) من زعماء الخوابي كان قد تنبه إلى أن الخطأ لا يعالج بخطأ أكبر، وأن النار لا تطفئ بالزيت، فأمر برد المواشي فورًا، لكن على إثر ذلك اتصل آل المحمود بالشيخ صالح العلي وطالبوه برد الجميل.

وقد يكون من الأسباب القريبة، كما يرى الأستاذ خضر قاسم، لحساسية الجيران الأقرب من أبناء القرى العلوية تجاه الإسماعيليين هو مقتل أحد أبناء القرى العلوية في منطقة القدموس برصاصة خطأ من مسدسه الذي كان يقوم بإصلاحه بيده، فانطلقت منه رصاصة خطأ من قبل صاحبه، وقد ثبت لأهله وعشيرته ذلك، لكن من سوء حظ القرى الإسماعيلية كلها أن موته كان على أرض تابعة لهم.

لهذه الأسباب مجتمعة بدأت توضع الخطط العملية للهجوم على قرى منطقة الخوابي لقتل سكانها وتهجيرها، والكل وافق على القتل إلا الشيخ صالح العلي، لكن على ما يبدو فإنه فقد السيطرة على جموع المسلحين التي بدأت بالإغارة والقتل والسلب والنهب، وكان أول حادث كبير يذكر هو قتل أربعة تجار من قرى الخوابي كانوا في طريقهم إلى "سلمية" للاتجار بالزيت وهم: حسن خضر المبيض من برمانة رعد، وأسعد سليمان عسكور من برمانة رعد، وإبراهيم منصور من الملوعة، وأحمد أدريس من بيت أبو خليل، حيث تم سلب كل ما بحوزتهم ثم قتلوا جميعا، وعلى إثر ذلك -أيضًا- قام المسلحون بقطع الطريق بين مصياف والقدموس من جهة وبينهما وبين مصياف من جهة ثانية، وكانت تلك هي الإرهاصات الأولى للفتنة الطائفية التي خطط لها الملك فيصل وأعوانه بالتعاون مع الإنكليز.

في تلك الأثناء كان في "حماة" أحد زعماء الخوابي الإسماعيليين وهو الشيخ (عبدالله المرتضى) سمع بما حدث من قتل التجار الأربعة على الطريق، ومن ثم قطع الطريق بين مصياف والقدموس والخوابي، وفهم أنها عملية بدء حصار فعليّ للمنطقة التي هو منها، وأن حياة أبناء منطقته باتت في خطر داهم، فاتصل على الفور بمتصرف حماة الفيصلي "رشيد بك طليع" وأعلمه بما جرى ويجري فتظاهر المتصرف بأنه لم يدر بما يجري على الرغم من أنها تقع ضمن منطقته الإدارية، وأبدى حرصه واهتمامه بالأمر، لكنه صار يماطل من دون أن يرسل أيّ قوة عسكرية لحسم الأمر على الأرض، لكن مع إلحاح الشيخ عبدالله المرتضى بضرورة التحرك قبل

أن تقع كارثة الفتنة، وبدلا من أن يعمل المتصرف على حسم الأمر بالسرعة المطلوبة قام بتزويد الشيخ المرتضى بكتاب موجّه إلى السيد (رضا باشا الركابي) في دمشق كونه الحاكم العسكري في سورية أيام الحكم الفيصلي.

وعند وصوله إلى دمشق قُوبل بأسلوب المماطلة نفسه من قبل الحاكم العسكري الذي قابله مرتين، مما اضطره لطلب مقابلة عاجلة مع الأمير فيصل لشرح الأمر له بالتفصيل، لكنه قُوبل بما لاقاه من سابقيه، وبينما هو ينتظر في دمشق توجيهًا ما أو قرارًا حاسمًا وردته أنباء من منطقة الشيخ بدر والقدموس أن الأمور ازدادت سوءًا وخطورةً، فتقدم بطلب مقابلة عاجلة مع الحاكم العسكري فكانت كسابقاتها، ثم توجه بطلب عاجل لمقابلة الأمير فيصل الذي قابله وفاجأه بالجواب التالي:

"إن المنطقة الساحلية تابعة لفرنسا، وعليك مراجعة المعتمد الفرنسي بدمشق"، فأحس الشيخ عبدالله المرتضى بالصدمة من هذا الجواب الذي جاء بعد طول إقامة طويلة في دمشق متنقّلا بين الحاكم العسكري والأمير فيصل، وبعد أن وصلت الأمور لدرجة الانفجار في منطقته

اتصل الشيخ المرتضى بالمعتمد الفرنسي في دمشق الكولونيل "كوس" الذي أبدى اهتمامه بالأمر، فزود الشيخ بكتاب إلى المفوض الفرنسي في بيروت (جورج بيكو) أحد أقطاب التآمر في اتفاقية (سايكس- بيكو)، غادر الشيخ دمشق إلى بيروت ثم قابل فور وصوله المفوض الفرنسي وشرح له الموقف، أصدر بعدها المفوض أوامره على الفور إلى الجنرال الفرنسي (هملن) طالبًا منه العمل بسرعة على معالجة الموقف وتهدئة الأوضاع.

ثم يتابع الأستاذ (خضر قاسم) حديثه قائلًا:

ولم تكن هذه الأوامر المشددة أكثر من ذرّ للرماد في العيون، لأنه ليس من المعقول أن تعمل فرنسا التي تريد الاستيلاء على الساحل والداخل على التهدئة قبل تحقيق غاياتها، وتحقيق غاياتها لا يتم إلا إذا اشتعلت المنطقة بالفتن وغرقت بالدماء، وعندها سوف تحقق كل ما تريده بمساعدة السكان المحليين الأضعف والمهددين، الذين لا يتمكنون من حماية أنفسهم إلا ما يمكن أن يحصلوا عليه تحت المظلة الفرنسية، وإن حكومة فيصل سوف تنهار نتيجة لتلك الفتن.

بدأ الهجوم الواسع على قرى الخوابي بتاريخ 25 | 3 | 1919، ولم تكن تملك هذه القرى من السلاح سوى سبعين قطعة سلاح، بعضها قديمٌ جدًا وغير صالح للاستعمال، علمًا أنها لم تكن مستعدة لمثل هذا الهجوم، وليس

لديها ذخيرة تكفي ولا طرق اتصال بالخارج، لذلك بعد ثلاثة أيام من الصمود نفدت الذخائر، فاضطر أهالي القرى إلى ترك قراهم بما فيها لقمة سائغة للمهاجمين، واللجوء إلى مدينة طرطوس لحماية أنفسهم، وقد لقي أهالي القرى تعاطفًا كبيرًا من بعض زعماء السنة بطرطوس ولمسوا كل رعاية، ولولا هذا لتمت إبادتهم جميعا.
لكن كان قد بقي في القرى بعض العجزة والمرضى والنساء والأطفال والجرحى، فتم الإجهاز عليهم جميعًا من قبل المهاجمين بطرق بشعة، وقد تم هذا من دون علم الشيخ صالح العلي لأنه فقد السيطرة على أتباعه الذين انتشروا في القرى، ولم يكن ثمة اتصال بينه وبين قواته، فكان كل فرد يعمل كما يريد ويهوى.
ثم تتوالى الفصول المأساوية للفتنة في المنطقة كما يستعرض الأستاذ (خضر قاسم)، الفصول التي لا داعي للاستفاضة في عرضها وتذكرها اليوم خصوصًا أنها جعلت الطرف الأضعف، أبناء القرى الإسماعيلية أنذاك، تحت رحمة قوات الاحتلال الفرنسي لحمايتهم وإعادتهم إلى قراهم التي نزحوا منها مرتين إلى طرطوس خلال عامين هربًا من البطش والقتل، إلى أن تمت إعادتهم إليها نهائيًا بأمان بعد ذلك.
أردت من نشر هذه المقتطفات من حديث الأستاذ (خضر قاسم حسين) أستاذ التاريخ المختص والمهتم بتاريخ منطقته، عن تاريخ قرى منطقة الخوابي والفتنة الطائفية التي حدثت فيها أواخر العقد الثاني من القرن العشرين والتي قيل فيها الكثير([34]) الإشارة إلى أن سكان هذه القرى كانوا وما

---

[34] -: لعل من أحد أهم المراجع التاريخية التي أشارت إلى حادثة الفتنة الطائفية تلك لكن باختصار مكثف، في صفحة ونصف فقط وفي تفسير وسياق تاريخي مختلف هو كتاب بعنوان "الثورة العربية الكبرى – تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن" المجلد الثاني بعنوان "النضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز" للمؤرخ (أمين سعيد) الذي كتبه عام 1933، وصدر فيما بعد من دون الإشارة إلى تاريخ الإصدار عن دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، حيث يفسر المؤرخ في الصفحة 113 تحت علوان "حوادث النصيرية" أن الحوادث بدأت في شهر مايو عام 1919 بسبب خلاف نشأ على الأراضي بين النصيرية من سكان قضاء بانياس (المرقب) وبين الإسماعيلية من جيرانهم على أراض ومزارع، الذي تطور فيما بعد إلى أحداث دامية، وتدخل فرنسا لنصرة طرف على آخر وامتناع القيادة العسكرية البريطانية التي كانت موجودة في حمص أنذاك عن التدخل الأمر الذي جعل القوات الفرنسية تعمل منفردة... إلخ.

يزالون مكوّنًا تاريخيًا قديمًا، وجزءًا مهمًا فاعلًا ورئيسًا في النسيج المجتمعي العام للمنطقة الجبلية الساحلية التابعة لطرطوس، حيث إن الأجيال المتتالية من أهالي هذه القرى سرعان ما عادت وتفاعلت إيجابيًا وبيسر مع محيطها البشري من دون حساسيات وأحقاد كراهية على جميع المستويات الاقتصادية الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما إن أهالي القرى المحيطة والمجاورة سرعان ما تجاوبوا بإيجاب مع ذلك، والتئمت الجروح نهائيًا فيما بينهم، وهذا يدل على أنها كانت أزمة فتنة طارئة وعابرة ولدت بتأثير تحريض خارجي فعلًا وليس لها مكان عميق متأصل في النفوس، وكمثال واضح وكبير نذكر أن أول مدرسة مهمة وكبيرة في المنطقة تأسست فيها وكانت مفتوحة لتستقبل طلاب علم من جميع أبناء المنطقة الريفية المجاورة من دون استثناء هي "الثانوية المحمدية" التي لا تزال قائمة حتى اليوم، التي سوف أشير إليها بفقرة مستقلة.

لكن لابد من الإشارة هنا إلى توضيح أكثر للحقائق، إلى أن ثورة الشيخ صالح العلي المسلحة 1919 – 1921م في منطقة الشيخ بدر والقدموس، على الرغم من أنه تخللها بعض الحوادث الطائفية الدامية والمؤسفة، كانت موجهة بشكل أساسي ضد القوات الفرنسية التي كانت تحتل الساحل السوري وجباله انطلاقًا من طرطوس، واستطاعت هزيمة هذه القوات في أكثر من موقعة، ثم إن الشيخ صالح كان على اتصال وتنسيق دائمين، كما تؤكد العديد من المصادر التاريخية الحديثة وشهادة المعاصرين للثورة، مع ثورة إبراهيم هنانو في حلب والشمال السوري، وبعض أقطاب الثورات السورية الأخرى ضد الاحتلال الفرنسي، لذلك كان صوت الشيخ صالح مطالبًا بالوحدة السورية الكاملة عندما حاولت فرنسا تجزئة سورية إلى دويلات طائفية ورافضًا إعلان "دولة العلويين" في الساحل السوري، وهذه مأثرة وطنية مهمة وكبيرة له تضاف إلى مآثره الأخرى.

الثانوية المحمدية في وادي نهر الخوابي-:

سوف أعتمد عند الحديث عن الثانوية المحمدية هنا-أيضًا- على كتاب الأستاذ (خضر قاسم حسين) بعنوان "كي لا ننسى.. الثانوية المحمدية"([35]).

---

[35] -: خضر قاسم حسين "كي لا ننسى – الثانوية المحمدية" لا يوجد سنة إصدار ولا اسم دار نشر عليه.. لكن على ما يبدو فإن الكتاب صدر أوائل القرن الحالي 2021م بدليل أن المؤلف يقول في مقدمة كتابه ص 12 أنه "قرر العودة بالذاكرة

فالكتاب كُتب بصيغة رسالة وجدانية أخلاقية للأجيال المعاصرة كي تتعلم وتتعظ من مآثر الأجيال المؤسِّسة التي سبقتها في طلب العلم في هذه المدرسة، لذلك كان العنوان الفرعي الأول "كي لا ننسى".
يقول الأستاذ خضر في مقدمة كتابه هذا: "وكلمات قليلة بعجالة لا تفي بحق الذين شيدوا الثانوية المحمدية، ولا الذين تخرّجوا منها غير أن القليل خير من اللاشيء. فالبناة حولوا المنطقة الموحشة والكئيبة والمعزولة إلى منطقة مُريعة ومزهرة ومفرحة. والخريجون الذين درسوا على مصابيح الكاز حينًا، وعلى ضوء الشموع أحيانًا خرجوا من القوقعة، واتصلوا بالمدن العربية السورية وغيرها، بعد ربط المنطقة بشبكة من طرق المواصلات والجسور. وأصبح منهم الأطباء، والمهندسون، والمدرسون، والمعلمون، والإداريون، والمحامون، والقضاة، وأساتذة الجامعات، والمفكرون، وضباط القيادة...."([36]).
ثم يتابع في سطور لاحقة من المقدمة قائلًا: "وكانت أول صورة بارزة للمدرسة المحمدية هي انعدام الطائفية، في وقت كانت فيه مراجل الطائفية تغلي في كل مكان. تؤجج نارها وتغذيها الدول الاستعمارية. وكان لهذه الظاهرة – أي انتفاء الطائفية – أكبر الأثر في نفوس المواطنين على اختلاف مذاهبهم. فعلى مقاعد الدراسة الخاصة بالمدرسة المحمدية تعلم عدد من إخواننا أبناء الطوائف الأخرى ممن استطاع الوصول إلى المحمدية."([37]).
أما عن تأسيس المدرسة المحمدية بداية فيقول الكاتب:
"وذات يوم وصل إلى وادي الخوابي أمر طال انتظارهم له. وقد قضى هذا الأمر ببناء مدرسة ثانوية في وادي الخوابي لتعليم أبناء المنطقة على نفقة الآغا خان "سلطان محمد شاه". وبعد دراسة عدة مواقع لاختيار الأنسب منها، تم اختيار الموقع الحالي نظرًا لتوفر ينابيع دائمة الجريان وهذه الميزة لم تتوفر في باقي المواقع. بنيت المدرسة المحمدية فوق منبسط ضيق من

إلى ستين عامًا مضت على بدء التدريس بالثانوية المحمدية". وإذا عرفنا من التواريخ الواردة في الكتاب نفسه أن افتتاح الثانوية كان في عام 1942م فيكون إصدار الكتاب بين عامي 2002 – 2003م.
[36] -: المرجع السابق ص13.
[37] -: المرجع السابق ص15.

الأرض، يرتفع عن مجرى نهر الخوابي أقل من مائة متر. وهي تقع إلى الشرق من قرية بيت دبية. وتتبع إداريًا قرية خربة الفرس.
بدأ العمل في البناء عام 1923 وقد بنيت على الطراز الفاطمي في وقت كان سكان الخوابي يعيدون بناء منازلهم، ولم يمنع هذا من مساهمة السكان في نقل الحجارة والرمل والبحص لعدم توفر وسائط النقل، ولا طرق المواصلات. ونظرًا لصعوبة العمل بسبب المياه المحيطة بالموقع، وعمق واتساع الأساسات، استغرق العمل ست سنوات متواصلة بحيث انتهى البناء عام 1929م. وتم تدشين البناء عام 1931م على يد الأمير "علي خان" والد الإمام الحاضر "كريم آغا خان"، وبعد التدشين تأخر الافتتاح لظروف قاهرة منها وفاة المسؤول الأول عنها الشيخ "عبد الله المرتضى" رحمه الله. وفي سنة 1942م فتحت المدرسة أبوابها لاستقبال الطلاب، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن وهي تشع بنورها على المنطقة."[38]
يذكر المؤلف أن إجمالي نفقات البناء في ذلك الوقت بلغت 3000 ثلاثة آلاف ليرة ذهبية وهو مبلغ كبير جدًا آنذاك. ثم يستعرض مراحل تطور البناء لاحقًا، ومراحل التعليم بالتناغم مع ازدياد عدد الطلاب فيها إلى أن تم بناء مدارس وثانويات جديدة في المنطقة تابعة للدولة بحيث صار كل طالب يلتحق بالمدرسة الأقرب لسكنه وقريته.
وفي مستهل الكتاب يذكر المؤلف مع الصور الشخصية أسماء الأساتذة الذين تولّوا إدارة هذه المدرسة وهم كما ورد في الكتاب:
جبرا حجار
نجم الدين الصالح
محمد المحمد
أمين عيزوقي
أحمد شربا
أحمد عثمان
خضر حسين
أحمد سفر
احمد دبية
محمد هاشم

---

[38] -: المرجع السابق ص 25 – 26.

وفي الصفحات الأخيرة من الكتاب يضع المؤلف جداول عديدة، بأسماء الطلاب الذين تخرجوا منها منذ افتتاحها حسب الشهادات النهائية التي يحملها كل طالب، إعدادية، ثانوية، جامعية.
وقد أحصيت عدد كل مستوى من الشهادات كما وردت في هذه الجداول فكانت على الشكل التالي:
372 جامعي
301 ثانوية عامة ومعاهد متوسطة
38 إعدادية.
فيكون مجموع الخريجين منها كما وردت في جداول الكتاب سنة إصداره 711 خريجًا، يُذكر أن المؤلف لم يلحظ أو لم يحدد تاريخًا مقترنًا بهذا الموضوع، لذا فأنا أفترض أن التاريخ مسقوف بسنة إصدار الكتاب.

تجمع قرى حمين – الملاجة - بيت الجهني

تمهيد-:

لعل اختياري لتجمع هذه القرى لا يخلو من دلالة، فهي أولًا متجاورة وقريبة نسبيًا من بعضها على الرغم من وجود بعض الفواصل الطبيعية فيما بينها كالوديان أو الهضاب، ثم إن تشكل عائلاتها الحالية في قراها حديث نسبيًا لا يتعدى في أقدمها 150 – 200 عام، وإن لكل منها بدايات مختلفة في التشكل كما في العلاقة مع المحيط والعمل والعلاقة بالأرض ومآلات مختلفة لأجيالها، على الرغم من أنها تشترك مع جميع سكان القرى الجبلية الأخرى عمومًا بأنها جاءت وتشكلت بتأثير عامل الهجرة الداخلية آنذاك بحثًا عن مكان أكثر أمنًا ومردودًا، وسوف نرى أن كل واحدة منها تميزت بميزة ما في فترة من الزمن.
لذلك سأبدأ بأقدمها وأكبرها وهي قرية حمين.

حمين

تقع هذه القرية الأقدم والأكبر، من الجهة الجنوبية الشرقية لتجمع القرى التي تعنينا في هذه الفقرة، وقد صارت إداريًا مركز الناحية لعديد من القرى المحيطة بها التي تُقدر بـ 14 قرية ومزرعة.
تنتشر حمين بمنازلها اليوم على سفح جبل بإطلالة شمالية غربية يبلغ ارتفاع موقعها عن سطح البحر 320 مترًا، أو 1050 قدمًا، ويُقدر عدد سكانها اليوم المقيمين فيها بشكل دائم بين 2500 – 3000 نسمة.

لكن قبل الحديث عن تكون حمين الحالية أرى أنه من المفيد الإشارة السريعة إلى حمين الأقدم التي لم يبق منها إلا الأطلال ومرجعي بذلك هو كتاب " حمين خلال ثلاثة قرون" لابن المنطقة الأديب الشاعر والباحث المهتم في تاريخ حمين ومنطقتها (أحمد علي حسن)([39]).
فحمين الأقدم، كانت تقع شرق جنوبي حمين الحالية في مكان يسمى حتى اليوم "خربة حمين" على منحدر وادٍ يتلاقى مع مسيلٍ لنهري شتوي يسمى مسيل "وادي بردان"، حيث يلتقيان بدورهما مع مجرى لنهري شتوي آخر يسمى "سويق" غرب قرية شباطه ثم يصبان معًا في نهر الغمقة جنوبي مدينة طرطوس، وهذا الموقع القديم لحمين كان وما يزال غنيًا بموارد المياه، ففي منتصف هذا الوادي أعلى خربة حمين يوجد نبع ماء اسمه "عين حمين"، وإلى الأعلى منه يوجد نبع ماء ثان أغزر اسمه "عين التوتة"، حيث إن مياه العين الجارية تصل بسهولة إلى موقع حمين القديمة.
إن هذا التحديد الجغرافي للموقع لا يخلو من دلالة، حيث إن المنحدر الذي تقع عليه حمين القديمة باتصاله مع مسيل وادي بردان الذي يتصل بدوره لجهة الغرب بوادٍ أكبر وأكثر اتساعًا، ويقع على هضبة مرتفعة قليلًا فيه، يعادل ارتفاع موقع خربة حمين لجهة الشرق منه مكان أثري تاريخي كبير وقديم يسميه أهالي المنطقة اليوم ب"القصر" الذي يقع بين قريتي "الملاجة" و "المصطبة" الحاليتين.
يذكر الكاتب (احمد علي حسن) في كتابه عن هذا القصر نقلًا عن أهل الخبرة الأثرية كما يقول: " إن هذا القصر له علاقة مباشرة بالموقع الأثري الضخم المعروف بأيامنا هذه باسم (حصن سليمان) الذي يقع في مكان مرتفع من جبال الدريكيش الشرقية بقرب قرية "بجنة الجرد"، وإذا صحت هذه العلاقة وأعتقد أنها صحيحة فحمين ذات مكان تاريخي، وأن هذه المنطقة من الأرض لم تكن شيئًا تافهًا على سطحها، والربط بين آثار حمين وحصن سليمان أمر يقتضي تماثل الفن الحضاري، والعلاقة الطبيعية بين الموقعين الأثريين، باعتبار أن طرق الاتصال بين الساحل البحري والجبل كانت تسير من هذا المكان، فلا غرابة إذن أن يكون هذا القصر هو محطة أو مركز دفاعي لمملكة الحصن، أو مكان ترويض لرجال العبادة الذين

---

[39] -: أحمد علي حسن "حمين في ثلاثة قرون" صادر عن دار إيناس للطباعة والنشر عام 1998 طرطوس سوريا.

يمارسون رياضتهم في الأمكنة المنقطعة البعيدة عن الناس، ولكن هذا المكان يبدو أنه كان مكتظًا بالسكان."([40]).

إن سكان حمين القديمة، خربة حمين الحالية، لا وجود لهم إلا من خلال بقايا أثرية تدل على وجودهم يومًا ما.

أما حمين الحالية التي بدأت الحديث عنها، فقد نشأت بتكيّف خاص مع جغرافية المكان الذي تقع فيه، حيث إن موقعها ينفصل تمامًا بين موقعين عقاريين كبيرين كانت تملكهما قريتا "تيشور" من جهة الغرب و"بقعو" من جهة الشرق منذ 300 عام.

والذي حدث هو أن أحد الشيوخ الكبار (الشيخ معلى حمين) كما يسمى اليوم، وهو سليل أسرة شيوخ أتقياء كبار أيضًا، كانت مهمتهم الدينية والروحية والاجتماعية الدنيوية يومذاك على ما يبدو، تتلخص بالاهتمام الخاص بشؤون سكان هذه القرى الغارقة في الفقر والجهل والتخلف في زمن كانت المعارف الدينية فيه هي أعلى المعارف، كما كانت تعد خشبة الخلاص الوحيدة أمامهم. وكانوا يتوزعون في منطقة بين قرى "مجدلون البستان" غربي صافيتا مرورًا بقرية "تيشور" وحتى قرية "بقعو" شرقًا.

فـ"الشيخ معلىّ حمين هو ابن الشيخ علي ابن الشيخ سلامة ابن الشيخ معلىّ المدفون في مجدلون البستان"، توفي عام 1134هـ وكان إمامًا معروفًا في المنطقة، فاختلف على مكان دفنه أهالي تيشور غربًا وأهالي بقعو شرقًا، إذ إن كل قرية تريد أن يدفن فيها أو قريبًا منها للتبرّك من مقامه، وبعد تدخل العقلاء من الطرفين تم الاتفاق على أن يدفن في منطقة منتصفة عقاريًا بينهما، وكان الموقع أعلى مرتفع في جبل حمين، فصارت حمين الحالية تكنى به وهو يكنى بها.

أما قصة إمامة الشيخ معلىّ حمين فتعود لكون والدته تركية من إستنبول تنتسب لإحدى العائلات العلوية الكثيرة المنتشرة في تركيا أنذاك، لذلك فهي بعد وفاة والده وكان صغيرًا أخذته وسافرت إلى إستنبول وعملت على إدخاله إلى المدرسة السلطانية هناك التي تخرج منها([41]) فقيهًا وعالمًا في الدين وأصول الشرع، لذلك تم تعيينه بإرادة سلطانية بعد عودته إلى منطقته مفتيًا على بلاد صافيتا، وكان قد اختار التمركز في مكان هو أعلى المنحدر

---

40 -: "حمين في ثلاثة قرون" مرجع مذكور سابقا ص22.

41 -: يحكي كتاب "حمين في ثلاثة قرون" قصة سفر الشيخ معلى ووالدته إلى إستنبول في صفحات عديدة أهمها 38، 39، 40، 41.

الذي يصل إلى "خربة حمين" كما أشرنا إليه سابقًا بالقرب من عين ماء يسمى اليوم ب"عين التوتة"، ومن هنا بدأت تتكاثر ذريته وتنتشر حوالي المكان، لذلك فحمين الحالية قبل الشيخ معلى وذريته لم تكن معروفةً أبدًا، ليس هذا فحسب بل إن أغلب ذراريه كانوا يقتدون به كعالم وفقيه، حتى إن حمين ظلّت أجيالًا متتالية تنجب شيوخًا كبارًا في زمنهم، فكانت قدوة في منطقتها.

يقول مؤلف كتاب "حمين في ثلاثة قرون": لقد أصبحت حمين، حمين الشيخ معلىّ الذي اكتفى بالانتساب إليها، واكتفت هي بالانتساب إليه، لأننا لا نعلم شيئا عن تاريخها الفكري ولا الروحي قبل الشيخ معلىّ، ولم تأخذ شهرتها بالانتشار إلا بعد أن أصبحت مكنًا له ولذريته من بعده، فقد أصبحت محج الناس ومهوى أفئدة طلاب العلم والفقه، ونبغ من أبنائها رجال كان لهم ريادتهم في عصرهم بالمعرفة والتقوى والورع وأصول الشرع."([42]).

ولعل من المفيد أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر اسم اثنين من أهم شيوخها الكبار الذين تتالوا كأحفاد للشيخ (معلىّ حمين) وهما:

العلامة الشيخ (حسين أحمد) الذي له مؤلفات عديدة، ولد في حمين 1794م – 1225هـ ثم استقر فيما بعد في قرية "جورة الجواميس" قرب "نهر قيس" حيث توفي فيها عام1874م – 1295ه، وقد ملأت شهرته بلاد الساحل حتى إنها وصلت تركيا شمالًا والعراق شرقًا.

الشيخ (عبد الكريم عمران) الذي يروى عنه أنه كان عالمًا فقيهًا زاهدًا دائم التعبد.

كما إن البعض من شخصيات حمين، من ذرية الشيخ معلىّ حمين، استوطن مبكرًا في أراضٍ أو مناطق خارج قرية حمين، وتناسلوا بكثرة خارجها، نذكر منهم عائلة مفكر المنطقة في عصره الشيخ حسين أحمد الذي استوطن في جورة الجواميس وما زالت ذريته تتكاثر هناك حتى اليوم. وكذلك ذرية عائلة الشيخ سليمان علي الخطيب التي استوطنت أراضيَ تابعة لحمين لكن بعيدًا عنها بتماس مع قرية الملاجة، فصار أبناؤها ينتسبون اليوم إلى الملاجة، وأنجبت أشخاصًا مؤثرين في بيئتهم ومرحلتهم، والحديث عن ذلك له تتمة في سطور تالية.

---

[42] -: المرجع السابق ص48.

لذلك فقد أجمع شعراء الجبل العلوي وشيوخه آنذاك من صافيتا جنوبًا إلى اللاذقية شمالاً على مدح رجال حمين وشيوخها الكبار، ولمعرفة بعض التفاصيل حول ذلك يمكن مراجعة كتاب "حمين خلال ثلاثة قرون" المشار إليه سابقًا في الصفحات 48، 49، 50، 51، 52، 53.

يُضاف إلى ذلك أنه في مرحلة تالية حدث أن ثمة أشخاصًا آخرين من حمين خرجوا منها باكرًا واستوطنوا في مدن بعيدة أخرى وكان لهم دور مهم ومؤثر في مجتمعهم الجديد روحيًا وزمنيًا، نذكر منهم -أيضًا- على سبيل المثال لا الحصر الشيخ (أحمد يوسف سلمان أحمد) الذي استوطن بانياس وكان له دور كبير "في بناء جامعين فيها، حيث كان يتولى الإمامة فيهما بنفسه، يقسم الجمعة فيهما على أساس جمعة هنا وجمعة هناك، فقدرت وزارة الأوقاف له هذا الجهد وقامت بتعيينه مدرسًا دينيًا في بانياس"([43]).

بقيت حمين تنجب هذا النوع من الرجال "المشايخ الكبار" في زمن كانت فيه العلوم الدينية الفقهية والشرعية هي الوحيدة والأرفع شأنًا حتى بداية زمن عصر العلم والثقافة، وفي هذا الصدد يقول المؤلف في كتابه تحت عنوان "طلائع بداية عصر العلم والثقافة العصرية" ما يلي:

" في مطلع القرن العشرين، هذا القرن الذي تمخض عن حرب عالمية كبرى، غيرت وجه التاريخ، وبدلت رقعة العالم، نشأ جيل جديد في حمين كان يتطلع إلى العلوم العصرية، وأول طليعة من طلائع هذا الجيل كان المرحومان الدكتور وجيه محي الدين وابن عمه محي الدين كامل محي الدين، فقد أرسلهما ذووهما إلى لبنان، إلى مدرسة عينطورة، ولأن العلم في لبنان كان باهظ التكليف، وكانت أنشئت في طرطوس كلية علمانية فانتقلا إليها، وكانت العلوم العصرية في ذلك الحين غير مألوفة، ورغم ذلك فقد تابع أحدهما العلم وانقطع الآخر، فالذي تابع هو المرحوم الدكتور وجيه محي الدين"([44]).

وعن الدكتور (وجيه محي الدين) هذا العلامة الفارقة في زمنه سواء في حمين أم في منطقته كلها أود أن أقتطف من كتاب "حمين في ثلاثة قرون" لمؤلفه (أحمد علي حسن) ما كتبه عنه معرّفًا به كونه عاصره وبقي مهتمًا به وبآثاره تحت عنوان "الدكتور وجيه محي الدين والنهضة الأولى":

---

[43] -: المرجع السابق ص75.

[44] -: المرجع السابق ص59.

"الدكتور وجيه محي الدين هو ابن المرحوم مطلى محي الدين ابن المرحوم الشيخ محي الدين ابن العلامة الشيخ: حسين أحمد حمين، هذا الشاب الذي أكمل دراسته في جامعة دمشق حيث تخرج عام 1936م في كلية الطب بدمشق، وكان أول شاب تعلم علومًا عالية من أبناء عائلة حمين، ولذلك أقيمت له الاحتفالات والأعراس يوم تخرجه كما كان يفعل العرب يوم كان ينبغ فيهم الشاعر.
تخرج هذا الشاب من كلية الطب وهو يلتهب حماسةً وحيويةً ونشاطًا، وحمل في رأسه ألف مشروع ومشروع لخدمة محيطه وشعبه وأمته، لأنه بحكم وجوده طالبًا في لبنان وفي دمشق أدرك المدى المتخلف الذي يرهق بلده وشعبه، والمعاناة التي كان يعانيها جبله وأبناء جبله، فرسم لنفسه خطة يعمل بموجبها من أجل محيطه وشعبه قبل أن يرسم خطة لعمله، فنزح إلى طرطوس، وهناك فتح عيادته الطبية وجعل منها مكتبًا وإدارةً لمجلته (النهضة) التي أنشأها فور تخرجه، واختار لتحريرها كلًا من الشاعرين (نديم محمد و حامد حسن)، وشجعت هذه المجلة الكثير من أصحاب المواهب الشابة في حمين وفي سائر أنحاء الجبل.
وكان -رحمه الله- ينوي إحداث مطبعة أسماها المطبعة العلوية، وجريدتين إحداهما يومية والأخرى أسبوعية لرصد الأحداث السياسية استقدم لأجلهما من دمشق كلًا من الأستاذين يوسف نقلا وعبد الرحمن إبراهيم بركات، ولكن القدر استعجله فانتقل إلى جوار ربه في أول عام 1939م الموافق 1358هـ وبوفاته خسرت حمين جيلا كاملا من التقدم"([45]). أرى أنه من المفيد التوقف مليًا هنا عند هذه العبارة "، وبوفاته خسرت حمين جيلًا كاملًا من التقدم" لأنها تضيء على المآل الأخير لزمن النهضة والنبوغ في رجالات حمين لاحقًا.
كنت قد أشرت بتفصيل أكبر في فصل سابق عن الدكتور وجيه محي الدين وتجربة "مجلة" النهضة" بطرطوس والذين اشتغلوا فيها.
لكن بعد وفاة الدكتور وجيه محي الدين؛ وفي العام نفسه اندلعت الحرب العالمية الثانية 1939 – 1945م التي كان من أولى آثارها هو الحد من طموح جيل الدكتور وجيه محي الدين عمومًا، ليس في حمين فقط وإنما في كل مكان من الجبل وطرطوس، حيث انشغل الناس في تأمين الحاجات اليومية الأساسية للمعيشة مع متابعة ما يصل من أخبار الحرب، حتى درجة

[45] -: المرجع السابق ص59 – 60 – 61.

صار فيها الوصول إلى أي مدرسة خارج القرية شبه مستحيل، واستمر الأمر على هذه الحال إلى أن انتهت الحرب العالمية الثانية حيث بدأت تعود الأجيال الفتية والشابة إلى الدراسة من جديد.

لمحة عن تاريخ افتتاح المدارس في حمين وأوائل الخريجين فيها -:

لذلك يمكن القول إن أول مدارس المنطقة افتتحت في قرية حمين منذ أيام الانتداب الفرنسي،

وبهذا الخصوص أفادني ابن حمين الأديب والشاعر الشاب (أحمد علاء عبود) في لقاء معه بتاريخ 24 | 8 | 2021م بالمعلومات التالية عن تاريخ افتتاح المدارس في حمين وعن حمين عمومًا، بعد أن تأكد منها من أصحاب الذاكرة القديمة أو ممن عاصروا ذلك قائلًا:

"إن أول ابتدائية خاصة في حمين تأسست عام ١٩٢٢ بطلب من شيوخ القرية ودعم من آل العباس، وكان أحد المدرسين فيها من بيت الحاج معلا (ضهر رجب)، لكن لم يعد أحد اليوم يذكر اسمه الدقيق.

وأول ابتدائية رسمية تأسست عام ١٩٢٨ باهتمام كبير ومتابعة حثيثة من قبل الشيخ (علي عبد الكريم عمران)، أما في عام 1969م افتتحت اول إعدادية، ثم تلاها عام 1977م تأسيس أول ثانوية رسمية.

ثم تابع حديثه عن أوائل الخريجين في حمين قائلًا-: "خلال الفترة الممتدة من تاريخ تأسيس الابتدائية الرسمية عام 1928 وحتى تاريخ تأسيس الإعدادية عام 1969 والثانوية الرسمية عام 1977 كان الطلاب يحصلون على الشهادتين الإعدادية والثانوية من مدارس الدريكيش وصافيتا وطرطوس وحمص، وكان أول الحاصلين على الشهادة الثانوية من أبناء حمين هو الأستاذ المرحوم علي سلمان العلي عام 1946، وقد عمل أستاذًا عام 1947 في تجمع الزرقات ويحمور وبيت إسماعيل وبيت العياط وفي إعدادية عقبة بن نافع في طرطوس.

أما المحامي الأستاذ المرحوم إبراهيم أحمد محمد فقد نال الشهادة الثانوية عام 1946، ثم انتسب إلى كلية الحقوق التي تخرج فيها عام 1949، وعند تخرجه أسس في علم 1950 "مدرسة حمين المتوسطة" وكانت تمنح شهادتين؛ سرتفيكا وبريفيه، وتخرج منها عدد من أبناء حمين والقرى المجاورة، ويمكن معرفة أسماء الخريجين منها حتى اليوم إن لزم الأمر، لكن المدرسة قد أغلقت عام 1954 تاريخ التحاقه بكلية الشرطة إلى أن تسرح برتبة مقدم ليمارس المحاماة .

ثم أسس المرحوم المحامي إبراهيم أحمد بعد تخرجه من كلية الحقوق مدرسة حمين المتوسطة، وكانت تمنح شهادتين؛ سرتفيكا وبريفيه، وتخرج منها عدد من أبناء حمين والقرى المجاورة والبعيدة، وقد تعرّفنا على عددٍ كبيرٍ من أسماء خرّيجيها، تأسست المدرسة عام 1950 وأغلقت عام 1954.
القاضي أحمد علي عبد الكريم عمران.. نال الشهادة الثانوية من طرطوس (اللاييك) عام 1950 وانتسب إلى كلية الحقوق وتخرج فيها بالمرتبة الأولى عام 1955. شغل مناصب عدّة أهمها نائب رئيس محكمة النقض، ومعاون وزير العدل، وعضو مجلس القضاء الأعلى، وممثل سوريا لدى الجامعة العربية (لجنة توحيد المصطلحات).
المهندس سهيل أحمد.. نال الشهادة الثانوية عام 1959 وشهادة هندسة الميكانيك عام 1964".
ثم تابع قائلاً: "مما يجدر ذكره.. أن المدرسة الثانوية في حمين كانت تضم إلى جانب أبناء البلدة طلاباً من القرى المجاورة؛ حبابة والملاجة والجراص وبجمرة ومطرو وبيت الراهب وحارة الوقف.
كانت صفوف المدرسة الثانوية تتوزع على غرف في المدرسة الابتدائية إضافة إلى غرف مستأجرة من بيوت قريبة عائدة لكل من المرحوم حسن عباس والمرحوم علي محمد علي ومحمد أحمد محمود".
أما فيما يخصّ الخدمات الإدارية والفنية في حمين فيقول: " إن حمين كانت سبّاقة في محيطها حيث تأسست فيها بلدية عام 1969، وتم إحداث مركز للناحية فيها منذ عام 1971، وتم تأمين المياه فيها من خلال شبكة أنابيب ومحطة ضخ منذ عام 1969، وتم وصل القرية بشبكة الكهرباء العامة لسورية عام 1975، وكل هذه الإنجازات تمت بمساعي القاضي أحمد علي عبد الكريم عمران".
وعن عدد سكان حمين أفادني قائلاً: " عدد سكان حمين المقيمين صيفاً شتاءً حوالي ٢٥٠٠ نسمة، والإحصائية مستندة إلى جداول الانتخابات على نحو تقريبي من دون ضهر حمين وبيت الكرم، أما ذرية الشيخ معلا عموماً مع غير المقيمين في حمين فيتجاوز عددهم ١٠ آلاف نسمة، هؤلاء ينسبون أنفسهم إلى حمين .وهناك في "مطرو" ما يقدر بـ ٢٠ بالمئة من السكان هم من ذرية الشيخ معلا، وفي الملاجة وحبابة وضهر حمين لهم وجود أيضاً.

وعند سؤالي إن كان يعرف أن حمين شهدت هجرة لبعض أبنائها نحو المهاجر البعيدة في القارة الأمريكية أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين؟

أجابني ربما تكون ثمة حالة أو اثنتان لكن هل هناك هجرة كبيرة؟ بالتأكيد لم تشهد حمين ذلك، وربما بسبب أن رجال الدين فيها كانوا ثقة كبيرة وملاذًا آمنًا لأبنائها حيث إن حمين لم تعان كغيرها أيام محنة "سفر برلك" من سوق الرجال عنوة إلى الخدمة العسكرية أيام العثمانيين بسبب الحضور القوي والفاعل لمشايخ حمين آنذاك، مما جعلهم حاجز أمان لأبناء حمين منع السلطات يومها من الاقتراب.

وبهذا الخصوص يروي (أحمد علي حسن) في كتابه المشار إليه سابقًا عن حمين الحادثة التالية عن موقف كبير وجريء لأحد مشايخ حمين الكبار وهو الشيخ (عبد الكريم عمران):

"روى لي الشيخ يونس محمود أن اجتماعًا كان لسبب من الأسباب الخيرية في دار المرحوم الشيخ معلىّ ديب .... وحدث أن مرت دورية من الترك في حمين لمصادرة الأشخاص وسوقهم إلى المعسكرات التركية، وكان يقوم على رأس تلك الدورية شخص يدعى (يونس بك) من عكار، فقصدت الدورية توًا إلى مكان الاجتماع وألقت القبض على جميع الموجودين من أهالي حمين ووصل الخبر إلى الشيخ وهو قائم يصلي في محرابه تحت شجرة سنديان مجاورة لبيته المطل على القرية من منتصفها الأدنى، ولكنه لم يهلع ولم يضطرب وبقي متابعًا صلاته قائلًا لمخبريه: لا تخافوا إن الله معنا.

وكان الشيخ عبد الكريم جهير الصوت تسمع من لسانه كلمة الله أكبر إلى أبعد مدى ممكن، ويبدو أن رئيس الدورية استرعى انتباهه هذا الصوت المدوي في سماء حمين (الله أكبر) من دون انقطاع، فسأل أحد الحاضرين، من هذا الشيخ المصلي الذي لا نهاية لصلاته فأخبروه به وأعلموه عن حاله ... فطلب إلى أحدهم أن يجمعه به، ونقلوا للشيخ رغبة رئيس الدورية بمقابلته فوافق على ذلك.

وذهب إليه رئيس الدورية وبرفقته راوي هذا الحديث، وحين وصل إليه وجد الشيخ متابعًا صلاته وكلمة الله أكبر تدوي على لسانه بخشوع ورهبة، أخذته الرهبة من الشيخ وجلس، فأنهى الشيخ صلاته والتفت إلى زائره، فهب الزائر لتقبيل يديه، ولكن الشيخ أمسك بيد الزائر ومنعه من تقبيل يديه إلا بشرط واحد، فظن الزائر أن الشيخ يريد الزكاة منه فأخرج بعض

الدراهم من جيبه، ولكن الشيخ قال له: إذا شئت أنا أعطيك دراهم ولست بحاجة إلى دراهمك وإنما شرطي عليك هو عدم مصادرة الأشخاص، الذين ألقيتم عليهم القبض، تململ رئيس الدورية من هذا الطلب، ولكن الشيخ أصرّ ولم يسمح بتقبيل يده حتى أذعن لطلب الشيخ وترك الجماعة المصادرين."([46]).

وربما ذلك -أيضًا- كان أحد الأسباب التي جعلت حمين والقرى المحيطة بها عصية على أطماع الإقطاع، فلم تكن مملوكة لأيّ إقطاعي كبير معروف في ذلك الزمن.

التأثر بالأفكار والتيارات السياسية الحديثة والمآل الأخير لأجيالها-:

بعد جلاء الانتداب الفرنسي ثم الاستقلال السياسي لسوريا وبداية مرحلة العهد الوطني صارت الأجيال الشابة المتتالية في حمين كما في بقية المناطق تتأثر بالأفكار الجديدة التي بدأت تنتشر في المنطقة، وأهمها يومذاك كانت فكرة القومية العربية التي اعتنقها الكثير من أبناء حمين آنذاك وكانوا عقائديّين خُلص، خصوصًا أولئك الذين التزموا سياسيًا بأحزاب تتبنى الفكرة، وبعضهم الآخر اعتنق أفكارًا يساريةً لها صلة بالهم الطبقي الاجتماعي، لكن من دون أن يؤثر ذلك عند الجميع على منبت التقيّة الدينية العميق عندهم أو يقطع معه، خصوصًا أن العلوم الدينية لرجالها خلال العهود التي سبقت، كما أسلفت، كانت هي الرافعة الأولى لشأن حمين في المنطقة، لذلك عندما غابت الحياة السياسية المستقلة في البلد، وبعد أن احتكرت الدولة ومؤسساتها العمل السياسي وتنظيماته وشؤونه منذ منتصف ستينات القرن العشرين بدأ يتراجع -أيضًا- الاهتمام بالسياسة وبالأفكار الحديثة عمومًا لدى الأجيال المتتالية بعد ذلك في حمين، على الرغم من أنها بقيت تنجب باستمرار متعلمين بشهادات عليا ومتوسطة شغلت وظائف مختلفة في مستويات عديدة من دوائر الدولة ومجالات العمل الحر الأخرى، لكن الرباط التقوي الديني المحافظ بقي متينًا لدى الأغلبية من شبابها ورجالها ونسائها في أجيالهم المتتالية، وربما هذا ما يفسر عدم ظهور نماذج للنبوغ فردي متجدد ومجدد لأحد من أبنائها كما كان سابقًا حتى النصف الأول من القرن العشرين، فالخط البياني الذي كان صاعدًا في مجال النبوغ الفردي النوعي لأبناء حمين سابقًا، والمؤثر في محيط حمين الواسع منذ

---

[46] -: نفس المرجع السابق ص56، 57، 58.

تأسيس "حمين" الحالية وحتى منتصف القرن العشرين تقريبًا تراجع وأخذ بالانكسار بفعل أسباب عديدة كما أشرت إليها.
لذلك أخذت الأجيال المتتالية في حمين منذ ذلك الوقت تتغذى بإرث الجد المؤسس وذراريه الذين أعقبوه سواء أكانوا رجال دين كبار، أم كانوا رجال علم وثقافة ومعرفة مدنية، لكن من دون محاولة تجديد إرث كل هؤلاء الكبار أو محاولة إضافة حداثية نوعية له، وهذا ما جعل مستوى العلاقات الاجتماعية فيها والتفكير الجمعي يغلب عليه الطابع المحافظ عمومًا، لكن مع الحفاظ على وزن حمين النوعي الكبير سكانيًا وإداريًا وتعليميًا حتى اليوم في محيطها الواسع من القرى، ومع المحافظة على رغبة مجتمع حمين التفاعل الإيجابي مع محيطه الواسع بهدوء وسلاسة.
لذلك يمكن القول إن بعض حالات النبوغ الفردي التي ظهرت فيما بعد لبعض أبنائها كانت لأشخاص كانوا يعيشون مستقرين خارج حمين خصوصًا في المدينة، أذكر منهم بشكل خاص اسمًا مهمًا جدًا هو الأديب الأستاذ (عبود أحمد عبود) الذي عاش في المدينة طيلة حياته، وكان يقرأ الشعر والمقالة، وكثيرًا ما كان يتحدث عنه صديقه الشاعر أحمد علي حسن أنه كان متابعًا جديًا للصحافة التي كانت تصدر في سورية ولبنان في زمنه حيث كان ينشر فيها أحيانًا.
كتب في المسرح، بل ربما كان أول من كتب المسرح في طرطوس آنذاك، فقد أخبرني ابنه الأستاذ (معن عبود) أنه تنقل في وظيفته من "صافيتا" التي عمل فيها بين عامي 1945 – 1954، إلى "تلكلخ" التي عمل فيها بين عامي 1955 – 1964، ثم إلى طرطوس التي عمل فيها من عام 1964 حتى التقاعد النهائي، وظلّ مقيمًا في طرطوس حتى وفاته عام 1996 حيث أصدر مسرحية له بعنوان "هونوريا" عام 1940، كما كتب مسرحية بعنوان "ثورة الألم" لكنها لم تكتمل، وله بعض القصائد المتفرقة.
الملاجة
بداية أحب أن أوضح أنه عندما يسألني أحد ما من اين انت أجيب بلا تردد: من الملاجة. وهذا صحيح، فعلى الرغم من أني أنتسب إلى عائلة أصلها من حمين وينتهي نسبها إلى الشيخ معلىّ حمين إلا إنها تعيش منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا في مكان كان تابعًا عقاريًا لقرية حمين لكنه اليوم ومنذ أواخر النصف الأول من القرن العشرين صار تابعًا لـ"قرية الملاجة"، وعندما بدأت مداركي تتفتح على الحياة كنت وما زلت أعيش متنقلًا بين المدينة وقرية الملاجة، لذلك فصداقاتي الحقيقية تكونت في أرض الملاجة التي لا

أعرفها إلا كقرية مستقلة جغرافيًا وبشريًا وثقافيًا على الرغم من كونها تابعةً إداريًا لناحية حمين.

وحكايتي مع الملاجة حكاية جميلة منذ كنت فتًى في مقتبل العمر، فحارتنا التي تجمع سكن عائلتنا تقع على مكان منبسط قليلًا في منتصف سفح جبل الملاجة، يسمى "دوارة شاويش" بإطلالة هادئة لجهة غرب جنوب شرق، وتزنّر الحارةَ في أسفل بيوتها من جميع الجهات جذور أشجار السنديان وأحراشه بشكل تجعل منها مزرعة حقيقية، وربما لهذا السبب سميت بالدوارة "دوارة شاويش"، وأذكر أنه كانت حدود عالم القرية بالنسبة لنا، قبل أن يتم فتح طريق ترابي للسيارات الجبلية بين طريق عام الدريكيش طرطوس وقريتنا، كفتيان صغار في الأسرة والعائلة عندما كان أهالينا يقصدون القرية للاصطياف، في الحي تنتهي في مكانين:

أحدهما يسمى "الفززة" أو "المطل"؛ لأنه يقع على مكانٍ فيه فتحة مفرغة من حرش السنديان من الجهة الشرقية وتطل على قرية حمين التي يفصلنا عنها وادٍ يسمى "وادي بردان".

والثاني موقع مرتفع قليلًا إلى جهة شرق شمال يسمى "بيدر الشيخ طاهر"، وهذا البيدر يقع -أيضًا- في منتصف سفح جبل يسمى "جبل طاهر" نسبة إلى الشيخ (طاهر حسن الخطيب) أحد أجداد جيلي في العائلة، الذي استصلح أرض هذا الجبل بيده ومعوله بعد أن عاد من المهجر البعيد خلف البحار خالي الوفاض، وما يعنينا من هذا البيدر أنّه كان يطل -أيضًا- بإطلالة مرتفعة أكثر وأوضح من موقع "المطل" السابق على قرية حمين، فكنّا عصرًا من كل يوم نرتاد أحد المكانين مقابل حمين، وكثيرًا ما كنا نتحدث بصوت عالٍ "مناداة" مع شباب أقرباء من جيلنا من أهالي حمين وكأننا كنا بذلك نحافظ في لا وعينا على حبل السرة الرفيع الذي يصلنا قرابةً بأهالي حمين من جهة، كما كنّا نؤكد تمايزنا النسبي الذي كان يتشكّل بعيدًا عن حمين من جهة ثانية.

وعندما تم شق طريق السيارات الترابي إلى القرية من طريق عام طرطوس الدريكيش في موقع يسمى حتى اليوم "المصلبة"؛ لتقاطع مفارق عدّة لقرى أخرى عليها، صرت وأبناء جيلي في القرية وحارتنا خصوصًا نتعرف أكثر على مواقع جديدة أبعد في الجبل المحيط بالقرية لدرجة صرنا نتعرف على أغلب مواقع الجبل الأخرى، فتوسع عالم القرية القديم أمامنا، بل صرنا نتعرف على بعضنا من جديد بشكل مستقل عن أهالينا عندما يجمعنا المشي على الطريق الجديد صعودًا في الجبل، وعندما تم تعبيد

الطريق بالحصى الإسفلتي الناعم، وصار المشي عليه أسلس وأجمل كثرت مشاويرنا عليه أكثر، وصرنا نلتقي ونتعرف على بقية شباب القرية خارج عائلتنا منذ أوائل سبعينات القرن العشرين، فكانت ليالي الصيف تزيّن أيامنا في زمن لم يكن فيه لا كهرباء ولا تلفزيونات لأن شبكة الكهرباء وصلت حمين كما ذكر محدثي سابقًا عام 1975، ووصلت الملاجة كما أذكر أوائل ثمانينات القرن العشرين، فكنا نلتقي يوميًا على رأس الجبل أو في أماكن أخرى جميلة من الطريق ونطلق العنان للأغاني والدبكة صبايا وشباب ذلك الوقت بعد أن اتسعت دائرة علاقات شباب القرية مع بعضهم بعضًا وتشابكت.

وأذكر تمامًا أننا في سهراتنا الصيفية تلك، خصوصًا على الطريق أعلى الجبل المطل شرقًا على سلسلة من الجبال الشرقية بقراها القريبة والبعيدة التي تبدأ بقرية حمين المقابلة لنا من جهة الشرق، كنا نبقى نسهر ونسهر حتى يتم إطفاء آخر ضوء "فانوس كاز" أو "لكس" في قرية حمين ولو في ساعة متأخرة من الليل، وكأننا نهجس في لا وعينا الباطني أن شعلة النبوغ التي ضعفت جدًا في "حمين" انتقلت شعلتها بقوة أكبر وبمستوى حداثيّ حقيقيّ إلى القرية المجاورة شمالًا غربًا "الملاجة".

كيف تشكلت عائلات الملاجة الحالية:-

وهكذا فأهم ما يميز افتراق أجيال الملاجة الحديثة عن أجيال قرية حمين منذ منتصف القرن العشرين هو توجههم الحداثي فعلًا، وهذا له أسبابه في أمور عدّة:

طبيعة موقع قرية الملاجة، وطريقة تشكلها كقرية منذ أكثر من 150 عامًا، والهجرة المبكرة للعديد من أبنائها إلى القارة الأمريكية حيث لم يخل بيت أو أسرة في الملاجة من مهاجر أو أكثر، منهم من عاد ومنهم لم يعد أبدًا.

فموقع قرية الملاجة له سحره وألقه الطبيعيّان؛ حيث تنتشر بيوت حاراتها من أعلى الجبل حتى أسفله في فضاء مفتوح من كل الجهات، وفي تجمعات لبيوت إذ كل تجمع يضم أبناء عائلة من عائلات القرية العديدة، لذلك فكل موقع لعائلة من عائلاتها تراه من الداخل جميلًا وله إطلالته الفريدة، ومحاطًا بأشجار السنديان والبلوط العالية، كما تتخلّله أشجار التين ودوالي الكرمة إلى جانب الأشجار المثمرة الأخرى، وهذا الموقع انعكس في النفوس ميلًا شاعريًا ورومانسيًا جميلًا إذ إنه منذ أواخر العقد الثاني من القرن العشرين كان لا يخلو بيت من بيوت عائلاتها المتعددة من شاعر

متمكن، وهذه المطومة سمعت بها أول ما سمعت من والدي الشاعر (أحمد علي حسن 1914 – 2010م)، فالميل الرومانتيكي الشاعري حتى في شكله الكلاسيكيّ هو أول متكأ للحداثة وثقافتها في هذه القرية.
ثم إن سكان قرية "الملاجة" على عكس سكان قرية "حمين" لا ينتسبون إلى جد واحد، بل إن كل عائلة ربما تكون أتت أرض الملاجة من مكان مختلف أيام كانت الهجرات الداخلية في جبال الساحل بل في سورية كلها هي السائدة، ولذلك فهي تتكلى بجد بعيد خاص لها، بيت ديب، بيت منصور، بين غالية، بيت شامية، بيت عمران، بيت قرفول، بيت الخطيب، وهذا ما أنتج ميلاً إلى تأكيد الشخصية الجمعية لدى كل عائلة على نحو مستقل عن الأخرى في مناخ هو أقرب للتنافس الجميل بين أبناء هذه العائلات المتعددة بمشاربها المختلفة، في مجالات متعددة أهمها الشعر والتحصيل العلمي والثقافي، لأن الانتساب إلى أكثر من جد وكنية يتقطع مع ضرورة الامتثال لنهج مرجعي واحد فقط فتنشط بذلك الرغبة في التجديد والابتكار أمام الآخر ومعه طبعًا، مع ملاحظة الحفاظ على الحساسيات المضمرة تحت السطح بين العائلات، التي تخبو ومن ثم تظهر بين الفينة والأخرى بشكل متكرر دائم، وفي مثال قرية الملاجة نموذج واضح وعلني لهذه الحساسيات التي تبدو أحيانًا كريهةً ولئيمةً، على الرغم مما يميزها من ثقافة أجيالها وأبنائها حتى أوائل القرن الحالي الواحد والعشرون.
لكن ما يهمني هنا في سياق فكرة الكتاب هو المنافسة في التميز والنبوغ بين أبناء الملاجة الذي يتلخص عمقه الأنثربولوجي والسوسيولوجي في التعدد العائلي بين أهاليها وطريقة تشكله.
ثمة روايات عديدة لأصل كل عائلة ومن أين أتت، لكن تشير الكثير من الآراء أن أغلب العائلات الحالية كانت منتشرة على طول حوض الوادي مقابل قرية الملاجة الحالية بدءًا من المكان الأثري القديم المسمى "القصر" غربًا وحتى موقع "خربة حمين" لجهة جنوب شرق، في وقت كانت مياه الأمطار في الشتاء تملأ مسيل هذا الوادي لتُشكل منه نهرًا يفصل بين أرض الملاجة وجبلها وبين الحوض المقابل.
وفي هذا الخصوص يقول والدي الشاعر (أحمد علي حسن) في دفتر ذكريات غير مكتمل بعنوان "لمحات من حياتي" غير مطبوع، أحتفظ به بخط يده:
"وأما الملاجة فقد هجرها سكانها وأصبحت مكانًا خربًا ولم يبق من أهلها الأصليين غير عائلة "آل قرفول" الذين نقلوا بيوتهم من الملاجة إلى موقع

يسمى "عين أسد" ضمن أراضي قرية الملاجة، في مكان ملاصق لأراضي قرية الملاجة وملاصق لأراضي حمين، ومنه انتقلوا إلى موقع يسمى "العاقوري" وهم الآن يقيمون في هذا الموقع، أما بقية عائلات الملاجة فقد تجمعوا من الأماكن المجاورة، منهم من جاء من قرية بجمرة، ومنهم من جاء من وادي "القصر" بأراضي حمين، ومنهم من كان تابعًا إلى قرية "المصطبة"، فعاد في الثلث الأخير من هذا القرن([47]) وأتبع إلى قرية الملاجة، وهكذا تشكلت الملاجة الجديدة من العائلات النازحة من حمين وبجمرة والمصطبة إضافة إلى بيت قرفول الذين هم سكان أصليون من سكان القرية".

وفي لقاء خاص مع ابن الملاجة السيد "يوسف أحمد" بتاريخ 24 / 8 / 2021 أجابني بمعلومات عن سؤال حول أصل سكان الملاجة الحالية تتقاطع في الكثير منها مع ما سبق ذكره من مذكرات والدي خصوصنا لجهة انتقال بعض العائلات ، بيت علي ديب، بيت منصور، بيت يوسف، الذين تجمعهم كنية "بيت الشيخ حسين" من سكنهم الأول مقابل الملاجة من جهة الجنوب إلى مقر جديد في الملاجة ضمن أراضٍ تعتبر حدود أطراف أراضيهم التي كانوا يسكنوها لجهة الشمال.

أردت من هذه الإضاءة السريعة على سكان الملاجة الحاليين وأصلهم إبراز الجذر الديمغرافي لتميز الملاجة عن محيطها، وفي توجهها الحداثي طيلة النصف الثاني من القرن العشرين.

الممهدات الباكرة للحداثة في الملاجة منذ بدايات النصف الأول من القرن العشرين-:

الحداثة ليست شكلًا مختلفًا فقط عن السابق في الكتابة والإبداع، أو طفرة جديدة في التفكير أو السلوك، مع أهمية كل هذه الصفات الدالة ظاهريًا بوضوح عليها، الحداثة تُولد وتتشكل وتنضج عبر سياق مجتمعي تاريخي، بمعنى أنها لا تنبثق فجأة من فراغ من دون مقدمات طويلة وممهدات عسيرة.

لذلك سوف أبدأ الحديث عن نموذج خاص من تلك السمهدات الأولى الباكرة كما أزعم، التي كانت قد بدأت تظهر في شكل جنيني لدى بعض الأفراد في إحدى عائلات قرية الملاجة التي كانت تتشكل حديثًا منذ بداية القرن

[47] -: يقصد القرن العشرين، لأن المذكرات مكتوبة أواخر القرن العشرين.

العشرين، محاولاً تلخيص بعض ما جاء في المذكرات المخطوطة التي احتفظ بها حول هذا الموضوع للشاعر (أحمد علي حسن) عندما يتكلم عن أصل عائلته "بيت الخطيب" بعد مجيئها من حمين إلى الملاجة، إذ يكتب قائلاً عن بعض أعمامه الذين عاصرهم شاباً واعياً: "كما أني لصرح ولنا مسؤول عن ذلك أنه قبل الشيخ "نجم الدين أحمد سلمان الخطيب" لم يكن موجوداً ولا حتى في المحيط كتاب معروف من الكتب المطبوعة في الأدب، فقد كان الشيخ نجم الدين -وهو شاعر مُجيد- أول من اقتنى "مقدمة ابن خلدون"، وكتاب "المستطرف"، ودواوين من الشعر المطبوع، وكان ابن عمه الشيخ "محمود عبداللطيف" أول من اقتنى في علوم اللغة كتاب نجم الدين – الكفراوي، والأجرومية، وألفية ابن مالك، كما اقتنى دواوين من الشعر، ومن حق هذا الشيخ علينا أن نذكر بمزيد من العرفان بالجميل أننا تعلمنا على يده قواعد اللغة بأسلوب الشرتوني، وجيلنا مدين له بالعرفان.". ثم يقول في مكان آخر عنه: "وقد نبغ الشيخ محمود عبد اللطيف بعلوم العربية، فتعلم على يده اللغة جيل كامل في حمين والقرى المجاورة، وقد كان بيته عبارة عن مدرسة للطلاب، وقد قال عنه المرحوم الدكتور (وجيه محي الدين) أنه كبنفسجة الحقل تشم رائحتها ولا تلحظ مقرها.".
وفي لقاء خاص لي بتاريخ 30 / 12 / 2017 مع ابن الملاجة الذي ينتسب إلى العائلة نفسها الأستاذ الشيخ (مرهج الخطيب) أخبرني من ذاكرته الغنية مؤكداً أن بعض أعمامه في العائلة كانوا يقتنون العديد من الكتب المطبوعة في الأدب واللغة في زمن كان الحصول فيه على الكتب المطبوعة أمراً عسيراً وغير معروف أو متداول، وأعطاني بعض الأمثلة على ذلك لن الشيخ (طاهر حسن الخطيب) كان يقتني كتابي "المحيط" و "مجمع البحرين"، وأن الشيخ (محمد الخطيب) كان يقتني كتابي "كليلة ودمنة" و "ألف ليلة وليلة"، وأن الشيخ (نجم الدين سلمان الخطيب) كان يقتني كتابي (مقامات الحريري) و(مقدمة ابن خلدون) وغيرهما العديد من الكتب. ولن الشيخ (محمود عبد اللطيف الخطيب) كان يقتني كتاب (الشرتوني) والعديد من المراجع في اللغة العربية، وكان أستاذاً لجيل كامل من طلبة العلم واللغة في المنطقة في زمنه ومن بينهم الدكتور (وجيه محي الدين) والمحامي (محي الدين مرهج).
أذكر الأمثلة السابقة كونها علامات مهمة وذات دلالة كبيرة في زمنها، لأن وجود الكتب المطبوعة في الشعر وقواعد اللغة والتاريخ خارج موضوعات علوم الدين وفقهه التي غالباً ما تكون كتبها منسوخة بخط اليد، كان عملاً

مستهجنًا، لذلك فالحصول عليها وتداولها في ذلك الوقت ضمن بيئة ريفية متخلفة منعزلة مقطوعة عن العالم الخارجي لصعوبة التنقل والمواصلات آنذاك يُعد جهدًا معرفيًا تحديثيًا باكرًا ومهمًا في سياق تشكل الحداثة.

وفي التفسير الأنثروبولوجي - وليس "الجيني" حتى لا يفهمني البعض فهمًا خاطئًا بمواقف سطحية مسبقة ومتشنجة - لهذه الظاهرة ضمن هذه العائلة أحاول تقديم التفسير التالي وقد أكون غير موفق:

فعائلة "بيت الخطيب" التي يعود أصل التسمية لها إلى كون أحد أجداد العائلة القريبين زمنيًا، وهو الشيخ (حسين ديب) في حمين كان يعمل على تعليم الأولاد النشء القرآن والخط ومبادئ الحساب، ما يعادل عمل أستاذ ابتدائي اليوم، أما التسمية لهذه المهنة في اللغة اليومية الدارجة فكانت "الخطيب" وفي اللغة الفصحى "المؤدب"، وهو اللقب الذي أطلقه عليه أحد الشعراء المادحين له من خارج حمين، وقد التزم بهذا النهج ابنه من بعده الشيخ (علي حسين ديب) الذي هو والد الشيخ (سلمان علي حسين) الذي كان أيضًا كوالده وجده ملمًا بالقرآن والعربية والحساب وشاعرًا أيضًا، فاشتهر بمحيطه الجديد ب "سلمان الخطيب" تيمنًا بوالده وجده، خصوصًا عندما انتقل بسكنه من حمين إلى "دوارة شاويش" بالملاجة كما أسلفت، مؤسسًا بذلك وبشكل مستقل لذرية آل الخطيب في الملاجة، وقد يكون هذا السكن في محيط جديد ضمن مكان منعزل في برية موحشة جدًا في تلك الوقت أنتج في لاوعي أبناء هذا الشيخ، ومن ثم أبنائهم من بعدهم إحساسًا واضحًا بالخوف والرهبة ممزوجًا بإرادة تحدٍ قوية لمواجهة المخاطر المحتملة، وهذه الإرادة الممزوجة بالخوف غالبًا ما تكون هي المسؤولة عن ظهور ميول ثقافية جديدة مبكرة متجددة ومستقلة عن زمنها المستقر السابق الذي كانت خاملةً وغير يقظة فيه. يستدل على ذلك أن الشيخ (سلمان الخطيب) الذي كان عنده ثلاثة أبناء هم: أحمد سلمان الخطيب، حسن سلمان الخطيب، عبد اللطيف سلمان الخطيب، استبعد منهم ابنه الكبير (أحمد سلمان) من المجيء معه إلى الأرض الجديدة (دوارة شاويش)، واستبقاه في حمين بعد أن زوّجه وترك له أرضه وبيته هناك، لكن (أحمد سلمان) ترك حمين بدعوة من خاله الشيخ (حسين أحمد) في جورة الجواميس الذي مر ذكره معنا سابقًا ليسكن معه هناك. والذي حصل بعد ذلك أنه بعد وفاة الأب الشيخ (سلمان الخطيب) عام 1301هـ أي ما يعادل 1881م ، قرر الأخوان (الشيخ حسن الخطيب) و (الشيخ عبد اللطيف الخطيب) دعوة أخيهما الأكبر(الشيخ أحمد سلمان الخطيب) للمجيء والاستقرار معهما في (دوارة

شاويش) في الملاجة ليكونوا أكثر وأقوى في مواجهة المخاطر المحتملة آنذاك، حيث كانت التعديات من الجيران ولصوص الليل المجهولين كثيرة، هذا عدا عن الضباع البرية المحتمل ظهورها في أي وقت. وافق الأخ الأكبر مشترطًا أن تكون حصته هي الأكبر فكان له ما أراد، حيث "أعطوه علاوة على ما كان أعطاه والده حصة أخرى في دوارة شاويش تعادل حصة أحدهما"، بحكم رغبتهما القوية بأن يجمعهم في العيش مكان واحد، ثم إن حضور الأخ الأكبر الشيخ أحمد سلمان كان مفيدًا لناحية أنه أخذ الكثير من علم خاله في "جورة الجواميس" (الشيخ حسين أحمد) الذي تأثر به كثيرًا على ما يبدو، لأنه قد مكث فيها حتى بعد وفاة الشيخ حسين أحمد مدة 6 سنوات، لذلك فللشيخ (أحمد سلمان الخطيب) مؤلفات مخطوطة مهمة وعديدة يحتفظ بها أحفاده حتى اليوم.

هذه المعلومات حول كيفية استقرار العائلة في أرض (دوارة شاويش) بالملاجة سمعتها أكثر من مرة من والدي وهي مدونة بخط يده في مذكراته، كما قد سمعتها من بعض الأعمام الأخرين في العائلة قبل وفاتهم.

لذلك ففي أبناء الجيل الثالث من هذه العائلة ومنذ ثلاثينيات القرن العشرين بدأت تظهر نماذج شخصية فارقة ومفارقة لعصرها، عندما يقرر أربعة أخوة من إحدى اسر هذه العائلة "بيت الخطيب" هجر القرية باكرًا بقصد العمل في المدينة بداية ثلاثينات القرن العشرين، لكن من دون أن يقطعوا صلاتهم نهائيًا بالقرية، وقد اكتسب انتقالهم هذا كما أزعم هنا سمة نوعية حداثية ومتميزة لم يضاههم فيها أحد آنذاك لا في قرية الملاجة ولا حتى في محيط حمين الواسع باستثناء تجربة الدكتور (وجيه محي الدين) التي كانت قصيرةً جدًا، كما سيتبين لنا في السطور التالية، وهؤلاء الأخوة الأربعة هم:

الشيخ عبد الكريم علي حسن الذي رخّص وأسّس في الفترة نفسها أول مدرسة لتعليم الناشئة في حي الرمل الذي كان في بداية تشكله في طرطوس، مدرسة "ذات بنوك وألواح وطباشير وغيرها من مستلزمات المدرسة" كما يصف أخوه (أحمد علي حسن) في مذكراته التي أشرت إليها سابقًا.

وعن تجربته الحياتية الرائدة عمومًا قياسًا على أبناء جيله في القرية والمنطقة يقول الشيخ عبدالكريم في كتابه "أحداث وصور" بعد أن تزوج عام 1927 ما يلي:

"وكان لزامًا عليّ أن ابحث عن عمل لتأمين لوازم البيت، وأول عمل فكرت فيه مهنة التعليم " شيخ كتاب" فزاولتها في بعض القرى أعوامًا، وكنت لا

أحصل منها على أكثر من كفاف العيش، وانتقلت بعد فترة إلى المدينة " طرطوس" وزاولت نفس المهنة فيها ما يقرب من أربع سنوات أدرس فيها أطفال الطويين النازحين من جديد إلى هذه البلدة وكانوا حوالي عشرين طالبًا من أبناء العمال الفقراء. ولما لم أجد في هذه المهنة ما يؤمّن لوازمي البيتية رغبت عنها لا زهدًا بشرفها بل مللًا من عشرة الأطفال وضيق العيش. وأذكر أنني كتبت بهذا المعنى إلى أخي وشقيقي أحمد علي حسن وكنت ضممته إليّ فترة في هذه المهنة:

يا أحمدُ قلْ لي بكل صراحة
هذي الجهود الضائعات لماذا
فأجابني على الفور:
لا تيأسن من الصغار ألم تكن
تلك السيول الجارفات رذاذا
والشيء بالتدريج يؤخذُ كله
لتكون أنت بغير ذا أخّاذا

ومن ثم تركتها واشتغلت بالتجارة، ولكن لم يكن حظي بالتجارة حسنًا لأسباب أهمها أنني لم أتحلّ بالصفات التي يجب أن يتحلى بها التاجر، وخصوصًا أن رأس المال كان للغير وكان لزامًا عليّ أن أتوجه بتوجيهات ذلك للغير. وهكذا وجدت للتجارة طعمًا لم أستسغه وقيدًا عزلني عن حريتي وعن طموحات روحية وأدبية كنت أصبو إليها، فاستبدلت التجارة بالوظيفة ولكنها جاءت أنحس من سابقاتها وذلك لأنها جاءت وظيفة بسيطة في مؤسسة مستحدثة من مؤسسات الدولة والعمل فيها مراقبة المحاصيل الزراعية التي تأتي إلى المدينة واستيفاء الضريبة عنها مع مصادرة ما يهرب من المحاصيل عن دفع الضريبة وكل هذا العمل براتب شهري مقطوع قدره تسعون ليرة سورية بالشهر فقط وماذا لمثل هذا الراتب أن يفعل أو يؤمن من حاجات البيت وأجور المسكن في ذلك الزمن زمن الحرب العالمية الثانية، فاستقلت من الوظيفة.

وهكذا فقد ابتليت بأحداث كثيرة، لكن بالتسليم لأمر الله وقضائه وقدره بالصبر الجميل على تلك الأحداث أزالها الله وفتح عليّ أبواب الخير وحبّبني إلى كثير من عباده الأخيار وأحاطني بمجموعة من أهل الفضل تحملت معي كثيرًا من متاعب الحياة وأمّنت لي كل ما يلزم من موارد العيش وأصبح باستطاعتي أن أقرأ وأفتش وأدرس فتابعت السير على الطريق التي كنت رسمتها وتطلعت إليها في أول العمر ولم أزل أتابع تحصيلي حتى

توصلت إلى ما يؤهلني لارتداء الكسوة الدينية بوثيقة هذا نصها:" وثيقة ارتداء الكسوة الدينية لرجال الدين المسلمين على المذهب الجعفري الجمهورية العربية السورية دائرة الإفتاء العام الرقم المتسلسل 1710 تاريخ كانون الأول 1952، إن المفتي العام للجمهورية العربية السورية بناء على أحكام المادتين 5- 7 من المرسوم التشريعي رقم 33 تاريخ 2 ربيع الأول 1371 ، و3 كانون أول 1951 منح حاملها السيد عبد الكريم خطيب اللجنة الفرعية في اللاذقية حق ارتداء الكسوة الخاصة برجال الدين المسلمين " وتلاقيت مع المجاهد في سبيل الله الدكتور حسن الحسن على فكرة بناء جامع في طرطوس، وهذا الجامع هو الذي كان لي شرف المساهمة في جمع التبرعات لبنائه، وشرف الصلاة لأول مرة فيه قبل أن يتم بناؤه، وبعد أن تم البناء اختارتني لجنة بنائه إمامًا له ووجهت إليّ بواسطة رئيسها الدكتور حسن الحسن كتابًا هذا نصه:" بناء على محضر الجلسة المنعقدة بتاريخ 27 شوال 1379 للهجرة الموافق نيسان 1960، لبحث أمر الجامع جامع الإمام علي بن أبي طالب " عليه السلام" وتعيين إمام له فقد وافق الحاضرون رئيسًا وأعضاء على تعيين الشيخ عبد الكريم علي حسن الخطيب إمامًا للجامع المذكور وإني أعطيه هذا الاعتراف من قبلي بوصفي رئيسًا للجنة المذكورة ليعمل به عند اللزوم" . فتابعت العمل بهذا الجامع وقمت فيه بواجبي بالأوقات والمناسبات والأعياد وإعطاء الدروس الدينية والتوجيهية قرابة ثماني عشرة سنة إلى أن اعتذرت عن العمل في سنة 1976 بسبب الشيخوخة والمرض بارتفاع الضغط."

لذلك يمكننا أن نقرأ في ملخص التجربة الحياتية للشيخ (عبد الكريم علي حسن) في طرطوس منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وعلى الرغم مما لاقاه من مصاعب بداية إلى أن صار رجل دين وإمام جامع ومن ثم حتى مماته في طرطوس عام 1981 أنها كانت تتدرج طيلة ذلك التاريخ في سياق الاندماج الاجتماعي والتفاعل المدني للعلويين في مجتمع المدينة الجديد بعيدًا عن جو الانغلاق والضيق الشديد في القرية آنذاك، مع المساهمة الإيجابية الفعالة في ذلك. فما زلت أذكر منذ سنين الفتوة الأولى والشباب الواعي أن منزل هذا الشيخ الذي كنت أرتاده كثيرًا بحكم كونه منزل "عمي" كان مركزًا للقاءات حوارية وديّة متتالية بينه وبين العديد من رجال الدين من مختلف الأديان والطوائف والمذاهب ليس في طرطوس فحسب بل حتى من العراق ولبنان أحيانًا، إذ كان محترمًا وذا سمعة طيبة عند الجميع. يبقى أن نذكر أنه أصدر قبل مماته كتابين هما: "صور وأحداث" يعتبر

بمثابة تلخيص لتجربته الحياتية، وكتاب آخر ضمّنه العديد من خطب أيام الجمع في الجامع أسماه "الكَلِم الطيب".

سلمان علي حسن

وهو الأخ الثاني الذي توضحت ميوله إلى التجارة والتفكير المستقل باكرًا فهجر القرية قاصدًا طرطوس قبل أخيه أحمد ليشتغل في التجارة، لكن احتكاكه بالمدينة ورجالاتها في ظروف الحرب العالمية الثانية ومن ثم الاستقلال الوطني وجلاء الفرنسيين إلى أن تم دخول البلد في دوامة الانقلابات العسكرية ولّد عنده ميلًا مدنيًا جديدًا وهو الاهتمام بالسياسة ولو على حساب تجارته، فصار محله التجاري أشبه بملتقى أو منتدى للحوار السياسي بين الأصدقاء والأشخاص المهتمين بالسياسة وأحداثها، وبقي كذلك حتى وفاته في بداية سبعينات القرن العشرين. وقد كان هادئ السمات فيّ شخصه بوجه مبتسم دائمًا، يعبر عن ميل رومانسي داخلي دافئ ربما كان يفتقده في حياته، وربما هذا ما جعله يسمي ولديه واصل – وصال.

أحمد علي حسن

وهو الأخ الثالث الذي يقول عن تجربته في مسودة مذكراته غير المكتملة: "ولدت في قرية الملاجة من عام 1917.. ولا أعرف كيف استقبلني ابواي في تلك الأيام حيث كانت الضائقة الاقتصادية آنئذ آخذة بخناق العالم من جراء الحرب العالمية المدمرة التي ذاقت البشرية منها الويلات من أمراض فتاكة وجوع مميت وآفات الجراد وغير ذلك من الأحداث التي عانت منها البشرية خاصة البلاد العربية أقسى ما يمكن أن يتعرض له الناس من ظروف قاسية مهلكة وحياة اجتماعية مضطربة.

واذكر أنني عشت طفولتي سقيم الجسم، منحلّ القوى، فاقد الصحة، ولهذه الأسباب أهملني والدي ولم يعرني الكثير من اهتمامه وكأنه لا ينظر لي أن احيا..

وشاء الله ان احيا، فعند بلوغي السادسة أو السابعة من عمري أوكل إليّ قطيعًا من الجدايا "أطفال الماعز" التي كان يمتلكها والدي، وأرسلني أرعاها في البراري، وبهذه العملية صرت أتعرض للشمس والهواء الطلق فأخذت صحتي تتحسن، ثم نقلني من رعي السخال إلى رعي أمهاتها فلم يرسلني إلى شيخ كتاب ولا إلى مدرسة، وبقيت كذلك أرعى ماعز والدي حتى بلغت الثالثة عشرة من عمري. إلا إنه خلال هذه المدة كان يعتني بي شقيقي الكبير الشيخ عبد الكريم، وكان شابًا ذكيًا ويتمتع بمواهب عالية، ويبدو أنه لاحظ أن عندي مواهب تستحق العناية فتعهدني ولاحظ أن عندي

أننا تحب موسيقى الشعر، وأنني أصغي إلى الشعر وأحب قراءته فأخذ يمرنني على نظم الشعر وعلى قراءته، وقد أشرف على قراءة القرآن حتى صرت أحسن القراءة جيدًا.
كل هذا ولا أزال أرعى ماعز والدي نهارًا وأكبّ على القراءة ليلًا، ولكن يبدو أنه مع تفتح الذهن على القراءة صرت أتململ من الرعي ومرافقة الماعز، ولا حاجة إلى أن أذكر أن مدة الرعي هذه كانت بأشق ما يكون من الخشونة، فقد كنت أرعى حافي القدمين عاري الجسم إلا من قميص طويل يسترني كبقية أبناء القرى في ذلك الحين. وهنا أذكر حادثة وأرجو ألا يرتاب أحد بصدقي وهو أنني لما صرت أتململ من حياة الرعي طلبت من والدي رحمه الله أن يعفيني منها وأن يرسلني كبقية أقراني من أبناء العائلة إلى مدرسة حمين التي كانت حديثة العهد، وكانت أول مدرسة أنشئت في منطقتنا على ما أتذكر، فرفض والدي رحمة الله عليه بحجة أن حالته المادية لا تساعد على ذلك، وكان قد أرسل إليها أخي الذي هو أكبر مني (سلمان)، وكان القيمون على إنشاء المدرسة وزعوا مصاريف إنشائها على الطلاب، فكل طالب كان يدفع ليرتين ذهب من تكاليف المدرسة، وهكذا وبهذه الحجة رفض والدي أن يرسلني إلى المدرسة وبقيت أعيش مع قطيع الماعز في مدرسة الطبيعة.". لذلك يقول في تسجيلٍ صوتيّ أثناء لقاء أجريناه معه واحتفظ به أنه صار ينظم الشعر وهو في حقل الرعي بمرافقة الماعز، حيث كان يأخذ معه دواة حبر من النحاس وأقلام ريشة، ثم يقول: " وأحيانًا كنت أكتب على صفحات بلاط حجر "الحفحاف" أو على ورق العيرون. وهكذا كنت أقرأ وأكتب منذ كنت في سن العاشرة بحيث كنت أتمرن على نظم الشعر وكان الموضوع الرئيس لنظم الشعر آنذاك هو الرثاء فحدث أنه توفي أحد شيوخ القرية وهو الشيخ (محمد إبراهيم غالية) عام 1928، فحاولت نظم قصيدة رثاء فيه. فكانت إحدى أولى محاولاتي في نظم الشعر.
لا يمكن الاسترسال في الاقتباس من صفحات مذكراته هذه، لذلك سأكتفي مُلخِّصًا بعض أهم المحطات التالية في تجربته الحياتية حتى تكرس أديبًا كاتبًا، وشاعرًا سوريًا معروفًا.
فقد أعفاه والده بعد تأكده من مواهبه من مهمة الرعي، وأوكل إليه مهمة مساعدته في نسخ الكتب حيث أن الوالد كان عمله الرئيس الذي يعتاش عليه هو نسخ الكتب، فلم تكن لديه قدرة أو خبرة بالعمل في الأرض والزراعة.
وعندما قرر أخوه الأكبر (عبدالكريم) فتح مدرسة للناشئة بطرطوس اصطحبه معه وكانت تلك بداية وجوده في طرطوس، حيث عمل مع أخيه

فترة من الزمن كان خلالها دؤوب التعرف على حياة المدينة وبعض رجالاتها، ففي تلك الفترة تعرف على أحد بائعي الصحف في طرطوس واسمه كما يقول: (مصطفى الطائع) الذي كان وكيلا لمجلة مصرية اسمها "هدي الإسلام"، فنظّم له اشتراكًا فيها بحيث تصله هذه المجلة شهريًا باسمه، وصار يقرؤها باستمرار على تنوّع مقالاتها وأبحاثها ولا سيما الأدبية منها، فحاول مجرّبًا أن يكتب أول مقال كي يرسله للنشر فيها، وكان بعنوان "تنبه أيها المسلم"، فعرض الأمر على (مصطفى الطائع) الذي عرّفه على أديب طرطوس المعروف آنذاك الأستاذ (محمد المجذوب)، فعرض عليه نص المقالة وبعد أن قرأها وصحح فيها ما هو ضروري أرسلها الأستاذ (المجذوب) بنفسه إلى المجلة في القاهرة وتم نشرها فعلا عام 1935، فيكتب عن هذه اللحظة قائلا:" ولا تسأل كم كانت فرحتي عظيمة عندما رأيت اسمي مكتوبًا في المجلة بقائمة فهرس العدد، وكان ذلك المقال مشجّعًا على مواصلة التمرين على الكتابة في الخمسة الأولى من الثلاثينات، وكنت تقدمت قليلًا في معرفة نظم الشعر...".

فأرسل مرة ثانية قطعة من الشعر الغزلي بعنوان "لا تطمعي" إلى مجلة اسمها "الخبر" كانت تصدر في اللاذقية التي سرعان ما نشرت القطعة الشعرية على صفحاتها وهنا يكتب ويقول:

"وعندما وصلتني الجريدة وفيها قصيدتي منشورة واسمي تحتها بحروف طباعية شعرت أيضًا بلذة الانتصار على سخرية الحياة مني، واعتبرت نفسي صالحًا للسير في هذا المضمار وتابعت نظم الشعر والنثر..".

في عام 1937 تزوج وصار لزامًا عليه البحث عن عمل يؤمن له دخلًا مستمرًا بالتلازم مع رغبته الشديدة في متابعة نشاط ثقافي مثمر، وبدأت تجربته تزداد صعوبةً وخصوبةً فتنقل في مجالات عمل عديدة بينها العدلية أولا ثم "الميري – الإعاشة" ثانيًا، ثم في تحرير مجلة ثقافية ثالثًا، ثم بالعودة إلى مجال القضاء والعدلية من جديد وبشكل نهائي.

وخلال هذه الفترة عمل مع الدكتور (وجيه محي الدين) الذي كان قد أنشأ في طرطوس مجلة "النهضة" حيث يقول عنها: "وجعلها منبرًا يتبارى عليه أصحاب الأقلام في هذا الجيل، وميدانًا يتدرب فيه على مزاولة الأدب وتذوق الجيل الجديد ... وعلى مجلة النهضة هذه تدربنا جميعًا، وكانت مجالًا لتمرين كل جيلنا المتعطش إلى الظهور وإلى معرفة الأدب.".

لذلك فخلال كل هذه الفترة لم يتوقف نبض الشاعر وإحساسه لديه، فكان ينظم الشعر باستمرار بحيث أصدر عام 1938 أول ديوان شعري له بعنوان

"الزفرات" بعدّه "ثاني ديوان يصدر من جبل العلويين بعد ديوان (بدوي الجبل، 1927) في بيئة كانت المعرفة فيها، كما يقال، تؤخذ من الصدور وليس من السطور." كما كتب عنه ابنه الدكتور (إياس حسن) في مقدمة كتابه "النهضة والأطراف" المشار إليه سابقًا.[48]

وفي الفترة نفسها قرأ خبرًا في إحدى الصحف السورية أن أحد تجار دمشق الأغنياء وهو الشيخ (عبد الحميد الطباع) تبرع بتعليم ستة طلاب علويين على نفقته بالمعهد الإسلامي الشرعي بدمشق، فتناغم ذلك مع حنين داخلي قديم لديه للتعلم على الرغم من أنه متزوج ولديه طفلة، فتقدم بطلب لذلك وتم قبوله بوساطة صديق له من طرطوس هو الأستاذ المحامي (أحمد المحمود)، فسافر إلى دمشق بعد أن أمّن مصروف أسرته ملتحقًا بالمعهد فعلًا، حيث بقي فيه عامًا كاملًا ثم عاد نهائيًا إلى طرطوس بسبب عدم قدرته على ترك أسرته بعيدًا عنه لمدة أطول لا يستطيع إعالتها.

وكان بعد توقّف مجلة "النهضة" إثر وفاة صاحبها، ومن ثم اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939 قد تعرف على (عابد جمال الدين) صاحب مجلة "صوت الحق" التي كانت تصدر في اللاذقية، الذي أقترح عليه أن يعمل عنده محرّرًا فرنيسًا للتحرير، فوافق وبقي كذلك لمدة عامين.

إلا إن العمل الدائم والنهائي له كان وظيفة في الدوائر العدلية، التي تنقّل فيها بين مدن اللاذقية وصافيتا وبانياس فطرطوس، باستثناء فترة في أواخر الستينات حيث انتدب مؤقتًا للعمل في المركز الثقافي بطرطوس المُنشأ حديثًا آنذاك، أمينًا للمكتبة فيه.

أصدر مؤلفات عدّة في حياته أغلبها دواوين شعرية وبينها ما هو بحثي وسجالي وهي كالتالي:

الدواوين:-

الزفرات – نهر الشعاع – أنداء وظلال – قصائد مضيئة – أوحت لي السمراء – على طريق الحرية – على قبور الأحبة، قصائد رثاء في جزأين.

كتب سجالية – نقدية:-

المسلمون العلويون في مواجهة التجني – أضواء على الحقيقة الصعبة.

في البحث التاريخي -:

المسلمون العلويون في لبنان، بالاشتراك مع الشاعر الأستاذ حامد حسن - المكزون السنجاري في حمين – حمين خلال ثلاثة قرون.

---

[48] -: د. إياس حسن "النهضة والأطراف" مرجع مذكور سابقا ص8.

في التصوف -:
التصوف .. جدلية وانتماء.
في الأدب والنقد الأدبي -:
أضواء كاشفة – رعشات قلم – الدكتور وجيه محي الدين .. يقظة جيل.
وفي مختتم الحديث عن الشاعر أحمد علي حسن لا بد من القول أن حياته كانت حافلة بالنشاطات الأدبية والثقافية على مستوى القطر العربي السوري منذ منتصف القرن العشرين وحتى أواخر الثمانينات منه تقريبًا، بل يمكن القول بثقة إن بعض مؤلفاته كانت معروفة خارج سورية في العالم العربي بدليل أن الكاتب والمفكر المصري (فرج فودة) استشهد بما جاء في أحد كتب (أحمد علي حسن)، ضمن كتابه المعروف "الحقيقة الغائبة".
وقد كتبت مجلة (الأديب) اللبنانية بعددها الصادر بشهر تموز 1972 نقلا عن جريدة (لسان الحال) البيروتية رأيا للشاعر اللبناني الكبير (سعيد عقل) في شعر (أحمد علي حسن) يقول فيه:
"قرأنا أبياتًا رائعةً لأحمد علي حسن منها هذا البيت:
وأسلمني عطر سبحت بموجه ..... وراء غواياتي إلى ثغرك العذب.
ولكن هذا النهج لو فتش النقاد على الشعر الحق لعثروا عليه في هذه الأونة أكثر منهم في أية أونة غابرة.
عصرنا هو العصر الذهبي، بقي أن نشفى من مرض الإعجاب بالشيء البعيد في الزمان أم المكان، وسلم قلم أحمد يكتب وكان بين الأقلام مَلوكا.".
يبقى أن نذكر أنه سمى أولاده تسميات منتقاة بوحي من ثقافته الشخصية وبما يخالف تقاليد بيئته وأعرافها في ذلك الوقت: نجوى – نعمى – نهى – معاذ – حيان – إياس.
المعذرة من القارئ إن وجد إطالة في الحديث والاقتباسات عن مذكراته وحواراته الشخصية، فهو في النهاية والدي، لذا فمن حقه عليّ أن أضيء على تجربته الحياتية والثقافية قليلًا بما يتوافق مع فكرة هذا الكتاب وهدفه أولا، ولأن تجربته هذه كانت استثنائيةً فعلًا في زمنها وتستحق ذلك وأكثر ثانيًا.
كامل علي حسن وهو الأخ الرابع الذي هجر القرية باكرًا أيضًا، قاصدا طرطوس التي اشتغل فيها بالتجارة في شارع الصالحية المعروف وكان أحد أنجح الأشخاص ذوي المنشأ الريفي الجبلي الذين قصدوا طرطوس واشتغلوا بالتجارة باكرًا ونجحوا فيها نجاحًا كبيرًا، وكانت أغلب علاقاته مع تجار دمشق وحلب، فسمى أولاده الذكور أسماء خارجة عن مألوف

التسميات آنذاك، وذات دلالة بما يخص عمله التجاري وانفتاحه الذهني كتاجر،(محمد) و(أحمد) و(حسن) و(عيسى) و(مامون) و(مروان) و(ندى) و (نهال)، العمل الذي ورثة أغلب أولاده منه وتابعوه بنجاح حتى اليوم.

مفردات الحداثة والتنوير والتمرد في الملاجة منذ منتصف القرن العشرين -:

في لقاء خاص بتاريخ 21 / 8 / 2021 مع ابن الملاجة الكاتب القصصي السيد (محمود حسن) حول تجربة ثقافية فنية متميزة بالملاجة كان مشاركًا فيها منتصف القرن العشرين، بدأ حديثه بالقول إنه ثمة قرى في جبال الساحل وطرطوس تحديدًا تعرف باسم شخصية ما، شخصيّة ثقافية أدبية كبيرة بارزة فيها، والملاجة هي إحدى هذه القرى، حيث يرتبط ذكرها بذكر الشاعر الكبير (محمد عمران) الذي كان رائدًا ونشطًا على نحو كبير في بث روح ثقافة عصرية متميزة بين أبناءه جيله فيها في ذلك الوقت.
لا يمكن التحفظ على هذا الرأي الذي قاله السيد (محمود حسن)، بل هو صحيح بشكل كبير لكن فكرة كتابي هذا والتاريخ المفترض فيه يستدعيان مني العودة قليلًا إلى الوراء قبل ظهور ظاهرة الشاعر الأستاذ محمد عمران وتبلورها، كي نستطيع أن نتعرف أكثر عليها ونضعها في سياقها التاريخي الصحيح.
لذلك أعود إلى اللقاء الخاص بتاريخ 21 / 8 / 2021 في منزل الأديب القاص (محمود حسن) في قرية بجمرة – الملاجة، وقد حضر اللقاء زوجته السيدة (حليمة أحمد حامد) وابنته المهندسة السيدة (رادا محمود حسن)، وكان برفقتي ابن الملاجة الغني جدًّا في حبه للحياة والفن ولقريته السيد (يوسف أحمد)، فقد كان الحديث ماتعًا ومفيدًا كونه يدور حول محور واحد لكنه واسع جدًّا لأنه كان يستدعي ذاكرة جميلة لسنين مضت، محور الملاجة وبدايات النشاط الثقافي التنويري الجاد فيها:
وسأبدأ بالمعلومة المهمة التي أفادني بها السيد (محمود حسن) وهي أن موجة هجرة كبيرة شهدتها بيوت الملاجة وعائلاتها إلى القارة الأمريكية منذ منتصف النصف الأول من القرن العشرين، إذ لم يخلُ بيت فيها من هجرة شخص أو اثنين، بعضهم عاد وبعضهم لم يعد وانقطعت أخباره نهائيًّا منذ ذلك الوقت، وإن أحدهم وهو (محمود محمد حسن) عم محدثي السيد (محمود حسن) كان قد أصدر جريدة في "الأرجنتين" اسمها "اللواء".

يعرف القارئ الكريم أن موجات الهجرة في ذلك الوقت، كما في كل الوقت، كانت بدافع الخروج من الضيق والقهر والفقر بكل أشكالهم، ومحاولة للعمل والبحث عن فرص جديدة في بلاد جديدة فعلاً، الأمر الذي يؤسس في اللاوعي الجمعي لأهالي القرية أو المنطقة التي تشهد هكذا هجرات ميلاً مبكرًا للخروج من أفق القرية القديم والضيق، وفضولاً كبيرًا للتعرف والمعرفة والعلم، وسأقدم أمثلة على ذلك من خلال التفاصيل التالية التي قد تبدو صغيرة، لكنها بالتأكيد ذات دلالة كبيرة في زمنها.

فقد روى لنا السيد (يوسف أحمد) في الجلسة نفسها عن والدته السيدة (مارية منصور – أم يوسف) التي كانت على الرغم من أميتها ومسؤولياتها البيتية العديدة كل ليلة تتابع دروس أولادها وترسم لهم الخرائط الجغرافية ومصورات العلوم الطبيعية نقلاً عن الكتب لتسهيل تدريبهم على رسمها من جديد، ولا يخفى على القارئ الفطن كم تضمر محاولات هذه الأم المُثقلة بالأعباء من رغبات عميقة في النفس لزرع الشغف بالعلم في أذهان أبنائها من أجل بناء مستقبل أفضل لهم، وتعويضًا لها عن زمن مضى لم يتح لها فيه التعلّم.

ثم تابع قائلاً إن والده السيد (علي محمود أحمد – ابو يوسف) كان يجمع من كل بيت في القرية "فرنك" واحدًا، وعندما ينزل إلى طرطوس كان يشتري كتابًا من مكتبة "المجذوب"، وعند عودته يعطيه لأهالي القرية يتداولون قراءته والحديث حوله ليلاً في سهراتهم بدلاً من مواضيع الأحاديث الأخرى غير المجدية.

ثم تحدث الجميع عن أحد أبناء الملاجة الذي كنت أعرفه جيدًا، وهو السيد (حسن إبراهيم) فعلى الرغم من كونه كفيفًا إلا إنه كان يهتم بالثقافة والأدب وكان حاد الذكاء وعنده ميول تنويرية يحب أن ينشط فيها بين أبناء جيله والأصغر منه سنًا، لذلك كرّس جهده باكرًا من أجل محو الأمية في القرية حيث أنشأ خيمةً في منطقة وسطى وجميلة بين مسكنه والقرية قرب مكان يسمى "عين البعيدة" الذي هو مكان ساحة "مهرجان السنديان" نفسها لاحقًا، وكان يجمع تحتها من يحب من أبناء القرية لإعطائهم دروسًا أولى في محو الأمية بالقرية.

ليس ذلك فحسب فأنا أذكر بعضًا من لقاءاتي معه في غرفته في القرية، حارة "بيت البويلة" حاليًا، في أوائل سبعينات القرن العشرين، وكنت في من الشباب الأول، حيث كان يلتقي عنده بعض من شباب القرية المهتمين

بالثقافة والشأن العلم عموماً، ويقرأ أحدهم أو بعضهم بكتاب ما، وتتم بعد ذلك مناقشة ما سمعوه بإدارة هادئة منه.

ربما كان كل ذلك تمهيداً لظهور نزعة جديدة ظهرت في الملاجة مبكراً وقبل غيرها من القرى المحيطة، أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، وهي نزعة "التمرد" التي هي نزعة حداثية بامتياز.

وعن بدايات هذه النزعة حدثتنا باسترسال جميل من خلال ذاكرة مليئة بالحب والحنين لتلك الأيام السيدة (حليمة أحمد حامد) فتقول إن الفضل في ذلك كان للشاعر (محمد عمران) الشاب آنذاك الذي كان يعمل على جمع أغلب شباب وشابات القرية كلّ خميس في منزل أهله القديم في القرية في جلسات ثقافية تنويرية وفنية غنائية، وأهم موضوع فيها كل أسبوع كان يُكرّس لضرورة التمرد على التقاليد القديمة وسلطة الأهل المطلقة، فكان بذلك يهتم بتربية مستقلة للأجيال الشابة، وخصوصاً الشابات منها"، بعيداً عن وصاية الأهل أو رجال الدين وتدخّلهم، وقد أفلح في ذلك على نحو كبير؛ إذ بتأثير ذلك بدأ يتكوّن في القرية جمعٌ من الشباب يمارسون الرياضة ويهتمون بالفن وقراءة الكتب الجديدة، وقد كان الشاعر محمد عمران يؤمّن لهم الكتب المناسبة لقراءتها، فساعد كل ذلك على كسر مدّ عقليةٍ محافظةٍ في القرية، كانت هي بالأساس ضعيفة وغير قوية.

وبتأثير ذلك ظهر لأول مرة في ريف المنطقة فرقة مسرحية تأسست في الملاجة، وكانت تحوي في عداد ممثليها شباناً وبناتٍ، فكان أول عمل مسرحي لهذه الفرقة، كما أخبرني السيد (محمود حسن) بعنوان "هدفنا الأول"، وكانت من تأليف (محمد عمران) و(حكمت بدر)، وقد عُرضت لأول مرة في منزل الشيخ (بدر عمران) والد محمد عمران في القرية، وقد قام بأداء الأدوار فيها (محمود حسن – محمد عبدالكريم عمران – خديجة عمران – نجوى حسن)، ثم عُرضت مرة أخرى في قرية مجاورة لكنها بعيدة نسبيًا تسمى قرية "كفران"، لكن من دون عنصر نسائي لصعوبة المشي والتنقل بين القرى آنذاك في زمن لم تكن هناك طرقات مفتوحة ومعبدة بين القرى كما هو اليوم، فقد وُزّعت أدوارهن على الشباب.

فوجود بنات شابات يمثلن في مسرحية أمام جمهور في قرية من قرى المنطقة في ذلك الوقت سابقة تُسجل لقرية الملاجة وحدها، والفضل في ذلك بالتأكيد يعود للحماس التنويري عند الشاعر الشاب محمد عمران آنذاك من جهة، ولتجاوب الأهل في قرية الملاجة من جهة ثانية.

لكن هذه التجربة المسرحية الوليدة تراجعت في بداية ستينيات القرن العشرين كما أفادني السيد (محمود حسن) لأسباب عديدة أحدها التضييق الذي مارسته بعض القرى المجاورة على الممثلين في تنقلاتهم.

نقلات ثقافية فنية نوعية جديدة في قرية الملاجة:

أولا-: ظاهرة أغاني الملاجة

لكن ذلك التراجع في التجربة المسرحية أعقبه تحول نوعي آخر جديد توج كل الجهود السابقة، وذلك بلقاء ثقافي فني جمع نخبة من أهم شباب الملاجة والمعهم آنذاك وهم:

الأستاذ الشاعر محمد عمران.

المهندس الفنان عماد الدين سليمان.

الفنان الأستاذ جابر قرفول.

الأديب الشاب محمود حسن.

وحولهم مجموعة من شباب وشابات القرية ولا سيما المهتمين بالشأن الثقافي والفني وأصحاب الأصوات الجميلة.

هذا اللقاء الذي أنتج ظاهرة فنية غنائية هي من أجمل ما أنتجته منطقة جبال الساحل في طرطوس في ذلك الوقت، بل يمكن القول وحتى اليوم أيضًا.

هي ظاهرة يمكن أن نلحظ فيها بسهولة بعض أصداء التأثر بتجربة المسرح الغنائي للأخوين رحباني في لبنان، حيث كان الجيل الشاب الجديد في الملاجة آنذاك شديد التأثر والإعجاب بتجربة المسرح الغنائي للرحابنة التي كانت في أوج عطائها الإبداعي مع صوت فيروز شعرًا ولحنًا وغناءً، في وقت كان جهاز الراديو الصغير وآلة التسجيل "البكرة" اللذان يعملان على البطارية في بدايات انتشارهما في ستينيات القرن العشرين في الريف.

المهم أن هذه النخبة من الشباب الملتفّة حول الشاعر محمد عمران كانت متأثرة جدًا بالأفكار الكبرى لتلك المرحلة، والخاصة بالتحرر الوطني والقومي والاجتماعي والخروج من هيمنة التقاليد القديمة المتخلفة والقناعات الدينية الضيقة وكل الزعامات المحلية المرتبطة بها، إلى آفاق أوسع وأرحب، بمعنى إن تلك النخبة كانت ترمز إلى جيل جديد متطلع نحو التجديد والتغيير الاجتماعي بكل مستوياته، فكتبوا الشعر والأغاني ولحنوها بإبداعهم الخاص فقط ليعبّروا من خلالها عن كل تطلعاتهم الجديدة تلك مُتكئين بذلك-أيضًا- على ميل رومنطيقي رهيف جدًا داخل النفس كانت قد

أثمرته طبيعة القرية الجميلة والأسرة فعلا، وقد تماهوا معها حتى درجة عدم القدرة على الانفكاك عنها.
كان الشاعر محمد عمران يكتب أغلب القصائد والأشعار لهذه الأغاني، وكان يشاركه بعضهم في كتابة بعضها، وكان الفنانان المهندس عماد والأستاذ جابر يقومان بالتلحين والشدو، فكانت أغانيهم في غاية الجمال، أختار للقارئ من عناوينها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:
"يارجال المشيو عالموت الهادر"
"ياسفر الغربة يا أحلى سفر"
" لو فيني عديها لو فيني هديها هالشختورة البدها تغرق أهلي كلن فيها"
"ياريمة الغزلان عيني ريمتي"
"منديل ازرق أزرق"
"القصد ديارن درب بعيدة"
"صيف الشيحان غناني"
إذ إن هذه الأغاني صارت تُسمى حتى اليوم بأغاني الملاجة وما زالت تتناقلها الأجيال المتتالية في الملاجة وتشدوها الأصوات الجميلة في كل مكان خارج القرية، بل حتى خارج ريف طرطوس.

ثانيا-: ظاهرة الشاعر محمد عمران 1934 - 1996
من قلب هذا المناخ الاجتماعي الريفي البسيط والجميل بتطلعات أجياله الشابة أنذاك في التغيير والتجديد الاجتماعيين بتأثير خلفية ثقافية فنية حداثية تنويرية كما أسلفت كانت تولد قامة شعرية حداثية كبيرة ليس للملاجة فقط بل لسورية أيضًا، حتى صارت واحدة من ابرز أصوات الجيل الثاني للحداثة الشعرية في العالم العربي في النصف الثاني من القرن العشرين كما جسدها الشاعر محمد عمران في نشاطاته المتعددة وفي دواوينه وكتبه النثرية، خصوصًا عندما انتقل في عمله الوظيفي بداية سبعينيات القرن العشرين من مدرس للأدب العربي في ثانويات طرطوس إلى دمشق ليعمل محرّرًا ثم رئيس تحرير في بعض الصحف والمجلات التابعة لوزارتي الإعلام والثقافة، ولعله من أهم الأدوار التي قام بها هي عندما استلم مهام مدير التحرير للملحق الثقافي لجريدة الثورة في السبعينيات، حيث صار الملحق منبرًا ثقافيًا مهمًا ينشر فيه بعض أهم المثقفين والأدباء في سورية والعالم العربي، ثم عندما استلم بعد ذلك مهام رئيس تحرير مجلة "المعرفة" التي كانت تصدرها وزارة الثقافة.

أصدر الشاعر محمد عمران في حياته مجموعات شعرية عدّة هي على التوالي:

أغان على جدار جليدي 1968.
الجوع والضيف 1969
الدخول في شعب بوان 1972
مرفأ الذاكرة الجديدة 1973
أنا الذي رأيت 1975
كتاب الملاجة 1980
قصيدة الطين 1980
الأزرق والأحمر 1984
اسم الماء والهواء 1986
نشيد البنفسج 1992
كتاب المائدة 1995

أما المجموعة الشعرية الأخيرة له فهي بعنوان "مديح من أهوى "، فقد صدرت عام 1998 أي بعد رحيله.

أما كتبه النثرية فهي:

للحب أيضًا وقت 1980
أوراق الرماد 1980
الأشياء 1984
محمد العربي 1984

3-:ظاهرة تتالي الأجيال الشعرية والثقافية في الملاجة وتنوعها

وهنا أود أن أتوسع قليلًا فأقول إنه بعد مغادرة الشاعر محمد عمران قرية الملاجة إلى طرطوس أولًا، ومن ثم مغادرته طرطوس إلى دمشق ثانيًا، لكن من دون أن يقطع صلة القربى الروحية والنفسية مع قريته أو مع جيله فيها، لذلك نراه يعيد تشكيل الملاجة، من جديد، في شعره كأسطورة خارج الزمان والمكان في جهات الحب الست، كما يقول.. بدأت تتكرس قامته وتكبر كونه أحد أهم شعراء الحداثة ليس في سورية فقط وإنما في العالم العربي أيضًا. ويبدو أن هذا ما حدث للشاعر (أحمد علي حسن) الذي سبقه في مغادرة القرية للعيش في المدينة متنقلًا بين مدن طرطوس أولًا فاللاذقية وصافيتا وبانياس فطرطوس ثانيًا وأخيرًا، الأمر الذي كرّسه أحد الشعراء والأدباء الكلاسيكيين المهمّين في سورية منتصف القرن العشرين، وهذا

يؤشر بدلالة كبيرة إلى أن الموهبة الشعرية وحدها داخل مجتمع القرية البسيط والضيق لا تكفي لتكريس الشاعر المبدع والمعروف، ولاسيما في زمن تنعدم فيه وسائل التواصل الاجتماعي والثقافي كما هو اليوم، فبيوت الملاجة وعائلاتها في النصف الأول من القرن العشرين كانت مليئة بشعراء ينظمون الشعر لكن قلة منهم استمرت وكرست اسمها في بيئتها على الأقل، وأذكر هنا أن والدي الشاعر (أحمد علي حسن) كثيرًا ما كان يذكر في جلساته أسماء محددة من هذه القلة وهم (الشيخ محمد قرفول)، والشيخ (نجم الدين سلمان)، والشيخ (محمد عمران) أي جد شاعرنا الكبير (محمد عمران).
لذلك فالاهتمام الشخصي بالموهبة وإغناؤها بتجارب حياتية دائمة جديدة ومستجدة في مجتمع واسع ومتعدد كالمدينة خصوصًا في ذلك الزمن يكون بمنزلة الأساس لتكريس شخصية الشاعر أو الأديب والكاتب المثقف عمومًا، فالذي ساعد الشاعر أحمد علي حسن في تكريس ذاته كشاعر ليس موهبته القوية فقط وإنما -أيضًا- تجاوبه السريع مع الحراك الديمغرافي المتمثل في الهجرة من الريف إلى المدينة الذي كان في بداياته آنذاك، ثلاثينيات القرن العشرين، كما أوضحت نقلًا عن مذكراته في السطور السابقة.
وكذلك الأمر للشاعر محمد عمران الذي جاء في مرحلة تالية مختلفة في تقدمها وتطورها، فهو من مواليد 1934، وتخرج من جامعة دمشق أواخر خمسينيات القرن العشرين، ثم اشتغل بالتدريس في طرطوس حتى أواخر ستينيات القرن العشرين، وبعدها انتقل مرة ثانية إلى دمشق العاصمة ليعمل في مجال الإعلام والثقافة كما أسلفت سابقًا.
ثمة حراك اجتماعي مستمر ومتجدد كان يتجاوب معه الشاعر، يمثل الخلفية التاريخية - الواقعية لشخصيته الثقافية والشعرية وتطورها.
مع ذلك فإن هذا الحراك الاجتماعي الذي كان ينعكس على بيئة محلية كبيئة قرية الملاجة آنذاك مهما كان بطيئًا يُعد الرحم الذي ولدت منه ظاهرة خرجت إلى النور يمكن تسميتها ب(السلالات) في الشعر، كونها تناسلت أجيالًا شعريةً متتاليةً حتى أواخر القرن العشرين، عكست زمنها الذي ولدت فيه وعبرت عنه، وكذلك يمكن القول عن كل أجناس الأدب والثقافة الأخرى.
ففي حال الشعر في الملاجة، كما مر معنا، يمكننا القول إن ظاهرة الشعراء الثلاثة الأوائل الذين ذكرتهم سابقًا على لسان الشاعر (أحمد علي حسن) وهم (الشيخ محمد قرفول) والشيخ (نجم الدين سلمان) والشيخ (محمد عمران)

هي الرحم الواسع الأول الذي تكونت فيه ظاهرة الشاعر (أحمد علي حسن)، فأخرجته إلى النور فيما بعد شاعرًا كلاسيكيًا مهمًا لامس الحداثة والتنوير بتفهم من خلال أفق تفكيره الواسع وإن لم يكتب شعرًا حداثيًا.
وكذلك يمكن القول عن ظاهرة الشاعر محمد عمران التي كانت بداياتها الأولى في البيئة ذاتها ملامسةً المؤثرات نفسها، لكنها تبلورت لاحقًا ليس بصفتها موهبة فقط وإنما بصفتها وعيًا ثقافيًا أيضًا في زمن جديد مستجد مختلف كثيرًا عما سبقها، فجاءت تحمل إضافات نوعية كبيرة مختلفة جدًا عما سبقها، لكن من دون أن تقطع مع ما سبقها أو تتعالى عليه. فكانت ظاهرة محمد عمران، الشاعر الحداثي، استمرارًا لظاهرة أحمد علي حسن، الشاعر الكلاسيكي، في الشعر. لكنها وفي الوقت نفسه مفارقة لها نوعيًا ومختلفة إبداعيًا سواء في الشكل أم في المضمون.
وهنا أذكر حادثة لافتةً جرت أمامي في منزل والدي أواخر ستينيات القرن العشرين بطرطوس عندما حضر الشاعر محمد عمران بنفسه لزيارة والدي برفقة الكاتب (محمد كامل الخطيب) ومعه نسخة من ديوانه الأول "أغان على جدار جليدي"، وقال له وهو يهديه النسخة:
"كان بإمكاني إرسال النسخة لك مع الأستاذ محمد لكنني أصريت على زيارتك شخصيًا وإهدائك النسخة بيدي تكريمًا لك لأنك الوحيد من أبناء جيلك الذي حافظ على موهبته الشعرية واشتغل عليها".
فهذه العبارة تشي بدلالات كبيرة لعل أهمها هو الوفاء النبيل من الشاعر محمد عمران، والاعتراف بأهمية من سبقه في مجال الشعر، إذ يعتبر نفسه استمرارًا له لكن بنقلة نوعية حداثية مختلفة شكلًا ومضمونًا.
وفي السياق نفسه في الحديث عن الاستمرارية والاعتراف بأهمية من سبق أود أن أذكر، من باب الأمانة أيضًا، أن الصديق الكاتب والناقد الأستاذ محمد كامل الخطيب، وهو من الملاجة أيضًا، الذي غادرها إلى طرطوس فدمشق طيلة خمسة عقود من الزمن، دائمًا ما يقول ويذكر حتى اليوم، أن الشاعر محمد عمران كان أستاذي، طبعًا مع الأخذ بالحسبان الاختلاف والفارق الكبيرين في منهج التفكير وأهدافه بينهما.
فالكاتب والأديب الناقد الأستاذ (محمد كامل الخطيب) بكل ما تمثل شخصيته الثقافية وإنتاجاتها المهمة على صعيد الثقافة في سورية منذ منتصف ثمانينات القرن العشرين وحتى اليوم هو في نهاية الأمر من الملاجة التي عاد إليها مستقرًا منذ خمس سنوات بعد أن نقل معه إليها مكتبته الضخمة والثرية من دمشق، فقد كان، بكل ما يرمز إليه ثقافيًا وفكريًا، فاتحة جيل

جديد لبعض شباب الملاجة الذين تثقفوا ونهجوا تفكيرًا فلسفيًا اجتماعيًا ـ سياسيًا يميل نحو اليسار بالمعنى الإنساني الواسع للكلمة، وليس بمعنى الالتزام السياسي الحزبي الضيق.
لا أقصد هنا بعبارة "فاتحة جيل" المعنى الأبوي - البطريركي الموجه لذلك، فهو بفكره وتجربته وميوله الشخصية واهتماماته وإنتاجاته الثقافية المتنوعة كان أبعد ما يكون عن ذلك، خصوصًا أن وجوده في القرية طيلة خمسة عقود من الزمن كان قليلًا وعلى فترات متباعدة. وإنما بحكم مكوثه الطويل في دمشق في فترة زمنية كان فيها مخاض المنطقة عمومًا، وسورية منها، ما يزال يميل نحو اليسار، فالفتح هو بتفكيره وثقافته وميوله اللاحقة على اليسار بالمعنى الذي أشرت إليه قبل غيره من أبناء بيئته الريفية.
لذلك كان اليسار عمومًا عند بعض أفراد الجيل الجديد الشاب المثقف في الملاجة آنذاك ميلًا واضحًا، إذ طبع سمعة الملاجة في محيطها طيلة عقدين من الزمن بطابع التفكير اليساري عمومًا.
وكانت تلك نقلة نوعية حداثية جديدة كليًا في الملاجة، ميّزتها نسبيًا عن محيطها حتى نهاية القرن العشرين لكن من دون أن يعني ذلك -أيضًا- أن كل أفراد الجيل الشاب الذين كوّنوا ثقافتهم في إطار تلك النقلة النوعية كان لهم الميول نفسها أو التطلعات ذاتها أو منهج التفكير اليساري عينه، ربما كان يجمعهم همّ مجتمعي إنساني واسع واحد، لكن بمناهج وطرق تفكير ورؤى متعددة، وتلك -أيضًا- ميزة جديدة تضاف إلى هذا الجيل في الملاجة الذي تجاوز حالة الالتفاف حول شخص واحد محوري، أو حول فكرة واحدة، أو الانتماء إلى حزب واحد.
فالعلاقة النوعية والمديدة مع المدينة كانت الرافعة لكل هذه النقلات النوعية من خلال شخوصها التي ذكرت في أجيالها الثلاثة، جيل الشاعر (أحمد علي حسن)، وجيل الشاعر (محمد عمران)، ومن ثم الجيل الذي أتى بعده.
يمكن استعراض العديد من أسماء هذا الجيل "الجيل الثالث" إن صحت التسمية، لكن سأكتفي بأسماء الذين نشطوا بشكل فعال ضمن الحقل الثقافي وكان لهم نتاجاتهم المعروفة.
مع ملاحظة أن القليل جدًا منهم كانت له منذ البداية ميول دينية محافظة واستمرت معه حتى النهاية فعكسها في كتبه:
الكاتب الباحث والأديب الناقد الأستاذ محمد كامل الخطيب.
الكاتب والمترجم الدكتور إياس حسن.

الأستاذ الجامعي الدكتور سمير حسن.
الكاتب والأديب علم الدين عبد اللطيف.
الكاتبة والشاعرة رشا عمران، ابنة الشاعر محمد عمران.
المترجم الأستاذ عزالدين محمود غانم، الذي على الرغم من كونه من قرية "المصطبة" المجاورة إلا إنه يُحسب على الملاجة بحكم علاقاته الدائمة فيها كما بحكم المصاهرة لها.
مؤلف هذا الكتاب معاذ حسن.
الشاعر حيان حسن الذي يكتب بالفصحى وباللغة المحكية، وقد لحن بعض الملحنين السوريين الكبار العديد من كلماته وقصائده.
الصديق حسين عبد اللطيف المهتم بالشأن العام والثقافي وله ديوان وحيد مطبوع.
المهندس الزراعي علي أحمد سلمان الذي يهتم بالنسب والأصل الأنثروبولوجي عند الطائفة العلوية في جبال الساحل السوري عمومًا، وله كتابان بهذا الخصوص أحدهما كتاب كبير عمل عليه طويلا وأصدره مؤخرًا.
وثمة أسماء أخرى مهمّة تنتمي إلى الجيل نفسه، ابدعت نشاطًا اجتماعيًا كبيرًا طيلة سنوات في الملاجة وخصوصًا في المهرجانات الثقافية الفنية التي كانت تقام في الفترة نفسها، أذكر منها بشكل خاص:
الصديق (يوسف أحمد) صاحب الذائقة الفنية الجميلة واللمسات العملية الإبداعية الرائعة في أي نشاط مهرجاني ثقافي فني في القرية، الذي يختزل في داخله حبًا بلا حدود لقريته، حتى درجةٍ كان منزله قبل المهرجانات فيها، ولسنوات عديدة، ملتقى مهرجانيًا مصغرًا لضيوف كثر من مثقفين وفنانين سوريين وعرب.
الدكتور عصام عزالدين سليمان صاحب العين الجميلة في التصوير الفوتوغرافي.
وهناك أسماء عديدة أخرى تنتمي-أيضًا- إلى الجيل نفسه أو إلى أجيال متقاربة كانت متحلّقةً بنشاط كبير وحب جميل حول كل النشاطات الثقافية والفنية في الملاجة، فليعذرني أصحابها في عدم الاسترسال بذكرها جميعًا.
وحول هذه النقطة أرى أنه لا بد من التنويه بإمكانية ثقافية جديدة واعدة ومثمرة حقًا في مجال الترجمة بدأت بالظهور في العقد الثاني من هذا القرن "21"، هي الشابة (فرح أحمد عمران) التي صدر لها أكثر من كتاب

بترجمتها عن الإنكليزية، التي على الرغم من كونها من الملاجة أصلا إلا إنها نشأت وتعلمت وتعيش وتسكن في طرطوس منذ البداية. ..
وفي كل ذلك يسجل لأجيال الملاجة المتتالية منذ خمسينيات القرن العشرين وحتى نهاياته أنها كانت متصالحة باستمرار مع متغيرات الزمن والحياة، وتتجاوب مع الجديد من دون أن تتنكّر لما سبقها أو تنغلق عليه.
يُذكر أن الملاجة لم تشهد طيلة تلك الفترة، على الرغم من أن العديد من شبابها لم تشغلهم الاهتمامات الثقافية أو الميول السياسية واليسارية عمومًا، التحاقًا من قبلهم بالسلك العسكري تطوّعًا، أو نزوعًا لتبوؤ مناصب إدارية سياسية قيادية عليا، إلا باستثناءات قليلة جدًا، وإنما شهدت انكبابًا على التحصيل العلمي عمومًا في مختلف مستوياته واختصاصاته لكلا الجنسين، فحوت كفاءاتٍ علميةً ومهنيةً عديدةً في مختلف الاختصاصات وما زالت كذلك حتى اليوم.
لذلك يمكن القول إن المناخ الاجتماعي ضمن الملاجة -في الغالب- كان مفتوحًا من دون عصبيات دينية أو طائفية أو مذهبية وعشائرية، باستثناء الحساسيات العائلية الضيقة داخلها التي بقيت تنوس وتظهر في حالات تتالي مستمرة، لكن من دون أن تظهر خارجها حتى للغريب الذي يزورها. لذلك أحبها حتى الافتتان كلُّ من زارها من سورية وحتى من خارج سورية.

4-: ظاهرة مهرجان السنديان في الملاجة 1995 - 2010

في منتصف تسعينيات القرن العشرين ظهرت حاجة ملحة على نحو واضح عند نشطاء الثقافة والفن من أبناء الملاجة لتأسيس نقطة ثقافية مرخّصة أصولاً في الملاجة تضم مكتبةً غنيّةً كما تكون بمنزلة منبر ثقافي حواري لأبناء القرية وأبناء القرى المجاورة، وقد تم الترخيص لها فعلاً عام 1995 كما أخبرني أحد أهم نشطاء الملاجة في هذا المجال الصديق (يوسف أحمد) في لقاء خاص معه حول القرية والمهرجان بتاريخ 24 / 8 / 2021. فانطلق أول نشاط لها كما أُعلن عنه تحت اسم "مهرجان السنديان"، الاسم الذي اقترحه الشاعر محمد عمران، قبل رحيله، في لقاءات متعددة بينه وبين النشطاء المبادرين إلى هذا النشاط حيث إن البعض كان يقترح أن يكون العنوان "مهرجان وداع الصيف" أواخر شهر آب من كل عام.
لذلك فنشاط هذه النقطة الثقافية اقتصر لسنوات طويلة على التحضير لهذا المهرجان السنوي الذي اقتصر بدوره على الشعر أولاً، والفن الموسيقي الغنائي ثانيًا، والنحت ثالثًا.

كان هذا المهرجان تظاهرة سنوية رائعة أعطت للملاجة صيتًا أسطوريًا كما كان يحب الشاعر محمد عمران؛ لقد ذاع صيتها من خلال هذه التظاهرة في سورية كلها ولبنان كما في الكثير من بلدان العالم العربي، بل وبعض دول العالم، كون نشطاء هذا المهرجان كانوا يصرون على دعوة شعراء كبار معروفين في سورية والعالم العربي وبعض دول العالم الأخرى كما سأذكر لاحقًا.

استمرت دورات المهرجان بالتتالي من عام 1995 وحتى عام 2010، باستثناء عام 2006 حيث اقتصر المهرجان على فعالية ملتقى النحت فقط حيث كان يقام مرة واحدة كل عام أواخر شهر آب كما أسلفت لمدة يوم في البداية ثم صار لمدة يومين، لذلك لقد استضاف هذا المهرجان في أعوامه الأربعة عشر أسماء كثيرة من الشعراء والكتاب السوريين والعرب ومن بلدان أوروبية أختار منهم الأسماء التالية:

من سورية: أدونيس – نزيه أبو عفش – شوقي بغدادي – د. أحمد معلا – بهرام حاجو.

من العالم العربي: قاسم حداد من البحرين – عباس بيضون من لبنان – شوقي بزيع من لبنان – إسكندر حبش من لبنان – سيف الرحبي من الأردن – عبده وازن من لبنان – عاشور الطيبي من ليبيا – هنري زغيب من لبنان – مروان عبادو من فلسطين – شربل روحانا من لبنان – نصير شما من العراق – سامي الحواط وفرقته من لبنان – طارق الطيب من السودان – المنصف الوهايبي من تونس – جبر علوان من العراق – زاهي وهبي من لبنان – أحمد الملا من السعودية.

من البلدان الأوروبية-: إليزابيث فاندلر من سويسرا – ياسبر برغ من الدانمارك – أندريه فلتير من فرنسا – ليزا ماير من ألمانيا.

ومن المعلومات المهمة التي أفادني بها -أيضًا- السيد يوسف أحمد أنه في عام 2008 حدثت توأمة بين المهرجان وإدارته مع الأمانة العامة لدمشق عاصمة للثقافة العربية.

يُذكرُ أنه كانت ترافق تظاهرة المهرجان منذ عام فعالية جميلة ورائعة هي فعالية ملتقى النحت الذي شارك فيه نحّاتون من أغلب المحافظات السورية، وقد أهدوا منحوتاتهم الرائعة إلى قرية الملاجة وأهلها الذين أكرموهم كثيرًا أثناء عملهم.

وهنا لا بد من تسجيل الإنجاز المهم جدًا لشباب الملاجة عندما قاموا بجهدهم وسواعدهم وإمكاناتهم الخاصة بتجهيز موقع دائم للمهرجان الذي هو ساحة

جميلة جدًا، يقابلها منصة مسرح مرتفعة قليلًا، بتماس مباشر مع نبع مياه عذب تشرب منه أغلب قرى المنطقة يسمى "عين البعيدة"، وبإطلالة رائعة على فتحة وادٍ باتجاه الغرب، وقد وُضع العديد من منحوتات ملتقى النحت بشكل جميل وملفت حول هذه الساحة.

بعض الملاحظات النقدية على المهرجان:-

كوني في النهاية من الملاجة وقد رافقت وتابعت بحماس وشغف تظاهرات مهرجان السنديان منذ سنته الأولى وحتى توقفت، وكنت قد دُعيت إلى أحد الاجتماعات التأسيسية الأولى للمهرجان، وكان الوحيد الذي حضرته، افترض أنه يحق لي أن أسجل في كتابي هذا بعض الملاحظات النقدية على هذا المهرجان من موقع المحب والمتحمس الذي كان وما يزال، وليس من اي موقع أخر.

فهذا المهرجان كان بحق تتويجًا لمسيرة الأجيال الثلاثة التي أشرت إليها في ثقافة أبناء الملاجة، ولعله أحد أهم التظاهرات الثقافية في المنطقة بل في محافظة طرطوس، إلا إنه من خلال النظر والتقييم الموضوعي له بصفته تظاهرة ثقافية بعد عشر سنوات من توقفه يمكن تسجيل الملاحظات التالية عليه:

1-: اقتصاره بنسبة كبيرة على الشعر أولا، وعلى فنون الموسيقى والغناء والفن التشكيلي والنحت ثانيًا لمدة عقد ونصف من الزمن، على نحو أدى إلى إقصاء مجالات الثقافة الأخرى كالمحاضرات الثقافية الفكرية، والندوات الحوارية حولها، أو حول مسائل فكرية أخرى، الأمر الذي حوّله إلى مهرجان شعري فقط مع إضافات فنية فولكلورية تمتّع الجمهور فقط وكأنه تظاهرة سياحية ترفيهية للجميع، بعيدًا عن النشاط الثقافي الجاد كنشاط مفترض أن يكون من ضمن أهداف هذه التظاهرة الجميلة كونه كان من أهداف فكرة مشروع النقطة الثقافية في القرية.

2-: تتمة للملاحظة الأولى، اقتصار الدعوات بنسبة كبيرة وغالبة، كما هو واضح من عينة الأسماء القليلة التي ذكرتها في السطور السابقة، على شعراء كبار معروفين من خارج المنطقة سواء من سورية أم من بلدان عربية أو أوروبية، مع أن الملاجة والقرى المحيطة بها فيها ما يكفي من إمكانات ثقافية شعرية عديدة من الجيل نفسه أو من أجيال جديدة، فنبع الشعر في الملاجة كما أسلفت غزير ولا ينضب، وهذا ما أدى إلى ارتكاس سلبي في الموقف من هذا المهرجان السنوي لدى بعض مثقفي الملاجة

وشبابها ولدى بعض أبناء المنطقة عمومًا، ارتكاس كنت أسمع مفرداته في العديد من اللقاءات.
وفي هذا الخصوص أخبرني أخي الشاعر حيان حسن الذي كان أحد المبادرين والناشطين الأوائل ضمن مهرجان السنديان والمتحمسين لفكرته، أنه أجرى لقاءً حواريًا مع الشاعر والإعلامي اللبناني (زاهي وهبي) في إحدى دورات المهرجان التي استضافته، نشره ملحق الثورة الثقافي آنذاك، أبدى الإعلامي اللبناني فيه استغرابه كونه لم يسمع في المهرجان صوتًا شعريًا محليًا في المهرجان مع أنه يعرف ويسمع من موقعه كإعلامي معروف أن الملاجة ومنطقتها معروفة بشعرائها الشباب وبعضهم كان يراسله على منصته الإعلامية بنصوص شعرية جميلة وبديعة.
3-: نتيجة لما سبق من الملاحظتين السابقتين فقد غاب النشاط الثقافي الجاد اليومي أو الأسبوعي أو الشهري في الملاجة كما كان متوقعًا عن إنشاء النقطة الثقافية فيها حيث أفسح المجال فقط لتقييم المهرجان السابق ومن ثم التحضير للمهرجان القادم مع ما كان يتخلل ذلك من حوارات ساخنة وحساسيات أثناء التقييم أو التحضير، فوهج البهجة في أية تظاهرة شعرية فنية ذات طابع فولكلوري غالب سرعان ما يختفي مع انتهاء التظاهرة، على عكس الطابع الثقافي الفني الجاد الذي يترك أسئلة عديدة في الذهن عند من يشارك أو يحضر التظاهرة، أسئلة عميقة وقوية قد تؤسس للمستقبل بشكل أفضل دائمًا.
فلو تم الوعي بضرورة تدارك ما أشرت إليه من ملاحظات لكان هذا المهرجان الثقافي الفني واحدًا من أهم ما شهدته الساحة الثقافية السورية خلال تلك المدة.
لذلك كان لمجمل هذه الملاحظات ونتائجها، كما أزعم وقد أكون مخطئًا، تداعيات سلبية على الوضع الثقافي في الملاجة وعلى القرية عمومًا بعد توقف هذه التظاهرة عام 2010، ولعل من أهم المؤشرات السلبية لهذه التداعيات هو التراجع الملحوظ لسوية الاهتمام الثقافي عند الأجيال اللاحقة والجديدة في الملاجة اليوم، الذي -أيضًا- له أسباب موضوعية عديدة أخرى بالتأكيد.

الجمعية التعاونية للنقل في الملاجة:-

قبل أن أختم الحديث عن قرية الملاجة، وقد كان الحديث طابعه ثقافيًا صرفًا لأن النشاط الثقافي فيها هو أكثر ما يميزها عن غيرها، أرى أنه لا بد من

الإشارة -أيضًا- إلى تجربة متميزة ومبكرة قام بها أهالي الملاجة بمبادرة من طيف متعدد الميول والانتماءات من شبابها منذ أوائل ثمانينات القرن العشرين، وهي فكرة تأسيس جمعية تعاونية للنقل فيها، كونها تبعد عن طريق عام طرطوس دريكيش الرئيس مسافة 2,5 – 3 كم تقريبًا بطريق جبلي قاس، ولم تكن متوفرة في ذلك الوقت آليات النقل العام أو الخاص إليها بشكل يكفي حاجات التنقل اليومي الدائم المتزايدة بين القرية وطرطوس، خصوصًا أن أغلب شبابها ورجالها آنذاك كانوا إما موظفين وعمالًا في طرطوس، وإما أنهم بدأوا يسكنون طرطوس شتاء.
فولدت فكرة تأسيس جمعية تعاونية للنقل عند بعض الشباب آنذاك، وكنت أنا والصديق يوسف أحمد، مع قلة من الشباب الآخرين، من أوائل الذين أثاروا هذه الفكرة ودعوا إلى تنفيذها.
لقد كانت ولادة هذه الفكرة في البداية صعبةً جدًا نتيجة محاربتها من قبل بعض من رجال القرية بحجة أنها فكرة شباب من ذوي الميول اليسارية ... إلخ، الأمر الذي لا أرى ضرورة لاستعادته هنا.
المهم نجحت الفكرة في النهاية بعد أن استلم المبادرة فيها أشخاص آخرون نافذون في القرية، وتحمس لها أغلب أهالي القرية، فتم دعمها معنويًا وماديًا بالفعل من قبل الجميع، ومن ثم تأسست الجمعية وتم الترخيص لها عام 1984، وأقلعت -بعدها- بالعمل عام 1985 بعد شراء ميكروباص فيات قديم يتسع جلوسا بالحد الأدنى ل 15 – 20 راكبًا، وقد استمرت الجمعية في تأمين أهالي القرية بالتنقل اليومي المستمر بين القرية وطرطوس حتى عام 1992 عندما توقفت بتوقف الميكرو عن العمل لسبب ملتبس ما زلت أجهله حتى اليوم، وحسب علمي وبناءً على ما سمعته من البعض في القرية لم يتم دعوة الهيئة العامة للجمعية إلى اجتماع من قبل مجلس إدارتها آنذاك، يتم فيه تدارس الأمر أو توضيح سبب التوقف هذا، مع أن بعض الجمعيات التعاونية لبعض القرى الأخرى في المحافظة استمرت بالعمل طويلًا بعد ذلك، وقد قيل الكثير من أبناء القرية حول هذا التوقف المبكر، وسمعت معلوماتٍ متضاربةً أحيانًا، إلا إني لست بصدد التوسع فيها هنا لتقدم الموضوع أولا، ولكونه يخرجنا عن فكرة الكتاب.
لذلك ففي عام 1995 تم إلغاء الجمعية نهائيًا بإلغاء الترخيص الخاص بها، وما زال قوام الهيكل الخارجي للميكرو يقف قرب مقبرة القرية في وسطها من دون محاولة إصلاحه أو بيعه مع المحرك منذ بداية توقفه، وكان أي سؤال جدي عن سبب ما حصل للجمعية والتوقف الباكر للميكرو ومصير

المحرك يولد حساسيات وربما عداوات كبيرة، ولأن أغلب سكان القرية في النهاية سكّان مسالمون ولا يبتغون العداوات فقد تم تناسي كل ذلك.

الملاجة اليوم -:
تبقى الملاجة اليوم تلك القرية الجميلة الآسرة بطبيعتها وبيوتها وأهلها الطيبين، التي يحبها زوارها كلما أتوا إليها، لكن كما في قرية حمين وربما في أغلب القرى المجاورة فإن مؤشر الخط البياني الصاعد لنهضتها الثقافية الحداثية وتميزها طيلة النصف الثاني من القرن العشرين وحتى العقد الأول من القرن الحالي بدأ بعد ذلك منذ سنوات يأخذ خطًا تنازليًا وربما بسرعة كبيرة، فمنطق التاريخ بوقائعه المستجدة يوميًا هو أقوى من هوى المخيلة الخصبة عندما تحاول الخلق من قرية أو مدينة أو أي مكان ما في العالم أسطورة خارج الزمان والمكان، وهذا ما حدث للملاجة التي هي في النهاية قرية بناسها وأهلها، يصيبها ما يصيب غيرها من القرى والبلدات بفعل عامل الزمن وشروطه الواقعية وكيفية التعامل معه، بدليل ما يلي-:
تراجع السوية الثقافية عند الأجيال الشابة الجديدة في الملاجة
ثمة ملاحظة واقعية عن الحالة الثقافية اليوم في قرية الملاجة وهي أن الوجوه الثقافية الموجودة فيها حاليًا هي ما تبقى من الأجيال الثقافية - الشعرية الثلاثة التي ذكرتها، وقد تجاوزت جميعها العقد الخامس من العمر، من دون أن نلحظ تطور سوية ثقافية نوعية ترفد الأسماء السابقة بأسماء جديدة وعطاء جديد، وهذا ما سيؤدي لفراغ ثقافي كبير فيها خصوصًا بعد توقف مهرجان السنديان. فراغ تعود لتملأه من جديد الحساسيات العائلية والشخصية تحت ستار شفاف من المكر الريفي المعروف.
صحيح أن الأغلبية من جيل الشباب والشابات فيها تتابع تحصيلها العلمي العالي في الجامعات في مختلف الاختصاصات العلمية وهذا ما يبشر بمستقبل أفضل، لكن التحصيل العلمي العالي على أهميته هو أمر، والسوية الثقافية العالية أمر آخر مختلف؛ إذ إن السوية الثقافية العالية تخلق حال وعي عقلاني مفتوح على متغيرات الحياة والواقع اليومي، كما إنها -غالبًا- تتضمّن قيمًا أخلاقيةً وجدانيّةً أقوى بكثير مما تتضمنه الشهادات العالية التي ما تؤدي بصاحبها في النهاية إلى كادر تقني بحت في مجالي اختصاصه وعمله الوظيفي فقط.
محاولة تكسير تماثيل المهرجان وتحطيمها عند العين

القرية التي كانت مرشحة -فعلاً- لتكون بمنزلة مركز ثقافي للمنطقة المحيطة لها بدأت سمعتها تتقلب بسرعة عجيبة في المدة التالية لتوقف المهرجان بعد أن تم تكسير تماثيل فعاليات النحت الموجودة حول ساحة المهرجان قرب "عين البعيدة" وتشويهها وقلبها، التماثيل التي تم إهداؤها إلى القرية من قبل النحاتين كما ذكرت سابقًا.
قد يكون الفاعلون هم من خارج الملاجة، لكنهم قاموا بما قاموا به بمساعدة بعض رفقاء لهم من قلب الملاجة.
ظاهرة سرقة البيوت والقطع العبثي للأشجار
منذ عام 2015 تقريبًا بدأت تنتشر ظاهرة جديدة وغريبة تمامًا عن السلوك الأخلاقي لأهالي الملاجة وسكانها بكل طيفهم العائلي المتعدد منذ تاريخ نشوئها، وهي ظاهرة سرقة البيوت، حيث إنه لم يخل عام منذ ذلك التاريخ وحتى صيف عام 2020 من سرقات متتالية.
وبالمناسبة فقد كان بيتي في القرية أحد أهداف هذه السرقات، وذلك في الشهر الأول من عام 2018، فأنا من سكان مدينة طرطوس، أقصد منزلي في القرية على فترات، وقد عرفت بالسرقة يوم ذهبت إلى القرية لتفقد البيت يوم الجمعة بتاريخ 26 / 1 / 2018، ففوجئت بتكسير نافذة المطبخ، وإخراج المسروقات منها، وتركها مفتوحة وهي مخربة.
وهكذا استمرت ظاهرة سرقات بيوت القرية، خصوصًا البيوت المتنحية فيها أو المعزولة نسبيًا، التي غالبًا ما تكون خاليةً من سكانها ليلة السرقة، بمعنى أن البيت الذي تتم سرقته يكون مراقبًا بدقة مع معلومات كافية عن حركة أصحابه، حتى إن بيت الشاعر محمد عمران لم يسلم من السرقة يوم توفرت معلومات عنه أنه خالٍ من السكان.
يُذكر أن إحدى الصحف الرسمية المحلية كتبت تحقيقًا بعد ذلك في صيف 2020 تدين فيه ظاهرة سرقة البيوت في الملاجة، وتدعو السلطات المختصة للتدخل ومعالجة الأمر، وهذا ما تم فعلاً، حيث لم نسمع عن سرقات جديدة بعد ذلك.
مرة أخرى أقول إنه قد يكون الفاعلون من خارج الملاجة، لكن ثمة سؤالان محيّران فعلاً وهما:
أولاً-: لماذا الملاجة تحديدًا أحد أهم أهداف الفاعلين؟ فثمة قرى مجاورة كانت تحدث فيها بعض السرقات ولكن بسوية أقل بكثير.
ثانيًا-: كانت السرقات تشير بوضوح إلى توفر معلومات دقيقة عن وجود أصحاب البيوت فيها ومغادرتهم لها، بل وأحيانًا عن ما تحتويه من أغراض

ثمينة على شاكلة أسلوب السرقة الشائع ما خف وزنه وغلا ثمنه كما يقال، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بأدلة كافية من داخل قرية الملاجة؛ إذ إن الفاعلين كان لهم رفقاء من داخل الملاجة يساعدونهم بمهمتهم هذه.
أما عن ظاهرة قطع الأشجار الحرجية في الملاجة للحصول على حطب التدفئة والطهو فهي مثل غيرها من القرى المجاورة؛ خصوصًا في زمن صار يندر فيه وجود مادة التدفئة النفطية للمنازل في فصل الشتاء، لكن المحزن في الأمر في الملاجة، وربما في غيرها أيضا، أن هذه الظاهرة بدأت تمتد إلى أشجار باسقة ومعمرة بعيدة عن المناطق الحرجية الكثيفة، ومرتبطة بذاكرة جيل، بل أجيال عديدة في القرية.

وهكذا.. فما كان يميز الملاجة بسوية حضارية عالية في المجالات كافة طيلة عقود من السنين منذ منتصف القرن العشرين تراجع وانكفأ بدرجة كبيرة مع بداية العقد الثاني من هذا القرن، وقد أكون مخطئًا، ولتمنى ألا يطول ذلك.

قرية بيت الجهني "الجهنية"

تقع هذه القرية المطلّة شرق شمال غرب على هضبة جبلية لجهة الشمال من قرية الملاجة، حيث تقع الملاجة في وسط المسافة بينها وبين بلدة حمين التي تقع في الشرق منهما.
يُقدر عدد سكانها اليوم بـ 500 نسمة، وتتكون من ثلاث عائلات رئيسة من أصل عائلي واحد هي: عائلة بيت خضور – عائلة بيت سليمان – عائلة بيت عباس، وتتفرع اليوم عن هذه العائلات الثلاث الرئيسة أسر عديدة.
لذلك فنحن هنا نعود مرة أخرى، ضمن الحديث عن تجمع قرى ((حمين – الملاجة – بيت الجهني)) لنتعرف على قرية يعود سكانها بنسبهم إلى جدّ واحد.
ففي لقاء خاص بتاريخ 17 / 9 / 2012 مع أحد أبناء الجهنية المطّلعين وهو السيد (هيثم يوسف حسن) أفادني أن تسمية القرية ببيت الجهني أو الجهنية تعود نسبةً للشيخ (سلمان عباس بيصين الجهني) المولود عام 1153هـ والمتوفى عام 1228هـ والمدفون في حماة "حارة المحالبة – مغارة بيت جعفر"، ويعود بنسبه الأصلي إلى قبيلة "جِميَر" العربية في اليمن.
لكن آباء أبناء "الجهنية" الحاليين أتوا إلى المنطقة الحالية من أماكن عدّة في الشمال السوري؛ الحويز- الرامة – لواء الإسكندرون، وثمة رأي آخر

سمعت عنه من مصدر خارج القرية يقول إن أصلهم ربما يكون من منطقة "الحفة" في اللاذقية، وقد وفدوا المنطقة الحالية منذ تاريخ قديم نسبيًا، وغير معروف بالدقة.

بداية السكن وتنقلهم في المكان

ثم أفادني السيد هيثم أن بداية الاستقرار في هذه المنطقة كان في منطقة تسمى "المروح"، وهو مكان متوسط بين "بهرمين" قرب بملكة الحالية، وبين قرية "مرمحين". استوطن قسم قرية مرمحين وبقي فيها، وقسم آخر استقر في قرية "شباط" القريبة وما زال فيها حتى اليوم، وقسم انتقل إلى موقع جغرافي منخفض كثيرًا عن مكانهم الحالي لجهة الغرب في قرية "بجمرة" التي تقع بالقرب من الملاجة لجهة شمال غرب، وهؤلاء هم الذين غادروا هذا المكان منذ مئتي عام وانتقلوا إلى مكانهم الحالي حيث بنوا بيوتهم فيه وأسموه "بيت الجهني" نسبة لأصل التسمية الأصلية لعائلاتهم أو نسبة لجدهم الأول، أو "بجمرة العليا" نسبة لمكان سكنهم الأول كما أشرت.

لم تكن رافعتهم في الحياة إرث فقه ديني كبير متوارث عن كبيرهم الأول، على الرغم من كراماته العديدة كما أخبرني السيد هيثم، الذي تفصلهم عنه فترة زمنية طويلة جدًا، مع أنهم -جميعًا- لهم قناعاتهم الدينية الواحدة، يؤمنون بها ككل أبناء المنطقة حولهم.

كما لم يكن لهم إرث أو مجد ثقافي سابق يتكئون عليه أو يتباهون به، فهم جماعة مهاجرة من مكان بعيد عن موقعهم الحالي الذي استقروا فيه وهذا ما جعلهم يدخلون بتحديات صعبة وقوية في حياتهم، فكانت رافعتهم الوحيدة في الحياة الجهد والعمل المستمر في الأرض أولًا، ومن ثم مثابرة التحصيل العلمي لأبنائهم مع بدايات افتتاح المدارس الحديثة في المنطقة ثانيًا، وهذا ما سأتحدث عنه بشيء من التفصيل وحسب المعلومات المتوفرة عندي من بعض أبناء القرية.

حول علاقتهم بالأرض

تميز أهالي هذه القرية بأجيالهم المتتالية منذ أن سكنوا هذه المنطقة بالعمل الزراعي الفلاحي في الأرض، وقد حولوا الأرض الجبلية الحرشية الواسعة المحيطة بهم والقاسية بصخورها وأحجارها إلى أراض مستصلحة ومشغولة جيدًا بحرفية عالية، فغرسوها بالزيتون والكرمة والعديد من الأشجار المثمرة الأخرى حتى صارت أراضيهم هذه نموذجًا للأرض المشغولة والمعطاءة، وما زالوا حتى اليوم يقومون بذلك إلى أن أصبحت هضبة الجبل بسفوحها المحيطة بقريتهم من جميع الجهات ولا سيما من

جهة الغرب أشبه ببساتين زيتون وكرمة والعديد من الأشجار المثمرة الأخرى.
وقد اتقنوا العديد من الحرف اليدوية الأخرى ولا سيما في مجال البناء، سواء الريفي القديم منه أم البناء الحديث، فأغلب بيوت القرى القديمة في المنطقة، الملاجة – حمين – ضهر حمين – حباية – الجراص – المصطبة بناها جيل الأباء في الجهلية كما أفادني السيد هيثم.
كما برع جيل الأباء بالنجارة بأنواعها في زملهم وخصوصًا نجارة المحاريث "المنيارة"، أي نير محراث الفلاحة القديم. وكانت لهم مبادراتهم العديدة بكل شهامة في واجبات مراسم الموت وحفر القبور أيضًا في أغلب القرى المجاورة، فثمة جانب أخلاقي مهم لما لدى جيل الأباء خصوصًا، نتيجة علاقتهم المديدة بالأرض والعمل، هو جانب المروءة في تعاملهم مع محيطهم.
فالعمل البدني الذي تقوم به جماعة بشرية من خلال التعامل الطويل مع الأرض من حفر وقلع أحراش ضارة ومن ثم تنظيفها من الأحجار والصخور مع تسويتها النهائية لأعدادها للغرز والزراعة ينعكس فيزيولوجيًا على الجماعة التي تقوم بذلك باكتساب خبرة معلوية نفسية أدبية -أيضًا- في الحفر والتأسيس لعلاقات اجتماعية متوازنة وصحية فيما بينها أولا، وبين محيطها الاجتماعي الواسع ثانيًا.
لذلك فإن أغلب رجالها وشبابها توارثوا كل ذلك بكل حب وحماس، حيث يقومون حتى اليوم بالعمل نفسه حتى أن العديد من أبناء القرى المجاورة ما يزالون يعتمدون عليهم في مجالي العمل بالأرض أو في مجال البناء نتيجة الخبرات التي اكتسبوها، وربما بسبب التحصيل العلمي.

التحصيل العلمي لدى أبناء القرية

لعل اهتمامهم الكبير والناجح بالأرض والعمل بداية، كما ذكرت سابقًا، كان استجابة لتحديات راهنة كان يواجهها جيل الأباء في استقرارهم الجديد منذ البداية، لكن ذلك لم يعمهم عن التفكير بالمستقبل مع بداية افتتاح المدارس الحديثة، وهم يتابعون بوعي أن التطور السليم والصحيح في الحياة وصولا إلى مستقبل أفضل إنما يكون من خلال العلم والتحصيل العلمي لأجيالهم المتتالية، فصار توجه أبنائهم بشكل حثيث نحو الانتساب إلى هذه المدارس ومتابعة التحصيل العلمي بشهادات عالية في مختلف الاختصاصات، لكن من دون أن ينعكس ذلك سلبًا على عمل هذه الأجيال الجديدة بالأرض وعلاقتهم الجميلة والقوية معها.

ففي لقاء خاص مع أحد أبناء القرية الدكتور (سليمان يوسف حسن) بتاريخ 1 / 8 / 2021 حول القرية والتحصيل العلمي فيها أفادني أن أول شهادة جامعية عالية فيها كانت هندسة معلبات من "موسكو" عام 1980، حصل عليها المهندس الراحل (حسين خضور)، وثاني شهادة عالية كانت للسيد (هيثم يوسف حسن) اختصاص في علم الاجتماع عام 1984، أما الشهادة الثالثة فكانت في العام نفسه اختصاص طب بشري للدكتور (سلمان يوسف حسن) من جامعة دمشق، ثم تتالت الشهادات العالية في القرية بعد ذلك.
وقد أحصى محدثي الدكتور سلمان بالعدد والاسم عدد الشهادات العالية بالقرية في جميع الاختصاصات فبلغت على الشكل التالي:
عشرون (20) شهادة طب وصيدلي لكلا الجنسين.
خمسون (50) شهادة جامعية تجمع الاختصاصات التالية: فلسفة – علم اجتماع – أدب إنكليزي – جغرافية – حقوق – تربية – أدب عربي – أدب فرنسي – هندسة زراعية – هندسة مدنية – هندسة تقنية - اقتصاد وتجارة – جيولوجيا – طب بيطري – اتصالات.
خمسة وعشرون (25) طالبًا قيد التحصيل العلمي العالي اليوم في الاختصاصات التالية: طب – صيدلي – هندسة مدنية – هندسة تقنية - علم اجتماع – كلية رياضة.
فيكون المجموع خمسة وتسعين (95) تحصيلًا علميًا عاليًا حتى تاريخ كتابة هذه السطور خلال 37 عام، علمًا أن الأجيال الشابة الفتية اليوم ما زالت تتابع دراستها بتفوق لافت، ففي نتائج الشهادة الثانوية للعام الدراسي 2020 – 2021، وكمثال على ذلك فقد حصل أربعة منهم، كما أخبرني السيد هيثم في لقائي معه، على درجة تفوق عالية، حيث تجاوزت جميعها 235 علامة من أصل 240 علامة، وهي الدرجة العظمى للشهادة، وهؤلاء الطلاب هم: إبراهيم هاني الجهني – يارا محمد حسن – رغد إسكندر – نغم محمد جهني، عدا عن بعض الطلاب الحاصلين على علامة 220 وما فوق.
تأمل ختامي
وبملاحظتي الشخصية من خلال زياراتي المتكررة لقرية "بيت الجهني" بحكم كوني من الملاجة التي أقصدها كثيرًا صيفًا شتاءً تبين لي أنه حتى جيل الشباب الفتيان فيها كما الجيل الأكبر منهم في القرية يعملون في الأرض وفي مجالات العمل الأخرى وهم يتابعون دراستهم بكل جدية، وهذا ما يؤسس ويدعم باستمرار ذهنية عملية تعاونية مفتوحة في مواجهة الحياة والتعامل معها، وربما لذلك لم ألحظ حتى الآن على الأقل، خطًا بيانيًا

صاعدًا أو نازلا في تجربة أهالي هذه القرية، بل ثمة توازن اجتماعي تضمنه حالتا التكامل والتكافل بين أبنائها، وتوازن بينهم وبين المجتمع المحيط من دون أن يعلي ذلك عدم وجود إشارات سلب عديدة وأحيانًا قوية فيها، ربما بسبب طغيان علاقة المصالح المادية في المجتمع عمومًا كما فسرها السيد هيثم.

لا يخلو مجتمع في زمننا الحاضر سواء في القرية أو في المدينة من ذلك أبدًا، لكن ما يميز هذه القرية أن إشارات السلب فيها لم تتعد بعد خطوطها الحمراء الخطرة التي تضر بسمعتها كقرية.

تجمع قرى دوير طه ـ السودا ـ زمرين

ثمة تجمع آخر لقرى قريبة من بعضها نسبيًا وتقع على خط أو طريق واحد، متعددة الانتماءات الدينية والمذهبية وهي:

"دوير طه، متعددة الديانات والطوائف - السودا، البلدة المسيحية - زمرين، معظم سكانها مسلمون سنة"، لم يجمعهم الطريق الواحد فقط بل أسس التعايش المشترك وضروراته أيضًا.

قرية دويرطه

تقع هذه القرية على سفح جبلي منحدر نسبيًا إلى الشمال الشرقي من طرطوس التي تبعد عنها مسافة 14 كم، وترتفع عن البحر 208م، الذي تبعد عنه شرقًا مسافة 3كم، وهي تابعة إلى ناحية السودا التي تبعد عنها مسافة 3كم تقريبًا، ويبلغ عدد سكانها ما يقارب 2000 نسمة.

الأهم واللافت فيها هو التعدد الديني والطائفي لسكانها الذين يقطنون فيها، مسلمون سنة، ومسلمون علويون، ومسلمون إسماعيليون، ومسيحيون، يتعايشون جميعًا بانسجام تام منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما سأفصل لاحقًا.

ولمعرفة المزيد عن القرية قمت بتاريخ 2 / 10 / 2021 بزيارتها، والتقيت بأحد أبنائها المهندس (عصام ديب) في منزله برفقة المهندسة (منى خالد طاهر) من قرية زمرين التي كانت دليلي في هذا اللقاء.

ومن محاسن الصدف في هذا اللقاء أن المهندس عصام ما يزال يحتفظ بوثيقتين قديمتين ومهمتين جدًا ورثهما عن أبيه وجده الذي كان مختارًا للقرية في أيامه.

الوثيقة الأولى عبارة عن سجل قديم جدًا، كان -بدايةً- في حوزة مطران اللاذقية للروم الأرثوذكس، هذا السجل خاص بتسجيل حدث العمادة للمسيحيين في القرية عند الولادة، ثم استطاع المختار جد المهندس عصام

واسمه (طنوس مخول ديب) أن يستلم هذا السجل من المطران ويبقى بحوزته ليسجل عليه جميع حالات الولادة في القرية للمسيحيين وغير المسيحيين، ومن خلال هذا السجل صرنا نتعرف على تواريخ العائلات في القرية.

أما الوثيقة الثانية فهي دفتر ورثه -أيضًا- عن أبيه وجده، يتضمن بالتفصيل الملكيات العقارية لعائلات القرية من جهة الرقم واسم العقار والمساحة، بعد أن تمت عملية التحديد والتحرير لأراضي المنطقة أيام الانتداب الفرنسي مع بداية فتح طريق طرطوس اللاذقية، حيث إن مجموع الملكيات العقارية المسجلة في الدفتر بلغت 1084 ملكية.

لذلك فالسطور التالية هي خلاصة الحوار الذي جرى مع المهندس عصام الذي حاول -قدر المستطاع- تقديم معلومات كافية وصحيحة عن قريته بناء على هاتين الوثيقتين، وعلى ما تدّخره ذاكرته من معلومات كان قد سمع بها من قبل والده قبل وفاته.

حول أصل التسمية ونشأة القرية وأصل سكانها الأوائل

يرى المهندس عصام أن تسمية "دوير طه" ربما تعود على الأرجح لاسم أول شخص سكن القرية وبنى فيها دارًا وكان اسمه (طه).

فالقرية والأراضي التي تحيط بها كانت على ما يبدو عبارةً عن مزرعة ضمن أراضٍ واسعة وكبيرة مملوكة لبكوات قلعة الخوابي وزمرين في العهد العثماني؛ أي "آل المحمود" و"آل عدرا".

وربما قد اتفق الرأي للبكوات آنذاك أنه من الأنسب تأهيل هذا المكان بعائلات تدين لهم بالولاء وترعى أملاكهم ومصالحهم خصوصًا أنه يوجد بالقرب من القرية في خاصرتها الجنوبية الشرقية نبع ماء عذب اسمه "الماصي"، فكانت أول العائلات التي سكنت في هذا المكان هي عائلة بيت يعقوب المسيحية التي تشير وثيقة العمادة والولادات على أن أول حدث عمادة كان لشخص من آل يعقوب عام 1857، مع ملاحظة أن تسمية بيت يعقوب بالأصل هي بيت كراز ثم تحولت، وهذه العائلة كانت في مركز "الأفندية" في ذلك الزمن، وقد اشتهر منهم الأفندي (جرجس لطف الله يعقوب) الذي كان يعمل لصالح بكوات آل المحمود وفي خدمة البيك.

أما العائلة القديمة الثانية فهي عائلة "بيت الرز" العلوية، التي يسجل دفتر العمادة والولادات أن أول حالة ولادة في القرية لبيت الرز كانت في عام 1884.

أما العائلة القديمة الثالثة فهي عائلة "بيت كفا" الإسماعيلية، ويدل كراس الولادات أن أول حادثة ولادة لها كانت عام 1873.
وكانت مهمة هذه العائلات الثلاث كما أفادني المهندس عصام رعاية مصالح البكوات وأملاكهم كما أشرت سابقًا.
أما بقية عائلات القرية فمنها القديم ومنها الحديث نسبيًا، أذكرها فيما يلي وأذكر بجانب كل عائلة منها أول حادث ولادة مسجل لها، علمًا أن بعضها لا يوجد لها في الكراس هذا التسجيل:
العائلات المسيحية
بيت يعقوب 1857، بيت البيطار 1868، بيت طنوس ديب 1873، بيت نخلة 1893، بيت منصور 1896، بيت نعمة 1879، بيت أبو جراص 1895، بيت البهليط 1880، بيت خرما 1867، بيت المقدسي 1895، بيت رستم 1884، بيت سارة 1888، بيت فارس 1898، بيت عيسى 1878، بيت سرور 1878 وهذه العائلة هاجر معظم أفرادها ولم يعودوا مع أن لديهم ملكيات ما زالت مسجلة باسمهم حتى الآن، بيت حنا 1902، بيت جبور 1917، بيت الدروبي 1920، بيت محفوض 1942، بيت رستم.
ويرى المهندس عصام أن أغلب هذه العائلات المسيحية مهاجرة بالأصل من لبنان.
العائلات العلوية
بيت السلطاني 1896، بيت نعوس 1893، بيت السقا 1892، بيت ملحم 1867، بيت طوفان 1892، بيت الغاوي 1863، بيت الحفاف 1892، بيت درغام 1860، بيت جديد 1892، بيت مصطفى 1911، بيت سالم.
العائلات الإسماعيلية
بيت كفا 1873، بيت طحموش 1855، بيت شرتوح 1886، بيت ديوب 1860، بيت جمعة 1887، بيت نمنوم 1905.
العائلات السنية
بيت بجود 1889، بيت المصري 1880، بيت عبدو 1902.
وقد بدأت أعداد كبيرة من أبناء هذه العائلات، خاصةً أبناء العائلات المسيحية، الهجرة إلى أمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر، وأغلب الذين نجحوا في أعمالهم في بلدان الاغتراب لم يعودوا.
الحياة الاجتماعية في قرية دوير طه
إلى جانب العائلات التي ذكرتها يوجد أسر حديثة أخرى عديدة في القرية وجدت لاحقًا بفعل التزاوج من خارج القرية أو من خلال الانتقال إليها، لكن

يُستدل من استعراض أسماء العائلات وتواريخ أول الولادات لديها في القرية أن هذه القرية مسكونة بأغلب عائلاتها الحالية المتعددة دينيًا وطائفيًا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وربما يعود ذلك لأملاكها الواسعة وموقعها الهادئ والجميل، ولرغبةٍ من بكوات ذلك الزمن ملاك الأراضي الكبار وحاجتهم لأكبر عدد من العائلات التي ترعى أملاكهم بغض النظر عن الدين أو الطائفة، ولا سيما أن أقدم عائلة كان يعتمد عليها البكوات المسلمون السنة من "آل المحمود" هي عائلة بيت يعقوب المسيحية، بينما تحديد وتحرير الملكيات وتسجيلها لأبناء القرية وكل المنطقة لم يبدأ إلا بعد انهيار الدولة العثمانية ومع فترة الانتداب الفرنسي كما أشرت سابقًا، بناء على ما أفادني به المهندس الأستاذ عصام، وهذا ما مكّن جميع هذه العائلات من البقاء متجاورة بانسجام تام حتى يومنا هذا إلى أن صارت قرية "دوير طه" نموذجًا يُضرب المثل فيه للتعايش بين الأديان والطوائف المتعددة.

وثمة حادثة جرت في القرية فيما مضى من الزمن رواها لي المهندس عصام نقلًا عن مرويات والده له قبل وفاته أنه في أحد الأعراس التي أقامها أحد وجهاء عائلة "بيت الرز" العلوية لأحد أبنائه جرى فيه إطلاق نار في الفضاء فأصابت رصاصة طائشة ابنًا آخر له وقتلته على الفور، فتدخل بعض مثيري الفتن القليلون جدًا في القرية، وقالوا للأب أن القاتل رجل مسيحي أطلق النار بشكل مقصود من أجل قتله.

فأجاب الأب قائلًا إنه ابني وأنا متأكد أن الرصاصة طائشة، ولا مصلحة لأي شخص أن يقتله عمدًا، ولا أقبل تدخلكم هذا لإثارة الفتنة. وبذلك تم وأد محاولة إثارة الفتنة فورًا ونهائيًا، ولذلك لم يحدث في القرية أية حساسيات دينية طائفية كبيرة ولافتة بين العائلات، ولم تشهد حال الاضطراب جرّاء ذلك ، بل إن الجميع يشارك في المناسبات الدينية لكل الطوائف وكذلك في المآتم كما في الأفراح والمسرات، وقريب ممّا سبق قال لي المهندس عصام إنه عندما يسمع بحال وفاة في القرية يندفع للقيام بالواجبات المطلوبة منه بشكل عفوي وتلقائي لأنه يعتبر أن الشخص المتوفى من قريته بغض النظر عن الدين أو الطائفة، وكذلك في مختلف الواجبات الاجتماعية الأخرى.

أما لجهة دور العبادة في القرية فتوجد فيها كنيستان للطائفة المسيحية الأرثوذكسية، الأولى قديمة وقد بنيت منذ عام 1912، والثانية حديثة نسبيًا بُنيت في أوائل سبعينيات القرن العشرين.

كما يوجد لعائلات الطائفة الإسماعيلية مقر مركز ديني خاص لها تمارس فيها طقوسها وعباداتها، وكذلك يوجد لكل طائفة مكان دفن مستقل لموتاها.

الحياة الاقتصادية ومصادر الدخل في القرية

كما ذكرت في البداية فإن العمل الزراعي هو العمل الأساس لأبناء القرية منذ وجودهم فيها ولاسيما في مجال كروم الزيتون والحمضيات والكرمة ومن ثم زراعة الخضار، وإلى جانب ذلك فإن أغلب أهالي القرية اليوم يشتغلون عمالًا وموظفين في دوائر الدولة ومؤسساتها وشركاتها.

التعليم وبداياته

بدأت الدولة افتتاح أول مدرسة ابتدائية رسمية في القرية في الأربعينيات من القرن العشرين وكانت غرفًا مستأجرة، وأول من علّم فيها المدرس (إبراهيم الحريري) من طرطوس، والمدرس (عبد الله الحلو) من مشتى الحلو، والمدرس (فاضل دونا) من السودا.

ثم تم تطوير المدرسة إلى إعدادية في أوائل سبعينيات القرن العشرين، ولا يوجد فيها ثانوية حتى اليوم، إذ يقصد طلاب المرحلة الثانوية بلدة السودا للدراسة في ثانويتها.

من أوائل المتعلمين والحاصلين عل شهادة عليا في القرية هو الأستاذ (الياس طنوس ديب) من مواليد 1928، وقد أفادني عنه ابنه المهندس (عصام ديب) بالمعلومات التالية:

"تعلم في المدرسة الخاصة في بالياس وكانت تسمى اللاييك في زمن الفرنسيين وهي داخلية وكانت المناهج باللغة الفرنسية أولى والإنكليزية ثانية.

حصل على البكالوريا سنة 1943 وقام بأعمال التدريس الابتدائي على أساس بكالوريا في مدارس اللاذقية وطرطوس واستقر في دويرطه لمدة طويلة.

سجّل في جامعة دمشق قسم الفلسفة عام 1965 بعد سنوات من التدريس، تخرج سنة 1969 وانتقل للتعليم الثانوي في مدارس السودا وطرطوس ومن ثم إلى مدارس الصف الخاص الذي اكمل بقية حياته التعليمية في تعليم مادة "طرائق تدريس ومتابعة" في مدارس المحافظة.

تقاعد سنة 1988 بعد مسيرة حافلة من العمل التعليمي. كان يمتاز بخفة الروح والدعابة، وكان يحب العمل في الشأن العام، ويحب الخدمة العامة وخدمة الناس، وكان محبوبًا جدًا.".

حاليًا يوجد في قرية "دوير طه" العديد من خريجي الجامعات بمختلف الاختصاصات نبغ منهم الدكتور (يوسف رستم) المختص والباحث في الأمراض السرطانية، وهو يقيم ويعمل في الولايات المتحدة الأمريكية.

بلدة السودا

تقع بلدة السودا على سطح مرتفع جبلي جميل وساحر بإطلالاته الرائعة المرتفعة كونه مفتوحًا على جميع الجهات، ويُقدر ارتفاعه عن سطح البحر بين 300 – 350 متر. تبعد عن طرطوس لجهة شمال شرق حوالي 15 كم، وهي اليوم إداريًا "مركز ناحية" تتبع لها قرى عدة في محيطها الجبلي الواسع. تتميز بحجارتها السوداء وهذا ما أعطاها أصل التسمية، كما تشكل بموقعها الجغرافي عقدة اتصال بين طرطوس والساحل عمومًا، وبين المناطق الجبلية المحيطة ولاسيما باتجاه الشرق وصولاً إلى الداخل السوري في محافظة حماة مرورًا بوادي العيون ومصياف.

ومن أجل التعرف أكثر على بعض من تاريخ بلدة السودا وعلى بداية تشكلها كقرية، وعلى أصل العائلات الموجودة فيها قمت بتاريخ 13 / 9 / 2021 بزيارتها برفقة الصديق نبيه نبهان والتقيت ببعض شخصياتها في منزل أحد وجوهها الكريمة وهو السيد (إلياس اِلطاليوس مسوح) بحضور زوجته السيدة المحترمة المهندسة (سمر بطرس)، وابنه الشاب (فرح إلياس مسوح)، والسيد (فرح أنطاليوس مسوح)، والمهندس الأستاذ (سعادة حداد)، ومن خلال الحوار معهم جميعًا وبشكل خاص مع صاحب الدار السيد إلياس مسوح الذي حدثنا بأسلوبه المشوق باستفاضة عن بلدته السودا كانت المعلومات التالية عنها.

بدأنا الحديث بطرفة عفوية تتضمن معلومة مهمة، فعندما عرف أني أريد أن أبدا بتاريخ العائلات التي تسكن السودا وأصولها أدخلني إلى صالون البيت وأشار إلى صورة قديمة معلقة على الحائط بترتيب واهتمام خاصين لشخص يقف على منبر ويلقي قصيدة وقال لي:

"إنه والدي المتمرد على السلطات العثمانية آنذاك".

فقلت له بإعجاب لا يخلو من دهشة: ويقول الشعر أيضًا؟!.

فأجابني بشيءٍ من الاستغراب: ولو أستاذ نحن من آل معلوف بلبنان.

فقلت له: كيف وكنيتك "مسوح؟"

عندها بدأ يشرح لي مسترسلاً أن جد العائلة الأول وكان اسمه (عبد المسيح معلوف) هاجر لسبب ما من زحلة بلبنان عام 1730 واستوطن مدينة حمص، لكن لصعوبة المجاهرة باسم (عبد المسيح) في ذلك الوقت علنا تم اختصار الاسم إلى (مسوح) فقط ومنه تحدّرت عائلة "مسوح" التي انتشرت في حمص وريفها والساحل ومنها من جاء إلى السودا.

ثم أخبرني مؤكدًا هذه المعلومة أن عمه كان شاعرًا وأديبًا معروفًا في ذلك الوقت اسمه (فرح أفندي جرجس مسوح)، كان قد نظم قصيدة طويلة جميلة تتضمن مديحًا وتهنئة للمطران (يوسف الدبس) رئيس أساقفة بيروت للطائفة المارونية بمناسبة اليوبيل الفضي له آنذاك، نشرت في كتاب خاص بالمناسبة طبع في مطابع جريدة المصباح في بيروت عام 1897م، والكتاب مازال يحتفظ به السيد إلياس بشكل جيد ضمن مقتنياته المهمّة في بيته، وبالطبع كان حظي جميلًا ومفيدًا أني تصفّحت الكتاب وقرأت فيه مقاطع من قصيدة عمّه.

لقد عرفت أصدقاء عدّة وسمعت عن أشخاص من آل مسوح في سورية على صلة وثيقة بالشعر والأدب والثقافة عمومًا، منهم الكتّاب والباحثون والناقدون، وليس هذا بغريب عني، لكن من معلومته الجديدة هذه عرفت أصل السلالة التاريخية لهذه الصلة منذ منتصف القرن الثامن عشر.

انتقل الحديث بيننا بعد ذلك عن بلدة السودا وبداية نشوئها فأخبرني أن عمرها بصفتها قرية سابقًا يعود إلى 350 سنة، وهي بالأصل قبل تاريخها هذا كانت مزارع تعود ملكيتها للإقطاع.

لكن كانت توجد بالقرب من مكانها الحالي قرية صغيرة تبعد 3كم عن السودا اسمها (القوازية) فوق نهر الخوابي يدل عليها بقايا آثار لكنيسة قديمة انقرض سكانها الأوائل وهم بيت (نهرا) وبيت (دينا).

يبلغ عدد سكانها اليوم حسب الإحصاءات الرسمية كما أجمع من التقيت بهم 5000 نسمة، لكن هذا الرقم متبدل بين فصلي الشتاء والصيف، لذا يمكن القول إن عدد سكانها يتبدل بين 3500 – 5000 نسمة، علمًا أنه في الأعوام الأخيرة تم فيها تنظيم عملية الإنجاب بالحد منها نسبيًا، عدا عن الهجرات التي كانت تشهدها إذ قد لعبت دورًا في ذلك.

فالسودا كانت تشهد هجرات بأعداد كبيرة منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر لأسباب عديدة منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي كشح الموارد، هجرات نحو بلدان أمريكا الجنوبية كالإكوادور وفنزويلا والبرازيل والأرجنتين والمارتينيك والغوادالوب في الكاريبي، القليل من أعداد هذه الهجرات عاد والأكثرية لم تعد أبدًا.

ثم بدأ السيد إلياس يعدّد لي أسماء العائلات التي سكنت السودا الحالية منذ 350 سنة وهم:

1-: بيت الحداد. 2-: بيت الصباغ. 3-: بيت الحجار. 4-: بيت مسوح. 5-: بيت الحموي. 6-: بيت القسيس. 7-: بيت يزبك. 8-: بيت الشيخ. 9-: بيت

القهوجي. 10-: بيت موسى. 11-: بيت الخوري. 12-: بيت كللوم. 13-: بيت سابا. 14-: بيت المقدسي. 15-: بيت بطرس. 16-: بيت القرا. 17-: بيت دونا. 18-: بيت جرجي. 19-: بيت تامر. 20-: بيت طنوس. 21-: بيت عطاالله. 22-: بيت كرم. 23-: بيت الزيدي. 24-: بيت جبور. 25-: بيت مخول. 26-: بيت مقصبري.

27-: بيت قزيحة، وهذه العائلة تتألف في الأصل من اخوين أحدهما سكن في السودا وصار مسيحيًا، والثاني سكن في زمرين وصار مسلمًا.

28-: بيت سرور. 29-: بيت صدقلي. 30-: بيت جرجس. 31-: بيت إبراهيم. 32-: بيت بركات. 33-: بيت ديوب. 34-: بيت الأرملي الذين جاؤوا مع هجرة الأرمن من تركيا. 35-: بيت الأعمى الذين جاؤوا من حماة. 36-: بيت وسوف. 37-: بيت عصفورة. 38-: بيت سليمان. 39-: بيت عيسى. 40-: بيت سرور.

علمًا أن أغلب هذه العائلات كانت قد هاجرت من شمال لبنان منذ القرن الثامن عشر تحت ضغوطات عديدة، ثم تابع محدثي السيد إلياس بشغف كبير حديثه عن بلدته، الذي ألخصه بما يلي:

محطات عامة في تاريخ السودا الحديث

يُشتهر أبناء السودا عبر أجيالهم بعمل تقطيع الحجارة السود وبيعها، وفي أيام الانتداب الفرنسي على سورية كان يتم تصدير كميات كبيرة منها عن طريق "البصيرة" إلى بيروت ومن ثم إلى فرنسا لاستخدامها في رصف الشوارع، وقبل ذلك في العهد العثماني كان يتم تصديرها إلى قبرص، ويُذكرُ أن سوق "الذوق العتيق" في بيروت أغلب حجارتها من السودا منذ تلك الأيام.

كانت السودا -أيضًا- سوقًا تجاريّةً كبيرةً للمنطقة في محيطها الريفي الواسع منذ أيام العثمانيين وحتى بعد الانتداب الفرنسي، بل يمكن القول إنها كانت من أهم الأسواق التجارية وأكبرها في المنطقة آنذاك، خصوصًا تجارة المنتجات الزراعية والحيوانية وبعض الأعمال الحرفية الأخرى.

كان فيها معصرتان؛ واحدة للزيتون والأخرى للطحين وجرش البرغل والبقوليات للحيوانات،

وربما بسبب حركة هذه السوق الكبيرة وكثرة روادها من أبناء المنطقة وُجدت الحاجة إلى إنشاء دار للسينما في السودا، فأقيمت فيها دارٌ للسينما لصاحبها السيد (متري القرا) الذي كان يؤمّن أفلام العرض فيها، استمرت

بين عامي 1953 – 1955 كانت تتسع ل 200 شخص وفيها نافذة وصالة، وكان يشغلها صاحبها بواسطة مولد كهرباء ديزل يناسب تشغيلها.
والطريف أن دار السينما هذه كانت بالأساس معصرة زيتون ثم تحولت إلى خان للدواب إلى أن تم تأهيلها دارًا للسينما.
وبذلك يُسجل لبلدة السودا منذ ذلك التاريخ الأسبقية في إنشاء دار للسينما فيها كون السينما آنذاك كانت في بداية انتشارها في سورية وحصرًا في المدن، لذلك فوجود السينما في ذلك الوقت في السودا يعتبر أحد مظاهر التمدن المبكر فيها.
وفي عام 1964 تم تأمين الكهرباء في السودا بتركيب مولد ديزل يستطيع إنارة كافة بيوتها آنذاك، وعلى ما تقدّم يُسجل للسودا -أيضًا- أسبقية في محيطها الكبير والواسع.
أمّا بالنسبة لمياه الشرب فقد كان في كل بيت بئر ماء رشح سطحي خاص به تتجمع فيه الماء خلال فصل الشتاء.
وعدا عن ذلك فقد كان يوجد ضمن أرض الوقف التابع للكنيسة -أيضًا- بئر ماء لكل بيت،
لكن في عام 1961 تم تدشين شبكة المياه الرئيسة فيها بعد وصلها مع شبكة مياه بلدة "حصين البحر"، وقد دشن هذه الشبكة في السودا مفتي طرطوس آنذاك الشيخ (عبد الستار السيد).
ومن المعالم الجغرافية البارزة في بلدة السودا اليوم هو ساحتها الرئيسة الجميلة التي كانت سابقًا رامة مياه كبيرة تتجمع فيها أمطار الشتاء، حيث كان يتم استثمارها لإرواء الماشية ولحاجات البناء بخلط مياهها مع التراب الأبيض.
وعن تشكل هذه الرامة جيولوجيًا يفترض السيد إلياس أنها ربما كانت قديمًا جدًا فوهة بركان، وعندما خمد البركان وبردت فوهته تحولت إلى رامة، فقام الأهالي بتوسيعها لتأخذ شكل رامة مياه كبيرة، يستفاد منها في أعمال شتى كما ذكرت.
يوجد العديد من الأبنية القديمة حتى اليوم في البلدة كمنزل "آل مسوح" الذي يعود إلى 150 عامًا، وقد شيده المرحوم (جرجس فرح مسوح) بالحجر الأسود أو بـ "الحجر الحصيني" نسبة إلى حصين البحر، ويوجد آخر مثله لآل "العتر".

وكذلك كنيسة السودا القديمة التي انتهى بناؤها عام 1889، وكانت تقدم خدمات من أرض الوقف التابع لها، وما تزال تساهم بمساعدة العائلات المحتاجة ودعم المتفوقين في الشهادات العامة.

إنشاء المدارس والتعليم في السودا

بين عامي 1905 – 1907 جاءت بعثة قيصرية من روسيا عملت على إنشاء مدرسة ابتدائية في السودا، لكن بسبب الاضطرابات الداخلية التي حدثت في روسيا مع بدايات الثورة الروسية عام 1912 ضد النظام القيصري لم يتم إكمال بناء المدرسة فيها من قبل البعثة، فتم الإكمال بعد ذلك بهمة أبناء القرية، إذ جُمع المال اللازم من الأهالي لصب السقف، وتم إكمال المدرسة التي تتألف من غرفة الإدارة وأربع قاعات تدريس وصالون واسع مفتوح على كل القاعات بشكل متصالب، لكنها شغلت فترة من الزمن، حوالي 25 عام، لصالح الجيش الشعبي، رُممت بعد ذلك في عام 2007، وهي الآن مشغولة بمكاتب تابعة للوقف الكنسي.

وفي نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين أحدثت مدرسة إعدادية خاصة بمبادرة ومساهمة فعالة من "الحزب القومي الاجتماعي" الذي كان له حضور قوي في البلدة، وقد سُميت "النظام الجديد" ربما لتمييزها عن المدرسة القديمة، استمرت هذه المدرسة بالتعليم مدة عشر سنوات، وكان يقصدها طلاب من أنحاء سورية ويلقي الدروس فيها بعض الأساتذة من لبنان.

تم -أيضًا- إنشاء مدرسة إعدادية خاصة فيها في الخمسينيات سميت "الكلية الأرثوذكسية"، وهي فرع للكلية الأرثوذكسية باللاذقية، صاحبها (لطف الله الحموي)، استمرت هذه المدرسة حتى عام 1965، وكان يقصدها طلاب من السودا وحصين البحر والشيخ بدر.

ثم أحدثت مدارس رسمية للدولة أواخر الخمسينيات، حيث كان الوقف الكنسي يقدم الأرض اللازمة للمدرسة وللمستوصف وللمباني الحكومية الرسمية الأخرى.

ومن بين أشهر المعلمين والأساتذة الذين أنجبتهم بلدة السودا وعلّموا في هذه المدارس:

الأستاذ (فاضل دونا)، وهو من أقدم المدرّسين منذ أوائل الأربعينيات، وقد درس في الشيخ بدر والدريكيش.

الأستاذ (إلياس موسى) مدرس ابتدائي في الخمسينيات.

المعلمة (إسعاف الأعمى) أصلها من حماة وتزوجت في السودا، مارست مهنة التدريس في المدرسة القيصرية.
المعلمة (سيسيليا عيسى) كانت تدرّس في الابتدائية القديمة منتصف الخمسينيات.
أما من حيث التحصيل العلمي العالي في السودا فهي كثيرة، لكن أول شهادة عالية في السودا كانت من جامعة السوربون في فرنسا للدكتور (حنا قسطنطين خوري) في الخمسينيات باختصاص "سياسة واقتصاد".
وقد اشتهر في الخمسينيات الدكتور (أديب سابا) الذي كان يخدم بمهنته في الطب أهالي السودا وكافة أبناء المنطقة المحيطة بها باندفاع وحماس إنساني كبيرين.
أما بقية الشهادات العلمية العالية حتى اليوم فأغلبها في الاختصاصات العلمية البحتة كالطب والهندسة.

عن الرياضة والفرق الرياضية في السودا

تشتهر بلدة السودا، حتى اليوم، في مجال الرياضة بلعبة كرة الطائرة فقد تأسس أول نادٍ رياضي فيها مشهور بكرة الطائرة في الخمسينيات، وكان يستضيف فرقًا من لبنان وبعض المحافظات السورية، لكنه توقف أوائل السبعينيات، ومع ذلك ماتزال كرة الطائرة هي اللعبة المفضلة عند شباب السودا وشاباتها حتى إن أغلب أعضاء المنتخب الوطني السوري، نساء ورجال، لكرة الطائرة هم من بلدة السودا بطرطوس، وخاصة من النساء، فمشاركة النساء في هذه البلدة بكرة الطائرة هي أعلى نسبة في سورية.
كذلك تأسس في الفترة السابقة نفسها نواة فريق كرة قدم، وكان محسوبًا على الحزب الشيوعي الذي كان لمنظمته في السودا -أيضًا- وجود قوي ومؤثر.

زمرين

تقع قرية زمرين على الهضبة نفسها التي تقع عليها بلدة السودا وبشكل متجاور جدا، حيث كانت المسافة التي تفصل بينهما لا تتعدى مسافة 1 – 1,5 كم، حتى درجة صارت المنازل الحالية لكليهما منتشرة على طول خط هذه المسافة، وهكذا فالمسافة بينها وبين طرطوس لا تتعدى 15 – 16 كم.
لذلك فإطلالاتها جميلة ومفتوحة على جميع الجهات خصوصًا جهة الغرب المطلة على البحر.
وفيها بناء قديم أشبه بقلعة صغيرة بنيت منذ عهد الرومان، كما أفاد بعض الأهالي، تحولت منذ 300 سنة تقريبًا إلى "سرايا"؛ أي إلى المركز الإداري

لأول عائلة قوية متنفذة سكنتها وهي عائلة "بيت عدرا"، لذلك كانت هذه القلعة هدفًا مباشرًا لهجوم القوات الفرنسية بداية دخولها جبال الساحل إذا ما علمنا أن سكان السرايا والفلاحين في القرية رفضوا الخضوع والتعامل مع هذه القوات.

أما أصل التسمية فيعود كما جاء في موقع "الويكيبيديا – الموسوعة الحرة" على النت، إلى تفسيرات متعددة أوردها حرفيًا كالتالي:

- " زمرين: تعني الزمهريرا أي البرد القارس، نظرًا إلى تربعها على جبل مقابلة البحر.
- زمرين: تعني زمرتين من القمح، حيث كان أهالي القرية يجمعون جميع القمح في زمرة واحدة ويتقاسمون الموسم، ونظرًا لتزايد عدد سكان القرية أصبحوا يجمعونها في زمرتين.
- زمرين: أتت من كلمة (الزمر)،آلة موسيقية في الأعراس إذ كانت القرية صغيرة وفيها الأعراس قليلة، ومع تضخم القرية أصبحت الأعراس كبيرة وبحاجة إلى جوقة موسيقية كبيرة، لذلك أصبح في القرية عرسين وزَمْرَيْنْ."

لكن ثمة تفسير آخر أفادني به بعض سكان القرية الحاليون سأورده خلال السطور التالية في أوانه.

ففي زيارة خاصة إلى قرية زمرين بتاريخ 22 / 9 / 2021 التقيت في منزل أحد أقدم وجهائها الحاليين الأستاذ (خالد طاهر) بحضور ابنته السيدة المهندسة (ملى خالد طاهر) التي كانت دليلي المشكور جدًا في هذه الزيارة، وبحضور أحد أبناء القرية الأستاذ (يوسف محمد يحي) معلم متقاعد حاليًا، دار حوار حول القرية ونشأتها وتطورها، أسجل هنا أهم ما جاء فيه.

حول أصل التسمية

بداية أفادني الأستاذ (يوسف محمد يحي) بالمعلومة التالية حول أصل التسمية لقرية زمرين أنقلها حرفيًا كما كتبها لي بخط يده نقلًا عن مرجع موثوق خاص موجود لديه:

"زمرين: اسم سرياني من زمر بمعنى: رتّل – سبّح – حمّد – مجّد، وهو اسم مشترك بين الآرامية والكنعانية Zamir - Zammer بمعنى الأنشودة والأغنية.

ويرى الأب (شلحت) أن زمرين تسمية سريانية تعني المغنين.

ولغةً زمر الرجل: غنى بالقصب."

وعندما بحثت عن معنى كلمة "زمرين" على النت تبين لي أنه توجد قرية سورية ثانية بالاسم نفسه "زمرين" في محافظة درعا، تابعة إلى ناحية "الصنمين"، وهي تتشابه في نشأتها وبعض نواحيها الاجتماعية والتعليمية، كما قرأت عنها، مع "زمرين" في محافظة طرطوس.
كما قرأت أن أصل التسمية فيها يعود إلى كلمة "الزمر" وهي آلة موسيقية تستخدم في الأعراس، وهنا أرى نفسي أميل إلى هذا التفسير، خصوصًا أن أغلب التفسيرات التي عرضتها تتقاطع في معنى واحد وهو العزف والانشاد والغناء.
ويكفي أن نذكر تأكيدًا لذلك اسم الأستاذ الراحل (محمود الحاج 1944 - 1994) من قرية زمرين طرطوس، كأحد الموسيقيين الجادين والدارسين باهتمام للموسيقى والملحنين، ليس في محافظة طرطوس عبر تاريخها الحديث بل على مستوى سورية كونه أحد الملحّنين المبدعين منذ بداية منتصف القرن العشرين وحتى رحيله.
نشأة زمرين وأصل سكانها الحاليين
أفادني الأستاذ خالد طاهر مدرس التربية الإسلامية في السودا سابقًا، واتفق معه الجميع على ذلك، أن أول عائلة وفدت إلى زمرين هي عائلة "بيت عدرا" منذ العهد العثماني وعلى الأرجح أصلها من فلسطين، وأن جد العائلة الأقدم اسمه (عدرا المكحل)، وعندما استقرت هذه العائلة في زمرين سكنت القلعة القديمة التي يعود بناؤها إلى العهد الروماني القديم بعد أن رمّمتها وحولتها مع التسمية إلى "سرايا"، أي بالإضافة لكونها مقر سكن العائلة فهي -أيضًا- مركز إداري يدير شؤون القرية وسكانها، وكان الأهالي يتجمّعون حول السرايا في بيوت منخفضة كفلاحين عند هذه العائلة. فكان كبير العائلة بمنزلة "الأغا" آنذاك.
وفي فترة زمنية لاحقة بعد انهيار الدولة العثمانية، وأثناء محاولة الفرنسيين دخول القرية كمقدمة للسيطرة على قرى جبال المنطقة عمومًا عارضهم كبير العائلة (عبد اللطيف عدرا) بتنسيق مع "بيت المحمود" في قلعة الخوابي ومع ثورة الشيخ صالح العلي في منطقة الشيخ بدر القريبة، فتم قصف السرايا من البحر، وبعد دخول الجنود الفرنسيين حاولوا ترهيب أسرة الأغا وإذلالها.
ومن أقدم العائلات التي قدمتها زمرين هي عائلة "بيت قزيحة"، ويروي أهل القرية وأبناء هذه العائلة أن أصلهم من شيعة "النبطية" في لبنان، فبعدما هاجر شقيقان منها من النبطية إلى المنطقة استقر أحدهما في قرية

السودا المسيحية وصار مسيحيًا، بينما استقر الثاني في قرية زمرين المسلمة وصار مسلمًا سنيًا، وتعتبر عائلة بيت قزيحة اليوم في زمرين من أكبر العائلات بالعدد.
ومن العائلات القديمة -أيضًا- "بيت سلمى"، أصلهم من السعودية التي هاجروا منها إلى منطقة الضنية في شمال لبنان ومن هناك جاء إلى المنطقة ثلاثة أخوة أحدهم استقر في طرطوس، والثاني استقر في بانياس، والثالث استقر في زمرين.
"بيت دوبا" وهي عائلة موزعة بين حلب وزمرين وقرفيص في جبلة.
"بيت طجمية" أصلهم من نابلس.
"بيت طاهر" وأصلهم من جبل صهيون بالحفة.
"بيت عرابي" أصلهم من نابلس وفدوا المنطقة منذ أكثر من 120 سنة.
يُضاف إلى هذه العائلات الأقدم عائلات أخرى تسكن زمرين اليوم ومنذ فترة بعيدة نسبيًا وهي:
بيت رجب – بيت إبراهيم – بيت مرضعة – بيت الخولي – بيت يحي – بيت الفران – بيت الحج – بيت محي الدين – بيت جلول – بيت قاسم – بيت عبدو – بيت الشيخ – بيت بازو – بيت خضر ... وعائلات أخرى.

الحياة الاجتماعية والاقتصادية

الحياة الاجتماعية في زمرين يسودها الانسجام بين هذه العوائل جميعها، الانسجام التام بل والتفاعل مع محيطها من القرى المجاورة بداية ببلدة السودا، فهناك زيجات متعددة بين زمرين وبعض القرى المجاورة من غير طائفة.
أما عن المورد الاقتصادي في القرية فقد جاء في موقع "الويكيبيديا" حول قرية زمرين "أن هناك أعدادًا كبيرةً من شباب قرية زمرين يعملون في المجال البحري، حيث يتلقون دراساتهم البحرية في مصر شأنهم شأن غالبية شباب [جزيرة أرواد]، وقد بدأت هذه الحمى تتفشى بسبب غلاء المعيشة، وضعف مردود العمل الزراعي، وضعف ثقة الشاب بالوظيفة الحكومية، كما تشتهر قرية زمرين بالزراعة وخاصة الدفيئات، إذ إنها تعتبر حتى الآن مصدر الرزق الرئيسي لكثير من أهالي القرية إلى جانب زراعة الزيتون والحمضيات واللوزيات التي كانت سابقًا الزراعات المسيطرة بالقرية.
ومما يميّز أهالي قرية زمرين هو تأصل العادات العربية القديمة كالشموخ والنخوة والإيثار وحب الغير والتضحية، حيث يقف أبناء القرية جنبًا إلى

جنب أيام المواسم وأيام الفرح والحزن ليشكّلوا بذلك لوحة فنية رائعة رُسمت بألوان من الطيبة والبراءة."

بدايات التعليم في زمرين

قرأت على موقع الويكيبيديا -أيضًا- حول قرية "زمرين" معلومة تسترعي الانتباه لم يذكرها لي أحد ممن التقيتهم وأرى من المفيد ذكرها هنا عند الحديث عن بدايات التعليم في زمرين، تقول المعلومة:

"نظراً إلى هواء القرية العليل والإطلالة الخلابة والجمع بين البحر والجبل، سكن فيها الشيخ محمد علي الدرة - من أعلام النحو في حمص الذي انتقل من حمص إلى قرية (زمرين) في محافظة طرطوس عام 1960م، واستفاد صحيًا وعلميًا في هذه القرية، حيث إنها تقع في قمة جبل هواؤها عليل، ومناخها طيب، فزالت عنه بعض الأمراض التي كانت تُصاحبه، وَاستفاد علميًا بالوعظ والإرشاد، فأهلها طيبون يقبلون الموعظة كما أن شبابها ومعلِّمي المدارس فيها (عندما رأوا استقامة لسانه في الخطب المنبرية) أدركوا بحسهم أنه ممن يستفاد منه في النحو، فأقبلوا يقرؤون عليه «الشذور» و«المغني» وغيرهما، وحرَّضوه على تعليم أبنائهم، فأخذ يعقد دورات في الصيف في تلاوة القرآن والنحو في مسجد القرية للطلاب، فاستفاد منه جمع غفير، وأثناء وجوده في تلك القرية حدث الانفصال بين سورية ومصر، وصار الشباب المتحمّسون يتكلمون عن المشايخ ويتهمونهم بتأييد الانفصال، فساءه ذلك، وقرر مغادرة القرية على الرغم من تشبث غالبية أهلها به".

وبالعودة إلى ما أفادني به الأستاذ (خالد طاهر) حول هذا الأمر فقد كان الأهالي في البداية يرسلون أولادهم إلى مدرسة السودا كي يتعلموا حتى عام 1950 عندما تأسست أول مدرسة ابتدائية فيها مؤلفة من غرفتين بناها السيد الحاج (محمد حسين طجمية)، وكان أول مدرس فيها الأستاذ (علي رجب) من حصين البحر، ومن ثم مدرس آخر من السودا اسمه (عيسى الحموي)، ثم تم تطوير المدرسة لاحقًا في الستينيات عندما أُلحِقت بها غرفتان إضافيتان، وأما الآن فالمدرسة مهجورة.

وفي عام 1981 بنت الدولة أول ابتدائية في القرية ثم تم إحداث إعدادية في المدرسة نفسها بدوام متناوب، وفي عام 1994 تم إحداث بناء جديد منفصل مستقل للإعدادية.

أول شهادة ثانوية في زمرين حصل عليها (عبد اللطيف عدرا) و(محمد عرابي) عام 1958.

وأولى الشهادات الجامعية كانت كالتالي:
القاضي (عبد اللطيف عدرا) اختصاص حقوق عام 1957.
المهندس (هاني عرابي)، أول مهندس بالقرية تخرج عام 1965 اختصاص كهرباء.
الدكتور (عدنان جمعة) دكتوراه في الشريعة الإسلامية عام 1962.
الأستاذ (خالد طاهر) خريج كلية الشريعة الإسلامية عام 1968.
أول شهادة جامعية لامرأة في القرية (سميحة عابد) عام 1975.
ثاني شهادة جامعية لامرأة في القرية (وفاء عدرا) اختصاص أدب عربي عام 1978.

النهضة العلمية في زمرين

في تسعينيات القرن العشرين حدثت نقلة نوعية على صعيد التعليم في القرية أدت إلى ما يشبه نهضة علمية فيها، افتتحتها الطالبة (أسماء طاهر) عام 1991 عندما حصلت على المرتبة الأولى في الشهادة الإعدادية على مستوى محافظة طرطوس والثانية على مستوى الجمهورية.
وفي عقد التسعينيات بدأت تتخرج من الجامعات السورية العديد من الاختصاصات العلمية المتنوعة لطلاب من قرية زمرين.
وفي عام 2000 حصلت الطالبة (بشرى طجمية) على العلامة التامة في الشهادة الثانوية، وفي بدية الألفية الثانية حصلت الطالبة (عبير عدنان مرضعة) من زمرين لمدة 5 سنوات على المرتبة الأولى في كلية الصيدلة بجامعة طرطوس.
لذلك فأغلب أبناء زمرين منذ سبعينيات القرن العشرين متقدمون في الدراسة والتحصيل العلمي العالي، ولعل أوضح مثال أو نموذج أسروي لذلك في القرية موجود في أسرة السيد الأستاذ (خالد طاهر) كما سأفصّل الآن:
ففي بيت الأستاذ خالد الذي هو خريج كلية الشريعة منذ عام 1968 كما ذكرت سابقًا يوجد أربع بنات وثلاثة شباب والكل يحمل شهادات علمية عالية باختصاصات متعددة ويخدمن المجتمع باختصاصاتهم هذه بكل مقدرة وكفاءة.
لكن الأكثر تميّزًا بينهم وصاحب الشهرة العالمية اليوم هو ابنه الدكتور (مأمون طاهر) الذي يحمل شهادة بكالوريوس في علم المواد الهندسية من جامعة حلب بدرجة أولى، وماجستير بالهندسة الطبية بدرجة شرف، ثم

تابع الماجستير بعلم المواد الهندسية في المانيا وكان بالمرتبة الأولى، ثم تابع الدكتوراه بالاختصاص نفسه في جامعة "أوبسلا" بالسويد.
ودرجة ما بعد الدكتوراه "الأستذة" بعلم المواد الهندسية -أيضًا- من جامعة "أوبسلا" بالسويد، كما حصل على أربع براءات اختراع بالاختصاص نفسه من السويد، فحاز على جوائز من مؤتمر "هانوفر" الصناعي في ألمانيا، كما حاز -كاول سوري- على جائزة ملك السويد.
وأما الابنة الكبرى للأستاذ خالد طاهر السيدة (هدى طاهر) فهي مدرسة رياضيات ومعلوماتية وزوجة الدكتور(مصطفى طجمية) الذي حصل على ثاني اختصاص طب بشري في القرية بعد أن درس الطب وهو يتيم الأب، وأولادهما اليوم أربعة أطباء وصيدلي، فالكبرى بين البنات تتابع دراسات عليا في التوليد النسائي في جامعة تشرين باللاذقية، وبقية الأولاد يتابعون بجد وتفوق المرحلة الثانوية.

تجمع قرى الخريبات _ الشيخ سعد ـ بملكة

يقع تجمع هذه القرى القريبة نسبيًا من بعضها إلى الشرق من طرطوس، حيث تأخذ المسافة بين تموضعها شكل مثلث، تبدأ زاوية القاعدة فيه من الجنوب في الخريبات، وتمتد إلى الشمال في الشيخ سعد، ثم يتجه شرقًا في رأس المثلث حيث تتموضع بملكة، وتتصل بينها قرى عدّة أخرى بمسافات قريبة جدًا من بعضها، وقد اخترت هذه القرى الثلاث لتنوعها الديني والطائفي كنموذج للتعايش والتواصل ونمط الحياة المشترك، إذ إن ما ينطبق عليهم ينطبق -أيضًا- على القرى الأخرى كافة باستثناء أصل العائلات.

الخريبات

تقع قرية "الخريبات" في الجهة الجنوبية الشرقية من طرطوس على هضبة مرتفعة قليلًا عن سطح البحر، يصل ارتفاع أعلى نقطة فيها حوالي 150 مترًا في مكان يسمى "قبر الخوري بصلوح"، ثم يتدرج الارتفاع نزولًا حسب أماكن توزع بيوتها وأملاكها حتى 54 مترًا عند جسر الخريبات على الأوتوستراد الرئيسي.
لذلك فهي تتمتع بإطلالة جميلة جدًا شمالًا وغربًا وجنوبًا، ولعل الإطلالة الأروع لها هي من جهة الغرب حيث يبدو سطح البحر أمامها بأفق واسع، ليس بالقريب وليس بالبعيد، يتنصفه منظر جميل لـ "جزيرة أرواد"، لكن يبدو أن الأبنية الجديدة ذات الطوابق التي تتكاثر غرب القرية بدأت تسدل

الستار على هذا المشهد الجميل باستثناء أعلى نقطة فيها وهي مرتفع "بصلوح".
عندما فكرت بالكتابة عن هذه القرية الجميلة الهادئة، التي يبدو أنها واحدة من أقدم القرى الجبلية المحاذية شرقًا للخط الساحلي كما سيتبين لنا في السطور التالية، بدأت أبحث عن شخص يعرّفني على أحد الأشخاص المعمّرين فيها أو ممن يهتمّون بتاريخ القرية من أبنائها، وبعد محاولات عدّة لم أعثر على دليل، لكن أحدهم أفادني بمعلومة مهمة وهي أن أحد أبنائها الأساتذة كان قد ألّف قبل وفاته كتابًا أو كرّاسًا خاصًا لم يوزع على نطاق واسع خارج قرية الخريبات، يتضمن سيرة موجزة لتاريخ هذه القرية وأصل سكانها وتعدادهم وبدأت بالسؤال والبحث عنه، وعندما عرفت بالصدفة أن ابنتي (ريف) عندها زميلة وصديقة لها بالعمل الوظيفي من "الخريبات" طلبت منها أن تسألها عن طلبي، وكان الجواب إيجابيًا، فقمت بزيارة بيت السيد (ريشار يزبك) زوج السيدة (عزيزة عنقة) زميلة ابنتي ريف، وقد تجاوبا معي برحابة صدر واستعرت منهما النسخة الموجودة لديهما كي أستفيد منها قدر المستطاع ثم أعيدها لهما، وهذا ما كان فلهما شكري وتقديري.
لذلك فالسطور التالية عن قرية الخريبات هي نقل عن الكتاب – الكراس لكونه المرجع الوحيد المتاح الذي أستطيع الاعتماد عليه، ملخّصًا أهم ما جاء فيه حول موضوعنا، ومُجتزئًا بعض الاقتباسات منه عند الضرورة.
فالكتاب هو على شكل كراس طولي مطبوع ومجلد يقع في 54 صفحة بعنوان "الجذور العميقة – الخريبات" صدر عام 2016 - 2017 كما هو مدون على الغلاف الرئيس من تأليف ابن قرية الخريبات الأستاذ (نبيه يوسف دانيال).
فالأستاذ نبيه كما يقول عن نفسه يحمل إجازة جامعية باختصاص الجغرافيا، وكان اهتمامه بقريته وتاريخها مبكرًا منذ سنين الدراسة الثانوية، فكان كثيرًا ما يلتقي مع المعمرين في القرية ويسألهم إذ قد عرف الكثير من خلالهم حول اهتماماته، لأن المتعلمين في القرية بين عامي 1952 – 1959 كانوا قلة لم يتجاوز التحصيل العلمي هناك أعلى من "ثقافة ابتدائية"، و"أما حاملو الشهادة الثانوية فيقدرون بعدد أصابع اليد الواحد".
كما نستنتج من كلام الأستاذ نبيه أنه لم يكن يوجد في القرية حتى ذلك التاريخ ذاكرة مدونة أو مكتوبة وإنما ذاكرة شفهية بدأ منها وهو يجمعها منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين وهذه محاولة رائدة وثمينة تسجل له فعلًا،

لذلك استطاع في عام 2008 إنجاز "كل شجرات العائلة في الخريبات بعضها مدعومة بوثائق مكتوبة وبعض الأخر استقاها من الحكايات والأخبار الشفهية". كما يقول.
يذكر بهذا الخصوص:
"تخمرت في رأسي فكرة وضع شجرة أعمار لكل عائلة بما توفر لدي من معلومات أستقيها من الأجداد، ولكن لا يوجد بين أيدينا وثائق مكتوبة أو مثبتة فوضعت أول شجرة مرسومة على ورقة دفتر صفراء، لأربع أو لخمس عائلات فقط هم: عيسى، يوسف، لداف، حنا.".
وبعد خمسين عامًا أي في عام 2008 كان قد أنجز "كل شجرات العائلة في الخريبات بعضها مدعومة بوثائق مكتوبة وبعض الأخر استقاها من الحكايات والأخبار الشفهية".
ثم يتابع قائلا: "أما البحث الجدي لهذا العمل بدأ فعليًا بعد عودتي إلى القرية عام 1969، حينها زارني أخوة من قرية "شموت" اللبنانية ... يسألون عن عائلات كانت قد هاجرت من بلدة "شموت" التي تقع شرقي قضاء جبيل، إلى قرية الخريبات في سوريا، لإنجاز بعض شجرات العائلة لبعض العائلات الشموتية، واستمر التواصل بيننا"([49]).
لذلك وبحكم اختصاصه الجامعي في الجغرافيا والتاريخ أقام "معرضًا عن أنواع الصخور والمستحاثات والنقود القديمة وشجرات الأعمار والملفات التاريخية"، وبحكم اهتماماته هذه كانت رسالته الجامعية عن قريته الخريبات بعنوان "دراسة طبيعية وبشرية وزراعية ومناخية لقرية الخريبات من سنة 1964 – 1965"([50]).

عن أصل التسمية

يقول الأستاذ نبيه في دراسته أن "الخريبات كلمة سريانية تعني بالعربية (الخربة) أي المكان المهدم، لأنها قائمة على أنقاض خرائب تعود إلى العهد الفينيقي سنة 535ق.م حسب المؤرخ (دونان)، أما حسب المؤرخ العربي الإدريسي فهي البيوت البعيدة قليلًا عن البحر، والمسكونة من مجموعات هاربة من قراصنة الشواطئ".

---

[49] -: الأستاذ نبيه يوسف دانيال "الجذور العميقة – الخريبات" 2016 – 2017. ص4.
[50] -: المرجع السابق ص5.

ثم يذكر عددًا من الخرائب الرومانية القديمة القريبة من بعضها في المنطقة، التي كانت تتبع "جميعها مملكة أنترادوس "طرطوس" وأرودوس "أرواد" ثم عمريت، يقول عنها أنها "كانت تتعرض هذه الخرائب قديمًا لغزو سكان جزيرة أرواد في فصل الربيع؛ إذ يتسلّلون إليها من نهر الغمقة.. وتعرضت الخريبات إلى زلازل عدّة في العصر البيزنطي، ضربت الساحل السوري على زمن الملك يوستيانوس سنة 555م، كما خلت من السكان بعد تدميرها على يد صلاح الدين الأيوبي خلال فتح مدينة طرطوس وطرد الصليبيين منها سنة 1188م، وبعد هذا التاريخ خلت من السكان وبقيت على هذه الحال حتّى مطلع القرن السابع عشر بقدوم عبدالله يوسف إلياس بن يوسف شمعون من قرية شمون في جبيل – لبنان سنة 1614م"([51]).

عن أقدم عائلات الخريبات وأصولها

هنا أجد نفسي مضطرًا أن انقل حرفيًا ما جاء في دراسة الأستاذ نبيه حول عائلات الخريبات القديمة والحديثة وأصولها كونه كان المهتم الوحيد، على ما يبدو، من أبناء القرية في توثيق ذلك.

يقول في دراسته بهذا الخصوص: "إن السيد عبد الله يوسف إلياس هو أول من بنى بيتًا حجريًا في هذه القرية بجانب العين، ثم من أتى بعده سكن منطقة روم الذهب وهم آل جريش، ومنطقة حيروز حيث يوجد فيها آبار كانوا يستقون منها، وبالقرب من ينابيع نهر عمريت، ثم بعد سنين انتقلوا إلى موضع الخريبات، حيث تجمعت العائلات القديمة: بيت عيسى ومن تفرع عنها: سمعان، لحود، وهبي، سليمان، ميلان، يوسف، دانيال، ابراهيم، الخوري، إلياس، زيدان، حنا، نعمة، حبش.

وحول حارات هذه العائلات، تجمعت عائلات أتت بعدها وانضمت إلى القرية ومنها:

مهنا، حمامة، إلياس، المعاز، الليطولي، زيدان، سليمان، الموراني، عنقة.

ثم عائلة نداف، التي يتبعها عائلة طعمة وبربر وحديثًا بيت الدروز، وعائلة الأبرص وسركيس التي سكنت سابقًا بجانب عين السرسكي الحاموش، وأصهرة تزوجت من القرية وسكنت فيها.

أما الآن فتحوي القرية على عائلات قديمة وحديثة منها:

بيت عيسى الذي تفرع عنه: بيت يوسف ودانيال وإلياس والخوري ومحفوض. بيت لحود وسمعان ووهبة وسليمان.

---

51 -: المرجع السابق ص 7 – 8.

بيت نداف تفرع عنها بيت طعمة، وبيت حنا تفرع عنها بيت نعمة، وبيت علقة تفرع عنها بيت نادر.
كما تضم القرية عائلات: حمامة، ومهنا، وابرص، والياس، ومعاز، ولبطوني، وسركيس، وهلود، ووهبي، وزيدان، وعطاالله، وبو سمعان، والرميحي، وكوخ، وكلكش، وسلوم، وجلة، وخلوف.
تنحدر هذه العائلات من أصول مختلفة، نذكر:
- عائلة يوسف من شموت جبيل.
- عائلة حبش (حبيش) من مروج الزيات زغرتا، ومن المراح بالياس.
- عائلة اللبطوني من أيطو شمال لبنان.
- عائلة سركيس أصلها من عائلة البيسري من قرية حدشيت شمال لبنان، والموجودون في الخريبات هم من بيت سركيس في المشتى.
- عائلة معاز من شنين قرب برشين.
- عائلة حمامة أصلهم من عائلة كوسا (كوجا) من زغرتا اللبنانية.
- عائلة عنقة أصلها من بعبدا اللبنانية، سكنت أولا في قرية الخراب ثم رحلت إلى قرية الحاموش ومن ثم إلى بيت ناصر، ومن ثم إلى الخريبات سنة 1784.
- عائلة نداف وعيسى من شموت اللبنانية."[52]

الحياة الاقتصادية في القرية

يشيد الأستاذ نبيه، بداية، بعزيمة الأجداد وصلابتهم في القرية، فقد استصلحوا الأرض وغرسوها وبنوا البيوت الطينية الأولى بسقفها الخشبي مع البلان والطين حيث كان بجانب كل بيت بئر لتجميع مياه الأمطار فيه وتخزينه للحاجة في فصل الصيف، وفي حال كان شح في الأمطار أو قلة في المياه كانت تقسم الأدوار على العين في القرية بين عائلاتها بحيث يكون لكل ست عائلات يوم واحد، وإلى جانب ذلك كان سكان القرية يستفيدون عند الحاجة من آبار عدّة وينابيع أخرى مجاورة للقرية مثل بئر النمرة، بئر النبع، بئر بصيدلاية، وعيون الإفرنج قبل جسر الغمقة، وينابيع عمريت، وحيرروز، وروم الذهب.
أما بعض التجمعات المائية الأخرى كرامة صاغير، والعجي، والرقيق، ورامة الريحان، فكانت مخصصة للمواشي والأبقار التي كانت موجودة بكثرة.

---
[52] -: المرجع السابق ص 8 – 9.

أما أول بئر ارتوازي في القرية فكان سنة 1958.
والعمل الزراعي كان يتركز بداية على زراعة القمح وقطف محاصيل الزيتون وعصره حيث كانت كل عائلة تملك معصرة خاصة بها ومنها مازال باقيًا حتى الآن كمعصرة بطرس حبش، ومعصرة بيت وهبي بالشطيح، ومعصرة بيت سليمان نداف، ومعصرة بيت عيسى.
"ومنذ سنة 1945 وحتى 1975 كان في القرية ست معاصر آلية وأربع مطاحن: اثنتان للطحين، واثنتان للبرغل، وفي كل بيت طاحولة صغيرة للجرش لسد حاجاته، أما القمح والحبوب فكانت تجمع وتفرط بواسطة الحيوانات والمرج والتذرية، وكان التبن يُجمع بواسطة أدوات كان كل فلاح يمتلكها طبعًا قبل دخول الدرّاسة الحديثة سنة 1955." ([53]).
أما بخصوص ملكية الأرض في الخربيات فيوضحها الأستاذ نبيه بالتفصيل في الاقتباس الطويل التالي من الدراسة:
"بقي الفلاح في قرية الخربيات يعمل بأرض ليست له، وإنتاجه ليس له، حتى الاستقلال من الاستعمار العثماني سنة 1946([54]). وما إن تخلصنا من الحكم العثماني حتى وقعنا تحت الاستعمار الفرنسي، الذي أتى بالمنفعة لأهل القرية، فحددوا ملكية القرية وأعطوا الأهالي سندات ملكية، بعد أن مسحوا الأراضي، ووضعوها بأسماء العائلات، ثم لاحقًا بدأت مضار هذا العمل تظهر للعلن، إذ إن الكثير من ورثة العائلات مهاجرون في البرازيل، فتجزأت الملكية إلى حد لا يطاق، كما أصبح تطويب الأراضي من المستحيلات. فقد وصل في بعض العقارات الصغيرة، عدد الورثة، إلى أكثر من خمسين شريكًا ووريثًا. حدث هذا التطبيق بعد معاهدة سايكس بيكو التي قسمت سوريا إلى دويلات، فأصبحت سندات التمليك باسم دولة العلويين "حكومة اللاذقية" سنة 1932، ولم تزل هذه الصفة عليها وعلى الأراضي الأميرية، والأراضي ذات الملكية الخاصة.
شدة البأس التي أظهرها رجال قريتنا تجلت في حبهم لأرضهم التي عملوا فيها، فقاموا بشراء الأراضي من المناطق المجاورة لها من الأغوات

53 -: المرجع السابق ص9 – 10.
54 -: يبدو أنه ثمة خطأ حصل أثناء تنضيد الدراسة عند تسجيل هذا التاريخ لأن جلاء المستعمر الفرنسي كان عام 1946. وليس الخلاص من الحكم العثماني كما يذكر.

والبكوات والمتعاملين مع الأتراك([55]) ومن الفرنسيين انفسهم في أراضي جديتي، والشيخ سعد، والعنابية، وبيت عليان، وحتموش السرسكس، ودحباش، وبيت ناصر. فامتدت ملكيتهم شرقًا وغربًا، من وادي المسقى "مقهى عزالدين سلامة" حتى عيون الإفرنج، وأطراف عمريت ساحل البحر غربًا، ومن بيت إسماعيل والثورة جنوبًا، حتى أطراف بصيدلاية، وجديتي شمالًا.
بقي آباؤنا وأجدادنا محافظين على هذه الأرض، فقاموا بغرس معظمها بشجر الزيتون والحمضيات، وحديثًا دخلت الزراعة المحمية "بيوت بلاستيكية"، وبعضهم يعمل في التجارة الحرة، وبعض الآخر موظف في الدوائر الحكومية، وآخرون يعملون في النقل. ...
بدأ اول استملاك لأراضيها من قبل الدولة سنة 1952، أرض خط شركة نفط العراق، ثم توالت هذه الاستملاكات بعد أن أصبحت طرطوس محافظة، فقاموا باستملاك أرض للمنطقة العسكرية، وأخرى لأوتوستراد حمص اللاذقية، وأخرى لمركز انطلاق سيارات، وأخرى للجامعة بنحو 61 هكتارًا، وأخرى لمشفى الباسل، وأخرى لأرض صافيتا، وأخرى للسياحة، وكل الأراضي الواقعة غرب طريق طرابلس استملكت.
بعد سنة 1980 بدأت هجرة داخلية صوب الساحل، فأخذ الناس يبيعون أراضيهم بأسعار منخفضة في مناطق عدة منها: السهلات، ووداي الشاطر، والرفيق العجي، والرادار، فتوزعت الملكية بشكل كبير.
إذا ما قارنا بين الحاضر والماضي، بين حياتنا اليوم وبين حياة أجدادنا، بين أعمالنا وأعمالهم، وإيماننا وإيمانهم، مجتمعنا ومجتمعهم، نسقط بالاختبار

---

[55] -: ثمة التباس هنا أو تناقض بين قوله أنه قبل نهاية الحكم العثماني بقي الفلاح في قرية الخربيات يعمل بأرض ليست له، وإنتاجه ليس له، حتى الاستقلال من الاستعمار العثماني، وبين قوله التالي هنا: "شدة البأس التي أظهرها رجال قريتنا تجلت في حبهم لأرضهم التي عملوا فيها، فقاموا بشراء الأراضي من المناطق المجاورة لها من الأغوات والبكوات والمتعاملين مع الأتراك([55]) ومن الفرنسيين انفسهم في أراضي جديتي، والشيخ سعد، والعنابية، وبيت عليان، وحتموش السرسكس، ودحباش، وبيت ناصر. فامتدت ملكيتهم شرقًا وغربًا، من وادي المسقى "مقهى عزالدين سلامة" حتى عيون الإفرنج، وأطراف عمريت ساحل البحر غربًا، ومن بيت إسماعيل والثورة جنوبًا، حتى أطراف بصيدلاية، وجديتي شمالًا."

أمامهم ونعترف أنهم الأصل والحب والعمل والتواضع والإيمان والصلاة والثبات، أما نحن فنعيش القلق والصراع والكسل وفقدان المحبة والسلام حتى في العائلة الواحدة بسبب تجزؤ الورثة والأرض والهجرة... "([56]).

التعليم في القرية

يذكر الأستاذ نبيه تحت هذا العنوان أن التعليم كان "تحت الصفر" إلا في مجال رجال الدين "الخوارنة" الذين كانوا يعلمون بعضهم، وهكذا بدأت النواة التعليمية الأولى في الخريبات خلال القرن التاسع عشر، إما في البيوت وإما في دور العبادة.

لكن أول مدرسة ظهرت كانت "أوائل القرن العشرين مع افتتاح مدرسة المطران المجانية في الكنيسة القديمة التي كانت تعلم مبادئ السريانية والعربية والتعليم المسيحي.

وبعد الحرب العالمية الأولى سنة 1918 أسّس الخوري بطرس الدداف مدرسة الخريبات وتركها غير كاملة، ثم جاء حفيده الخوري إلياس الدداف حيث أتمّ بناءها على نفقة الوقف، وأول معلميها كان الخوري أنطوان ديب من البساتين، وفؤاد البوز من ضهر صفرا.

أول المعلمين في القرية كان إلياس قدسية الذي علّم في شتبغو التي تقع شرق الحفة في محافظة اللاذقية، ثم فؤاد جحجاح من بعيت، وباسيلي خوري، وأثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها كان المعلم يوسف عشي وحنا الحلو، ثم أصبحت الخريبات غنية بأكثر من معلم.

وفي سنة 1943 كانت أول مدرسة للإرساليات الغربية، لراهبات القلبين الأقدسين في بيت الخوري نعمة الله إلياس، ثم تم الحصول على رخصة لبناء دير في القرية، وبعد ذلك أصبح هناك مدرسة ابتدائية عبارة عن غرفة واحدة ودير للراهبات حتى يومنا هذا.

ثم شُيّدت في القرية إعدادية مع ابتدائية وروضة للراهبات، أما التعليم الثانوي فما زال في مدينة طرطوس أو بمدرسة تجمع الشيخ سعد المجاورة"([57]).

دور العبادة ورجال الدين في الخريبات

يتابع الأستاذ نبيه الحديث في هذا الخصوص فيكتب تحت عنوان (كنيسة الخريبات):

---

[56] -: المرجع السابق ص10 – 11.

[57] -: المرجع السابق ص11 – 12.

"لم يكن في الخريبات كنيسة منذ قدوم أول ماروني إليها من لبنان سنة 1614، فقد كانت تقام القداديس في المنازل شتاءً، وأمام البيوت أو في الحقول صيفًا حتى سنة 1849، حيث باشر الخوري عبد الله بن إلياس يوسف إبراهيم الشمعوني في بناء كنيسة على اسم مار الياس الحي، دامت أعمال البناء خمسين سنةً، لأنه كان يجمع لها الإحسانات بذاته من حلب واللاذقية وكسروان ودير القمر حتى مرسين في تركيا، بُنيت الكنيسة وبقيت ترابية من دون تبليط أرضها، وبعد وفاته اهتم ابنه الخوري بولس بتبليطها وإعمار القبة، وأحضر لها جرسًا من قرية بيت شباب اللبنانية، وكلف هذا العمل حينها سبعة آلاف قرش عثماني، وكانت النهاية سنة 1910، ثم قام الخوري إلياس النداف بهدمها سنة 1969 بسبب ازدياد عدد سكان القرية ، وتم بناء الكنيسة الجديدة بين سنة 1970و 1973."([58]).

ثم يستعرض الأستاذ نبيه في دراسته التوثيقية المهمة هذه أسماء الكهنة الذين خدموا الخريبات منذ سنة 1690 وحتى 2016، حيث بلغ تعدادهم 18 كاهنًا من لبنان وسورية ومرسين.

الهجرة إلى الخارج

لكن الإضافة المهمة والطريفة هي تلك التي جاءت تحت عنوان (بعض الحكايات والقصص عن الخريبات)؛ إذ يستعرض (8) ثماني حكايات ما زالت تتناقلها الذاكرة الجماعية لأهالي الخريبات منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم، لعل أهمها الإشارة إلى حكايات عن العمل الطويل والشاق لدفع الضرائب الكبيرة، مما أجبرت عائلات كثيرة للهجرة، فالضريبة كانت تفرض من السلطان على الولاة، ومن الولاة على حكام المناطق، ومن الحكام على المُلزِمين، ومن الملزمين على الأهالي، فكانت الضريبة السلطانية تدفع أربعة أو خمسة أضعاف، لأن كل واحد منهم كان يجمع لنفسه وللسلطان، فالإقطاعات للأمراء يعيشون منها ويدفعون للسلطان، وهكذا نما قطاع اجتماعي غني، وقطاع عامل فقير، فالأغوات والبكوات والأمراء الملتزمون هم طبقة غنية، والفقراء من الفلاحين."([59]).

فالدافع الكبير للهجرة في الخريبات منذ منتصف القرن التاسع عشر مثله مثل جميع القرى المجاورة والمحيطة بمختلف طيفها الديني والطائفي، هو

---

[58] -: المرجع السابق ص12.

[59] -: المرجع السابق ص13 – 14.

دافع اقتصادي – اجتماعي بالأساس ناتج بالتأكيد عن ظلم اجتماعي ضاغط أولاً، وعن شح في الموارد الزراعية والطبيعية ثانيًا.
لذلك يذكر الأستاذ نبيه في بداية دراسته ص6 عندما يستعرض الوثائق العديدة وبعض الأخبار التي سمعها وجمعها من المعمرين في القرية، "أخبارًا من المهاجرين إلى البرازيل وكوبا خاصة بين سنة 1860 و1910، حيث يظهر إحصاء سنة 1912 أن كل اثنين من أصل ثلاث رجال هم في البرازيل كما تدل سندات التمليك سنة 1936 بعد التحديد والتحرير ومسح أراضي الخريبات 1925، كما يُظهر إحصاء سنة 1925 في عهد الاستعمار الفرنسي أنه لم يرجع من هؤلاء المهاجرين أكثر من عائلتين، ويتم التواصل مع بعض أحفادهم، كما أن هناك عائلات اندثرت ولم يعد أحد منها إلى القرية مثل: زيدان، الرميحي، إسبر، وغيرهم"[60].
وفي خاتمة دراسته يوجه الأستاذ نبيه نداءً يسميه صرخة مليئة بالرجاء المسيحاني -كما يقول- لأحفاد الأحفاد ممن هاجر من أهالي الخريبات كي يفكروا بالعودة والعمل في قريتهم وبلدهم سورية، ويتم لم شمل العائلات من جديد بعد طول اغتراب.

الشيخ سعد

تقع بلدة الشيخ سعد إلى الشرق من طرطوس التي تبعد عنها مسافة 6 - 7 كم، مع بداية ارتفاع جبلي يجعلها بوابة دخول إلى قرى جبال الساحل وبلداته البعيدة لجهة الشرق خصوصًا أنه يمر فيها وبالقرب منها -أيضًا- طريق عام طرطوس الدريكيش، لذلك فقد صارت اليوم أشبه بضاحية من ضواحي مدينة طرطوس بحكم كثافة التمدد العمراني الواصل بينهما.
وعن أصل سكان هذه البلدة وتاريخ نشأتها منذ كانت قرية صغيرة التقيت بتاريخ 19 / 9 / 2012 بأحد أبنائها الصديق القديم المهتم بتاريخها وعاداتها وتقاليدها الشعبية الأستاذ (عدنان محمد علي)، لذلك فالمعلومات التالية هي خلاصة ما أفادني به في اللقاء الذي جرى معه.

عن أصل التسمية

تسمية القرية نسبة إلى المقدم "الوجيه" (سعد بن نبل)، وهو أحد قادة المحاربين القدماء الذين كانوا يتمركزون ببعض التحصينات الجبلية المحاذية لطرطوس والساحل عمومًا، ويشنون غارات مفاجئة على القوات الإفرنجية "الصليبية" التي كانت تحتل طرطوس القديمة في النصف الثاني

---

[60] -: المرجع السابق ص6.

من القرن الثالث عشر ميلادي، وفي إحدى الغارات أصيب إصابة مميتة وتم دفنه في مكان الوفاة على رأس الهضبة الشمالية لموقع قرية الشيخ سعد اليوم، فصار يعرف هذا "المقدم" لاحقًا بالشيخ سعد، وقد سمي فيما بعد محيط المكان المأهول الذي دفن فيه بـ "الشيخ سعد". وصار مكان دفنه -بعد السكن حوله- ضريحًا أو مقامًا يجلّه أبناء القرية ثم تم لاحقًا بناء جامع بجواره.

أقدم العائلات المؤسسة لقرية الشيخ سعد

كان المكان حول ضريح الشيخ سعد خاليًا تمامًا من السكان فترة طويلة من الزمن حتى قدمت إليها أولى العائلات وسكنتها منذ ثلاثة قرون تقريبًا، وهي:

1-: "بيت الشيخ" وأصلهم من منجار حلب، يُرجح أنهم وفدوا إلى المنطقة منذ حوالي 250 – 300 سنة.

2-: "بيت بلال" وأصلهم من متور في اللاذقية، يُرجح أنهم وفدوا إلى المكان في الفترة نفسها.

3-: "بيت نبهان" وفدوا من مناطق غير معروفة بالتحديد، في الفترة نفسها أيضًا.

وبعد استقرار هذه العائلات توسعت ملكيتها في الأراضي المحيطة وتم غرزها بالزيتون مما استوجب أن يكون لكل عائلة معصرة زيتون خاصة بها.

ثم بدأت تتكاثر أعداد العائلات في الشيخ سعد بتكاثر أعداد النسل للعائلات المؤسسة الأولى نفسها أولاً، ومن ثم بفعل توافد عائلات جديدة من مناطق عديدة أخرى بسبب توفر فرص عمل عند المالكين الأوائل في الأراضي الزراعية والبكر الواسعة المحيطة بالشيخ سعد ثانيًا.

أما عملية نقل المحاصيل من الأراضي إلى القرية فكانت تتم بداية على الدابة أو على الأكتاف، لكن بعد شق طريق ترابي بين طرطوس والدريكيش عام 1932 من قبل سلطات الانتداب الفرنسي حيث كان يمر في منتصف قرية الشيخ سعد صار يتم نقل المحاصيل على وسيلة جديدة تجرها البغال اسمها "الطنبر".

وبدأت صلة الشيخ سعد بمدينة طرطوس التي تبعد عنها 7 كم منذ ذلك الوقت تأخذ شكل صلة تجارية حيث كان يتم -يوميًا- نقل المنتجات الزراعية والحيوانية من قرية الشيخ سعد بالطريقة السابقة نفسها من الأراضي إلى طرطوس لعدم وجود آليات نقل آنذاك، وتوضع في مكان فيها يسمى "خان

بيت عفارة" الموجود مقابل المتحف لجهة الغرب في مكان وسط بين حيي خراب إسلام وخراب مسيحية، حيث كان يتم تسويقها لأهالي طرطوس وسكانها.
في بداية ستينيات القرن العشرين بدأت عملية إصلاح زراعي واسعة في سورية تم من خلالها توزيع أراضٍ على الفلاحين الفقراء والأجراء سابقًا فتملّكوا وشعروا باستقلاليتهم، ومنذ ذلك الوقت بدأت الشيخ سعد تأخذ إداريًا شكل قرية مستقلة ومتكاملة، علمًا أن البدايات الأولى لذلك كانت خلال فترة الانتداب الفرنسي.
ومن ثم تم توسيع طريق طرطوس الدريكيش الذي يمر في منتصف قرية الشيخ سعد وتعبيده خلال ستينيات القرن العشرين ممّا سهل عملية التنقل إلى المدينة خصوصًا بقصد الدراسة كما بقصد تسويق المحاصيل والعمل.
أما في بداية السبعينيات فبدأت الصلة التجارية تأخذ سريعًا شكلًا أوسع وأقوى في التعامل التجاري بحكم تزايد الإنتاج من جهة وتزايد الطلب عليها من جهة ثانية مع توفر آليات نقل للمنتجات، كما إن بعض العائلات صارت تنتقل في سكنها إلى طرطوس مع المحافظة على بيوتها في القرية كبيت نبهان وقسم من بيت بلال، ومن ثم تزايد عدد الأفراد والعائلات التي انتقلت، بعضها بحكم الدراسة وبعضها بحكم العمل والوظيفة حتى توسعت عملية السكن كثيرًا في المدينة مع المحافظة على البيوت في القرية، واليوم تعتبر الشيخ سعد ضاحية من ضواحي طرطوس بفعل التوسع العمراني الكثيف بينهما، وتوفر آليات التنقل العامة الدائمة بينهما، كما تتوفر فيها الخدمات كافة.
الهجرات
شهدت قرية الشيخ سعد منذ أوائل القرن العشرين هجرات متتالية نحو الخارج (دول أمريكا اللاتينية) هربًا من الفقر والاضطهاد وسوق الشباب للخدمة العسكرية (سفر برلك)، وكانت البداية نحو الأرجنتين والبرازيل، ثم منذ منتصف الخمسينيات صار ميل الهجرة أكثر نحو فنزويلا، وكل ذلك أدى إلى تحسين الوضع المادي للقرية، خصوصًا أن اغلب المهاجرين كانوا يعودون مع ملاحظة أن الهجرات الأولى في بدايتها كانت تهتم كثيرًا وتعتمد في بلد المهجر على الروابط الاجتماعية الثقافية للمهاجرين، أما في الهجرات التالية بعد ذلك غاب هذا الاهتمام.
يمكننا أن نضيف هنا -أيضًا- أن كل هذه الهجرات آنذاك كانت ظاهرة عامة وللأسباب نفسها تقريبًا في كل القرى المحيطة بالشيخ سعد شرقًا وشمالًا

(إسقبولة – بسمالة – دوير الشيخ سعد – بيت السلطان – مرمحين – بملكة ... إلخ).
لكن ثمة نوع آخر للهجرة معاكس شهدته الشيخ سعد، وهو هجرة الوافدين بكثرة إليها، الهجرة التي بدأت عام 1982 إثر أحداث حماة فتشكلت منذ ذلك الوقت حارة فيها سمي ب "حارة الحموية" في الجهة الغربية من القرية مع أن بعضهم سكن في مناطق أخرى.
ثم صار إقبال على التوسع العمراني في الشيخ سعد في محيطها الواسع ولا سيما من جهة الغرب، من مناطق مختلفة من الساحل خصوصًا من قبل مقاولي الأبنية؛ إذ يتم شراء الأراضي وبناء المساكن والأبنية فيها فنشأت أحياء جديدة فيها مثل "حي الصهريج" الذي يقع جنوب غرب الثانوية، والذي يسكنه أسر من أنحاء الساحل كافة، بل ومن بعض المدن السورية الأخرى حتى أن أبناء الشيخ سعد يبدون كالغرباء فيها.

نشأة المدارس والتعليم

أول شكل تعليمي في القرية كان في "الكتّاب" عند شيخ في القرية، كان كفيفًا اسمه (علي الجعلوك) المعروف بالجعلوك، وكان يقوم بتحفيظ القرآن للأطفال الذكور فقط مع مبادئ حسابية بسيطة، واستمر من الثلاثينيات حتى عام 1943 بداية ظهور التعليم الحكومي في أبنية مستأجرة أو مقدمة من قبل وجهاء القرية.
فأول مدرسة مستأجرة كانت في ضهر "بيت دلول" على الهضبة الجنوبية للقرية، ثم انتقلت عام 1945 إلى الهضبة الشمالية للقرية شرق مقام "الشيخ سعد"، ثم انتقلت المدرسة إلى بيت طاهر علي سلمان دلول وبقيت عامين 1945 – 1947، ثم عادت إلى ضهر بيت دلول عام 1948 في بناية بيت عبود وبيت حسن بو حمدان (دلول)، وكان الأساتذة من خارج المنطقة كالمدرس (لطف الله بشور) من صافيتا و (جهاد رضوان) من اللاذقية.
وثمة حادثة ذات دلالة رواها لي الأستاذ (عدنان محمد علي) عن الرغبة بالتعلم تلك الفترة بالقرية وخصوصًا عند الإناث، أرى من المهم ذكرها هنا.
ففي عام 1940 وبينما كان الأستاذ (جهاد رضوان) يعطي دروسه لفت انتباهه أكثر من مرة طفلة تقف على النافذة من خارج الصف تصغي إلى المدرس باهتمام فسألها: أتحبين أن تتعلمي؟.
أجابته: نعم. فاتصل بوالدها واستأذنه بأن تحضر الدروس فوافق الوالد، وكانت أول أنثى في الشيخ سعد تتعلم واسمها (زاهية علي يوسف نبهان)، فأكملت تعليمها في القرية حتى نالت شهادة السرتفيكا، ثم انتقلت إلى ثانوية

التجهيز العامة بطرطوس حيث اضطر والدها إلى الانتقال في سكنه ـ أيضًا ـ إلى طرطوس كي لا يعيق طموحها التعليمي هذا، وكان أحد أساتذتها في ثانوية التجهيز مدرس مادة العلوم أستاذ اسمه (عبد الكريم محمود) أحبها وتعلق بها وهي بادلته الحب نفسه وتزوجا بعد حصولها على شهادة البكالوريا أوائل الستينيات، ثم ساعدتها ظروف إحداث جامعة تشرين باللاذقية وقبولها حاملي شهادة البكالوريا من دون تحديد زمن الشهادة بأن انتسبت إلى الجامعة المذكورة في بداية السبعينيات قسم أدب عربي وتخرجت مجازة في اللغة العربية وصارت مدرسة.

تم بناء أول مدرسة رسمية في الشيخ سعد عام 1950 بجهود أهالي القرية وتمويلهم، وفي عام 1970 تم تطوير المدرسة حيث صارت إعدادية، ومنذ سنوات تحولت إلى ثانوية، ثم بنيت ثانوية جديدة مستقلة أوائل الثمانينيات.

تُعد الشيخ سعد، منذ البداية، قرية متطورة تعليميًا قياسًا على محيطها، فأول شهادة جامعية فيها حصل عليها الأستاذ (علي سلامة) أوائل الخمسينيات باختصاص فيزياء وكيمياء من جامعة دمشق.

وثاني شهادة عالية للدكتور (أحمد منصور) أوائل الستينيات باختصاص زراعة، وصار فيما بعد مدرسًا في جامعة تشرين باللاذقية.

وثالث شهادة عالية للأستاذ (جهاد محمد علي) أوائل الستينيات باختصاص أدب عربي.

ورابع شهادة عالية للسيدة (روعة نبهان) أوائل الستينيات باختصاص تاريخ.

وصارت بعد ذلك تتتابع الشهادات العالية بكثرة وتتنوع فيها الاختصاصات، تجارة – علوم إنسانية – مع ملاحظة أن الاتجاه كان أكثر ميلًا نحو الاختصاصات العلمية البحتة.

أما ثقافيًا وأدبيًا فقد ظهر فيها شاعر واحد فقط اسمه (غانم حسن الشيخ)، لا توجد له إصدارات ولم يحصل على الشهادة الثانوية، ومع ذلك كان مهتمًا بالمعرفة مواظب الحضور إلى طرطوس لمتابعة الجديد من إصدارات الكتب في المكتبات فيها، وربما هذا ما أهّله ليكون مدرسًا في تجهيز طرطوس إلى أن ترك مهنة التدريس بإرادته، فقد كان مزاجيًا جدًا لم يهتم بتنظيم حياته الشخصية والفكرية بل كان ولعًا بالجمال وبشكل خاص جمال المرأة.

وفي أوائل السبعينيات تشكل بمبادرة من طلاب الجامعة وبعض معلمي الابتدائية في القرية أسبوع ثقافي خلال الصيف استمر 3 أعوام فقط.

أما الحياة السياسية في القرية فقد شهدت نشاطًا ملحوظًا عند بعض شباب القرية فترة الأربعينيات وحتى أواخر الخمسينيات 1958، وكان الحضور الأبرز في هذا النشاط للحزب الشيوعي أولاً، وللحزب القومي الاجتماعي ثانيًا.

ملاحظة أخيرة

يلاحظ المتتبع للتحولات والتطورات الاجتماعية والاقتصادية في الشيخ سعد عزوف أبنائها عبر أجيالهم حتى نهاية القرن العشرين عن الانتساب للسلك العسكري عمومًا، فالحياة الاقتصادية المعيشية فيها كانت تعتمد على ما تنتجه الأرض بداية، ونتيجة لتكاثر أعداد المتعلمين والخريجين في مختلف المراحل التعليمية فيها نما الاتجاه أكثر نحو العمل الوظيفي.

واليوم ومع الإقبال الشديد للتوسع العمراني فيها، كما أشرت سابقًا، وخصوصًا منذ عقد التسعينيات من القرن العشرين، دخل عامل جديد في الحياة الاقتصادية المعيشية للقرية وهو بيع العقارات فيها.

بملكة

منذ عقود وكلما كنت في طريقي إلى قريتي """الملاجة" أو إلى الدريكيش ذاهبًا أو عائدًا، سواء في سيارة نقل عام أم في سيارة خاصة، يمر الطريق حتمًا داخل بلدة بملكة أو بتماس مباشر معها من الجهة الشمالية الشرقية، لذلك فلها في نفسي وذاكرتي حيّز جميل متميز، ومما أذكره أنه في أوائل الستينيات، قبل تعبيد طريق عام طرطوس الدريكيش، عندما كنا نقصد القرية في عطلة الصيف بواسطة النقل سيارة جيب لاندروفر محملة بالركاب داخلها وخارجها، مكتوب على بابها الجانبي عبارة "مخصصة للطرقات الجبلية الوعرة"، تكون الاستراحة دومًا في ساحة قرية بملكة التي يمر الطريق في وسطها تمامًا، استراحة للركاب وللسيارة معًا بعد مسير ينطلق صعودًا لأكثر من ساعة من طرطوس في طريق جبلي وعر غير معبد، حيث كان يتوفر سبيل ماء للعابرين، وهذا ما كان يتيح راحة جسدية ونفسية للمسافرين العابرين في عز الصيف القائظ لذلك فقرية "بملكة" آنذاك لم تكن مجرد طريق نمر فيه بل كانت نقطة استراحة وأمان وهذا هو الانطباع الذي بقي في أذهان أبناء أجيال مرت فيها حتى أوائل السبعينيات.

مع ذلك فمنذ ذلك الوقت كنت ألاحظ في كل مرور لي ببلدة بملكة مفارقة خاصة بها، مفارقة تتجسد ببناء عمراني حديث كبير ومكلف يتكاثر فيها لكن أغلبه خالٍ من السكن، بل إن شوارع البلدة وساحتها الرئيسة غالبًا تكون قليلة الحركة خصوصًا من الأجيال الشابة، وباكرًا علمت أن سبب

ذلك يعود إلى أن أغلب سكان بملكة، مثلهم مثل أغلب سكان القرى المحيطة، يسافرون باستمرار منذ أوائل القرن العشرين إلى المهجر خلف البحار البعيدة إلى دول عديدة في الأمريكيّتين خصوصًا أمريكا اللاتينية، لكن القليل منهم يعود ليبني بيتًا جميلًا فخمًا ثم يعود ليسافر مرة جديدة إلى بلاد المهجر، وكأن الهجرة البعيدة لأبناء هذه البلدة كانت جاذبةً جدًا لهم، وأتاحت لهم فرصًا كبيرةً لا يمكن التخلي عنها، وربما لهذا السبب لم ينتج عن هذه الهجرة أثر اجتماعي ثقافي يذكر في بلدة بملكة خارج الحجر والبناء، فبقيت حتّى اليوم بإطلالاتها الرائعة وبمكانها الجميل بمنزلة استراحة مسافر قصيرة، حتى لأبنائها.

حاولت جاهدًا اللقاء مع أحد أبناء هذه البلدة الجميلة لأعرف المزيد عن ذلك وعن أصل العائلات في بملكة وعن أمور عديدة أخرى تهم موضوع الكتاب، لكنني لم أوفق بأي لقاء.

لذلك بالإضافة إلى ما سجلته من ذاكرتي ومعرفتي بهذه البلدة الجميلة سوف أتوسع بالحديث عنها بالاعتماد على المعلومات القليلة التي حصلت عليها من النت وتحديدًا موقع "الويكيبيديا" حول هذه البلدة، حيث جاء في الموقع ما يلي:

" بملكة قرية متطورة تقوم على السفوح الغربية لجبال اللاذقية، تتبع ناحية مركز طرطوس ومنطقتها في محافظة طرطوس، وترتفع 400 متر عن سطح البحر، وتقع على مرتفع تحيط به الأودية وغابات السنديان وتشرف على البحر وعلى مدينة طرطوس التي تبعد عنها 12 كم، كما إنه من الممكن مشاهدة الساحل اللبناني ومدينة طرابلس وجبال لبنان حتى قمة القرنة السوداء من القرية، مما يعطيها موقعًا سياحيًا مهمًا ،شهدت حركة عمرانية واسعة مستفيدة من أموال المغتربين من أبنائها في الأميركيتين، وفي بملكة فندق سياحي ومطاعم وعيادات طبية وصيدلية ومحطة بنزين، وتجدر الإشارة إلى إن اسم (بَمَلْكِة) من اللهجات العربية القديمة بمعنى : بيت الملك أو بيت الملكة أو دار الملوك .

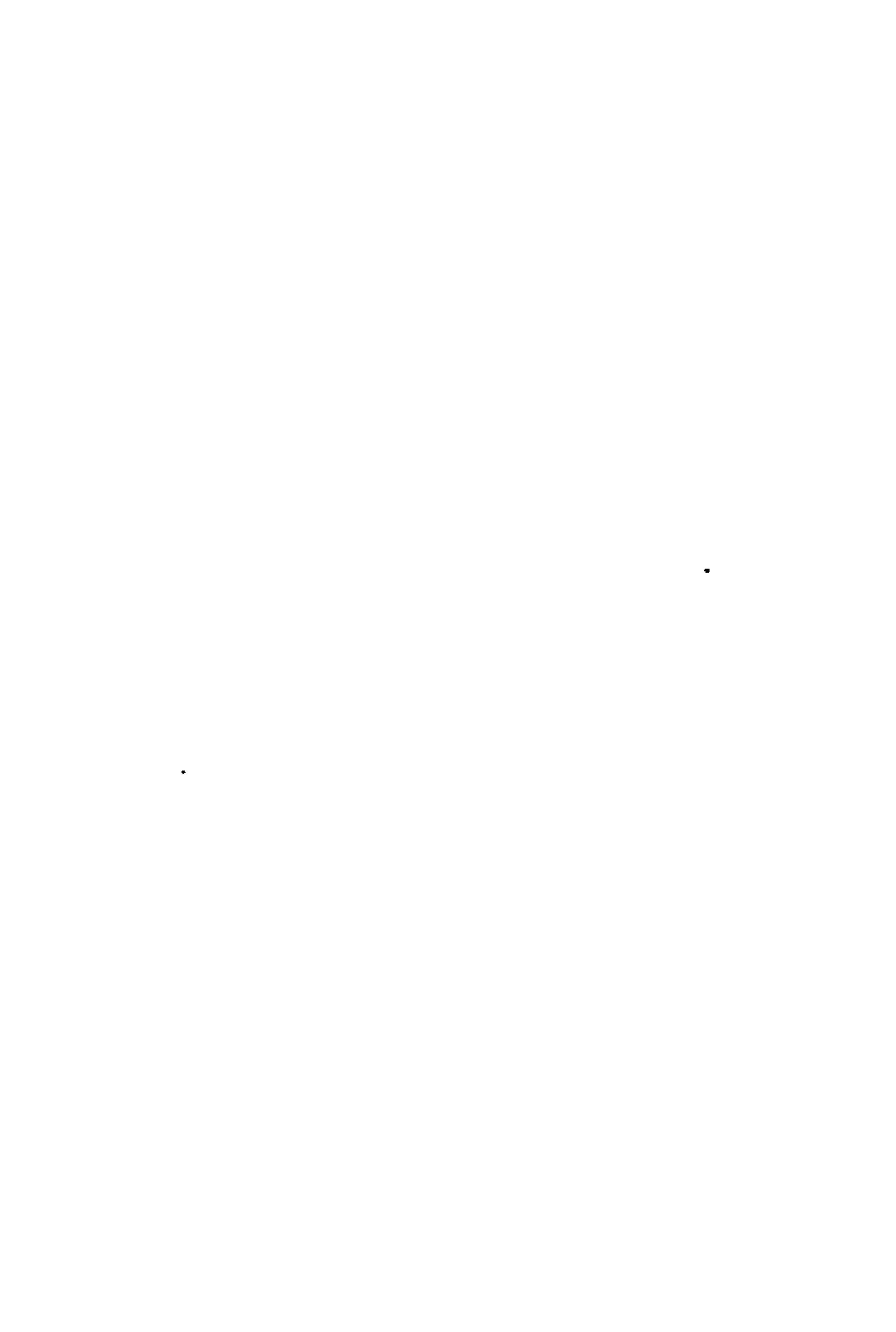
السياحة في بملكة

إن موقع بملكة وإطلالتها على سهول مدينة طرطوس وشاطئها منحها موقعًا سياحيًا متميزًا في هذه المنطقة من سوريا، وأعطى الفنادق والمطاعم فرصة كبيرة لجذب السياح إليهم، ويوجد في بملكة مطاعم وفنادق عدة لهذا الغرض.. المنطقة رائعة الجمال.

السكان

لا يتعدى تعداد سكان بملكة 600 نسمة وهو العدد للسكان المقيمين، وهناك العديد من أهالي بملكة في المهجر أو بسبب العمل خارج القرية، من المناسبات المهمة في بملكة عيد مار يوحنا، حيث يتم الاحتفال بهذا العيد بصورة خاصة ومتوارثة، وعلى نمط التقاليد والعادات المميزة والجميلة.
"انتهى الاقتباس عن الويكيبيديا.
أما الصديق الأستاذ (عدنان محمد علي) من قرية الشيخ سعد فقد كتب على صفحته على "الفيس بوك" المعلومة التالية عن قرية بملكة:
بملكة قرية كبيرة تبعد حوالي ١٠ كم شرق طرطوس. كانت في خمسينيات القرن الماضي ولغاية عام ١٩٧٥ القرية الوحيدة التي كانت تنعم بالكهرباء، أما كل القرى الأخرى المجاورة حولها كانت تستخدم قناديل زيت الكيروسين. في تلك الفترة كان العديد من أبناء القرية في المهجر في الامريكيتين وأوربا، وذلك وفر الوعي واليسر المادي لأبناء القرية مما دفعهم على العمل بالاتفاق على شراء مجموعة ديزل كبيرة لتوليد الكهرباء تعمل يوميًا مع بداية الليل بعد غروب الشمس إلى ما بعد منتصف الليل، وفي النهار كانت توفر الكهرباء لساعات محددة ومعلومة عند الأهالي، وذلك خلافًا للقرى المجاورة.
وبقيت بملكة القرية الوحيدة في المنطقة التي تنعم بالكهرباء لغاية عام١٩٧٥ عندما توفرت الكهرباء في كل بيت في ريف طرطوس.".

الباب الرابع
مدن محافظة طرطوس



الفصل الأول
صافيتا - دريكيش

تمهيد

ربما تماشيًا مع منهجي في عرض هذا الكتاب كما يتبين من الباب الأول الذي يعني الكشف أولاً عن الإطار التاريخي الجغرافي والمجتمعي الواسع الذي كان يتشكل بداية، ثم ظهرت وتشكلت من رحمه بقية الأحداث والعلاقات الاجتماعية الاقتصادية ومن ثم المدن والبلدات، كان من المفترض بي أن ابدأ الحديث عن صافيتا لأن صافيتا والمنطقة المحيطة بها من جميع الجهات، منذ القرن السادس عشر ميلادي كان لها وزنها الإداري والاقتصادي الأقوى والأكثر تأثيرًا من طرطوس التي كانت ما تزال في طور تشكلها وتحولها من بساتين ومزارع إلى حاضرة سكانية. لكن بما إن طرطوس هي المدينة الأكبر والمركز اليوم، بينما صافيتا اليوم هي مدينة "منطقة" تابعة إداريًا لمركز محافظة طرطوس كان مفتتح الكتاب في الفصل الأول عن طرطوس.

إن كل الممالك الإسلامية في العصور الوسطى وحتى أواخر عهود السلطنة العثمانية كانت ممالك برية أكثر منها بحرية، ومن ثمّ فإن حاضراتها المدنية الكبرى كانت برية داخلية بينما السواحل كانت ثغورًا أو ممرات بحرية، وكانت مراقبة هذه الثغور والممرات غالبًا ما تتم من خلال المرتفعات الجبلية القريبة والمطلة على سهول ساحلية واسعة، وهذا ما توفر في منطقة صافيتا كما سيتبين معنا لاحقًا، لذلك سميت صافيتا ب "**القاعدة الجنوبية**" لجبال الساحل السوري أو ما كانت تسمى بجبال العلويين.

* * *

صافيتا في ذاكرتي طفلا

بداية أحب أن أشير بشغف كبير إلى أن لبلدة صافيتا موقعًا نوستالجيًا خاصًا جميلا ومميزًا في ذاكرتي ووجداني لأسباب عديدة أهمها:

أولا-: إني من مواليد صافيتا أوائل خمسينيات القرن العشرين حيث كانت وظيفة الوالد، وغادرتها وأنا صغير السن جدًا عام 1957م إلى بانياس بحكم انتقال وظيفة والدي آنذاك.

ثانيا-: ذاكرة الطفل التي لم ولن تمحى لدي أبدًا، حيث تعهدتني في مرافقتها دائمًا خارج البيت امرأة من صافيتا كانت صديقة العائلة ومقربة جدًا

بصداقتها من والدي ووالدتي، ما زلت أذكر دفئها وحنانها واهتمامها البالغ بالأطفال، حيث كانت أول من عرّفني على ساحة صافيتا الرئيسة وبعض شوارعها القديمة وأزقة حاراتها آنذاك، وما زلت أذكر اسمها كما أذكر اسم أمي تمامًا، إنها (سلمى ديب – أم عيسى)، إذ كان ابنها (عيسى) مسافرًا في المهجر البعيد وزوجها متوفى منذ زمن، فكانت علاقتها مع بيتنا تعويضًا عن بعض هذا الفقد، وربما كان اهتمامها الزائد بي تعويضًا عن فقدها لابنها أو لحفيد مفترض لديها، لذلك لها في ذاكرتي موقع دافئ مميز حتى إنها بعد انتقالنا إلى بانياس كانت تزورنا هناك بين فترة وأخرى حيث كانت تتابع اهتمامها الخاص بي هناك أيضًا، لكنها بعد فترة انقطعت فجأة عن زيارتنا في أوائل ستينيات القرن العشرين فقررن أخواتي الكبيرات الذهاب إلى صافيتا وزيارتها للاطمئنان عليها، وكنت معهن في هذه الزيارة حيث إنني كبرت قليلًا وصرت أقرب للفتى الصغير وستفرح بلقائي، وأذكر لحظة دخولنا عندها كيف عانقتني بحب عميق وشهقة كبيرة وهي تدمع، وبعد أن جلسنا لاحظنا وجود تابوت جديد جاهز في الغرفة، وعندما سألناها عن السبب أجابت بأنها تحضر كل مستلزمات جنازتها وحدها لأنها وحيدة، وربما لن يهتم بموتها أحد، وما زلت أذكر مشاعر الكآبة التي انتابتني وقتها على الرغم من فتوتي الصغيرة آنذاك، فعانقتها بحب أكثر وكأنني أحس أنه الحنان الأخير الذي أتلقاه منها، وهذا ما كان فعلًا، فقد ماتت من دون أن نعرف بها، وغبت أعوامًا طويلةً عن صافيتا بعد ذلك.

لذلك ففي كل مرة كنت أزور فيها صافيتا، في السنوات الخمس الأخيرة، كنت أقصد حي "الحارة الشرقية" الذي ينتشر على سفح التلة المرتفعة لجهة الشرق في صافيتا قرب الحاووز لأتسكع فيه وأتذكر أكثر، حيث كان المنزل الذي ولدت فيه وبيت جارتنا مربيتي الثانية وأنا ولد صغير "أم عيسى"، وكان بيتنا كأغلب بيوت الحارة آنذاك مبني من الحجر الأبيض الجميل وأمامه لجهة الغرب إطلالة ولا أروع لكامل البلدة، وكان بودي السؤال عن (أم عيسى) سلمى ديب لأعرف مكان مثواها الأخير لأزوره وأضع عليه زهرتين وقبلة خاشعة، لكني كنت أتردد ليقيني أن لا أحد من جيلها بقي على قيد الحياة، وليس لها ذرية تتوالد في الحي، وربما يسخر مني من أسأله عنها، لذلك أعتبر السطور السابقة في ذكرها هنا، في كتابي هذا، تحية وفاء لها ولروحها الإنسانية الطيبة والنبيلة حقًا.

ثالثًا- إني دخلت في سن الخامسة من عمري مدرسة الراهبات فيها آنذاك، التي تقع على مقربة من البرج لجهة جنوب شرق، على الشارع الرئيسي

مباشرة من ساحة صافيتا الرئيسية شرق جلوب، إلى ساحة السرايا أعلى المرتفع غرب شمال، وما زالت ذاكرتي مفتوحة بصفاء كامل على قاعات الصف وأسلوب الراهبات الناعم والمميز في التعامل مع الأطفال، حيث كان لي أغنية خاصة يتم استقبالي فيها يوميًا، وربما كان ذلك أسلوبهن مع كل الأطفال.

لذلك لصافيتا في ذاكرتي ووعيي حتى اليوم مكان حميمي دافئ، إضافة إلى موقعها الجغرافي الجميل المميز فعلًا، الذي يترك انطباعًا رائعًا عند كل من يزورها ويتعرف عليها، وذلك -أيضًا- إلى جانب موقعها المهم وثقل دورها المميز في أحداث ريف الساحل السوري وتاريخه عمومًا من بانياس شمالًا حتى قلعة الحصن وتلكلخ جنوبًا، ومن القدموس شرقًا حتى طرطوس وسهل عكار غربًا، كما سيتبين لنا لاحقًا.

مع ذلك أحب أن أشير أيضًا، إلى أنه مع بدايات التحضير لمشروع هذا الكتاب منذ خمس سنوات قمت بزيارة مدينة صافيتا أكثر من مرة للتعرف على بعض شخصياتها المعروفة بمعلوماتها وذاكرتها الخصبة عن المدينة والمنطقة عمومًا بقصد إجراء حوارات شخصية معها، لكن لم يتمن لي ذلك مع أني اتصلت مع أحد الدارسين المهتمين فعلًا من أبنائها، ووعدني مُؤجِّلًا اللقاء أكثر من مرة من دون أن يتم.

لذلك سأعتمد في الحديث عن صافيتا هنا في الصفحات القادمة على ثلاثة مراجع من الكتب لأبناء صافيتا، حصلت عليها من خارج صافيتا عن طريق السؤال والاستعارة، المراجع التي ستتعرفون عليها من خلال الإشارة إليها سواء في المتن أم في الهوامش. والمفارقة ذات الدلالة هنا أن صافيتا التي لم أتمكن من اللقاء مع أي شخص فيها لتدوين معلومات كافية عنها وعن تاريخها أتيح لي مراجع مهمة عدة عنها أفادتني كثيرًا في الكتابة على عكس مدينة طرطوس، وهذا يعكس الأهمية التاريخية النسبية لصافيتا وموقعها قياسًا على طرطوس كما أشرت سابقًا.

صافيتا ـ الدريكيش

<u>لماذا صافيتا – الدريكيش؟</u>

. آثرت أن أضع مدينتي "صافيتا – الدريكيش" تحت عنوان واحد وذلك بسبب الجوار الجغرافي القريب والتداخل الطبيعي – الديمغرافي جدًا بينهما، حيث إن الريف الجبلي المحيط بينهما متداخل، ما انعكس، وما يزال، على وشائج قربى عديدة بين الأهالي. وبسبب تبادل في المركز

الإداري بينهما؛ حيث كانت الدريكيش هي المركز الإداري خلال فترة طويلة من الحقبة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثم صارت صافيتا مع بداية عهد الانتداب الفرنسي على سورية في القرن العشرين هي المركز الإداري.
حتى إن بعض الذين كتبوا عن تاريخ صافيتا من أبنائها كالمؤلف الكاتب السيد (منير عبد الحميد صقر) في كتابه "تاريخ صافيتا في العهد العثماني"([61]) يعتبر أن "بلاد صافيتا "في الفترة ما بين 1516- 1918م كانت حدودها شمالاً ناحيتي القدموس والخوابي، وجنوبًا مقاطعة عكار، وشرقًا النواحي مصياف وحزور وحصن الأكراد، وغربًا ناحية طرطوس والبحر الأبيض المتوسط." مما يعني أن "الدريكيش" الحالية وتوابعها كانت ضمن جغرافية وإدارة ما أسماه الكاتب "بلاد صافيتا".
وكذلك يفعل الدكتور (وديع بشور) في كتابه "تاريخ صافيتا ومنطقتها"([62]) عندما يقول: "ولما.الاسم "صافيتا" هو اسم لكل المنطقة المحيطة ببرج صافيتا أي قضاء صافيتا ومنطقتها كما كانت حتى عهد قريب، وتمتد من الجبل أي "جرد صافيتا" من جبل النبي صالح وجبل النبي متى حتى البحر، أي ساحل صافيتا. وللاختصار كنا نقول "البرج" فقط لنعني برج صافيتا البلدة ، كما كان المغتربون يكتبون على رسائلهم "برج صافيتا"، وهكذا كما هو مدون في كتب التاريخ" ([63]). حتى إن الدكتور (بشور) يشير إلى تبادل في مركز سلطة القضاء بين الدريكيش وصافيتا عندما يقول: "وكانت الدريكيش (برمانة) مركز القضاء منذ عام 1856م في العهد العثماني حين نقل إسماعيل خير بك مركز سلطته إليها، وبعد أخذ وردّ أعيد المركز إلى برج صافيتا عام 1920م، وكان ذلك بمساعي جبرائيل إلياس بشور."([64])
ليس موضوع كتابنا هذا الدخول في أحداث وتفاصيل تاريخية بعيدة كما يشير إليها عنوانا الكتابين المذكورين، لكن قد يكون من المفيد اقتباس بعض المعلومات والأرقام في كليهما، وهي معلومات وأرقام يعتمد المؤلفان فيهما

---

[61] -: (منير عبد الحميد صقر) " تاريخ صافيتا في العهد العثماني 1516 – 1918م" صادر عن دار العرّاب للدراسات والنشر والترجمة - دمشق - سورية طبعة ثانية 2012م

[62] -: (الدكتور وديع بشور) "تاريخ صافيتا ومنطقتها" مطابع ألف باء – الأديب، دمشق، توزيع مكتبة بالميرا اللاذقية، الطبعة الأولى، 2008م.

[63] -: المرجع السابق ص7.

[64] -: المرجع السابق ص8.

على مراجع ووثائق خاصة مذكورة في الكتابين، حيث تكون مهاذا لو مدخلا سوسيولوجيًا للفترة التي أتابعها في كتابي هذا، لجهة التركيبة السكانية لصافيتا الحالية وأصولها القديمة، وهذا ما سأذكره لاحقًا في أوانه.

عن أصل التسمية:-

لكن في البداية لا بد من التعرف على أصل تسمية "صافيتا" كما وردت فيهما بالاعتماد على مراجع متعدد ومختلفة نختار منها ما يلي:

فالمؤلف (صقر) يكتب أن "اسمها سرياني يعني صفاء الحياة، سماها الأشوريون "صيوصو" وتعني الهواء النقي، أما اسمها الفينيقي فكان "صارفتا" وسماها اليونانيون في (الحقبة الهلنستية) في البداية بهذه التسمية، ثم سموها (صافيتا) وتعني الهضبة البارزة.

أما العرب فسموها عند فتحها سنة 16هـ سافيتا وصافيتا. أما الصليبيون فسموها (الحصن الأبيض) وبنوا داخل القلعة البرج وسمي (البرج الأبيض) لأن حجارته كلسية بيضاء ....

وفي العهود اللاحقة استقر اسمها (صافيتا) وحتى الآن، وأحيانًا صافيتا البرج حيث تنسب للبرج نتيجة لشهرته الكبيرة، الذي يتربع ضمن قلعتها الحصينة الأثرية....."(65).

ولهذا البرج أهمية كبيرة في موقع صافيتا عبر تاريخها القديم من الناحية العسكرية لمن يتحكم به، وهذا ما سأشير له باختصار لاحقًا.

أما الدكتور (بشور) فيشير بداية إلى الاسم البيزنطي حيث يقول: "ارجيرو كاسترون – Argyro Kastron" الذي أطلقه البيزنطيون على برج صافيتا أي "الحصن الفضي" أو "البرج الفضي"، بينما سماها الصليبيون "شاستيل بلان - Chastel Blanc" أي البرج الأبيض. ثم يعود ليحسم أصل التسمية كما يراه عندما يقول: " يقول البعض إن الاسم آرامي من "صفيتو" أي النسيم العليل غير أن الحقيقة غير ذلك، فاسم صافيتا هو يوناني الأصل مثل "سوفيتا" قرب (ديار بكر) وقد شرح لي المعنى الصديق اليوناني (فاسو كارايانيس) عام 1969 بأنها تعني البناء النافر كغرفة الدرج والافريز وممشى القناطر والملحق أي ما يضاف إلى الجسم الأساسي للبناء، كما أنها تطلق على القرى المبنية على جبل وكأنها "نفرة" مضافة إلى جسم هذا الجبل."(66) ثم يدعم رأيه هذا بمعلومة تاريخية

---

65 -: صقر " تاريخ صافيتا في العهد العثماني" ص 48 – 49.

66 -: بشور "تاريخ صافيتا ومنطقتها" ص7 - 8

بسردها من دون ذكر مرجع أو أمثلة محددة لها عندما يقول: "مع العلم أنه بدأ بناء القرى اليونانية في سوريا منذ القرن السابع ق.م ولاتزال بقاياها وأسماؤها موجودة حتى الآن".([67])

نحن نعرفها باسمها الحالي فقط من دون أية إضافات أخرى إلا من باب فضول المعرفة التاريخية القديمة، وأغلبها كما ،هو واضح، مستمد من اجتهادات وقراءات تاريخية عديدة تضيء بقدر كبير على تاريخ المنطقة.

لذلك من المفيد هنا -أيضًا- الإشارة إلى موقع صافيتا التاريخي الجغرافي، الجميل والمهم، وسوف أعتمد في ذلك على الوصف الجميل والدقيق الذي قدمه الدكتور جورج بوست([68])، الذي كتب في إحدى مراسلاته مع القنصل الإنكليزي في بيروت في شهر آذار عام 1868م ما يلي:

"على أكثر الهضاب انخفاضًا في السلسلة الجبلية التي تبرز من نهايات الشعاب الكبيرة لمنطقة "سهل عكار" شمالي طرابلس وترتفع شيئًا فشيئًا في اتجاه الشمال عبر الشاطئ السوري وصولًا حتى أنطاكية، وعلى مسافة تسع ساعات من مدينة طرابلس، تتوضع القرية ذات المنظر الأخاذ والقلعة في صافيتا التي يعطي المنظر من أعلى سطحها انطباعًا دنيًا رائعًا ....

وإن هذه القلعة، مثلها مثل ذلك التحصين المعروف (بقلعة الحصن) والواقع إلى الشرق منها، هي: واحدة من الأعمال الشمالية للقوة الصليبية، وقد بنيت على أساس تحصينات أخرى شديدة القدم كانت موجودة قبلها وهي من

---

[67] -: المرجع السابق ص8

[68] -: جورج بوست هو أحد الرسل الأمريكيين المكلفين بمتابعة عمل بعثة التبشير "المسيحي البروتستانتي" في قضاء صافيتا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد حصلت منذ سنين من أرشيف خاص لأخي الدكتور إلياس حسن على أوراق عدة منضدة ومطبوعة كانت موجودة لديه، من دون معرفة مرجعها الحقيقي، تتضمن مقاطع مجتزأة من مراسلات لبعض المشرفين على البعثة مع القنصلية الإنكليزية في بيروت، ونص التعريف بصافيتا الذي أشرت إليه أعلاه مأخوذ منه.

ثم قرأت في كتاب آخر عن تاريخ صافيتا في قسم الملاحق ملحقًا خاصًا يتضمن التوصيف نفسه عن صافيتا بقلم (جورج بوست) لكن، -أيضًا- من دون ذكر دقيق لمرجع النص الأصلي. والملحق مترجم عن الإنكليزية من قبل الأستاذ (بسام القحط) كما جاء في كتابه المعنون "مقاطعة صافيا – التاريخ الاجتماعي والاقتصادي 1790 – 1832م". وسنتم الإشارة إليه بالتفصيل لاحقًا.

الحجارة الكلسية ويشير وضعها إلى أنها استعملت في وقت من الأوقات، ما قبل عهد الإغريق، وذلك من أجل موقعها العسكري المميز كواحدة من مدن الملجأ في الفترة العربية الكنعانية.

وإن قلعة صافيتا مثلها مثل بعض التحصينات المهمة في سورية: قلعة الشقيف، والحصن... تمثل البناء المقام على نموذج دائري مفتوح في تلك العهود القديمة، التي بقيت هكذا تتحدى الزمن لقرون عديدة ومن دون أن تحسب أي حساب لتوالي السنين وتواتر العهود والأزمنة وهي سليمة في مظهرها حتى أكثر من الأبنية الأحدث عهدًا منها التي تغطي (الخندق) مخترقة إياه نزولا حتى أسفل الهضبة وأساساتها قائمة مستندة فوق الأقبية والكهوف.".

أما بخصوص البرج فيكتب الدكتور بوست قائلا: "تم بناؤه في مركز التحصين القائم اليوم[69]، فهو يبلغ من الارتفاع حوالي 100 قدم عن مستوى سطح الأرض وطوله وعرضه على الأرض هما 80 و 40 قدمًا. وهو يخدم الغرض المزدوج لكل من هيكل العبادة – محفل – وكذلك كحماية للقلعة. هذا البرج قد بني من الحجارة الكلسية الكبيرة والمنحوتة بدقة".

ثم يتابع في مكان آخر:

"أما المنظر من أعلى هذا البناء فهو عظيم على امتداده: فلبنان بقممه الثلجية يظهر بعظمة وبروعة في الاتجاه الجنوبي الشرقي، وان الفجوة التي بين هاتين السلسلتين الجبليتين وبين سلسلة جبال العلويين هي المدخل إلى حماة ...

بعدئذ وعند اتجاهنا إلى الجانب الشمالي فإن العين يمكنها أن تصل تقريبا إلى حدود اللاذقية وجبل الأقرع.. أما عند النظر إلى الجهة الغربية فإن البحر المتوسط ذا اللون الأزرق يمتد في المدى حتى يلتقي مع الأفق البعيد.. وفي اتجاه الجنوب: تستلقي الشعاب الغنية لكل من عكار وطرابلس على التتابع، ومن ورائهما (وجه الحجر) والساحل الممتد في اتجاه بيروت".

أردت من هذا الاقتباس الطويل لبعض المقاطع الشاعرية الجميلة وذات الدلالة المهمة من إحدى رسائل الدكتور (بوست) الإشارة إلى الموقع الجغرافي المهم لبلدة صافيتا، الذي أعطاها أهمية تاريخية كما المحت سابقًا.

---

[69] -: رسائل الدكتور بوست مكتوبة في شهر آذار عام 1868م كما هو مدون بأوراق المرجع الذي أشرت إليه سابقًا.

وعلى الأهمية ذاتها لموقع صافيتا وبرجها يكتب (منير عبد الحميد صقر) في كتابه "تاريخ صافيتا في العهد العثماني([70]) قائلاً:

"ويشرف البرج على إطلالة واسعة في كل الاتجاهات، حيث كان يشكل شبكة للاتصالات عبر الإشارات مع القلاع والأبراج المجاورة عن طرق الدخان نهارًا والنار ليلاً، ومن هذه القلاع:

طرطوس – أرواد – المرقب – عمريت – يحمور – برج ميعار – القليعة – طرابلس – حصن الأكراد – عكار – أم حوش – برج عرب – برج الزارة – العريمة – برج تخلة – الكيمة".

أصل التركيبة السكانية لصافيتا وقضائها، وتحولاتها، منذ أواخر القرن الثامن عشر-:

يقول الكاتب صقر في كتابه "تاريخ صافيتا في العهد العثماني" أن منطقة صافيتا في أوج اتساعها المحيطي أوائل القرن التاسع عشر ميلادي "كانت حدودها من شرق وادي العيون حتى البحر الأبيض المتوسط ومن نهر قيس حتى الكبير الجنوبي وتشمل /450/ قرية ومزرعة." ثم يسجل تحت عنوان "عدد سكان صافيتا" المعلومات والأرقام التالية([71]):

"سنة 1830م: /400/ نسمة مسلمون علويون + /50/ نسمة مسيحيون + 500 جندي تحت السلاح.

سنة 1831م: /500/ نسمة مسلمون علويون + /150/ نسمة مسيحيون + /300/ جندي تحت السلاح.

سنة /1841م: /400 نسمة مسيحيون + /300/ نسمة مسلمون علويون.

سنة 1880م: /1000/ نسمة مسيحيون + /250/ نسمة مسلمون علويون.

سنة 1900م: /1800/ نسمة مسيحيون + /200/ نسمة مسلمون علويون."

ثم يقفز مباشرة إلى عام 2009م ليسجل:

"أصبح عدد سكان مدينة صافيتا في نهاية عام 2009م /31000/ نسمة."

أما بخصوص "قضاء صافيتا" فينقل عن مرجع آخر بعنوان "تاريخ طرابلس" لـ (حكمت بك شريف) الذي كان مأمور المراقبة في لواء طرابلس المعلومات التالية عام 1905م([72]):

---

70 -: مرجع مذكور سابقا ص50.

71 -: المرجع السابق ص51.

72 -: المرجع السابق ص52.

الحدود: يحده شرقًا قضاء الحصن، وشمالًا قضاء المرقب، وجنوبًا قضاء عكار، وغربًا البحر الأبيض المتوسط

المساحة: الأراضي المشجرة وغير المشجرة /220603/ دونمًا (لم يذكر الأراضي البور).

عدد السكان: /30851/ نسمة

المسلمون: /28511/ نسمة 13997 ذكور، 14514 إناث.

المسيحيون: /2340/ نسمة 1343 ذكور، 997 إناث.

عدد القرى: /361/ قرية. (كان عددها قبل عصر التنظيمات أكثر من ذلك).

المعرض الوطني: كان يوجد في قضاء (مقاطعة صافيتا) معرض سنوي في الفترة من العاشر من شهر تموز إلى العشرين منه حسابًا شرقيًا (شرقي أي من 23 تموز حتى الثاني من آب غربي).

حيث يقام في دير مار إلياس بالقرب من الصفصافة، وهذا المعرض عبارة عن سوق كبير تعرض فيه محاصيل بلاد صافيتا وجوارها للبيع والشراء والأخذ والعطاء، واستمر ذلك إلى أربعينيات القرن العشرين الميلادي".

ثم يتابع الكاتب (صقر) عن أصل التركيبة السكانية لصافيتا فيقول[73]: "وبالعودة إلى المصادر والمراجع التاريخية يتضح لنا أن سكان قرية صافيتا كانوا مسلمين علويين عند احتلال العثمانيين لبلاد الشام ولبعد ذلك بفترة زمنية طويلة، ولكن هذا الواقع السكاني لهذه القرية بدأ يتغير منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بقدوم السكان المسيحيين من قرى المقاطعة وخارجها إليها، للعمل بمجالات مختلفة وخاصة في حرفة البناء والحدادة، وصناعة الأواني النحاسية وتبييضها وفي أعمال المحاسبة والصرفيات، ومسك سجلات وجداول جمع أموال الميري وغيره." ثم يستعرض الكاتب (صقر) بعض المصادر التي اعتمدها في هذا الخصوص.

أما الدكتور (وديع بشور) فيسجل في كتابه "تاريخ صافيتا ومنطقتها" تحت عنوان "سكان صافيتا ومنطقتها"([74])المعلومات والأرقام التالية:

"ليس في، منطقة صافيتا إثنيات غير موجودة في المناطق السورية الأخرى ولا فئة دينية لا يوجد من مذهبها في المناطق الأخرى. ووفق إحصائية فرنسية لعام 1928 كان عدد سكان برج صافيتا 3143 نسمة منهم 2739 روم أرثوذكس بينما كان عدد سكان القضاء 40110 منهم 29622 علويًا

---

[73] -: المرجع السابق ص 56 – 57.

[74] -: مرجع مذكور سابقًا ص46.

و7522 أرثوذكسيًا و1897 مارونيًا و830 سنيًا و156 بروتستانتيًا ومعظم السنة من التركمان.".
ثم يروي بتفصيل أدق تحت عنوان "آل الحداد في صافيتا"([75]) كيف سكن المسيحيون في صافيتا منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وملخص ذلك أن قسمًا من آل حداد وبشور وجبور وحنا الذين كانوا يسكنون في منطقة "بهرمين" التي تقع على طريق بملكة دريكيش بمسافة تقدر ب 2400 متر إلى الشرق من بملكة هجروها بعد أن تعرضت تلك المنطقة لحريق عام 1765 إلى صافيتا التي استقروا في برجها، ثم لحقهم ما تبقى منهم إثر الحريق الثاني الذي تعرضت له قرية "بهرمين" عام 1825م. وكان حكام قضاء صافيتا آنذاك هم (آل شمسين) كمتسلمين؛ أي ملتزمين، من قبل العثمانيين، فقام هؤلاء بمساعدة تلك العوائل المسيحية الأولى في الاستقرار، وتمكينهم في البقاء في صافيتا لذلك فهو يقول:
" آنذاك كان المسيحيون قليلين في برج صافيتا، وبيت عبيد وبيت ضوميط هما أقدم عائلتين مسيحيتين في برج صافيتا ثم تجمعت باقي العائلات المسيحية في البرج بعد توطن آل الحداد فيها – ومنها عائلات طيار وبيطار وهزيم وصائغ وجرجوس وسعدى ...إلخ."([76]).
ويذكر المؤلف (بسام عيسى القحط) في كتابه "مقاطعة صافيتا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي 1790 – 1832"([77]) بالاستناد إلى مراجع كتابه أن " ...مقاطعة صافيتا البلاد الغنية بالقمح والشعير والحرير والخضروات يسكنها العرب المسلمون فقط بحوالي 40000 نسمة، ولديهم زعيم اسمه الشيخ صقر وهو ملتزم البلاد."([78]). ثم يسرد رواية شعبية متداولة حتى اليوم في صافيتا تحكي قصة مجيء المسيحيين إلى صافيتا فيقول([79]):
"تلك الرواية تقول: إن عملية إحراق قرية بهرمين في العام 1825م، قد تمت على يد زعيم قافلة من المكاريين، جمع مكاري، وهو قائد البغل الناقل

---

[75] -: المرجع السابق ص 73 – 74 – 75 – 76 – 77 – 78.
[76] -: المرجع السابق ص76
[77] -: بسام عيسى القحط "مقاطعة صافيتا – التاريخ الاجتماعي والاقتصادي 1790 – 1832م" صدر عن دار الفتاة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق سورية، لا توجد سنة إصدار. لكن من تاريخ توقيع المقدمة للمؤلف يبدو أنه صدر عام 2002م.
[78] -: نفس المرجع ص109.
[79] -: نفس المرجع ص 111 – 112.

للبضائع، وهذه القافلة هي من القدامسة، سكان القدموس، وكانت تكاري نقل البضائع فيما بين القدموس وطرابلس. وقد مرت في قرية "بهرمين" فأهينت على يد السكان فيها لذلك قامت القافلة بإحراق القرية وتهجير سكانها منها. هؤلاء السكان هم الذين التجؤوا إلى آل شمسين في صافيتا فيما بعد.

وسواء كانت تلك الرواية الشعبية صحيحة أم لا، فإن مما لاريب فيه هو قصة هجرة (آل الحداد) من بهرمين إلى صافيتا، وكذلك ليس هناك أي شك في أن هؤلاء قد عملوا لدى (آل المحفوض)، الذين ثبتوا لهم أوضاعهم ومكنوهم من الاستقرار في مقاطعة صافيتا، وذلك بناء على حجة وثيقة شبه رسمية ثابتة بشكل قاطع وهي وثيقة "الخزمتكارية".

وكان آل الحداد، وبشور، وجبور، وحنا، أولاد ديب الحداد هم الخميرة التي انطلق منها تسرب النصارى إلى مقاطعة صافيتا بعد انتهاء الربع الأول من القرن التاسع عشر.

فجاء أولاد الخوري أقرباء بشور إلى صافيتا من بهرمين حوالي 1830م، ثم أتى آل سمعان وآل ضومط وآل عبيد، حيث ثبت وجودهم في صافيتا عام 1842م وبعدهم جاءت عائلة آل البيطار التي أتى أفرادها من قرية عين الذهب الجرد وأخيرًا عائلة الطيار التي جاءت من قرية (بسورم) بسوري، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولحقتها معظم عائلات صافيتا النصرانية اليوم ...".

ثم يستعرض المؤلف جدولا إحصائيًا صغيرًا قام بإعداده شخصيًا كما يذكر، يبين فيه تغير نسبة النصارى في عدد سكان مقاطعة صافيتا بين عامي 1790 – 1959م حيث ارتفعت النسبة من 0% إلى 34,4 % من عدد السكان.

أما صعود آل بشور الاقتصادي وتزايد نفوذهم فيعود كما يقول المؤلف في كتابه إلى مساندة أحد البارزين من آل الحداد وهو (إبراهيم بشور) لحملة إبراهيم باشا المصرية على بلاد الشام، وبعد انتصار المصريين على العثمانيين وانهيار أسرة "محفوض – شمسين" انهيارًا تامًا في مقاطعة صافيتا تم تكليف إبراهيم بشور من قبل القائد المصري (سليم بك) "بعملية إحياء واستصلاح جميع الأراضي الموات في مقاطعة صافيتا، منطقة سيف البحر الجغرافية على شرط أن كل ما يستصلحه من أراض يكون ملكًا له ولا يدفع عنه ضريبة لمدة خمس سنوات، وقد قام إبراهيم بشور باستصلاح أراضي قرى عين الزرقا، المنطار، على ساحل البحر، وكذلك قرى: الجماسة، تل كزل، ودير الحجر، والهويسبة، وكوخ يزبك في السهل.".

ثم يتابع المؤلف قائلا: "وفي أيام (إسبر ابن إبراهيم بشور 1806 - 1869م) تعاظمت ملكية آل بشور الزراعية فاشترى (إسبر بشور) أراضي عدة قرى في جرود مقاطعة صافيتا، كما عمل موظفًا في حكومة ولاية طرابلس بصفة "خزندار"(80).

التبشير البروتستانتي في صافيتا

لعله من المفيد هنا، وبما يتلاءم مع فكرة الكتاب، الإشارة -أيضًا- إلى نشاط التبشير المسيحي البروتستانتي الذي جرى في صافيتا وقضائها منذ منتصف القرن التاسع عشر، الذي ولد ،على ما يبدو، كرد فعل على ازدياد ملكية آل بشور ونفوذهم في المنطقة على حساب الفلاحين والفقراء المسيحيين خصوصًا كما تشير إلى ذلك تقارير المشرفين على بعثات التبشير المرسلة إلى السفارة البريطانية في بيروت، ومرجعي في ذلك هو كما ذكرت سابقًا مجموعة أوراق مطبوعة حصلت عليها كانت موجودة في أرشيف خاص للدكتور إياس حسن.

ونظرًا إلى أهمية ما ورد في هذه الرسائل- التقارير، ليس لجهة التبشير البروتستانتي فحسب وإنما -أيضًا- لما تضمنته من إشارة جدية وواقعية للبيئة السكانية الديمغرافية والحال المعيشي العام لسكان صافيتا وبؤسهم آنذاك.

فتحت عنوان أهمية موقع صافيتا تقول التقارير أو الرسائل، التي كتب معظمها الدكتور (جورج بوست)، في بدايتها:

"إذًا، ووفقًا لآمالنا وجد "الروح" طريقه إلى داخل صافيتا لكن تأثير ذلك لن يكون من الممكن بسهولة تقييمه. إن المنطقة بأسرها هي حديثة بالنسبة إلى نشاطات المبشرين البروتستانت، وهي -أيضًا- كثيفة بالسكان وأراضيها خصبة. وإنها علاوة على ذلك محاطة بـ (المسلمين العلويين) من جميع الجهات وهي بذلك تقدم المعاني الأفضل حتى اليوم من أجل الوصول إلى عرق وسلالة غير متصرنة..

وبالمناسبة فإنه قد فاتني أن أذكر أنه من بين الأسماء (الخمسمئة) التي سلمت إليّ باليد كان هناك حوالي المئة والخمسون اسمًا من هذه الطائفة. ولقد كان هنالك فريق معتبر ممثلًا لها

في داخل الوفد الذي جاء إلينا. وإن عدد المهتدين من تلك الطائفة سوف يكون من دون شك مرتبطًا بقوة دخول الروح فيما بينهم. وهذا الدخول

---

[80] -: نفس المرجع ص 98.

مرتبط ومتعلق أيضا بعربون وقوة الصلاة المقامة لنا من قبل شعب الله في أمريكا!".
ثم يكتب الدكتور (بوست) بتاريخ 8 أيار من عام 1865م، بعد زيارة ثانية لصافيتا تحت عنوان
الحالة المدنية الراهنة:
"لقد وجدت الناس هنا شديدي الصراحة وذلك بالنسبة إلى مشاعرهم نحو العائلة الإقطاعية التي حكمتهم في كامل هذا القضاء عن طريق عملها في جباية الضرائب "أفندية" وشكلت بالنسبة إليهم كل معاني الانحلال والشقاء مما جعلهم أقرب إلى حالة العبودية الفعلية.
ولقد أعلمني الرجل الرئيسي في الطائفة البروتستانتية هنا أنه ولأكثر من مرة كان يتم ربطه وتوثيقه بالحبال كما تم ضربه علنًا امام الجمهور وذلك من قبل رجل عديم المسؤولية ينتمي إلى تلك العائلة الشقية، وهذا الأمر كان يتم من دون توجيه أية تهمة وكذلك من دون أي دفاع عن النفس.
أما بالنسبة إلى الوقت الحاضر "هذه الأيام"([81]) فنحن نشكر الله على أن تلك الأحوال السيئة قد عبرت نسبيًا. فـ (منصب الشيخ) هو منصب معروف اليوم على أنه الممثل الشرعي لعموم المجتمع، وأما الشعب فقد صارت لديه اليوم كافة الحقوق باعتباره من رعايا السلطان – تلك الحقوق التي منحت للشعب مع حصول الإصلاحات الأساسية في الدولة العثمانية -".
أما عن قصة دخول المذهب البروتستانتي إلى صافيتا فيكتب الدكتور (جورج بوست) بتاريخ آذار عام 1868م قائلاً:
"إن أعضاء بيت بشور وهم سلالة من المتحدرين من عملاء للحكومة العثمانية ومن جباة للضرائب، والتي كانت تعود بجذورها وأصولها إلى الطبقات الشعبية في العهود الماضية، قد تمكنوا بواسطة طرق إقطاعية مختلفة من الاستيلاء والحصول على أراضي عدد كبير من الفلاحين الأحرار، وقد لجأ هؤلاء إلى الشكوى إلى الحكومة ولكن من دون جدوى، وأخيرًا فقد اقترح عليهم أحد الأشخاص ومن دون علم الإرسالية البروتستانتية، بأنهم سوف يصبحون تحت حماية - الحكومة الإنكليزية – وبالتالي فهم سيتمكلون من تحرير ملكيتهم الضائعة من جديد.
طبقًا لذلك فإنهم ومنذ ثلاث سنوات بالضبط وبعدد يبلغ حوالي الأربعمائة وخمسين شخصًا، قد صاروا بالاسم في "طرابلس" بروتستانتيين، ولقد تم

[81] -: يقصد فيها تاريخ رسالته 8 أيار 1865م.

إعلام الإرسالية بهذا الأمر من أجل طلب الدعم والعون لهم في شؤون حياتهم اليومية.
وهم بهذا الشكل قد أصبحوا ضمن إطار ونطاق عمل الإرسالية، فلفتوا إليهم كلًا من القناصل الأجنبية وكذلك الحكومة العثمانية.
وقد تم اتخاذ تدابير فعالة من أجل تأطيرهم ضمن إطار ونطاق الكنيسة وكذلك من أجل تعليمهم أسس إيمانهم الجديد.
وقد تم إرسال قسيس وطني "محلي" من أجلهم، كذلك تم افتتاح مدارس لكلا الجنسين الصبيان والبنات.".
يمكننا أن نستنتج هنا أن السبب الأول لاقتناع هذا العدد من الأشخاص باعتناق البروتستانتية هو سبب دنيوي محض بسبب المظالم التي كانوا يتعرضون لها وليس بسبب ديني - قوة الروح - الأمر الذي يأتي لاحقًا عندما تتحدث الرسائل عن قوة دخول "الروح" فيهم.
كما يمكننا أن نستنتج أن أول محاولة لإنشاء المدارس في منطقة صافيتا ومحو الأمية للجنسين في المنطقة، ولو بغاية وهدف ديني تبشيري، منذ منتصف القرن التاسع عشر كان على يد المبشرين البروتستانت.
ثم يتابع الدكتور (بوست) بعد ذلك في تقارير عديدة عن معاناة مجتمع البروتستانتيين في صافيتا الذي تعرض منذ البداية لاضطهاد عنيف كبير وقاس، أو لترغيب من قبل ثلاث جهات قوية ونافذة (آل بشور)، و(الشيخ)، و(القائمقام)، بقصد العودة عن المذهب الجديد إلى المذهب القديم (الروم) كما يذكر، ومع ذلك صمد الكثير ممن اعتنقوا المذهب الجديد أو كما يقول الدكتور (بوست) "أعطوا برهانًا على دخول الروح إلى داخل قلوبهم"
ثم يتابع قائلًا:
"وإنه بالمقابل فإن حوالي النصف من عدد المهتدين الكامل قد تمت عودتهم إلى ديانتهم وإلى مذاهبهم القديمة، ومن بين هؤلاء جميع المهتدين من طائفة "المسلمين العلويين" لكنّ واحدًا من تلك "الطائفة الغريبة" مازال يأتي إلى اجتماعاتنا كلها، وهو ما فتئ أن يكون تلميذًا نشيطًا للكتاب المقدس، ومهتمًا بحقيقة الإلهية. وهو قد قال لي: إنه إذا أعلن عن نفسه أنه بروتستانتي فإن جماعته سوف يقتلونه – سرًا – في اليوم التالي".
لكن اللافت هنا رأيه بالمسلمين العلويين عمومًا، والأسباب التي تدعو للتبشير البروتستانتي بينهم، وسوف أنقله هنا لغاية سوسيولوجية بحتة تتعلق بفكرة الكتاب، حيث يقول:

"إن المستقبل يبشرنا بالاهتمام المتزايد الذي يظهره ويلقاه العمل في صافيتا تلك أننا هناك وعلى حدود تلك البلاد المثيرة للاهتمام والمسكونة من قبل العلويين (الطائفة المنشقة عن الإسلام) والتي لم تصل حتى الآن بأعداد مقبولة ....

ونحن علينا أن، نبدأ بتذويب أساسات الإسلام لدى هؤلاء العلويين، وهم القوم المرتبطون باعتبارات الإسلام، بصورة ضعيفة، وهم أقل ارتباطًا بكثير بتلك الاعتبارات من المسلمين الأرثوذكس "التقليديون" في مدينة دمشق أو في مدينة القاهرة.".

محاولات الإرسالية في مجال التبشير ضمن الطائفة العلوية في صافيتا كانت نتائجها ضعيفة جدًا كما أشارت التقارير على الرغم من أن طائفة المسلمين العلويين كانت يومذاك تعاني من فقر مدقع وإهمال شديد من قبل زعمائها المحليين، ملتزمي المنطقة، إلا ما يخص بعض الخدمات والضرائب، ومن دون مرجعيات دينية قوية مستقلة تحميهم، وتلك هي، على ما يبدو، كانت الثغرة الكبيرة التي لاحظها (بوست) في الحياة اليومية لأفراد هذه الطائفة وحمّلها بشكل مضمر في رأيه هذا وكان يحاول العمل من خلالها.

لكن تقارير المشرفين على الإرسالية ورسائلهم كانت من جهة ثانية تحوي وصفًا دقيقًا للسكن والمنازل لعامة الناس في صافيتا في ذلك الوقت:

"القرية نفسها مبنية على ثلاث تلال مخروطية، يحتل البرج التلة المركزية منها. أما البيوت والمنازل فهي منخفضة البناء، وذلك باستثناء للبيوت الفخمة العائدة ملكيتها إلى بيت بشور.

وكل المنازل مبنية ومؤلفة من طابق واحد وهي معمرة بحجارة قطع كبيرة، تتوضع من دون ملاط بالضبط كما تصف أحجار الحائط في أميركا، وهي من دون نوافذ ويوجد لها فقط باب كبير واحد. أما السقف فمؤلف من جذوع الأغصان الكبيرة المغطاة بالتراب المخلوط بالقش.

وأما الأرضية فهي من الطين الناشف الذي يحضر بفرش الملاط الكلسي الناعم فوقه، وبتركه حتى ينشف.

يتألف المنزل فقط من غرفة واحدة، يتعايش فيها جنبًا إلى جنب مخزون السكان من حبوب وشعير وغيرها من الأغراس مع المواشي والأغنام والدجاج، كذلك يوجد ويعيش في الغرفة نفسها سكان المنزل الذين ينامون ويقومون مع كل هذه الأشياء والحيوانات في المكان نفسه.

وليس في المنزل أية مدفأة، بل يُشعل الحطب أمام الباب في حفرة تسمى "الحارون"، وأما الدخان فهو يتسرب إلى الخارج من جذوع السقف وكذلك من شقوق الباب."

وفي وصف مؤثر وجميل لحال الأولاد يقول:

"لقد وجدناهم في حالة من الفقر المزري، مع العلم أنهم كانوا قد تلقوا بعض المساعدة من أقسام مختلفة، وإن البعض من الأولاد كانوا عراة بدون ملابس تقريبًا وجميعهم هزيلون ضجرون قلقون دومًا.

لكن برغم ذلك كله، فإن أحدًا لم يسأل عن الملابس، في حين بدا الكل قلقًا من أجل الكتب والتوجيهات، وقد تحلقوا حولنا مثل قطيع من الغنم يطلون ويئزون من فوق بطاقات قراءتهم وكتبهم التمهيدية، حيث بدت عليهم علائم الارتياح والسعادة التامتين بالرغم من أننا لم نوجه إليهم أية ملاحظة أو أي مديح، بل أننا لم نتطلع إليهم أو ننظر كما لوكنا مهتمين بما كانوا يصنعونه."

نلاحظ هنا المراقبة الدقيقة من قبل القائمين على بعثة الإرسالية ودقة الملاحظة حتى على شكل الأولاد الصغار ووجوههم حيث يبدو القلق مرتبطًا بالتوق الشديد الواضح على محياهم من أجل التعلم والمعرفة للخروج من وضعهم الضيق والخانق نحو أفق مستقبلي جديد ورحب.

وأخيرًا، ربما يلاحظ القارئ هنا كثرة الاقتباسات من تقارير المشرفين على بعثة التبشير البروتستانتي في صافيتا ومن رسائلهم، وهو محق بذلك، علمًا أني لم أشر إلا إلى القليل جدًا مما ورد فيها.

من جهتي لا أنكر إعجابي بأسلوب هذه الرسائل وصياغتها وما ورد فيها من انطباعات ودقة ملاحظات ووصف هادئ وجميل، بغض النظر عن الهدف التبشيري الديني المذهبي للبعثة الذي لا يعنيني هنا إلا كواقعة تاريخية حدثت وتركت أثرًا ما مازالت آثاره ونتائجه موجودة بنسب متفاوتة بشكل أو بآخر

وربما تعود دقة الملاحظات هذه، كما أفترض هنا، إلى ثقافة القائمين على البعثة التبشيرية من جهة، وإلى تأثر هذه الثقافة بأعمال المستشرقين الغربيين عمومًا الذين جاؤوا المنطقة لدراستها بعد وصف دقيق لها من جهة ثانية، وإلى جهد جاد مقترن بحماس ديني تبشيري – رومانسي لديهم من جهة ثالثة.

الحياة الاقتصادية الباكرة في منطقة صافيتا:-

حتى نفهم جيدًا الحياة الاقتصادية في مرحلة تاريخية معينة لأي منطقة، خصوصًا إذا كان اقتصادها يقوم على الزراعة، ينبغي علينا أن نتعرّف بداية على شكل ملكية الأرض في تلك الفترة والعلاقات التي تنشأ عن هذا الشكل، ومن خلال ما مر معنا سابقًا عند الإشارة إلى التحول، في إطار الدولة العثمانية، من نظام الإقطاع الحربي "التيمار" منتصف القرن السابع عشر إلى نظام الالتزام، يمكن القول إن الأرض عمومًا كانت ملكيتها، في عهود نظام التيمار، تعود بالكامل إلى الدولة ممثلة في شخص السلطان الذي يوزّعها حصصًا بتراتبية على كبار رجالاته الموالين ولاءً مطلقًا له في الجيش أولاً، وفي الدولة ثانيًا، وللوجهاء المحليين الكبار في كل منطقة ثالثًا، مقابل تقديمهم ما يلزم من رجال محاربين عند الضرورة أوقات الحروب الداخلية أو الخارجية، وأتاوات نقدية عينية، إذ لا يجوز لأي منهم التصرف فيها إلا بإذن السلطان وبأمر منه كونها ليست ملكًا شخصيًا لأحد منهم، بل هي هبة مؤقتة لقاء خدمة كبيرة يؤديها، أو عمل مطلوب منه للباب العالي.

فكان ذلك شكلاً من أشكال النظام الإقطاعي المطلق الذي كانت قاعدته المستغَلّة بشدة هي طبقة الفلاحين الفقراء.

أما في مرحلة نظام الالتزام فبقي شكل الملكية الإقطاعي كما هو لكن ليس شديد التمركز كما كان سابقًا مما نتج عنه تخفيف نسبي لشدة استغلال الفلاحين كون أن نظام الالتزام تحول إلى شكل من أشكال التحصيل الضريبي للدولة ومن ثم فالمسؤول عن جباية ضريبة الأرض لصالح السلطة المركزية وإدارة المنطقة صار أحد الأعيان المحليين الذي التزم المنطقة ولفترة محدودة مذكورة في عقد الالتزام، فأصبح الملتزم إما متشددًا أكثر في ضغطه على الفلاحين طمعًا في استغلال أقصى ما يمكن من محصول الأرض لصالحه خلال فترة التزامه، أو أنه أصبح يخفف الوطأة عليهم قليلًا طمعًا في مردود أكبر يتيح له فترة التزام جديدة بعقد جديد.

وهنا لا بد لنا من ذكر الملامح الأساسية للوحدات الاجتماعية آنذاك كي نفهم أكثر أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمنطقة صافيتا كما يذكرها (القحط) في كتابه البحثي المرجعي المهم "مقاطعة صافيتا"([82]):

---

[82] -: بسلم عيسى القحط "مقاطعة صافيتا التاريخ الاجتماعي والاقتصادي 1790 – 1832م" صدر عن دار الفتاة للطباعة والنشر والتوزيع دمشق سورية 2002م.. ص 43.

المزرعة -: وهي أصغر وحدة سكانية في الريف، عبارة عن بيوت عدة لعائلة واحدة ولفروعها، وحولها تقع الأراضي الزراعية التي تملكها هذه العائلة وتستغلها وتعمل فيها، وعدد سكانها لا يزيد على مئتي نسمة في جميع الأحوال، وقد بلغ عدد مزارع مقاطعة صافيتا مئتي مزرعة.
القرية: وهي تجمع سكاني ريفي أكبر من المزرعة، وقد يتراوح عدد سكانه ما بين مئتين وألفي نسمة، وقد كان عدد قرى مقاطعة صافيتا ثلاثمئة وخمسًا وخمسين قرية([83]).
القصبة -: هي تجمع سكاني محاط عادة بالأسوار، فيه خانات وأسواق ودور عبادة ومدارس وشوارع مرصوفة بالبلاط وحمامات وكان عدد سكان القصبة يتراوح ما بين ألفين وستة آلاف نسمة، وهؤلاء السكان تتأمن مداخيلهم بدرجة رئيسة من الأعمال الزراعية، وكثيرًا ما اعتبر المؤرخون المعاصرون وبشكل رئيس الرحالة الأوروبيون، هذه القصبات قرى كبيرة، لكنّ اللبنانيين والسوريين اعتبروها مدنًا انتشرت فيها التقاليد القديمة لحياة المدينة. وكانت القصبة أكبر مركز إداري ضمن العهدة أو الحلّة "الناحية"([84]).
وعلى هذا فإن مقاطعة صافيتا كانت تتكون من خمس عهدات جغرافية أو حلّات هي كما يذكرها (القحط) في كتابه:
1-:عهدة بيت رسلان: هي منطقة الدريكيش الحالية (الجرد)، وتمتد بشكل مثلث حتى تيشور قرب البحر.
2-: عهدة بيت شمسين: هي برج صافيتا وما حوله "غربي نهر الغمقة".
3-: حلة أبو علي حسن: هي المنطقة الشرقية لنهر الغمقة.

---

83 -: يعتمد (القحط) في رقمه هذا حول عدد القرى على كتاب "ولاية بيروت" لمحمد بهجت ورفيق التيمي كما يشير في حاشية خاصة أسفل الصفحة 43 من كتابه. لكن حول عدد سكان القرى في ذلك الوقت فمن جهتي أفترض أن رقم 2000 مبالغ فيه.

84 -: يعتمد (القحط) في معلوماته هذه عن "القصبة" على كتاب المستشرقة الروسية (سيميليا نسكايا) في كتابها المهم والمعروف "البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث" كما يشير هو في حاشيته أسفل الصفحة 43. لكن -أيضًا- من ناحيتي أفترض أن هذه المواصفات لا تنطبق تمامًا على القصبات التي كانت موجودة في منطقة صافيتا، وخصوصًا تلك التي يشير إليها هو في كتابه.

4-: حلة بركات: ذوق بركات + وادي بيت المليح "وادي العديدة" حاليًا.
5-: حلة تيشور: وهي "ناحية النقيب" التابعة لطرطوس حاليًا.
وهذه العهدات تشبه حاليًا تقسيم الأقضية إلى نواحٍ، والواقع إنها مجموعة من القرى والمزارع التابعة للمقاطعة، وكل مجموعة من هذه القرى تحيط بقرية مركزية يقيم فيها ملتزم العهدة.
فعهدة بيت رسلان: قصبتها "برمانة" الدريكيش.
وعهدة بيت شمسين: قصبتها برج صافيتا.
وحلة بركات: قصبتها قرية ذوق بركات.
وحلة تيشور: قصبتها قرية تيشور.
وحلة أبو علي حسن: قصبتها قرية (سرستان)"([85]).
إلا إنه خلال فترة حكم (إبراهيم باشا) لبلاد الشام والساحل السوري خصوصًا (1831 – 1841م) قام الأخير بإلغاء نظام الالتزام هذا عام 1834م مع فرض ضرائب جديدة على السكان يتم تحصيلها بأسلوب مختلف، ومكّن الفلاح كثيرًا في التحرر من سطوة سيده الإقطاعي بمقاضاته عند اللزوم وتأدية الحق إلى الفلاح، وقد فرض نظام التجنيد الإجباري على الجميع، لكن من دون أن يلغي نهائيًا أساس التملك الإقطاعي للأرض، لذلك عاد فزاد من نسبة الضرائب وقلل من نسبة اليد العاملة في الأرض بسبب طول الخدمة العسكرية الإلزامية مما أثر سلبًا على المردود الاقتصادي للأرض.
وعند عودة الحكم العثماني إلى المنطقة بعد انسحاب جيوش إبراهيم باشا منها كانت السلطنة العثمانية قد دخلت عهود جديدة في الإصلاح سميت كم أشرت سابقًا بـ "عصر التنظيمات" الذي ألغى نهائيًا نظام الالتزام السابق وأصوله، إذ صارت الضرائب تُجبى مباشرة من الفلاحين بواسطة موظفين من قبل الدولة نفسها، وفي حال عدم توفر موظفين أكفياء قادرين كانت تعود للملتزمين السابقين في جباية الضرائب.
لكن في عام 1858م صدر قانون الأراضي العثماني الجديد في إطار إصلاحاتها المتتالية حيث تم تقسيم ملكية الأراضي في منطقة صافيتا كما يفصّلها الكاتب (منير عبد الحميد صقر) في كتابه المشار إليه سابقًا "تاريخ صافيتا في العهد العثماني" بالاعتماد على مراجع يذكرها في كتابه على الشكل التالي"

---

[85] -: المرجع السابق ص 36.

"القسم الأول: هو الأراضي المملوكة وتشمل أربعة أنواع هي:
1-: الأراضي المخصصة للسكن على أن لا تزيد مساحتها عن /500/ م2.
2-: الأراضي التي كانت أميرية وأصبحت ملكًا شخصيًا عن طريق الفرز والتملك الصحيح.
3-: الأراضي العشرية التي جرى تملكها وتوزيعها حين الفتح الإسلامي لها.
4-: أراضي الخراج وهي الأرض التي بيد أهلها الأصليين من غير المسلمين.
القسم الثاني: هو الأراضي الأميرية، ورقبة هذه الأراضي تكون عائدة لبيت المال سواء كانت مزارع أو مراعي أو أحراج وغيرها، وكانت في العهد الأول من العهد العثماني، وتعتبر ملكًا لأصحاب الزعامات والتيمار. وفي عهد الالتزام انتقل هذا الإرث إلى الملتزمين الذين تملكوا معظم قرى ولاية طرابلس، وعند إلغائه أصبحت ملكًا للدولة تتصرف بها كما تشاء من بيع وتأجير.
القسم الثالث: الأراضي الموقوفة وقسمت إلى نوعين:
1-: الأراضي التي كانت ملكًا صحيحًا (شخصيًّا) وأوقفها صاحبها وفقًا للشرع، واعتبرتها الدولة عائدة للوقف ولا تجري عليها المعاملات القانونية بل تعامل بموجب شروط الوقف.
2-: الأراضي الأميرية التي أوقفها السلاطين بالذات أو آخرون بالإذن السلطاني (كالملتزمين)، وهذه الأراضي تجري بحقها المعاملات القانونية وأوقف دخلها من الأعشار والرسوم وغيرها مع بقاء رقبتها ملكًا لبيت المال.
القسم الرابع: الأراضي المتروكة وهي نوعان:
1-: ما لا يجوز تملكه مثل الطريق العام.
2-: النوع المخصص لعموم أهالي المزرعة أو القرية أو القرى أو القصبات مثل المراعي والأحراش والساحات والأسواق عمومية وموسمية والمساجد والبيادر وغيرها من الأراضي المخصصة للنفع العام.
القسم الخامس: الأراضي الموات، وهي الأراضي المنقطعة عن العمران وهي مشاع للجميع ويستطيع الإنسان الاستفادة منها بإذن مأمور الأراضي

في المنطقة. وكانت الدولة العثمانية تشجع الأهالي على استثمارها من دون مقابل لمدة خمس سنوات أو أكثر."([86]).

أما بخصوص أنواع المحاصيل الزراعية في منطقة صافيتا آنذاك فيذكر الكاتب أنها كانت متنوعة وتجمع بين الحبوب كالقمح والذرة والشعير والعدس والكرسنة والحمص والفول والسمسم والجلبانة والبازلاء وغيرها، والخضار كالملفوف والسلق والخس والبندورة والبامياء واللوبياء والخيار والبطيخ والفجل والسبانخ والكوسا والباذنجان والقرع والفاصولياء والبصل والتتن وغيرها، والأشجار كالتوت لتربية دودة القز والزيتون والكرمة والمشمش واللوز والجوز والتين والخوخ والتفاح والإجاص والحمضيات والرمان والسفرجل وغيرها([87]).

بواكير نشاط تجاري – حرفي-:

لذلك يذكر المؤلف -أيضًا- نقلًا عن كتاب "ولاية بيروت" لمحمد بهجت ورفيق التميمي ما نصه حرفيًا: "تزرع في هذا القضاء المحصولات الصيفية من 20 أيلول إلى 20 كانون الأول، والشتوية من 10 شباط إلى 20 نيسان. وموسم الحصاد يكون ابتداءً من مارس آذار إلى أواخر حزيران، ثم من 20 آب إلى منتصف أيلول، **ويعقد القرويون في كل سنة سوقًا (عرضة) في دير مار إلياس الريح يدوم من 10 تموز إلى عشرين منه (شرقي). ويتعاطون فيه البيع والشراء ويحصلون منه على حاجاتهم**"([88]).

ويشير الدكتور المؤرخ عبدالله حنا في كتابه "من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية"([89]) إلى نشاط اقتصادي آخر ظهر لاحقًا في منطقة صافيتا، تركز في قرية "مشتى الحلو" بشكل خاص وهو النشاط الحرفي – التجاري حيث

---

[86] -: منير عبد الحميد صقر . "تاريخ صافيتا في العهد العثماني) ص87 – 88. ويمكن مراجعة المزيد من التفاصيل حول ملكية الأرض في منطقة صافيتا خلال تلك الفترة في الكتاب ضمن الفصل الرابع المعنون "الملكية والأرض": ص 80 – حتى ص 96.

[87] -: المرجع السابق ص90.

[88] -: المرجع السابق ص91. التشديد من قبلي م ح.

[89] -: عبدالله حنا "من الجبل العلوي إلى عاصمة بني أمية.. دروب الكفاح للطلائع اليسارية ودور دانيال نعمة ورفاقه 1945 – 1970 دراسة في الواقع الاقتصادي الاجتماعي والفكري السياسي" إصدار دار الفارابي لبنان بيروت كانون الثاني 2014.

يقول: "كانت – المشتى – في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مركزًا للصناعات الحرفية، كصناعة العباءات والحرير، وسوقًا للتجارة والربا، وعقدة مواصلات أدت إلى ظهور فئة من المكارية ينقلون البضائع من منطقة إلى أخرى، ولم تكن الزراعة القطاع الأساسي في حياتها. وفي المشتى أقامت عائلة "آل ثابت" اللبنانية معملا لصناعة الحرير عمل فيه 200 عامل وعاملة، اشتغلوا في اليوم 13 ساعة، وتناولوا عن كل يوم أجرة لا تزيد عن ليرة سورية واحدة، وكان مدير المعمل في أوائل أربعينيات القرن العشرين فرنسيًا يدعى مسيو ديلون، وكان وزوجته يمارسان ضغطًا رهيبًا على العمال والعاملات، ويطردانهم ساعة شاءا، رغم ضآلة الأجور، وفي أحد أسابيع عام 1944 أضرب العمال احتجاجا على تصرفات المدير وزوجته والأجور الضئيلة التي يتقاضونها، لكنهم اضطروا للعودة سريعا إلى العمل خوفًا من الموت جوعا.

وكانت المشتى بسبب طابعها "الحرفي التجاري" مهيأة لتقبل تنظيمات المجتمع المدني، رغم الخلافات الحادة بين عائلتي الحلو والخوري، ولهذا كانت المشتى منذ ثلاثينيات القرن العشرين محط أنظار الحزبين العلمانيين المتنافسين والمتخاصمين: الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي."([90])

طبعا يمكن القول إن الكثير مما ذكر في السطور السابقة عن الحياة الاقتصادية الباكرة في منطقة صافيتا في ذلك الوقت ينطبق، أيضا، في أغلبه، بشكل أو بأخر، على أغلب بلدات وقرى ريف طرطوس آنذاك. لأن منطقة صافيتا كانت كما أشرت هي المركز الإداري والاقتصادي للمنطقة ككل.

إلا أن من الجدير ذكره هنا أن أغلب أهالي القرى الجبلية المحاذية لطرطوس من جهة الشرق مباشرة كانت تشهد منذ أوائل القرن العشرين حركة هجرة وراء البحار إلى بلدان أمريكا الجنوبية، ربما أكثر مما شهدته قرى شرق صافيتا المتاخمة لها حتى مشتى الحلو، بسبب الفقر وضعف الموارد الزراعية فيها كأراضي جبلية وعرة، مقابل فائض في اليد العاملة، حيث لم تشهد ملكيات زراعية كبيرة فيها، ولا وجود مباشر ل "أعيان ملتزمين" فيها مكلفين من قبل الحكومة العثمانية. بالإضافة لضعف تكوّن طرطوس كمدينة حضرية اقتصادية فاعلة آنذاك تستطيع جذب الهجرة

---

[90] -: المرجع السابق ص 34 – 35.

الريفية الباكرة إليها حيث أن الهجرة إليها لم تبدأ إلا خلال فترة الانتداب الفرنسي ثم بدأت تزداد شيئا فشيئا مع بدايات العهد الوطني بعد الجلاء منتصف القرن العشرين.

نسيج مجتمعي جديد وظهور مبكر لطبقة وسطى -:

يمكن القول هنا بعد الحديث عن النشاط الاقتصادي المبكر، لا سيما التجاري - الحرفي منه، في مقاطعة صافيتا، أن هذا النشاط ساعد على تكون ملامح طبقة وسطى باكرة فيها أيضا، خصوصا أن المنطقة التي كانت قاعدتها العريضة هي من طبقة الفلاحين الفقراء المسحوقين لم تشهد حركات تمرد ضد الأسياد الإقطاعيين كان من شأنها عرقلة هذا النشاط الاقتصادي المبكر بتحويل فاعليه الأساسيين إلى محاربين ضد أسيادهم، بل وربما متحاربين فيما بينهم كما يحدث في أغلب التمردات والثورات الفلاحية ذات البنى الدينية والطائفية العشائرية المتجذرة. يضاف إلى ذلك سبب أخر أدى إلى بداية تكون الطبقة المتوسطة، وهو هجرة بعض العديد من أفراد سكان وأهالي منطقة صافيتا إلى بلاد ما وراء البحار البعيدة، أي القارة الأمريكية، طلبا للعمل. وبهذا الخصوص يذكر الدكتور (عبدالله حنا) في كتابه المذكور سابقا "من الجبل العلوي" عن تلك الفترة، نقلا عن كتاب "ولاية بيروت" قائلا: "ويقدر كتاب ولاية بيروت عدد المسيحيين في قضاء صافيتا بين 5000 و 6000 نسمة عاشوا مختلطين بالنصيرية في 17 قرية، ولهم ثلاثة قرى خالصة لهم لا يشاركهم فيها النصيريون. وخمس المسيحيين يشتغل باستحصال الشرانق وبيع الأقمشة أو بصنعة الحدادة أو الخياطة أو البناء، وخمسهم يشتغل بالفلاحة، والباقي منهم يعيش بنقود أمريكا، أي من المال القادم من أقاربهم المهاجرين إلى أمريكا. ولم تقتصر الهجرة على المسيحيين، بل تعدتها إلى العلويين، ويقدر عدد المهاجرين العلويين إلى أمريكا من قضاء صافيتا بعشرة آلاف، وكان دخل قضاء صافيتا من المهجر قبل الحرب العالمية الأولى نحو 250 ألف ليرة في السنة"([91]).

لذلك يشير الأستاذ (القحط) في كتابه "مقاطعة صافيتا"([92]) وهو محق بذلك أنه كانت توجد في منطقة صافيتا ملامح طبقة متوسطة، "وهذا مدهش على صعيد دولة إقطاعية دينية" كما يقول. وربما يعود ذلك إلى غنى تلك

---

[91] -: المرجع السابق ص34.

[92] -" مرجع مذكور سابقا ص86.

المقاطعة الاقتصادي. ذلك الغلى الذي لاحظه القناصل الفرنسيون المقيمون في عاصمة الولاية، كذلك لاحظته الوثائق الشرعية في محكمة طرابلس العثمانية، ضمنيا". لذلك يذكر ظهور عائلات تنتمي أو شكلت هذه الطبقة بدون أن تحمل ألقاب كبيرة كعائلات الطبقات الارستقراطية المالكة والكبيرة ومن أسماء هذه العائلات: "العبد، المرعوش، ليلا، علي الصافتلي، عباي، المهمدان، الرعدي، حسين علي محمد، شوكة، سليمان، ياسين، الموعي، وعلوش معروف، عبيد، سمعان، طيارة، ضومط وإبراهيم القاضي".

بدوري، أشير إلى ذلك هنا بتأكيد خاص لأنه صار معروفا في أدبيات ودراسات علم الاجتماع أن وجود طبقة متوسطة في أية منطقة سواء كانت مكتملة الحضور أو في طور التشكل هو ما يشكل الخلفية المجتمعية المولدة والدافعة لظهور أجيال جديدة تكون رافعة للتطور الاقتصادي والمدني الحداثي لاحقا، خصوصا أن الأكثرية من الطبقات الفلاحية الفقيرة والمحرومة في منطقة صافيتا عموما، كان حضورها الاجتماعي، كما تمت الإشارة إليه سابقا، ضعيفا لا يذكر خارج عملها في الأرض التي كانت تعود ملكيتها الحصرية للطبقات الارستقراطية المالكة أو في خدمتهم الشخصية في المنازل، إضافة لسيطرة معتقدات دينية تقوية خاصة على وعيها الاجتماعي العام كانت أقرب للصوفية، وربما لهذا السبب، كما يشير الأستاذ القحط وهو محق بذلك أيضا، أنه لم تظهر عاميات أو ثورات فلاحية في منطقة صافيتا طيلة تلك الفترة. وحول نفس الموضوع يقول الدكتور المؤرخ (عبد الله حنا) في كتابه المذكور:

"ومع الأسف نجهل حتى الآن هل قام هؤلاء الفلاحون بأي تمرد ضد رؤسائهم؟ لكن المعتقد أنهم كانوا مسحوقين ماديا ونفسيا، تلفهم الأوهام والخرافات والخوف من الغريب، مستسلمين للقيم العشائرية الإقطاعية، وكان خضوعهم الدنيوي لرئيس العشيرة وخضوعهم الديني للمشايخ عاملين أساسيين في ركودهم واستسلامهم، فهم لا حول ولا قوة في مواجهة مستثمريهم سواء من داخل العشيرة أم من رجال السلطنة العثمانية الغاشمة"([93]).

طبعا ظهرت فيما بعد في أواخر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين، أي في بداية العهود الوطنية بعد الاستقلال، أولى التمردات

---

[93] -: مرجع مذكور سابقا ص33 – 34.

الفلاحية، كما حدث في قرى "بشرايل" و"مسية" على سبيل المثال، ضد ظلم الإقطاع المسنود برجال الدين ورجال السلطة في قرى منطقة صافيتا، لكن في سياق تاريخي وظروف مجتمعية مختلفين تماما حيث انتشرت أفكار ومذاهب فكرية وسياسية جديدة لم تكن موجودة قبلا تقاطعت مع حركة تحرر وطني ضد سلطات الانتداب الفرنسي التي كانت قد كرست اقتصاديا وسياسيا ودينيا دور أغلب رموز الإقطاع تركة العهد العثماني السابق([94]).

لتكون ملامح واضحة لطبقة وسطى، مالكة وتجارية، مع غياب اصطفافات طبقية فلاحية قوية كان يمكن أن تؤدي إلى تمردات واسعة ضد الإقطاع المسنود بالسلطة ورجال الدين. ساعد على تطور مجتمعي أكثر انفتاحا باتجاه مقومات مجتمع مدني لكن دون أن يقوض أسس التملك الإقطاعي ورموزه الاجتماعية والدينية، التي استمرت طويلا ليس حتى بعد انهيار السلطنة العثمانية فقط، بل وأيضا حتى بعد جلاء قوات الانتداب الفرنسي وبداية العهود الوطنية.

لذلك يمكن البناء على ما تقدم والقول أن النسيج المجتمعي لصافيتا ومنطقتها كان يتكون منذ أواخر القرن السابع عشر من طيف متعدد وواسع، ديني طائفي إثني، تكرس كقاعدة مجتمعية من خلال وجود الطبقة المتوسطة لاحقا، حيث تم من خلالها، بداية، تجاوز التشرذم وعصبيات الولاءات المحلية الضيقة خصوصا مع بداية عهود عصر التنظيمات الإصلاحية في السلطنة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم بدأ يؤسس لقاعدة افتراضية لمجتمع مدني أوسع مع انهيار السلطنة العثمانية النهائي عام 1918م، ثم بدأ يتحول منذ عام 1920م إلى قاعدة لحمة وطنية كبيرة في مواجهة الواقع الذي فرضته سلطات الانتداب للمستعمر الفرنسي كما هو الحال الذي كان في أغلب المناطق السورية آنذاك. حيث بدأت تظهر الميول السياسية الوطنية الجديدة على قاعدة ذلك بمواجهة قرارات سلطات الانتداب الفرنسي بتقسيم سوريا إلى دول عديدة بتسميات طائفية ومحلية، كدولة العلويين ودولة جبل العرب ودولة حلب ...إلخ. فالوعي السياسي هذا على قاعدة الانتماء الدولتي الحديث، سواء كان مع التقسيم وإنشاء كيانات صغيرة مستقلة أو كان مع الوحدة السورية الكاملة، يمكن اعتباره أول

---

[94] -: للمزيد حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى كتاب الدكتور عبدالله حنا المذكور سابقا لا سيما في الفصول المتعلقة بالمقاومة الفلاحية من الصفحة 248 وحتى الصفحة 276.

أشكال الوعي بضرورة تشكل مدني حديث يعيد صياغة النسيج المجتمعي القديم على أساسه.
والأمثلة من صافيتا كثيرة وواضحة لأنها كما ذكرت سابقا كانت تشكل منذ العهد العثماني القاعدة الجنوبية لجبال الساحل السوري، بعكس ما كانت عليه طرطوس حيث كان وزنها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لا ينكر قياسا على وزن منطقة صافيتا، حتى أن الحدود الإدارية لشمال وشرق وغرب منطقة صافيتا حتى منتصف القرن العشرين كانت تشمل أغلب القرى الجبلية المطلة على البحر والتي تتبع إداريا اليوم لمنطقة طرطوس.
لذلك فأغلب الزعامات الدينية الطائفية العشائرية المكرسة سابقا، وبدأ ميلها السياسي يظهر من جديد على قاعدة تفكير حداثي سياسي – وطني نسبي، ولعبت دورا هاما منذ بداية عهد الانتداب حتى بدايات مرحلة الدولة الوطنية بعد الجلاء ظهرت في صافيتا ومنطقتها. مثل (جابر العباس) و (عزيز بك الهواش) و (منيرالعباس) و ابنه (شوكت العباس) و (يوسف الحامد) و (امين رسلان) و (جبرا الحلو) و (أديب بيطار) و (أديب جبور) و (جبرائيل بشور) و (إبراهيم أغا الكنج) ... إلخ وللمزيد من التفصيل حول ذلك يمكن مراجعة كتاب الدكتور (وديع بشور) "تاريخ صافيتا ومنطقتها" تحت عنوان "ما بعد الحرب العالمية الأولى"([95]).
أيضا توجد مراجع عديدة أخرى حول ذلك مثل كتاب "تاريخ سورية الحديث" للكاتب (هاشم عثمان)([96]) و "تاريخ سورية المعاصر" لمؤلفه (كمال ديب)([97])، طبعا على سبيل المثال لا الحصر لأن الكتب حول تاريخ سورية الحديث عديدة.
ثم وفي مرحلة تالية ومع ظهور نخب جديدة من أبناء تلك الزعامات أو ما يناظرها تلقت تعليما حديثا خلال مرحلة الانتداب الفرنسي صارت تتجاذبها ولاءات سياسية حديثة أكثر راديكالية متنوعة ومختلفة تماما من خلال

---

[95] -: المرجع السابق ص 112 – 113 – 114 – 115 – 116 117.
[96] -: هاشم عثمان "تاريخ سورية الحديث" صادر عن رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى كانون الثاني 2012، لا سيما في الصفحات التالية: 113 – 123 – 124 – 125 – 126. نسخة الكترونية.
[97] -: كمال ديب "تاريخ سورية المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف 2011" دار النهار للنشر، بيروت تشرين أول 2011. لا سيما في الجزء الأول المعنون "ولادة الدولة الوطنية"، والفصل الأول منه بعنوان "سورية الانتدابية" من ص36 إلى ص 55.

الانتساب إلى أحزاب سياسية كانت تولد حديثا، ولعل أكبر وأقوى تواجد لها في صافيتا ومنطقتها كان لحزبين هما:
الحزب الشيوعي السوري عام 1924 والحزب السوري القومي الاجتماعي عام 1932 وفي مرحلة لاحقة حزب البعث العربي الاشتراكي منذ منتصف أربعينيات القرن العشرين.
ومع بدايات العهد الوطني بعد جلاء الفرنسيين عن سورية بدأت عملية بناء جيش وطني جديد حيث فتح باب الانتساب إليه لأبناء الشعب السوري بمختلف مكوناته فكان يتم الانتساب إليه بأعداد كبيرة من عموم المناطق الريفية السورية المحرومة سابقا ومنها ريف مناطق صافيتا والساحل السوري عموما.
لنختصر القول من خلال ما تقدم أنه بدأت تتشكل، في صافيتا، منذ ذلك الوقت ملامح بنية سكانية مجتمعية جديدة، في التعامل وطريقة التفكير والانتماء السياسي والثقافة وفي اللباس، متعددة المشارب الدينية والطائفية والإثنية طورت قرية صافيتا من خلال اندماجها وتفاعلها، كمركز إداري سابق، إلى بلدة ثم إلى مدينة منذ منتصف القرن العشرين تكونت من مختلف الطيف السابق بولاءات مختلفة نسبيا عما سبقها في العهد العثماني وما تلاه حتى الجلاء. لكن دون أن تقطع نهائيا مع ولاءاتها الريفية السابقة بكل امتداداتها الاجتماعية الدينية - العشائرية أو الطبقية الفلاحية التي استمرت في الظهور بمستويات متباينة نسبيا حتى في الأحزاب السياسية والانتخابات البرلمانية اللاحقة كما في مؤسسة الجيش.
ولعل المقدمات التاريخية الأساسية الأولى لهذا التشكل كانت قد بدأت إرهاصاتها الأولى منذ منتصف القرن التاسع عشر مع إصدار ماسمي ب "الخط الهمايوني" عام 1856م حتى إعلان الدستور العثماني عام 1876م. ثم مع بداية الانتداب الفرنسي على سورية عام 1920م وصولا إلى جلاء الانتداب نهائيا وقيام الدولة الوطنية الحديثة عام 1946م.

بدايات ظهور المدارس والتعليم والشهادات العالية في صافيتا وفضاءها

بعدما تحدثت في الفقرة السابقة عن نسيج مجتمعي جديد كان قد بدأت مقدماته الأولى بالتكون، عبر مخاض طويل، منذ أواخر القرن السابع عشر في صافيتا. نسيج مجتمعي جديد يتكون من طيف متعدد وواسع، ديني طائفي إثني، فتكرس كقاعدة مجتمعية من خلال ظهور لاحق للطبقة الوسطى كما أشرت سابقا، حيث تم من خلالها، بداية، تجاوز التشرذم

وعصبيات الولاءات المحلية الضيقة خصوصا مع بداية عهود عصر التنظيمات الإصلاحية في السلطنة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر' ثم بدأ يؤسس لقاعدة التراضية لمجتمع مدني أوسع مع انهيار السلطنة العثمانية النهائي عام 1918م، ثم بدأ يتحول منذ عام 1920م إلى قاعدة لحمة وطنية كبيرة في مواجهة الواقع الذي فرضته سلطات الانتداب للمستعمر الفرنسي. فمن الطبيعي أن يكون لذلك ثماره المجتمعية التعليمية والثقافية المبكرة المميزة والأقوى في جنوب الساحل السوري منذ منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حتى منتصفه.. كون صافيتا وقضاءها كما ذكرت سابقا، كانت القاعدة الجنوبية لجبال الساحل السوري حتى مطالع القرن العشرين.

الأمر الذي سأحاول الإضاءة عليه في السطور التالية معتمدا بشكل كبير على كتاب " تاريخ صافيتا ومنطقتها" للدكتور (وديع بشور) بمعلوماته الغنية والهامة، من خلال مقتطفات وافية عن الشخصيات الهامة التي يذكرها.

أيضا كنت قد كتبت تحت عنوان "التبشير البروتستانتي في صافيتا" أن أول محاولة لإنشاء المدارس في منطقة صافيتا ومحو الأمية للجنسين في المنطقة، ولو بغاية وهدف ديني تبشيري، منذ منتصف القرن التاسع عشر كان على يد المبشرين البروتستانت. وبهذا الخصوص يقول الدكتور بشور في كتابه تحت عنوان "مدارس قضاء صافيتا"([98]):

"قلنا إنه ما أن وافت سنة 1860 حتى كان المرسلون الأميركيون قد أسسوا 33 مدرسة تضم نحو 1000 تلميذ خمسهم من البنات ثم توجهوا إلى القرى التي أغلب سكانها من الطائفة الأرثوذكسية فكانت لهم مدرسة في برج صافيتا عام 1865 وكان أول مشرف عليها المعلم (خليل زغرب) تعاونه أخته (شما زغرب) من "ابل السقي". وفي عام 1869 تسلمها المعلم (يعقوب صروف)([99]) لبضعة أشهر. ... كما أسس المرسلون الأميركان

---

[98] -: الدكتور وديع بشور "تاريخ صافيتا ومنطقتها" مرجع مذكور سابقا ص133.

[99] -: يعقوب صروف (1852-1927)، أحد أعلام النهضة العربية. تخرج من الكلية البروتستنتية السورية ثم هاجر من بعد إلى مصر واستقر بها. من التيار العلماني في النهضة العربية، أنشأ مجلة "المقتطف" في بيروت عام 1876 ومعه الأديب فارس نمر وظلت تصدر مدة تسع سنوات تقريبا ثم نقلت بعدها إلى القاهرة

مدارس في مشتى الحلو وفي الكفرون ثم مدرسة في البازدية عام 1885 كان أول معلميها (عبدالله اسحق رعد) وتعاقب عليها نحو عشرين معلما حتى عام 1977 ومنهم المعلمة (حفيظة ميخائيل بولس) من البازدية عام 1923 وربما هي من أوائل المعلمات في المنطقة.".

ثما يتابع الدكتور بشور استعراض المدارس التي أسسها المرسلون الأمريكان في منطقة صافيتا وهي مدرسة في قرية "بيت شباط" عام 1900، ومدرسة في قرية بعمرة عام 1937.

مدارس أخرى كالتي أسسها (اسبر بشور) في القلعة عام 1875، والتي أسسها الروس في مشتى الحلو عام 1897. والعديد من المدارس الأخرى.

ثم يخصص المؤلف تحت عنوان "**الجامعيون والمهنيون من صافيتا**" عدة صفحات يستعرض فيها أهم الأسماء التي تابعت دراستها وحصلت على شهادات التعليم العالي في طرابلس وبيروت ودمشق والبعض في الخارج والولايات المتحدة، منذ العهد العثماني في زمن كانت وسيلة التنقل والسفر فيه صعبة للغاية فيذكر تحت عنوان "**الحقوقيون**"([100]) الأسماء التالية مع تعريف خاص لكل منها. ويبدأ حديثه قائلا:

"وهناك من عملوا منذ العهد العثماني دون درجة جامعية" فيذكر منهم

1-: (**نقولا انطونيوس بشور 1879 – 1966**) الذي عمل محاميا ومحققا منذ العهد العثماني ثم نفي إلى سيواس في تركيا عام 1917 ثم كان نائبا في دولة اللاذقية في فترة الانفصال.

2-: (**أمين سليم بشور 1862 – 1938**) عمل محاميا منذ العهد العثماني واشتهر بخفة ظله وحيله القانونية.

أما الذين تخرجوا من الجامعات فيذكر الأسماء التالية:

1-: (**رفيق جبرائيل بشور 1901 – 1973**) ولد في صافيتا ابنا للوجيه جبرائيل الياس بشور. درس الحقوق في جامعة دمشق وتخرج منها عام 1926 عين بداية قاض للصلح في مدينة جبلة عام 1927 ثم انتقل إلى محاكم اللاذقية ثم إلى استئناف حمص فحلب ثم محافظا لدير الزور عام 1954 وأشرف على انتخاباتها للمجلس النيابي (1954) وبنفس الوقت رشح نفسه للنيابة في صافيتا فانتخب غيابيا وعاد إليها بعد أربعين يوما من

سنة 1888 وظل يديرها ويشرف على ما يكتب فيها إلى آخر حياته حيث رافقها مدة 52 عاما وكانت أغلب مقالاتها بقلمه. "عن الويكيبديا" م.ح

[100] -: تاريخ صافيتا ومنطقتها مرجع مذكور الصفحات من 137 إلى 144.

الانتخابات وترك وظيفة المحافظة. ثم انتخب بالإجماع نائبا أول لرئيس المجلس النيابي. ثم فيما بعد ذلك تم تعيينه عضوا في مجلس الأمة للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة، وبعد الانفصال انتخب مرة ثانية نائبا عن صافيتا ثم عين وزيرا للثقافة والإرشاد القومي حتى 8 آذار 1963. توفي فجأة في بيروت عام 1973 ودفن في صافيتا.

2-: (رفيق عزيز بشور 1900 – 1984) تخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت عام 1929، قاض ومحامي وعضو المحكمة العليا عام 1955 – 1958.

3-: (أنيس إبراهيم بشور 1899 – 1984) تخرج من معهد الحقوق في الجامعة السورية بدمشق، قاض ومحام ثم عضو في المحكمة العليا بين عامي 1951 – 1954.

4-: (عيسى جبور جبور1907 – 1969) تخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت محام حر مارس في صافيتا وطرطوس.

5-: (أديب جبور جبور 1908 – 1979) تخرج من جامعة دمشق عام 1930، محام لامع في اللاذقية.

6-: (بولس دبية ... – 1941) محام تخرج من الجامعة اليسوعية، اهتم بالسياسة فبرز في حقل النضال الوطني من أجل الوحدة السورية.

7-: (إبراهيم حنا الخوري 1910 – 1964) تخرج من السوربون عام 1932 ثم حصل على دبلوم في القانون الدولي والقانون الجزائي من نفس الجامعة عام 1933 ثم عاد إلى الوطن ومارس مهنة المحاماة، أصبح نائبا عن صافيتا عام 1953.

8-: (منير جابر العباس 1903 – 1968) ولد في قرية "الطليعي" قضاء صافيتا وهو ابن (جابر أفندي العباس) أرسله والده إلى باريس وتخرج من جامعة السوربون عام 1928 حاملا إجازة في الحقوق وعاد متأثرا بالفكر القومي التقدمي فكان ضد تقبيل الأيادي وضد انفصال دولة العلويين عن سورية بل كما يذكر اليونس في منكراته كان يحمل البرقيات للتوقيع تأييدا للوحدة وشجبا للانفصال لترسل إلى باريس ولعصبة الأمم. كما عرض عليه أن يكون محافظا لدولة اللاذقية ورفض فسلمت إلى أخيه (شوكت العباس).
وفي عام 1937 نجح بالنيابة عن صافيتا مع أمين رسلان وجبرا الحلو للانضمام إلى مجلس النواب السوري في دمشق لأول مرة.
وفي عام 1941 أصبح وزيرا للأشغال العامة في وزارة الشيخ تاج فأعيد أخوه شوكت إلى محافظة اللاذقية. ونجح نائبا عن صافيتا عام 1947،

وكان عام 1949 في زيارة لأميركا الجنوبية فلم يحضر الانتخابات النيابية ولم ينجح في انتخابات 1954 ومع ذلك بقي منير العباس من أكبر زعماء قضاء صافيتا.

ويروي الدكتور بشور عنه الحكاية التالية:

"روى لي صديق مطلع أنه قبل الوحدة السورية – المصرية طلب إلى بيروت وأبلغ أنه سيحصل إصلاح زراعي في سورية وأن عليه أن يبيع ما استطاع من أملاكه ... وبما أن الدولة المعنية مخلصة لأصدقائها ستساعده بمعاش شهري قدره 18 ألف $، فانتفض ورفض بإباء قائلا أنا لا أبيع كرامتي ب 18 ألف $ ولا بغيرها، أنا في بلد إن مات أموت وإن عاش أعيش! مفضلا الفقر وقد وصل فعلا إليه دون دخول في تفصيلات غير ضرورية!

كما حيكت دسائس ضده من قبل أحد المحامين بعد 8 أذار 1963 لزجه بمؤامرة مزعومة دون علمه كما روى لي نفس الشخص الموثوق فاعتقل ونقل إلى السجن بشكل مهين وأطلق سراحه لأن لم يثبت شيء ضده، وكثيرا ما يكون الشرفاء ضحية تآمر الأنذال! وقد صدفته في "النبك" في صيف 1967 قرب الاستراحة وقد شكا لي ألما في ظهره وبعد حديث قصير افترقنا. وتوفي بعد سنة من ذلك دون أن ينال ما يستحق من التكريم لأن الناس تجهل مواقفه المشرفة التي مر ذكرها!."([101]).

9-: (محمد إبراهيم الفاضل 1919 – 1977) ينقل المؤلف معلومات تفاصيل نشأة الفاضل عن الأستاذ (فؤاد أنيس طعمة) من "بيت شباط" الذي علم محمد الفاضل وكان يعرفه عن قرب بحكم الجوار والصداقة وتحرر الاثنين من العقد المتوارثة فحكى له عن ذكرياته عنه قائلا:

"نشأ محمد الفاضل في "عين الجيش" وتلقى علومه الابتدائية في مدرسة "بيت شباط" الأميركية. والمسافة بين القريتين أقل من كيلو متر واحد. وجدّ في الدراسة الخاصة وفق طاقاته وعناية معلمه فؤاد بتدريسه حتى وصل إلى برنامج الصف العاشر للمدارس العليا الأمريكية لذا دخل عام 1936 المدرسة الأمريكية العليا للصبيان في طرابلس T.B.S في الصف العاشر وبسبب تفوقه رفع بعد أشهر إلى الصف الحادي عشر بإجماع المعلمين ولكن كيف تخرج؟

---

[101] -: المرجع السابق ص 139 – 140.

كان الأستاذ (زكي الأرسوزي 1900 – 1968) يقيم في ميناء طرابلس وقد أسس حزبا سياسيا بين الطلاب باسم "حزب الوردة البيضاء" بزعامة الأرسوزي وانضم الى هذا الحزب الطلابي وكان هناك كثافة في التظاهرات الطلابية ضد الفرنسيين وكان محمد الفاضل شخصيا يقود تلك المظاهرات ويخطب فيها على ساحة التل. وأنذر أكثر من مرة أن يكف عن هذا العمل دون جدوى، إلى أن قارب انتهاء السنة الدراسية والتخرج عام 1937 وكان سيلقي كلمة الطلاب. فطلب منه أن يعرض كلمته على الأستاذ (جورج نخول) مدرس اللغة العربية فوافق الأستاذ نخول عليها...

ولكن...

عندما اعتلى محمد الفاضل المنبر لم يقل كلمة مما عرض على الأستاذ نخول بل تحولت كلمته كلها إلى هجوم على الاستعمار الفرنسي. ولما ترجم ما يقول إلى المستشار الفرنسي وكان يحضر الحفلة، أمر بتوقيفه وأنزل العقوبة من قبل إدارة المدرسة، اجتمع المدرسون لإعطاء القرار فكان حرمانه من التقدم إلى الامتحان النهائي أي عدم التخرج! وكان الأميركي رئيس المدرسة آنذاك مستر (ماكول) فخرج من المدرسة وتوجه إلى قريته.

ولما وقع الوالد في المأزق توجه إلى طرابلس يصحبه الأستاذ فؤاد طعمة "معلمه سابقا" لمراجعة إدارة المدرسة، وكان مستر (ماكول) يؤيده ضمنا فطلع بفتوى طريفة وأجاب إن القرار يمنعه من تقديم الامتحان في المكان المعد مع الطلاب لكن لا يمنعه من تقديم الامتحان في المكتبة فكان أن قدم محمد الفاضل الامتحان في مكتبة المدرسة وتخرج بامتياز عام 1937.

وفي نفس العام عاد إلى القرية وحضر برنامج البكالوريا السورية وقدم الامتحان ونجح. ومن ثم تسجل في كلية الحقوق في دمشق وأنهى دروس السنوات الثلاث الأولى بامتياز غير أن والده وصل إلى الفلس الأخير وأصبح عاجزا عن إرساله في السنة الرابعة فشجعه أستاذه السابق لإرساله لو اقتضى ذلك بيع خشب البيت، فتدبر الأمر وتخرج الفاضل بشهادة الإجازة في الحقوق عام 1942.

لكن نشاط محمد الفاضل الدراسي لم يحل دون نشاطه الوطني فانضم إلى الكتلة الوطنية ليعمل للوحدة السورية. وفي عام 1940 عقد اجتماع لمؤيدي الكتلة في "بيت شباط" في منزل ودار (نسيم عبد الله طعمة 1884 – 1942) وحضور مدير ناحية الدريكيش، وكان خطيب الاجتماع الذي ضم أكثر من 500 شخص في بيت شباط و بيت الخطيب وعين الجيش، محمد فاضل الذي هاجم سياسة فرنسا التقسيمية.

ولما أصبح (شوكت العباس) محافظا في اللاذقية (1941 – 1943) للمرة الثانية عين الفاضل رئيسا لديوان المحافظة واعتبر ذلك لجما لنشاطه الوطني والفكري.
ثم تابع الفاضل تحصيله العالي في أوروبا فحصل من جامعة باريس على دبلوم معهد العلوم الجنائية عام 1948 وعلى دبلوم معهد القانون المقارن، ودبلوم معهد الدراسات الدولية العليا عام 1949. وإثر عودته عام 1949 عين مدرسا في كلية الحقوق في الجامعة السورية. وحصل عام 1952 على منحة دراسية من منظمة الأمم المتحدة لدراسة الأساليب الحديثة في النظم الجزائية ومحاكم الأحداث في أوروبا الغربية والاطلاع على مناهج تدريس العقوبات والإجراءات الجزائية وعلم الاجرام والتشريعات المالية والاقتصادية والجزائية في الجامعات الأوروبية.
ثم أصبح أستاذا ورئيسا لقسم القانون الجنائي وأصول المحاكمات الجزائية عام 1959، ثم التحق بجامعة كامبريدج في إنكلترا لردح من الزمن، كما حصل على منحة دراسية من أكاديمية القانون الدولي في لاهاي عام 1961 للاشتراك في أعمال مركز البحوث الدولية والتعمق في دراسة القانون الدولي. وأصبح له حتى عام 1963 نحو 23 كتابا ما بين مؤلف ومعرب.
وفي عام 1964 أصبح عميدا لكلية الحقوق ثم أصبح وزيرا للعدل عام 1966 ثم رئيسا لجامعة دمشق عام 1976 إلى أن اغتيل في 22 / 2 / 1977 في حرم جامعة دمشق.
وقد مارس المحاماة إلى جانب العمل الأكاديمي محاميا أمام محكمة النقض ومجلس الدولة منذ عام 1944 كما شارك في عضوية عدد كبير من المجالس والجمعيات ومراكز البحوث العلمية العربية والأجنبية. ومثل سورية في عدد كبير من المؤتمرات الدولية.
ومن كتبه المؤلفة والمعربة:

1- المذاهب السياسية وأنظمة الحكم (تعريب) 1950.
2- القضاء الإداري (تعريب) 1950.
3- العلاقات الدولية في العصر الحديث 1957.
4- الجرائم الواقعة على أمن الدولة 1958.
5- الجرائم الواقعة على الأشخاص 1962.
6- الوجيز في أصول المحاكمات الجزائية 1963.
7- المبادئ العامة في قانون العقوبات 1963.
8- محاضرات في الجرائم السياسية 1963.

9- قضاء التحقيق 1965.
10-التعاون الدولي في مكافحة الاجرام 1966.
11-محاضرات في تسليم المجرمين 1967.
12-مبادئ الدفاع الاجتماعي (تعريب) 1968.

وكتابان بالإنكليزية وخمسة بالفرنسية كما علم وقام بتدريس 9 مواد في كلية الحقوق في جامعة دمشق.

مدرسون

وتحت هذا العنوان يستعرض الدكتور وديع بشور في كتابه 7 سبعة أسماء[102] سوف أستعرضها فيما يلي بمقتطفات تعريفية طويلة غنية بالمعلومات عن صافيتا ومنطقتها، ووافية من الكتاب -:

1-: البروفيسور (جبر ضومط 1859 – 1930) الذي ولد ونشأ في برج صافيتا في بيت متواضع ابنا لمخائيل بن جبر بن الشيخ ضومط وكاترين ابنة دانيال الخوري. توفي والده ولم يكن قد تجاوز السنة والنصف من عمره. فانتقلت به أمه إلى بيت أخيها الأصغر إلى أن بلغ جبر الثامنة فعادت به إلى بيتها.

في سنة 1865 أسس المرسلون الأميركان مدرسة في برج صافيتا. فأرسلت الأم ابنها إلى هذه المدرسة وكان أول معلميها (خليل زغرب) من "ابل السقي" الذي اهتم بالتبشير البروتستانتي أكثر من التعليم فساعدته أخته (شما زغرب) في تسيير المدرسة. ثم وصل إلى صافيتا (يعقوب صروف) الشهير في صيف 1869 فلازمه الطفل جبر يدرس عليه اللغة الإنكليزية وكان تأثير يعقوب صروف عليه كبيرا جدا. بينما أمه كانت تعده لترسله إلى حمص ليتعلم إحدى الصنعات عرض عليه الدكتور (صامونيل جسوب) أحد المرسلين أن ترسل ابنها إلى "عبية" في قضاء عاليه في لبنان والمسافة ثلاثة أيام مشيا على الأقدام.

ذهب جبر ضومط إلى مدرسة "عبية" عام 1870 وعمره 11 علما ... وبعد سنتين في شهر تشرين الأول 1872 جاء جبر ضومط إلى الكلية السورية الانجيلية بعناية د. جسوب حيث عاد يتتلمذ على المعلم يعقوب صروف خلال دراسته الجامعية. وبعد أربع سنوات نال شهادة البكالوريوس في العلوم B.A عام 1876 ثم عاد إلى صافيتا. ومع علمه بالعربية والإنكليزية درس جبر ضومط العبرية والسريانية ووضع كتبا للتعليم

[102] -: المرجع السابق من الصفحة 145 – 151.

بأسلوب جديد، واستمرت علاقته بالدكتور صروف من خلال مراسلاته لمجلة "المقتطف".

علم جبر ضومط في عدة مدارس في حمص وطرابلس وفي عام 1884 سافر إلى الإسكندرية حيث عمل في تحرير جريدة "المحروسة" ل (سليم النقاش) ثم عين ترجمانا في حملة غوردن باشا على السودان لقمع ثورة المهدي فيها،وكان (جرجي زيدان 1861 – 1914) رفيقه ثم عاد مع زيدان يدرس برفقته العبرية والسريانية استعدادا للعمل في جامعات أوروبا. ثم سافر وإياه إلى إنكلترا حيث تردد على مكتبة المتحف البريطاني للإطلاع على نفائسها، ولم عادا قصد زيدان مصر حيث أسس مجلة الهلال في القاهرة عام 1892 بينما ضومط قصد مدرسة كفتين الأرثوذكسية مدرسا للفلسفة الطبيعية واللغة العربية لمدة ثلاث سنوات. وفي عام 1889 عين مدرسا للعربية في الجامعة الأميركية ولنجاحه الباهر في التدريس جددت خدمته عام 1890. وفي عام 1892 أصبح برتبة محاضر في الدائرة العربية. وفي عام 1900 تقديرا لخدماته الطويلة ونشره كتابا في آداب اللغة العربية منح شهادة أستاذ علوم، واستمر في الجامعة يعلم إلى سنة 1923 أي أنه تقاعد بعد 34 سنة ولم يتقاعد عقله بل تفرغ لحقل الكتابة والتأليف حتى توفي في 19 / 1 / 1930، وكان أول عربي ينال لقب بروفيسور.

من مؤلفاته:

"الخواطر الحسان في المعاني والبيان" و "فلسفة البلاغة" و " الخواطر العراب في النحو والاعراب" و "فك الاقليد في علم الصرف" و "اللغة العربية ومقامها بين اللغات السامية" و "الفلسفة العربية وتطورها".(103)

2-: (أسبر ميخائيل بشور 1889 – 1951) درس الابتدائية في صافيتا ثم في المدرسة الأمريكية في حمص وتابع دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت ونال شهادة بكالوريوس في علوم B.A عام 1912 وكان على صلة جيدة بالأستاذ جبر ضومط.

3-: (داود توما 1890 – 1957) كان من ألمع الطلاب في الجامعة الأمريكية في بيروت، لذلك ألقى خطبة قوية باسمهم في حفلة التخرج رغم حضور الوالي التركي حاضرا شخصيا، ومما قاله بحضوره: أن الوالي ليس حرا أكثر منه. وخوفا على حياته هربه الأمريكيون حيث أقام في البرازيل، في كهولته عاد إلى صافيتا ليدرس اللغة الإنكليزية إلى توفي.

---

103 -: المرجع السابق الصفحات 145 – 146 – 147.

4-: (الياس جرجس بشور 1906 – 1996) تعلم الابتدائية في صافيتا والثانوية في مدرسة اللاييك بطرطوس وتخرج عام 1928. وبدأ مباشرة بالتعليم في مدرسة الدولة في دريكيش حتى إغلاقها عام 1931 وكانت من المدارس الداخلية القليلة. فانتقل إلى تجهيز البنين في اللاذقية (جول جمال فيما بعد) يدرس الرياضيات حتى عام 1941 ثم انتقل مديرا إلى مدرسة صافيتا الابتدائية التي بنيت على الميدان في عهد الكابيتان (بيزيللا) فتحولت بمساعيه وبتجاوب الأستاذ مصطفى الزين مدير معارف اللاذقية وعرائض المطالبين إلى متوسطة ثم إلى مدرسة ثانوية. كان يهتم بشكل خاص بأبناء الريف المحرومين، وجعلها أولى المدارس المختلطة حتى البكالوريا، طلاب وطالبات معلمين ومعلمات، ثم تقاعد عام 1965، كان مناضلا جريئا في سبيل الديمقراطية الاجتماعية.

5-: (داود الياس خوري 1909 – 1974) ولد في "اليازدية" وتعلم في المدرسة الانجيلية فيها ثم أكمل دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج بشهادة B.A. بكالوريوس العلوم التربوية واللاهوت عام 1935 باللغة الإنكليزية وأهلية التعليم بالإضافة إلى دبلوم في العلوم والتربية واللاهوت، عمل في قريته "اليازدية" وفي "يافا" بفلسطين وفي حمص وحلب وأخيرا في اللاذقية.

6-: (حنا يوسف عبيد 1908 – 1991) معلم مناضل نال شهادة بكالوريوس علوم B.A. من الجامعة الأمريكية في بيروت وعلم في العراق وسورية.

7-: (أديب طيار1905– 1981) وفي مراجع أخرى على النت هو من مواليد 1907.

سوف أعرض فيما يلي المعلومات التالية عن الأديب والصحفي والشاعر أديب طيار نقلا عن بعض المواقع والمقالات على النت أذكر منها موقع "معجم البابطين" العربي الخاص بالأدباء والمثقفين العرب، ومقال منشور على النت بعنوان " الصحافة الأدبية في الساحل 1923-1954 " للكاتب الباحث (هاشم عثمان).

وبعض من المعلومات التي أوردها عنه الدكتور وديع بشور في كتابه "تاريخ صافيتا ومنطقتها" الآنف الذكر.

أديب ميخائيل الطيار.

ولد في صافيتا (غربي سورية)، وفيها توفي.

عاش في سورية، ولبنان، ومصر.

تلقى دراسته الابتدائية في صافيتا، والثانوية في مدرسة «الفرير» في طرابلس، (لبنان) ومدرسة اللاييك في بيروت حيث نال شهادة البكالوريا الفرنسية 1927، ولم يتابع دراسته.
أصدر مجلة «التجدد» في صافيتا (1927)، وعمل أمين سر دولة اللاذقية عام 1928 "عندما عينته السلطات الفرنسية لدى الأمانة العامة المرتبطة بحاكم الدولة في اللاذقية لتحد من نشاطه الوطني، لكنه لم يلبث أن استقال وهو المعادي لاتفاق سايكس بيكو ومن نفذوه في الداخل والخارج."([104]) .
نشر كتاب «حسنات الاضطهاد» (1936) فأثار غضب السلطات الفرنسية فسجنته.
عين مدرساً 1938 في اللاذقية، ثم أبعد عن عمله، ولم يعد إليه إلا بعد جلاء فرنسا.
ترشح للنيابة أكثر من مرة ولم يوفق، وعين نائباً في مجلس الأمة (1958) إبان الوحدة مع مصر.
أحيل إلى التقاعد في عهد الانفصال، فعمل مدرساً في مدارس اللاذقية ودمشق الخاصة، ثم اعتزل التدريس.
عين عضواً في الإدارة المحلية بطرطوس، ثم تفرغ لإبداعاته.
كان عضواً في نقابة المعلمين.

الإنتاج الشعري:
-جمعت آثاره الشعرية والنثرية في كتاب واحد، بعنوان: «نصوص أديب الطيار «وزارة الثقافة السورية - دمشق 1986، والكتاب في 268 صفحة وكانت هذه القصائد نشرت قبل رحيله في مجلات: القيثارة، وألف باء، والنداء، ومرآة الغرب، وهي جميعاً في سورية ولبنان.

الأعمال الأخرى:
-كان مولعاً بالشعر الفرنسي، ولا سيما الشعر الرومانسي، فترجم منه الكثير إلى العربية، موزوناً مقفى، وقد نشر أكثره في مجلة القيثارة)اللاذقية) بين سنتي 1946 - 1948 وما نظمه مبتدئاً أقل مما نظمه مترجماً، عن هيجو وألفريد دي فيني وشاتوبريان ولامرتين، وترجم عن الفرنسية أيضاً قصصاً لموباسان، وبرنارد دي سان بيير، وغيرهما، وألف

[104] -: المرجع السابق ص150.

كتاب «حسنات الاضطهاد - «طبع مرتين: مطبعة الكشاف - بيروت 1936 - مطبعة الإرشاد - اللاذقية 1946، وله محاضرة بعنوان: الرواية المسرحية في التاريخ والفن - لم تنشر، وترجم كتاب: تاريخ النحت، لدومينيك جابي - لم ينشر.

شعر أديب الطيار دون مستوى نثره، ولكنه بالإجمال يفيض بالحب والحماسة والوطنية، في سياق وجداني تأثراً بالرومانسية التي اجتذبته، وكما تدل قصائده المترجمة على أصالة هذه النزعة الوجدانية من خلال حرية اختياره، فإنها تدل على عمق وعيه بمعاني ما يترجمه، ومقدرته (الفنية) على إعادة تشكيل المادة التي يتعامل معها، فقد كان ينتقي ألفاظه بدقة انتقاء الجوهري الحاذق، ويتوخى فيها الطلاوة والرقة والغنائية.

مجلة التجدد

وَحول مجلة "التجدد" التي أصدرها الأديب والصحافي (أديب الطيار) يكتب هاشم عثمان في مقالته المعنونة " الصحافة الأدبية في الساحل 1923-1954" التي أشرت إليها سابقا ما يلي:

" المجلة الثالثة التي عرفها الساحل، هي، التجدد لأديب طيار، مجلة أدب وفن واجتماع وفكاهة. صدرت في (صافيتا) في مطلع آذار 1927- رمضان 1345، سنتها عشرة أشهر وعدد صفحات كل عدد /64/ صفحة. والعدد مقسم إلى الأبواب التالية: في رياض الشعر، من هنا وهناك، في عالم الكتب، فكاهات، رواية العدد، سير العلم، الفنون الجميلة...

ومن استعراض أبواب المجلة نجد أنها اهتمت بالفنون الجميلة. وهذا سبق يسجل لها. كما يتبين أنها اهتمت بالقصة. فخصصت لها باباً مستقلاً بعنوان (رواية الشهر) وتحت هذا الباب نشرت: الأقحوانتان، ملاك الظلمات، الراهبة البيضاء. وهي من القصص الراقي بقلم الأديب الشاعر زاهي عرنوق، فتكون التجدد عرفتنا برائد مجهول من رواد القصة في الساحل السوري. لم يهتم به أحد من الدارسين فمات مغبوناً.

وكالنور لم تعش التجدد طويلاً. احتجبت بعد عام من صدورها، مخلفة وراءها فراغاً كبيراً.".

وأخيرا يكتب الدكتور بشور عنه الكلمات التالية عندما زاره وهو مريض أواخر حياته:

"ذهبنا إليه حيث كان يقيم في حارة التل وكان المشهد المثير الذي لا أنساه، فارس الكلمة الحرة يناضل حتى الرمق الأخير بعقله ويراعه، الأستاذ أديب طيار جالس وأمامه طربيزة يلهث بسبب الزلة التنفسية من الاحتقان الرئوي

وكلامه متقطع وساقاه متورمتان وفي حالة كهذه يترجم شعر (لامارتين) من الفرنسية إلى شعر بالعربية! ثم كانت وفاته في 3 شباط 1981."([105]).

اوائل الأطباء البشريون في صافيتا ومنطقتها

إن ظهور أطباء بشريون في مرحلة زمنية مبكرة في صافيتا هو دليل على وعي مجتمع مبكر في مجال العلم والصحة كما هو نتيجة حاصلة لكل ما أشرت إليه سابقا عن نسيج مجتمعي جديد يتشكل بتأثير اندماج مجتمعي وتشكل مدني حديثين.

وحول هذا الجانب يذكر الدكتور وديع بشور في كتابه المذكور عدد من أسماء الأطباء وأغلبهم تخرج إما في العهد العثماني أو مع بدايات الانتداب الفرنسي كما يقول، وهم كالتالي حيث سأذكرهم بدون تفاصيل عن ولادتهم وحياتهم كما في الكتاب:([106])

1- (بشور الياس بشور 1891 – 1933) تخرج من كلية الطب في جامعة شيكاغو عام 1902.تخرج

2- (ظريفة الياس بشور 1881 – 1969) تخرجت أيضا من كلية الطب في جامعة شيكاغو عام 1912 مارست الطب في طرابلس وفترة تقاعدها في صافيتا حتى الممات، فكانت أول طبيبة امرأة في الشرق.

3- (إسكندر خليل بشور 1880 – 1951) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1907.

4- (ميخائيل خليل بشور 1894 – 1955) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1923.

5- (عفيف قيصر بشور 1893 – 1987) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1920.

6- (قيصر حنا طعمة 1993 – 1970) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت مارس الطب في العراق ثم في الجيش العراقي برتبة عميد وكانت تربطه صداقة مع نوري السعيد والأمير عبد الإله.

7- (انطونيوس نسيم طعمة 1900 – 1972) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1927.

8- (ميخائيل رشيد بشور 1898 - 1977) تخرج من الجامعة السورية ومارس في مصياف وأرواد وطرطوس.

---

[105] -: المرجع السابق ص 150 – 151.

[106] -: المرجع السابق من الصفحة 152 حتى الصفحة 156.

9- (شاكر طعمة شمالي 1903 – 1975) درس الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت وفي جامعة جورج تاون في واشنطن حيث تخرج عام 1937، تبرع بغرفة عمليات لمستشفى الحصن وكان متحمسا للقضية العربية.

10- (ميليا جميل بشور 1905 – 1986) تخرجت من الجامعة السورية عام 1932 وعملت في بغداد في مستشفى الرشيد ثم انتقلت إلى البصرة، كما عملت في حمص وطرطوس.

11- (شفيق حنا طعمة 1911 – 1992) تخرج من الجامعة السورية وعمل في مشتى الحلو ثم في حمص حيث أسس مستشفى "الشرق".

12- (أسبر توفيق حنا 1909 – 2002) تخرج من الجامعة السورية عام 1935. ثم خدم طبيبا في الجيش السوري. وبعد تقاعده من الجيش خدم في المستشفى السوري في اللاذقية حتى تقاعده.

13- (أمين يوحنا سعادة 1909 – 1965) تخرج طبيبا من الجامعة اليسوعية عام 1937 .

14- (سمير بشور بشور 1912 – 1986) تخرج من الجامعة السورية عام 1937 ثم تخصص في أمراض القلب في بريطانيا.

15- (جميلة فاضل خوري 1922 _ ...) يتحدث الدكتور بشور هنا عن شخصية نسائية فريدة اشتغلت بالتمريض ويبدو أنها كانت ما زالت على قيد الحياة عند ما نشر كتابه عام 2008 كما يفهم مما كتبه عنها، لذلك سوف أنقل كل ما كتبه بخصوصها: "ممرضة ورئيسة ممرضات وخدمات تمريضية، مثقفة جامعية تحمل عدة شهادات وتجيد العربية والإنكليزية والفرنسية وتحضر في هذا السن أطروحة الدكتوراه في الفلسفة. ولدت جميلة في مشتى الحلو قضاء صافيتا ونالت شهادة الدراسات العليا (1933 – 1938) من مدرسة البنات الأمريكية في طرابلس، ثم نالت شهادة التمريض من مدرسة التمريض في الجامعة الأمريكية في بيرت عام 1941. بعدئذ نالت شهادة بكالوريوس في التمريض التربوي من جامعة سيراكيوز في الولايات المتحدة عام 1956 ثم شهادة ماجستير في الإدارة من جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة عام 1968 ثم ماجستير في التربية من جامعة كولومبيا عام 1968. كما عملت ممرضة مسؤولة بعد عام 1942 في مستشفى الدكتور نيني في طرابلس ثم في مستشفى الميناء بطرابلس ثم رئيسة ممرضات وخدمات تمريضية في مستشفى العاصي في حمص 1948 – 1949 وأسست مستشفى بمئة سرير ونظمت وأدارت

الخدمات التمريضية فيه، كما تطوعت لمدة ثلاثة أشهر على الجبهة الفلسطينية – اللبنانية لتحضير مستشفيات لحالات الطوارئ ل اللاجئين الفلسطينيين، بعد ذلك عملت رئيسة ممرضات وخدمات تمريضية في المستشفى اللبناني في جدة بمئة وخمسين سرير كما قامت بمسؤولية أخصائية التغذية والتخدير، ثم عملت رئيسة ممرضات وخدمات تمريضية في مستشفيات الجامعة السورية في دمشق 1951 – 1958، ثم في المستشفى الأميري في الكويت 1959 – 1961 ثم في مستشفى الصباح في الكويت 1961 – 1963 ثم رئيسة الهيئة التمريضية في وزارة الصحة العامة في الكويت 1963 – 1976 حيث رقيت لوظيفة مستشارة لشؤون التمريض في الوزارة. وفي عام 1980 عينت مساعدة للمدير العام لشؤون التمريض بوزارة الصحة والخدمات الطبية في إمارة دبي، وعملت في هذه المسؤولية حتى 3 / 7 / 1993 حيث استقالت لتعود لبلدها وتتمكن من إتمام أطروحة الدكتوراه. والمؤسف أنها بعد أن أكملت كل المسودات وكل الترتيبات داهمتها الأمراض المتتالية آخرها التهاب عظم الركبة حتى أصبحت طريحة الفراش حاليا ومع ذلك باعت كل ما تملك واشترت سيارة اسعاف تبرعت بها لمستوصف مشتى الحلو. وبقيت في بيت أهلها بين الكتب والذكريات وزيارات الأصدقاء والمعجبين بهذا النموذج الحي لنضال المرأة السورية.

16- أطباء الأسنان

17- (أنيس الياس بشور 1874 – 1958) تخرج من الولايات المتحدة

18- (زاكي إبراهيم بشور 1894 – 1976) تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت (فيليب عزيز بشور 1905 – 1974) تخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت وفرنسا

19- (صادق يوسف طيار 1907 – 1992) تخرج من فرنسا.

20- (زكي حنا طعمة 1895 – 1968) تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت.

21- (ميخائيل حنا طعمة 1907 – 1975) تخرج من الجلمعة الأمريكية في بيروت.

22- (ميخائيل نسيم طعمة 1907 - 1975) تخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت.

-23

الدريكيش

كما أشرت سابقا فإن أغلب ما ورد سابقا عن تاريخ صافيتا ومنطقتها ينطبق بشكل كبير على الدريكيش حيث التداخل الجغرافي الطبيعي والسكاني وكونها تقاسمت مع قرية أو بلدة صافيتا المركز الإداري لحكم بلاد صافيتا فترة كبيرة من الزمن، حتى أن بعض أهم أسماء الشخصيات المهنية والفكرية الكبيرة تتقاسمها مع صافيتا كما مر معنا في الفترة السابقة.

لكن لا بد أيضا من التوسع قليلا في الحديث المستقل عن الدريكيش وتكونها الحديث منذ أوائل القرن العشرين.

وسوف أعتمد في الحديث عن بلدة الدريكيش هنا على حوار في لقاء خاص مع ابن الدريكيش المخضرم الأستاذ (يوسف دخيل – مواليد 1931) حيث كان اللقاء معه في "الدريكيش" بتاريخ 1 | 8 | 2016، والسطور التالية تتضمن إجابته الحرفية دون تعديل فيها، علما أني في زيارة لاحقة له قمت بتلاوتها عليه ولم يبدي إي اعتراض على ما جاء فيها.

أصل التسمية:

بدأنا الحديث عن أصل التسمية فقال:

الدريكيش تعني محطة في الطريق كثيرة الماء والشجر، وتقع بين عمريت وحصن سليمان. جمعها دركوش.

وتتألف جغرافيا من قسمين: قسم مبني على الصخر باتجاه شرق غرب نحو الجرد، وأرضه غضارية كتيمة

وقسم مبني على الجهة الشمالية الغربية وتسمى "برمانة".

أصل العائلات: أبرز العائلات القديمة التي سكنت الدريكيش هي عائلة "آل شمسين"، كانت ملاكة تملك ملكيات واسعة. (رحمون دخيل) كان حاكم صافيتا من القرن السابع عشر.

وهم من أدخل المسيحيين إلى صافيتا، لأنه كان ممنوع على المسيحيين سكن المدن أيام العثمانيين.

المدارس والتعليم:-

قبل الفرنسيين لم يوجد مدرسة في الدريكيش، الفرنسيين بنوا أول مدرسة وشقوا الطرقات، رغم أن الفرنسيين أيضا نقلوا المركز الإداري من الدريكيش إلى صافيتا بحيث صارت الدريكيش تابعة لصافيتا إداريا عكس ما كانتا عليه قبلا، مع ذلك بنوا فيها مدارس ابتدائية صغيرة "معلم واحد".

أول مدرسة كانت 3 طوابق كان اسمها "دار المعلمين" كان يتعلم فيها أبناء الساحل حتى اللاذقية وتخرج معلمين لأبناء المنطقة.

ثم تم بناء مدارس بكثرة في كل مكان، مع تخريج معلمين لتعليم الناس، فذهب أبناء الأسر الغنية المالكة إلى فرنسا وأوروبا عموما للدراسة والتخصص.

من أشهر أعلام رواد المتعلمين تعليما عاليا فيها هم:

الدكتور محمد الفاضل من قرية "عين الجاج"، والدكتور الجراح "طعمة" من قرية "بيت شباط" والمهندس (جميل الأسعد) من قرية "عين الجاج".

دار المعلمين كأول مدرسة كان أساتذتها من لبنان، أغلبهم مسيحيين موارنة، أما الجيل الثاني من المعلمين جاؤوا من صافيتا.

وظهر المعلم عبد الحميد محفوض، وكان معطاء فساهم في تحويل المدرسة إلى إعدادية إكراما.

لأن دار المعلمين توقفت عندما تم تحويلها إلى مكان لاحتجاز الرهائن الايطاليين الموجودين في سورية ولبنان أثناء الحرب العالمية الثانية، ومن بينهم رئيس المستشفى الإيطالي في بيروت الدكتور (ماتو).

ثم تحولت في العهد الوطني إلى مدرسة ابتدائية رسمية فإعدادية بمساهمة من (عبد الحميد محفوض).

أول شهادة ثانوية في القرن العشرين في الريف الساحلي حصل عليها الطالب (علي بركات) من اللاذقية.

أول شخص كتب بالانكليزي ... هو السيد (دخيل ضاهر).

في العهود الوطنية اللاحقة، بعد الاستقلال حدثت نهضة تعليمية واسعة كما حدث في كافة أنحاء سورية، وبدأ التوسع الكبير في المدارس خصوصا منذ سبعينات القرن العشرين.

الحياة الاقتصادية:-

بالإضافة للأعمال الزراعية البسيطة وتربية المواشي كانت توجد في الدريكيش بعض حرف الحدادة والخياطة وبعض أدوات مهنة النجارة.. والهجرة إلى أمريكا.

شق الفرنسيين العديد من الطرقات لمرور الآليات ، في جبال الساحل السوري، ربما لأغراض عسكرية فقط في البداية، وأطولها كان طريق طرطوس – الدريكيش – مصياف، عن طريق جبل النبي متى _ صالح وتمريره بروؤس الجبال. الأمر الذي خدم المنطقة الجبلية الساحلية كثيرا مع مرور الأيام. لاسيما في النشاط الاقتصادي.

بداية كانت التجارة مرتبطة بطرابلس كاستيراد السلع الغذائية مقابل زيت وبيض بلدي وحرير ومنتجات الألبان.

فالنشاط الاقتصادي كان يعتمد بداية على زراعات بيئية محدودة وبعض الأعمال الصغيرة إلى أن ظهرت تربية دودة القز، فنشطت زراعة التوت لذلك وكثرت، ثم أنشئ أول معمل حرير في الدريكيش في عهد الوحدة إبان الرئيس جمال عبد الناصر.
خلال فترة الانتداب كان عدد سكان الدريكيش بحدود 1000 نسمة.
اشتهرت بلدة الدريكيش كمصيف سياحي وملتجع صحي منذ خمسينات القرن العشرين مع ارتباط ذلك باكتشاف أن مياه ينابيعها معدنية صالحة للشفاء من مرض الرمل... واستمرت سمعتها وشهرتها تلك حوالي خمسون عاما، حتى تم إنشاء معملا خاصا لتعبئة مياه الدريكيش المعدنية وتوزيعها في كافة أنحاء سورية. فصار الناس يشترون العبوة في مدنهم وهي أكثر نظافة وأقل كلفة.
لكن في طيلة فترة الخمسين عاما المذكورة كان يرتاد بلدة الدريكيش سواء للاصطياف أو للاستشفاء بأعداد كبيرة من مختلف أنحاء سورية وأغلبهم من الأسر الغنية الميسورة، وبعض المثقفين المشهورين
وكانت الصلاة تقام في مسجد الدريكيش الوحيد على المذهب الحنفي، وكان يؤم المصلين كافة سواء من ابناء الدريكيش أم من المصطافين، الشيخ (عبدالله المجذوب) من طرطوس. حتى أواخر سبعينات القرن العشرين.
وبعد الشيخ عبدالله المجذوب استلم الأمانة الشيخ (سليمان وقاف) من (بيت الوقاف) من ريف الدريكيش، وكان أيضا يصلي وراءه الجميع حيث كان يؤدي الصلاة أيضا على المذهب الحنفي حتى بداية الألفية الثانية.
حيث صار يؤم المصلين من حضر من الثقة من الناس. وحتى اليوم المسجد بدون إمام معين من قبل الأوقاف، حيث يؤم المصلين من أبناء الدريكيش شخص اسمه علي عمران. ويصلي في الجامع اليوم، أيضا، بعض النازحين من حلب وبقية المحافظات.
بدأت ظاهرة الانتساب للكليات العسكرية منذ سبعينات القرن العشرين خصوصا فأنتجت العدد الكبير من الضباط في الدريكيش ومنطقتها، ومنهم برتب عالية.
الناحية العمرانية:-
طيلة خمسينات القرن العشرين كان لا يوجد في الدريكيش إلا بيوت بالإسمنت المسلح والحجارة المشذبة، بالإضافة للمدرسة. وكانت أغلب سقوف هذه البيوت من القرميد.

في أواخر الخمسينات حضر شخص من صافيتا يدعى (مخائيل اللولو) – أبو كمال، وكمال هذا هو الآن أحد أساطين اللغة العربية ومفكريها، يقيم في بريطانيا اسمه (كمال أبو ديب)، وهو مرجعية في أوروبا.
مخائيل كان لديه ورشة بناء كبيرة وامكانات مادية، بحيث يستطيع ان يضمن بناء الغرفة جاهزة على المفتاح بمبلغ 1500 ليرة وبالتقسيط لذلك يمكن القول إنه هو من أسس لأول نهضة عمرانية في الدريكيش.
وللطرافة فإن مخائيل كان بداية عاملا عند معلم عمار آخر من صافيتا اسمه (مفلح) والذي كان لديه صبية جميلة لكنها صغيرة السن فأحبها مخائيل رغم صغر سنها عليه.
فكان كثيرا ما يتذكرها في جلساته وهو يدندن المقطع التالي:
يا ويلي وياتعتيري ... عروسي بعدا صغيري
بكرة بتكبر وأنا بشيب ... وبعدا بتوالف غيري
فكان ينهره والدها (مفلح) .... وقد تزوجها فعلا بعد ذلك.
وفي مرحلة تالية انتشر السكن الإسمنتي نتيجة المردود المادي من الوظيفة والعمل في لبنان.
شهادة من أحد أبناء العائلات العريقة في الدريكيش:-
ومرة في إحدى الزيارات لقرى الدريكيش القريبة من جهة الشرق وكنت برفقة الصديقين (نبيه نبهان) و (شاهر قاسم) مررنا بقرب بيت على الطريق العام الذي ينتصف الدريكيش فاستوقفنا طراز بنائه الذي يعود لسنين بعيدة فسألنا عن أصحابه للحديث معهم فكانت المعلومات الهامة التالية التي دونها مشكورا بحماس كبير الصديق (نبيه نبهان) رفيقي في العديد من اللقاءات أثناء التحضير لهذا الكتاب:
في الطريق من مدينة الدريكيش إلى الريف الشرقي للمدينة، وبعد جامع الدريكيش بقرابة مائة متر عند المنعطف المتجه شرقا، تمر بجوار بيت من الحجر الأبيض بشرفة تزينها أربعة أعمدة حجرية بيضاء تحمل ثلاثة أقواس لنصف دائرية تشكل معا واجهة المنزل الغربية ولدى السؤال عن صاحب البيت تبين انه ضابط متقاعد يشغل محل تجاري أسفل البناء.
توجهنا للقائه وكان الحديث التالي:
الاسم : وسيم أصف العمر تولد ١٩٥٢ ضابط متقاعد
يقول ان جده المؤسس للبناء هو / عبد الرحيم أفندي العمر / قبل ١٦٠ الى ١٧٠ عام ، أي بحدود عام ١٨٥٠ م

وكان الجد عضو في مجلس مبعوثات في تركيا، ويقول بأنه كان يكنا بابو الفقراء، وقدم مثل عن تقديمه الطعام أيام محلة سفر برلك من ١٩١٤-١٩١٨ بوجبات جاهزة للمحتاجين ... مثل البرغل والبخلة، وكان يتقاسم المردود مع فلاحيه مناصفة، في وقت كان العرف حينها العشر أو الخمس.
وكان شعار الجد في محنة المجاعة بسفر برلك : عيش يا جوعان
حول أصل العائلة يقول بأن أصلهم يمتد لمرج عامر في فلسطين، كما ذكر كتاب ممكن يكون مرجع هو، للعميد (منير صقر)([107]) من "حفة وعاشقة"([108]).
عن عشائر الدريكيش ومن جهة عائلته اعتبر محدثنا السيد وسيم العمر انهم أصغر من أن يشكلوا عشيرة، وهم جميعا ينتسبون لبيت شمسين
من عائلات الدريكيش المعروفة له: (بدر) (ججاح) (حماد)، ويظن ان هذه الأخيرة أصلها من قرية بقعو. وذكر انه قد تكون من عائلات الدريكيش عائلة (بيت رحال) ولكنها توزعت وانتهت.
ثم حدث توسع بقدوم أهل الريف الى الدريكيش باعتبارها كانت مقر القائمقامية العثمانية وحتى طرطوس كانت تتبع لها بذلك الحين) يقول عن أول مدرسة بنيت في الدريكيش كانت من قبل الحامية الفرنسية " السنغالية" في العشرينات ، وبنيت لتكون مقر للحملة الفرنسية.
وذكر عن بسالة أهل القرى بمقاومة الفرنسيين خلال الاحتلال الفرنسي ان الجنرال " بيو " هزم بموقعة حملت اسم بيت طيور، وهي تحريف لاسم كتيبة بالفرنسي تعبيرا عن حجم الحملة التي هزمت بتلك القرية.
ويتحدث مستذكرا أن والده يعرف وجهاء طرابلس باعتبار أن الدريكيش كانت تتبع لها مثل
(عبد الحميد كرامي، رشيد سليم الخوري،) باعتباره وكيل معارف، ما يشبه اليوم مدير التربية
وعن المدارس يذكر مدرسة المعمورة ١٩٣٧ / مدرسة بيت شباط / المدارس التي رافقت البعثات التبشيرية في كرفس وبشمس

---

[107] -: طبعا المقصود هنا كتاب "تاريخ صافيتا في العهد العثماني" المشار إليه سابقا أكثر من مرة لمؤلفه السيد (منير عبد الحميد صقر).
[108] -: اسم قرية المؤلف (صقر).

ويذكر الدور الكبير لوكيل المعارف عبد الحميد محفوض ، باللاذقية التي تبعت لها الدريكيش بالعهد الفرنسي ، ودوره في رفع مستوى التعليم ، ليصل الى اعتبار بيت العمر كبيت للعلم .
عن علاقة طرطوس بطرابلس ، يقول بأنه بالعهد العثماني كانت طرابلس سورية ، ومن جنوب الدريكيش بمكان حمل اسم البلاطة كان يتم التوجه لطرابلس وان والده كان يستضيف وجهاء طرابلس في بيته بحدود عام ١٩١٥.
وعن الموارد الاقتصادية للسكان يقول بأن الموارد اقتصرت على ما تعطيه الطبيعة من الإنتاج الزراعي ، ومر سريعا على دودة القز والحرير الطبيعي
وعن العلاقات الاجتماعية تحدث بحنين عن الدور الذي حظي به " الشيوخ " بالأمر والنهي والحل والربط بين الناس وبأنه كانت كلمتهم مسموعة من كل الناس.
بناء الجوامع في قرى صافيتا – الدريكيش-:
طبعا الحديث عن الدريكيش يستدعي ولا بد الإشارة إلى الجامع الذي بني فيها قديما بحيث يكون واحدا من أقدم الجوامع في جبال الساحل، فبناء دور العبادة عموما ومنها بشكل خاص الجوامع في البيئات والمناطق الريفية الفقيرة المهمشة والبعيدة عن مراكز المدن، في جبال الساحل، كانت تلعب دورا هاما، لا سيما في ذلك الزمن، في لقاء الناس وتقاربها مدنيا وتمتين روابط المعرفة بينهم على أساس تقوي – اجتماعي ثقافي، كونها محاولة في كسر الانغلاق الريفي القديم بكل أشكاله ومستوياته، الدينية المذهبية، والعشائرية، والاجتماعية، والاقتصادية.
يذكر المؤلف الأستاذ (بسام عيسى القحط في كتابه "مقاطعة صافيتا _ التاريخ الاجتماعي والاقتصادي" أن وجود جامع في قرية برمانة جعل منها "قصبة بالمعنى العثماني، أي أننها تحولت من مستوى قرية إلى "قصبة" بالمعنى الإداري الأقوى والمتحكم فيما حولها بسبب توجه سكان الريف المحيط بها لأداء الصلوات في أيام الجمعة والعيدين على الأقل[109]).
بناء على ذلك فإن بناء الجوامع في تلك البيئات وفي ذلك الزمن كان يعتبر، كما أزعم هنا، بمثابة أحد مقدمات التشكل المدني بامتياز.

---

[109] -: بسام عيسى القحط "مقاطعة صافيتا" مرجع مذكور سابقا ص45 – 46.

لذلك سأحاول من خلال ما توفر لي من مراجع الحديث عن أقدم الجوامع التي بنيت في تلك الجبال وحكاية بناءها مبتدئا بالحديث عن جامع الدريكيش الذي هو أقدمها جميعا، كما ورد في كتاب (عبد الحميد صقر) "تاريخ صافيتا في العهد العثماني"([110]). حيث يقول:
"بُدء في بناء هذا الجامع في بلدة برمانة "الدريكيش" سنة 1231هـ وانتهى البناء سنة (1233هـ -1817م) على يد بنائين من مدينة حلب أتى بهم الشيخ ددش صقر محفوض شمسين حاكم بلاد صافيتا الذي دفع تكاليفه من ماله الخاص وأكمل أجزاء بسيطة منه ابنه شديد.
عندما تم الانتهاء من البناء أقيم حفل افتتاح كبير في برمانة حضره وفد من طرابلس برئاسة مجلس الشرع الشريف الشيخ الدرويش محمد أفندي ويرافقه كل من: الشيخ عبد الرؤوف الصفدي والشيخ درويش المعراوي والحاج علي الأحدب والحاج علي آغا شاهين والحاج أحمد الكحيل والحاج عبد الفتاح القدسية والشيخ خليل أفندي مرحبى.
وحضره من مقاطعة القدموس المير إبراهيم بن المير أصلان (الحاكم السابق للقدموس) والمير مصطفى أبو أدريس (الحاكم الحالي).
وحضره من طرطوس وفد برئاسة حاكمها محمد آغا عبد القادر ومن أرواد وفد برئاسة الشيخ مصطفى حمود الأروادي.
ولما علم السلطان العثماني محمود الثاني بذلك أرسل شكرا لآل شمسين واصفا إياهم بالكرم وفاعلي الخير وعين إماما عليه الشيخ محمد العادلي".
ويشير الكاتب صقر في حاشية أسفل الصفحة 457 من الكتاب أن الشيخ محمد بن الشيخ علي العادلي كان أول إمام وخطيب للجامع وهو من أهالي قرية برمانة "الدريكيش". ثم ينشر وثيقة هامة مصورة في الصفحة 458 - 459 تتضمن براءة بالأذن بالخطابة في جامع مستجد بقرية برمانة من قرى صافيتا وهي بمثابة فرمان سلطاني بتعيين السيد محمد العادلي وتكليفه بهذه المهمة الدينية.
لذلك يعتبر جامع الدريكيش هو أول جامع يقام في قرى جبال الساحل وفي بلاد صافيتا كما كانت تسمى.
جامع قرية بيت الحاج معلى:-
قرية بيت الحاج معلى وتسميتها الأصلية "ضهر رجب" تقع في منطقة جبلية وسطى بين صافيتا والدريكيش وطرطوس بحيث تكون الأقرب

---

[110] -: مرجع مذكور سابقا ص 456 – 457.

لطرطوس التي تتبع لها اليوم إداريا. وقد بني فيها ثاني أقدم جامع للصلاة في المنطقة بعد جامع الدريكيش.

يروي الدكتور (حسن الحسن) في مذكراته التي أشرت إليها سابقا في هذا الكتاب حكاية بناء جامع قرية "ضهر رجب" التي سميت لاحقا باسم "بيت الحاج معلى" تيمنا بالشيخ الذي بنى فيها أول جامع. والشيخ كان اسمه الحقيقي (عبد متعال 1200هـ – 1272هـ 1787م – 1855م) ثم سمى نفسه بالحاج معلى بعد أن قام بأداء فريضة الحج إلى مكة.

أما حكاية بناء الجامع كما يرويها الدكتور (الحسن) في مذكراته حيث يقول أن جده للنسبه لأمه "(الحاج معلى) يذهب إلى الحج متخفيا باسم "حاج مني" في الهودج الشامي ويعود في الهودج المصري زيادة في التخفي فلا يعرفه أحدا ويصحب معه مقرنا أعمى ويبني فور عودته مسجدا في قريته ضهر رجب 1254هـ ثم اشتهرت من بعده باسم قرية بيت الحاج معلى"([111]).

جامع قرية بيت الشيخ يونس -:

تقع قرية بيت الشيخ يونس على بعد عدة كيلومترات قليلة من جهة الغرب عن صافيتا التي كانت وما تزال تتبع لها إداريا في منطقة اشتهرت برجال دين أصحاب تقى وورع، لذلك يذكر الدكتور حسن الحسن في مذكراته([112]) أن شيوخ قرية "بيت الشيخ يونس" التابعة لصافيتا اليوم، "بنوا في قريتهم عام 1267هـ جامعا لا يزال قائما ويصلى فيه حتى تاريخه".

ثم تتالت عملية بناء الجوامع في قرى الريف الجبلي لطرطوس وصافيتا إلى أن بدأت بالتكاثر منذ منتصف القرن العشرين.

---

[111] -: المنار مذكرات مرجع مذكور سابقا ص45 – 46.

[112] -: المرجع السابق ص47.

الفصل الثاني
بانياس

شهادة عن بانياس مستمدة من الذاكرة عن تجربة شخصية عشتها

بداية أحب أن أقول أني عشت سنين يفاعتي الأولى ومن ثم بداية تكوّن شخصيتي المستقلة في مدينة بانياس الساحلية الجميلة منذ عام 1956 وحتى عام 1967، لذلك فلها في ذاكرتي مكان مميز.

فمن الصور الجميلة التي لا تفارق ذاكرتي أني تعلمت الطفو فوق الماء لأول مرة في حياتي. ومقاومة تيار الماء بجسدي بدون أن تلمس قدماي الأرض، وكنت أقرب لسن الطفولة، في "دوار" نهرها الرئيس الذي ينبع من رأس النبع حيث كنا نسكن. الأمر الذي جعلني أتجرأ للاقتراب من شاطئ بحرها الواسع بعد فترة وجيزة من ذلك، فصرت أتعلم السباحة باكرا على هذا الشاطئ متعلما الغوص في أعماقه والسباحة على سطحه.

وكم مارست الشقاوة الجميلة وأنا أتعلم ركوب الدراجة العادية في حاراتها وأزقتها. ومن ثم في شوارعها غير المزدحمة بالسيارات آنذاك.

ودخلت مدارسها التي تعلمت فيها حتى المرحلة الإعدادية بدءا من مدرسة الراهبات التي كانت تقع في طرف سوقها الرئيس من جهة الشمال، ثم في مدرسة ابن خلدون الابتدائية التي كانت تقع في مدخلها من جهة الجنوب قبل التوسع والامتداد العمراني الحاصل الآن، والتي بدأت أتعرف فيها باكرا على ميولي الأدبية، بعيدا عن مادتي الحساب والرياضيات. ثم دخلت المرحلة الإعدادية في ثانويتها الجديدة، التي بنيت آنذاك في مكان قصي نسبيا، لكن قريبا من ابتدائية ابن خلدون لجهة الجنوب الشرقي منها كما أذكر.

أيضا من الصور الجميلة التي لم تفارق ذاكرتي أبدا هي فترة نشاطي الكشفي في المدارس بتدريبات منتظمة على اللياقة البدنية والاستعراضات الكشفية استعدادا للاحتفالات بأعياد الجلاء، أو في الرحلات الكشفية الجماعية الترفيهية والمفيدة، و لعل أهمها وأمتعها كان هو المسير الكشفي إلى قلعة المرقب. وكل ذلك كان بإشراف المدرب الكشفي المميز آنذاك المدرس الأستاذ عبد الحليم بكور.

وعندما انتقل مكان سكن أسرتي إلى الحي الجديد الذي كان يتكون منذ فترة فيها لجهة الشمال بالقرب من طريق القدموس كنت أقطع المسافة مشيا على

الأقدام مرتين يوميا من البيت إلى المدرسة ذهابا وإيابا، أي من أقصى بانياس في جهة الشمال إلى أقصاها في جهة الجنوب، وبذلك كنت دائم التعرف، وأنا أحب، على أهل وحارات بانياس كلها من أقصاها إلى أقصاها. ولا أنسى كم كنت أشعر بالسعادة الغامرة وأنا أقطع هذه المسافة يوميا حتّى في أوقات البرد والمطر، أنا وزملاء الصف والمدرسة من كافة الحارات في بانياس نحكي عن الدروس وعن الأساتذة، ونغني في الطرقات، وأحيانا نتخاصم وبسرعة نتصالح ونفترق على أمل اللقاء في اليوم التالي صباحا.

بانياس لم يكن فيها آنذاك مركز ثقافي رسمي مجهز كما هو اليوم، لكني أذكر تماما أن ميولي الثقافية وذائقتي الأدبية أسست لها يومئذ ثلاثة أماكن في بانياس كانت تشهد نشاطات ثقافية هي في بعضها كانت أقرب للمهرجان أحيانا وكان أولها ومحورها الفعال "منتدى عكاظ الأدبي"، الذي تأسس فيها منذ عام 1963، حيث تم إشهاره رسميا بتاريخ 7 آذار عام 1963، بمبادرة من نخبة ثقافية أدبية هامة ورفيعة فيها، يمثلهم الشاعر أحمد علي حسن "والدي" الذي كان موظفا في عدلية بانياس وهو بالأصل من الريف الجبلي لمدينة طرطوس القريب من الدريكيش كما بينت سابقا، والشاعر أنور الإمام الذي هو من أهالي بانياس الأصليين، والشاعر حنا الطباع، من أصل لبناني، من منطقة الكورة على ما أذكر. الذي كان يسكن بانياس ويعمل في شركة مصب النفط. وكان يجمع بينهم تناغم شخصي وانسجام وطني وإنساني كبير ونبيل. وتنوع غني وجميل في ذائقتهم الأدبية والشعرية وإنتاجهم الإبداعي.

وكان المتابع أو الراوي الصحفي لهم ولنشاط المنتدى شخصية أدبية طريفة من آل ياسين في بانياس هو الأديب الصحفي الأستاذ سري ياسين.

طبعا انتسب لهذا النادي أعضاء كثر من المهتمين بالثقافة والأدب، ثم من الجمهور العام الذي أذكر تماما أنه كان غيورا وحريصا على نشاطات هذا المنتدى، في بانياس آنذاك ودعموا نشاطاته ماديا ومعنويا.

لنلاحظ معا دلالة هذا التنوع الغني والجميل الذي أنتج بمبادرة شخصية مدنية من قبل عدد قليل من الأدباء والشعراء والمهتمين، ظاهرة ثقافية إبداعية حقيقية هامة وكبيرة في بانياس آنذاك ليس في الساحل السوري فحسب، بل على مستوى القطر ككل، فاستطاعت استقطاب أهم الأسماء الأدبية الكبيرة في سورية في ذلك الوقت، وكتبت عنها الصحافة مطولا، كما لم تكن نخبوية مغلقة بل انفتحت على الجمهور العام بنشاطاتها.

فكثيرة هي الأمسيات الشعرية التي عايشتها وأذكرها تماما، كانت تقام باسم المنتدى في "مقهى المصري" الذي كان يقع على الضفة الجنوبية للنهر قرب الجسر وكان يحضرها جمهور كبير، وأحيانا يكون في مقدمتهم مدير المنطقة. فهذا المقهى هو أحد المنابر الثقافية والأدبية لنشاطات النادي.
ثم يأتي المكان أو المنبر الثاني لنشاطات النادي، هو مبنى نادي شركة مصب النفط الذي يقع على مسافة بضعة أمتار لجهة الجنوب من مقهى المصري، الذي كان يشهد أيضا نشاطات فنية وموسيقية وغنائية كبيرة، وكثيرا ما كانت تتم بعض النشاطات فيه في فصل الصيف على سطحه الكبير أو في فناء حديقة جانبية تابعة له من جهة الغرب..
أما المكان الثالث الذي عايشته والذي كان يشهد حوارات وإلقاء قصائد وأراء نقدية وسهرات حميمية جميلة بين الأصدقاء فهو منزلنا الذي كان يستضيف فيه والدي أصدقاءه كل فترة وخصوصا إذا كان ثمة ضيوف من دمشق أو حلب وحمص أو اللاذقية، كالأديبات والأدباء: غادة السمان، كوليت خوري، نشأت التغلبي، اسكندر لوقا، يوسف عبد الأحد، من دمشق. والشاعرة عزيزة هارون، وقمر كيلاني، من اللاذقية والكثير من الأسماء التي لم أعد أذكرها تماما.
وكثيرا ما كانت تتعانق أصوات إلقاء القصائد الشعرية، مع الحوارات الأدبية، مع صخب الضحكات الجميلة، مع رنين الكؤوس. أثناء حفل غداء جماعي مع الضيوف في مقصف رأس النبع على ضفة النهر الجميل، وكأنه حفل مصغر يختصر كل تلك المنابر مجتمعة، وكلها كنت شاهد عليها وما زالت حية في ذاكرتي.
تلك هي المحطات الغنية والجميلة في حياتي التي كونت يفاعتي في سنيها الأولى، طيلة ستينات القرن العشرين، وبالتالي أسست شخصيتي التالية للقادم من الأيام والسنين، ثم أصقلت ميولي التي وجهتها وقد تكن عمقتها تجارب حياتية لاحقة.
لكن السؤال الأن ما هو المآل النهائي لتلك المنابر والنشاطات، وهل تمت متابعتها وتطويرها من خلال أجيال تالية مستمرة، حيث نحن الأن في أواخر العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين؟
بالنسبة لمنتدى عكاظ الأدبي فقد تراجع نشاطه مع بداية سبعينات القرن العشرين لأسباب عديدة لعل أهمها انتقال العمل الوظيفي وبالتالي أماكن السكن لأعضائه المؤسسين خارج مدينة بانياس ومن ثم وفاة أحدهم إلى أن

بدأ يهمل ويتوقف نهائيا، بحيث أن آخر نشاط له كان بتاريخ 12 / 2 / 1974م. كما أفادني والدي قبل رحيله عام 2010م.
لكن بحكم كوني ابن أحد أهم الأعضاء المؤسسين لنادي عكاظ الأدبي وقبل رحيل والدي بعقد كامل من السنين وتحديدا في عام 1999 تقدمت بكتاب بخط والدي وموقع باسمه إلى مؤسسة الشؤون الاجتماعية بطرطوس لمعرفة مصير منتدى عكاظ الأدبي المرخص أصولا منذ عام 1963م كما ذكرت، بقصد إعادة تنشيطه، فقيل لي أن الترخيص ما زال قائما لكن إعادة تفعيل نشاط المنتدى يحتاج إلى دعوة هيئة عامة جديدة بطلب من أحد أعضاءه أصولا مع فتح باب التنسيب للعضوية فيه مجددا، لكن الامر يحتاج أولا إلى موافقة مركزية من الإدارة العامة بدمشق.
وفعلا تمت كتابة طلب إعادة تفعيل النادي بخط والدي شخصيا، وتم تقديمه للمديرية المختصة المشار إليها وتم رفعه أصولا إلى الادارة العامة كما قيل لنا آنذاك. لكن حتى الآن لم يرد الجواب عليه سلبا أم إيجابا رغم مراجعتي المتكررة آنذاك؟
أما مبنى نادي شركة النفط الذي سألت عنه في زياراتي الأخيرة لبانياس فقد تحول مع مرور الوقت إلى مكان آخر مختلف تماما لا علاقة له بالثقافة او المهرجانات الادبية والثقافية.
وبالتالي فإن كل السهرات الأدبية والحياتية والفنية الجميلة التي كانت تقام سواء في منزلنا أو في مقاصف منتزه رأس النبع أم في قهوة المصري قد توقفت نهائيا ولم يظهر أي بديل مدني عنها حتى الآن.
ولعل تجربة الصالون الثقافي الأدبي التي بادرت بها في منزلي بطرطوس بين عامي 1991 – 2001م، كانت بمثابة تعويض استمراري لما رسخ في ذاكرتي في تلك الفترة.

حول أصل بلدة بانياس وأقدم العائلات التي سكنتها

المعلومات التالية حول أصل مدينة بانياس وسكانها الحاليين هي خلاصة لقاءات متعددة خلال عام 2016م مع السيد عثمان عثمان (أبو العبد) أحد أهالي وسكان مدينة بانياس وأحد وجوهها البارزين.
كانت بلدة بانياس قديما في الأصل من خلال ينابيعها التي تنبع من الجبال الصخرية التي تحدها من الشرق لتكوّن نهرا يخترقها حتى البحر، مركز حمامات لقلعة "القوز" التي تعلو الينابيع مباشرة، إضافة لكونها تتميز بسهل زراعي خصب على ضفتي النهر الواسعتين من جهتي الشمال والجنوب.
وبما أن من أقدم العائلات المالكة فيها في العصر الحديث هم آل الياس فقد

تم تسميتها في عهد الانتداب الفرنسي (برالياس) ثم تحول الإسم إلى (بانياس). لذلك يمكن القول أنها كانت بمثابة وطى سهلي أو سهل زراعي ساحلي تابع لمركزين إداريين سابقا: هما قلعة "القوز" ومن ثم قلعة "المرقب".

لذلك فأقدم وأول العائلات التي شكلت مدينة بانياس في الزمن الحديث منذ أواخر القرن التاسع عشر هم أعرق وأقدم العائلات في قلعة المرقب والقرى المحيطة بها ك"البساتين" وغيرها.

والعائلات هي التالية-:

العائلات المسيحية-:

1-: بيت آل الياس قدموا من منطقة البساتين بسبب التملك والمناصب الوظيفية فكان منهم القاضي غانم الياس في أربعينات القرن العشرين.

2-: بيت البيطار سكنوا بانياس منذ حوالي 150 عام وأصل تسميتهم بالبيطار يعود لحرفتهم في حذاء الأحصنة للأغوات وخصوصا أغا عدرا المكحل.

3-: بيت القباني من البيوت القديمة في بانياس

العائلات المسلمة(السنية)

1-: آل عثمان الأصل من سنجار في العراق جاء أجدادهم من حوالي 700 عام واستوطنوا الجبال الساحلية الغربية التي توزعوا وتشتتوا فيها بعد خلاف بين الأخوة عبود وغصن وعثمان فكان نصيب أبناء وأحفاد عثمان النزوح والاستيطان في المرقب وبانياس التي كانت تعتبر كسهل زراعي تابع للمرقب كما أشرنا سابقا.

2-: بيت ياسين – حج أحمد ياسين الأصل ملاكي قديمين في بانياس أراضي زراعية وعقارات وخانات.

3-: بيت تحوف الأصل من المرقب

4-: بيت الأعسر الأصل من قلعة المرقب

5-: بيت الخدام الأصل من جهة اللطامنة-قلعة المضيق سهل الغاب- وسكنوا المرقب والأصل في التسمية أن جدهم كان خداما لجامع المرقب القديم.

6-: بيت الإمام من مؤسسي المدينة، وأصل تسميتهم تعود لكونهم كانوا في الأغلب مشايخ وأئمة.

7-: بيت الجندي الأصل من قلعة المرقب

8-: بيت عدرا الأصل من قلعة الخوابي جدهم كان زعيم قلعة الخوابي أيام العثمانيين أي بمثابة أنها على منطقة تمتد من حدود طرابلس جنوبا إلى اللاذقية شمالا، ويتفرع عن عدرا عائلتي أسبر والمحمود.
9-: بيت عابدين الأصل من قلعة المرقب أغلبهم عمال بناء
10-: بيت عبد الرحمن الأصل من بستان النجار قرب المرقب
11-: بيت صهيوني أصلهم من المرقب مزارعين وملاك وتجارة .. وهم حاليا من حيث العدد ثاني أكبر عائلة في بانياس بعد آل عثمان.
العائلات المسلمة العلوية
1-: بيت سلمى الأصل من سربيون وسكنوا قديما جدا في بانياس بسبب التجارة
2-: بيت زيدان الأصل من قرية الزللو سكنوا قديما في بانياس بسبب امتلاك الأراضي والوظيفة والتعليم.
3-: بيت شاهين الأصل من قرية البلوطية ملاكي أراضي ومتعلمين
4-: بيت عثمان الأصل من قرية العنازة .. اشتغلوا بالتجارة.
5-: بيت رخامية الأصل من حفة صهيون (بيت طربوش) عمال ومزارعين.
تلك هي العائلات التي شكلت مدينة بانياس الحديثة منذ أوائل القرن العشرين حيث كانت تقوم الحياة الإقتصادية بداية على الزراعة والتجارة وصيد السمك ولعل الدور التجاري للمدينة كان هو الأقوى فقد كان يوجد في بانياس حوالي 20 تاجرا كبيرا تختص تجارتهم بالمنتجات الزراعية والحيوانية لأهل الريف الجبلي المجاور.
وكمثال نورد مايلي:
فقد كان ينزل إلى سوق بانياس صباح كل يوم حوالي 10 آلاف بيضة بلدية وحوالي 2طن سمنة زبدة بلدية فكان يتم نقل هذه الكميات عبر هؤلاء التجار كوسطاء إلى طرابلس وبيروت.
ثم تطورت الحياة الإقتصادية لمدينة بانياس بعد الإستقلال ومنتصف القرن العشرين
قلعة المرقب ـ بلدة المرقب
تقع قلعة المرقب كحصن منيع في أعلى قمة تلة جبلية على ارتفاع 370 متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط وتشرف من جهة الغرب بشكل مباشر على مدينة بانياس التي تتبع لها إداريا وتبعد عنها مسافة 5كم لجهة الشرق كما تبعد عن طرطوس مسافة 35كم شمالا. وتجمع المصادر العديدة

حول تاريخ بناء القلعة ومنها موقع "الويكيبيديا" وموقع "المعرفة" وغيرهما الكثير على النت، أن القلعة بنيت بداية بين عامي 789 – 809م أيام الخليفة العباسي (هارون الرشيد)، ثم أعيد بناؤها ثانية عام 1062م على يد رشيد الدين سنان. ثم سيطر عليها الفرنجة الصليبيون عام 1117م وجعلوها حامية حصينة لهم إلى أن تمت استعادتها منهم أيام السلطان المملوكي (قلاوون) بعد حصار طويل ومعارك عنيفة عام 1285م.
وقد سميت ب "المرقب" بسبب قدرة موقعها على المراقبة في جميع الاتجاهات لا سيما منها البحرية، حيث يقول (ياقوت الحموي) في "معجم البلدان كما جاء في موقع "المعرفة ":"المرقب بالفتح ثم السكون ثم بالقاف المفتوحة هو اسم الموقع الذي يرقب منه".
أما بلدة المرقب الحالية فهي التي تقع على سطح جبلي منبسط مجاور للقلعة من جهة شمال شرق وقد سكنها أهالي القلعة بعد أن هجروها نهائيا مع بداية العهود الوطنية الحديثة.
كنت قد ذكرت في الإشارة إلى أصل مدينة بانياس حسب إفادة أحد وجوهها الاجتماعية البارزين، أنها كانت بمثابة وطى سهلي أو سهل زراعي ساحلي تابع لمركزين إداريين سابقا: هما قلعة "القوز" ومن ثم قلعة "المرقب" لكن قلعة القوز، التي سوف أتكلم عنها لاحقا، صارت مجرد أثر من الحجارة كبيرة الحجم القديمة التي يتم زحف الأبنية الحديثة عليها من قبل أهالي الريف الجبلي المجاور، بينما قلعة المرقب تبقى راسخة ببنائها وبقربها بلدة المرقب التي بناها أهلها بعد نزوحهم من داخل القلعة.
لذلك رأيت أنه لا بد من الإشارة إلى بلدة المرقب وقلعتها ليس من الناحية التاريخية البعيدة، الأمر الذي يخرجنا عن سياق فكرة وموضوع هذا الكتاب، وإنما إلى أقدم العائلات التي سكنت القلعة بداية منذ قرن ونيف من الزمن ثم انتقلت منها إلى وطى منخفض قليلا عنها ليبنوا "بلدة المرقب" الحالية المجاورة للقلعة، تلك العائلات التي شكلت بفروعها اللاحقة وأجيالها التالية أحد الأنسجة الاجتماعية لمدينة بانياس الحالية.
ففي لقاء خاص مع مختار البلدة الشيخ (عبدالله أحمد عبدو) ومدير مدرسة البلدة الأستاذ الشيخ (عمر زغريني) بتاريخ 1 / 3 / 2016م. أفادوني مشكورين بالمعلومات التالية:
أصل التسمية يعود أصل تسمية القلعة بقلعة المرقب لوجودها في قمة جبلية ساحلية مرتفعة جدا يمكنها من مراقبة الثغور البحرية والبرية.
أقدم العائلات التي سكنت قلعة المرقب لأكثر من 150 عام:-

بيت جلول – بيت الإمام – بيت المحمود – بيت الرطل – بيت الأصر ..
لكن تم إفراغ القلعة من سكانها نهائيا منذ خمسينيات القرن العشرين لتبقى معلما تاريخيا أثريا فقط

أقدم عائلات بلدة المرقب الحالية:-

بيت الخدام – بيت صهيون – بيت عبدو – بيت عثمان – ثم تفرعت عن هذه العائلات أسر وعائلات جديدة تماما كبيت لفوس و زغريلي و الدنا الأقرب لبيت عثمان .. وبيت تحوف وبيت البرادعي و بيت الضايع وبيت تحوف وبيت البدوي ..

الحياة الاقتصادية في بلدة المرقب

عدد سكان بلدة المرقب حاليا 6000 نسمة يعملون في الزراعة وتربية الحيوانات والتجارة وأعمال البناء التي برع فيها حرفيين بارزين وصلت أعمالهم وأثارها حتى مدينة طرابلس ك عبد القادر الشيخ علي ومحمد عثمان و حمد جميل صهيون وعبدالله أحمد البدوي.

جامع القرية هو أقدم جامع في الساحل السوري بين مدينتي طرابلس واللاذقية حيث تشير بعض الشواهد والمعطيات التاريخية إلى بناءه في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

كما كان يوجد جامع في القلعة هو في الأصل كنيسة أيام الصليبيين.

شارك أهالي المرقب في الثورة ضد المستعمر الفرنسي بقيادة بعض شبابها من أهمهم محمد طه صهيوني ومحمد تحوف حيث كانوا على تواصل دائم مع ثورة الشيخ صالح العلي.

تتميز قرية المرقب منذ سنين بعيدة بمبادرة تنظيم أهلي جماعي لإدارة كافة شؤونها الخاصة وحل الخلافات بدون تدخل السلطات القائمة وقد أسسوا أول مدرسة في القرية والمنطقة لفترة تعود لأكثر من 100 عام.

قلعة القوز، بناء عشوائي يحيط بأقدم أثارنا التاريخية بشكل يكاد يلغيه

قلعة القوز "أوزا" .. هي قلعة أثرية تقع في مدينة بانياس محافظة طرطوس .. صارت اليوم جزءا من "حي القوز" السكني في بانياس على شكل بقايا أثرية مهملة وضائعة.

جاء في مو قع الويكيبيديا - الموسوعة الحرة عن القلعة ما يلي:

بُنيت قلعة القوز خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد فوق تلّة قرب مدينة بانياس، على مساحة تبلغ نحو 60,000 مترٍ مربّع، وتنحدر التلّة التي تقوم فوقها القلعة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وتطلّ من جهة الشرق والجنوب على وادي نهر بانياس. شُيِّد حول القلعة سورٌ كبيرٌ لا زالت آثاره

باقيةً في الجهة الجنوبية شديدة الانحدار والجهة الشمالية، تتخلّله بوّابتان وثلاثة أبراج، وتمتدّ بقاياه على مسافة طولها 400 متر. وقد عُثر في موقع القلعة على رقيم قديمة، هي عبارةٌ عن عقود تاريخية مُوثّقةٌ بنظام الكتابة والإشهاد، ترجمتها الباحثة الفرنسية سيلفي لاكنباشر ونشرتها في مجلة المركز الوطني للبحوث العلمية الفرنسية. وقد ورد ذكر القلعة تحت اسم أوزا في نقوشٍ هيروغليفية بمعبد الكرنك وكتابات قصر تحتمس الثالث الملكي ورسائل تل العمارنة (رسالة سنة 1377 ق.م من عمونيرا إلى أخناتون).

يُواجِه الموقع الأثري اليوم مشكلة قيام حيّ سكنيّ حديثٍ فوق أطلال القلعة القديمة، وقد اتّخذت دائرة آثار طرطوس إجراءً وقائياً لهذه المشكلة، هو الطلب من مجلس مدينة بانياس في سنة 2007 عدم منح أيّ رخص بناءٍ جَديدةٍ في موقع القلعة دون الحصول على علمها وموافقتها أولاً. يبلغ عدد سكّان حي القوز الحديث نحو 1500 نسمة، وهو يتألف من ثلاث عقارات أساسية، مساحة كلّ منها مئات الدونمات ويتملّك الواحد منها نحو 100 شخص.

يقول الباحث "محمد يحيى الأعسر" عن القلعة في بحث أعده سنة 1991 عن آثار مدينة "بانياس" ومحيطها: «إنّ حدود القلعة الشرقية والغربية شديدة الانحدار على وادي "نهر بانياس"، ساعد على تحصينها عملٌ دائب طويل، كما أنّ القلعة بسورها وأبراجها وبحدودها الشرقية والجنوبية المطلة على الوادي تعتبر من أكمل التحصينات الباقية من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد بنيت الأسوار بأحجار ضخمة تزن الواحدة عدة أطنان وبنموذج سمي خطأ أسلوب البناء الكريتي المربع وهو نظام كنعاني قديم.

وفي بحثه أيضاً يبين وجهة نظر المحامي "عبد الهادي عباس" الذي قال عن الرقيم الفخاري: «إنّ هذه الوثيقة ذات صلة بتعاقد حقوقي من أقدم ما عرفه التاريخ وتوحي أسماء الشهود وصيغة العقد بتفاعل العلاقات في منطقة حوض المتوسط كما تشير إلى أنّ العبارات المتداولة شعبياً من إشهاد الآلهة على العقود والتي ما زالت سائدة رغم القوانين الوضعية وما تتضمنه من التزامات مدنية وهي عبارات موغلة في قدمها في ثقافة سكان هذه المنطقة، كذلك فإنّ توثيق العقود بالكتابة والإشهاد عليها أيضاً هو دليل قدم أصول هذه المبادئ التي ما زالت قائمة في أمور الأحوال الشخصية».

وبرأي الباحث فإنّ «هذه الوثيقة تنير لنا الطريق وتبين لنا أنّ حضارة المنطقة التي نعيش فيها هي بجذورها القديمة ما زالت غريبة عنا نحن ورثة هذه الحضارة".

ملحق

في مختتم محاولاتي المتواضعة في هذا الكتاب، الذي تشوبه نواقص عديدة ولاشك لأسباب كنت ذكرتها في المقدمة، أود ان أثبت مقالين كنت كتبتهما منذ عام ونصف تقريبا، قد يبدوان لبعض القراء أن لا علاقة لهما بموضوع الكتاب وفكرته المضمرة والسياق التاريخي لأحداثه.

فالأول له علاقة باستشراف مستقبلي معاق لدى بعض الشباب في طرطوس. ومن ثم بالمآلات الأخيرة للواقع العمراني والمجتمعي في طرطوس وريفها.

والثاني تاريخي قديم أحاول فيه مقاربة الأسباب التاريخية لظهور التطرف الإسلامي المتشدد الذي عرقل، كما أفترض هنا، تشكل طيف مجتمعي ديني متعدد، وأخّر ظهور وتشكل مدني حديث منفتح في أغلب خط المدن والريف الداخليين في سورية والموازي من جهة الشرق لخط الساحل السوري من الشمال إلى الجنوب وصولا إلى مدينة طرابلس الساحلية، بعكس ما كان عليه خط المدن الساحلية السورية وريفها من سهل عكار جنوبا حتى رأس البسيط شمالا. رغم أن الثغور التي كانت تدخل منها الجيوش الأجنبية تقع على الساحل. ليتبين لنا السبب التاريخي البعيد للفارق الكبير بين مجتمعات المنطقتين التي لا تبعد المسافة بينهما أكثر من حوالي 150 – 200 كم في أبعد نقطة بينهما، مع أن خط المناطق والمدن الداخلية المتشددة اليوم كان أكثر تحضرا وانفتاحا حتى عام 1099م بدليل أن بعض أهم أسماء الفكر والأدب في التراث الثقافي العربي الإسلامي ظهرت فيها آنذاك.

المقال الأول

(هكذا يفكر ويحلم بعض من شباب طرطوس اليوم)

في لقاء يوم جميل وطويل جمعني قبل اعوام قليلة، عام 2014 على ما أذكر، مع مجموعة من الشباب الرائعين من **محافظة طرطوس** حيث كان الحوار غنيا ومتنوعا في الرياضة والأدب والفكر والبحث العلمي.
فوجئت بأحدهم وهو خريج هندسة مدنية من جامعة تشرين أنهى تحضير رسالة الماجستير بعنوان لافت وهو: **"قرية مكتفية ذاتيا"** وقد شرح لنا باقتضاب فكرة مشروعه البحثي هذا كما يشير إليه العنوان بوضوح تام.
ما أثار انتباهي كثيرا في العنوان والبحث كما شرحه هو الفكرة اليوتوبية المستقبلية المضمرة في البحث الرسالة بعيدا عن النمط السائد عند أغلب خريجي الهندسة في بلادنا منذ عقود حيث يهتمون بدراسة البناء من حيث الشكل والمضمون على أساس الحساب الكمي فقط لحاجة البناء لمواد التسليح اللازمة له وحسب النمط العمراني السائد والمطلوب تجاريا مع تحول أغلبهم إلى مجرد مقاولين ومتعهدين .. أي تجار بناء فقط.
وما أثار انتباهي أكثر هو أن فكرته هذه كما شرحها كانت في أحد جوانبها **استجابة بحثية افتراضية لحالات النزوح القسري المستمرة آنذاك للأعداد المتزايدة من السوريين داخل بلدهم** ومحاولة احتوائهم ضمن قرى يبنونها بأنفسهم وإرادتهم وتكون مكتفية ذاتيا في حال طالت كثيرا فترة النزوح.
وكلنا يعلم أهمية الطرح اليوتوبي عبر التاريخ وصولا لعصر النهضة كمهاد نظري وعلمي ساعد البشرية في الصول إلى العصور الحديثة.
والمفاجأة الثانية كانت عندما حدثنا نفس الشاب عن رسالة ماجستير أخرى لزميل له في الهندسة بعنوان لافت أخر هو: **"الصدغ"**
وكلنا يعرف أن الصدغ هو الجزء المسؤول عن تلقي الإشارات الخارجية ومعالجتها في الذهن ومن ثم الاحتفاظ بالذاكرة لأمد طويل، **فهو المسؤول** بدرجة كبيرة عن ألية التفكير في الدماغ . وفكرة الرسالة عند صاحبها كما فهمت من شرح زميله لها تقوم على رصد الفراغات وتتابعها في البناء كمسار هندسي ينكسر فيها **تتالي الجدران**، مستمدا أمثلته من بلدان أخرى عديدة ومتقدمة حضاريا وعمرانيا بقصد خلق نمط معماري جديد يهيئ

المرء لنسيا وذهليا لكسر طغيان وهيمنة مسلمات ثالوث الدين والاقتصاد والسياسة كجدران كبيرة في حياتنا كما عهدناها طويلا.
قد يكون ثمة جانب سريالي في الفكرة وهذا أمر جميل ..وربما لا أكون وفقت في تقديمها كما شرحها الشاب الذي نسيت اسمه وشكله ..
لكن الواضح والمهم هو طريقة جديدة جدا في التفكير ومختلفة عما سبقها بدأت تغزو أذهان بعض خريجي الجامعات من حملة الشهادات العلمية في بلادنا اليوم بعيدا .. وربما تحديا .. لكل الخراب والعبث كما يجري فيها يوميا منذ سنوات.
أذكر أنه بعد استماعي لكل ذلك خرجت بتفاؤل .. كاد يغادرني منذ حين .. بمستقبل سورية لأن فيها شباب يفكرون اليوم تحديدا .. بهذه الطريقة المستقبلية الجديدة والمختلفة والرائعة.
لكنني كنت أعود للإحباط عندما أتذكر الجانب الأخر من حديثنا في ذلك اليوم، عندما كانوا يعبرون عن رغبتهم الآنية والشديدة بالخروج من البلد هربا من الفساد والخراب والضيق المستفحل فيه. وربما يعيش أغلبهم اليوم في بلاد النزوح البعيدة كما الآلاف غيرهما من السوريين الشباب، وتساءلت كيف يكون مستقبل سوريا بدون أمثال هؤلاء الشباب بتفكيرهم الحداثي الجديد والمبتكر فعلا وكيف ستكون عملية إعادة الإعمار والبناء بدون هكذا كفاءات تختزل في تفكيرها حبا عميقا للبلد كما تملك إمكانية تخيل يوتيوبي هائلة.

واقع الحال العمراني والاجتماعي، اليوم في طرطوس-:

طرطوس اليوم بأحياء التوسع العديدة فيها شرقا وأحياء التوسع العشوائي جنوبا، وادي الشاطر – الرادار، بفعل موجات النزوح العديدة والكبيرة إليها والمستمرة منذ منتصف ثمانينات القرن العشرين حتى أيامنا هذه، لدرجة أن أغلب القرى المجاورة لها شرقا كالشيخ سعد، ودوير الشيخ سعد، وجديتة، والخريبات .. إلخ صارت تعتبر بمثابة ضواحي سكنية متصلة عمرانيا بطرطوس.
أما في وسط المدينة السكني والتجاري وفي بعض الأحياء المحيطة به، فقد بدأت منذ سنين قليلة عملية هدم بعض أبنيتها القديمة من قبل أصحابها أو من قبل تجار ومقاولين بناء كبار ليتم إقامة أبنية برجية بقصد الاستثمار التجاري فقط دون مراعاة أية رمزية تاريخية أو خصوصية بيئية للمكان أو المنزل الذي يتم هدمه، وغابت الفضاءات الجمالية والشوارع الهادئة التي كانت تنظم العلاقة بين الأحياء بأبنيتها التي كانت تناسب كل ذلك. أما أحياء

للتوسع العمراني الجديدة بأبنيتها البرجية العالية فلن ترى فيها إلا أطماع تجار الأبنية الجدد ترسم معالمها البيتونية.
لذلك كنت أتذكر تلك الجلسة وما دار فيها من حديث كما لخصته، في كل مرة أتمشى فيها في بعض أحياء التوسع الجديدة لطرطوس من جهة الشرق، المرتفعة عن المدينة نسبيا وانا أشاهد كم وحجم الأبنية الطابقية الكبيرة المشيدة أو التي مازالت قيد البناء بأبراج طابقية عديدة بتتالي قريب بينها لا يترك مسافات كبيرة وبأشكال هندسية متنافرة جدا عن أنها تحاصر الشوارع التي تفصل بينها طوليا أو عرضيا بتقابل لا يترك أيضا أية مسافات كبيرة سوى عرض الشارع المقرر، كي يتم استثمار أكبر قدر ممكن من مساحة الأرض للبناء دون مراعاة الحاجات البيئية الضرورية، لأن ملكية هذه الأبنية البرجية الكبيرة تعود لمقاولين وتجار بناء وأصحاب رؤوس أموال كبيرة لا يستثمرون أموالهم إلا في مجال العقارات حيث المردود السريع في الربح، رغم حاجة البلد الماسة للإستثمار في المجالات الاقتصادية الانتاجية الأخرى..
لذلك وبالرغم من أنها تقام، بالتأكيد، ضمن المخططات التنظيمية للمدينة إلا أنها تبدو من بعيد، وحتى من قريب، أقرب لأبنية الأحياء العشوائية ككتل بيتونية كبيرة وهائلة بدون مساحات فراغية منظمة وصحية بينها، تصيب "صدغ" المتأمل فيها بصداع كبير.
والمفارقة المرة والأليمة تكمن في أنه بالرغم من عددها الكبير وتكاثرها الدائم، ورغم أن الكثير منها جاهز للسكن لكن غير مسكون أو أنه مكسو من الخارج فقط أو كما يقال "على العضم" وكلها معروضة للبيع، إلا أن المدينة تشكو من أزمة سكن كبيرة، لا سيما الجيل الجديد من أبناء المحافظة حيث لا يستطيع الفرد منه تأمين منزل لائق للسكن أو للزواج. فأغلب هذه الأبنية الطابقية شيدت من قبل مالكيها للاستثمار الجشع الذي ينتظر فرصة السعر الأعلى، وكلنا يعرف أن شرائح الطبقة الوسطى في طرطوس، كما في كل سوريا، كانت هي المؤهلة افتراضيا والقادرة على شراء وسكن شقق في هذه الأبنية، لكن هذه الشرائح في محافظة طرطوس، كما في كل سوريا أيضا، كانت قد بدأت بالتراجع وتآكل مواقعها الاقتصادية منذ بدايات الألفية الجديدة إلى أن بدأت الانهيار التام مع بدايات الحرب منذ عام 2011، وصارت في قاع المجتمع فتراجع أفرادها إلى مستويات الفقر الحقيقي.
والمفارقة الأهم والأخطر، التي تستدعي التوقف والتساؤل والدراسة، هو أن هذه الأبراج السكنية الضخمة القوية التسليح البيتوني في أغلبها تشاد

بكثرة في سنوات الحرب رغم كل مؤشرات الانهيار الاقتصادي للبلد ومع تراجع وانهيار شرائح الطبقة الوسطى؟!.

تشويه البيئة الريفية الجبلية:-

وهذا ليس في طرطوس المدينة فقط فانّ اتجه المرء في الريف الجبلي المطل على طرطوس وصولا إلى الجرود الجبلية البعيدة نسبيا يرى نفس المشاهد حيث يشتري التجار وأصحاب رؤوس الأموال الجديدة، مساحات واسعة من الأراضي الجبلية ويبنون عليها أبراجهم أو مجمعاتهم الاستثمارية حسب ما تسمح به المخططات التنظيمية لكل منطقة، لكن بتناثر عشوائي وتنافر في الشكل الهندسي للبناء مما يؤدي إلى تشويه الجمال الطبيعي للمنطقة الجبلية الريفية بدلا من أن يضيف عليها لمسات جمالية جديدة. ويسمونها شاليهات جبلية، لأن شكل البناء فيها تنطلق فكرته أو تصوره الهندسي من قاعدة الاستثمار التجاري الخاص فقط ولا تنطلق فكرته من تصور شكل هندسي يقوم على الاستئناس الجمالي، المكاني – اللوني – المناخي، مع البيئة الريفية الجبلية التي يتم عليها إشادة البناء.

لكن الملاحظة الأقوى تبقى بخصوص شاطئ طرطوس القريب والمباشر حيث الكورنيش البحري الجديد. فقد كان شاطئ طرطوس رمليا جميلا على طول امتداد المدينة بمحاذاة البحر وكان يحده بتماس مباشر كورنيش جميل وهادئ لا تتعدى حدوده الشاطئ الرملي أبدا.

لكن لا أحد يعرف أية عقول هندسية كبيرة فجرت عبقريتها منذ منتصف العقد الأول من القرن الحالي وارتأت رمي آلاف الأطنان من الصخور الجبلية في البحر على طول الشاطئ لتوسيع مساحة الكورنيش عرضانيا عشرات الأمتار على حساب الشاطئ الرملي وتقسيمه مربعات حدائق وممرات تتصل بألسنة صخرية داخل البحر صممت على شكل مرافئ صغيرة بقصد تنظيمه سياحيا من جديد وطرحه للإستثمار التجاري الخاص حيث تقام عليه اليوم عدة مطاعم كبيرة ومقاهي عديدة أكثرها شعبي اقيمت بتعد واضح على مساحات كبيرة من المجال العام الخاص بحركة الناس، لكن بأسعار سياحية كبيرة. وكل هذه المنشآت والمقاهي حولت محيطها إلى مكبات عديدة للأوساخ حيث تسرح الجرابيع وتمرح بين الصخور ويكثر الذباب والبراغيث في فصل الصيف.. وكل ذلك على حساب حرمان المدينة من شاطئها الرملي الدافئ والجميل والنظيف سابقا والذي كان سجل ذاكرة جميلة لأجيال عديدة سابقة من أبناء طرطوس مرت على هذا الشاطئ

تعلمت السباحة فيه وتعرفت على بعضها من خلاله بل عشقت وأحبت على كورنيشه الهادئ والجميل كما كان سابقا.

ويبقى السؤال الأهم كيف يمكن تصور سوريا بدون أمثال شبابها الذين يفكرون ويحلمون ليبتكروا الجديد دوما بحماس شديد للعلم والمعرفة وحب كبير للوطن والبلد ككل، بينما يبقى نظرائهم من نماذج أخرى من الشباب يمشون يوميا على الكورنيش بتباه وعنفوان كبيرين، كانهم امسكوا بحلم العمر لديهم، وهم يمسكون بحبال كلابهم الخاصة، الكبيرة المخيفة أم الصغيرة، التي تمشي أمامهم وتقودهم حيث تشاء. لدرجة تثير أحيانا رعب وخوف الأطفال والنساء المتنزهين على الكورنيش الجديد بكل ارصفته ومساحاته.

المقال الثاني

(مدن التطرف الإسلامي في بلاد الشام)
"السياق التاريخي"

تقديم:

كثيرا ما يشار إلى بعض المدن وريفها في بلاد الشام، خصوصا تلك التي تقع على خط جغرافي مواز للشريط الساحلي السوري والممتد من شمال غرب سوريا حتى الجنوب وصولا إلى طرابلس مرورا بحلب وريفها، وأدلب وريفها، وحماة وريفها، وحمص وريفها. على أنها متزمتة ومتطرفة في طريقة تدينها الإسلامي وطقوس العبادة، مع ما يلازم ذلك من نمط الحياة الاجتماعية الخاصة والعامة وأسلوب التربية في البيت، لدرجة أنها صارت خزانا يرفد باستمرار ومنذ عقود، الكثير من الحركات الجهادية الإسلامية المتطرفة في المنطقة.

قد تتفق الملاحظة السريعة الغير فاحصة تاريخيا وموضوعيا مع هذه الأحكام التي تبدو عند البعض قطعية ونهائية غير قابلة للأخذ والرد ولا تأخذ بالفهم التاريخي لأسباب ذلك، ولا بحالات التبدل والتغير التي تحصل في هذه المدن وأريافها في فترات الاستقرار المجتمعي عندما تظهر فيها شخصيات وأفكار واتجاهات وأحزاب غاية في التحرر والانفتاح بمواجهة سطوة التزمت والتطرف والانغلاق الديني. لأن التزمت والتطرف بكل أنواعه ومستوياته يظهر وينتشر أكثر ما يظهر أثناء الحروب والاضطرابات المجتمعية الكبيرة والمخيفة عندما لا تجد الروح المضطربة والتائهة ملاذا تحتمي فيه غير انتماءاتها القبلية الأولى، أو تقيتها الدينية التي تتمسك بها وبنصوصها الأولى بدون أيه محاكمة جديدة .

لذلك يبدو أن هذه الأحكام صارت كلية قطعية جاهزة عند الكثيرين فتسبق أي حوار مفترض لفهم أسباب ذلك، كمن يضع العربة أمام الحصان.

وهذا ما سأحاول مناقشته من خلال إضاءة تاريخية سريعة تبين أسباب هذا التزمت والتطرف المسيطر ربما على قطاع واسع من أبناء هذه المدن وأريافها، والذي له شرطه التاريخي الخاص وليس ناتج أحادي السبب من جوهر الدين نفسه كما يرى ويؤكد البعض.

إضاءة تاريخية موجزة:
فبلاد الشام عموما، التي تشمل اليوم سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، تشكل منطقة جيوسياسية هامة منذ عمق التاريخ القديم، كملتقى للحضارات حيث مرت عليها هجرات وغزوات وممالك وإمبراطوريات عديدة أغلبها كان يتحارب من أجل السيطرة عليها. بعضها كان يأتي من البحر غربا، والبعض الأخر من بادية الصحراء الشمالية الشرقية المتاخمة، وبعضها من آسيا وبلاد فارس أو من الشمال البيزنطي آنذاك. فترك كل ذلك أثره الكبير ديمغرافيا وثقافيا بتعدد عرقي ثقافي غني ومتنوع حتى لحظة الفتح الإسلامي لها منذ القرن السادس الميلادي، الذي ترك هامشا متاحا لكل هذا التعدد، وأضاف عليه أيضا، بإدخال أقوام وشعوب أخرى دخلت الإسلام بعد انتشاره الواسع حتى أواسط آسيا، ليس إلى بنية المجتمع فحسب وإنما بشكل أكبر لاحقا إلى مفاصل حساسة في بنية الدولة العربية الإسلامية، لا سيما مع بداية عهد الضعف في العصر العباسي الذي بدأ كما يشير المؤرخون عام 1055م، وهو ما اتفق اصطلاحا على تسميته بمرحلة "الشعوبية". نسبة لتغلغل عناصر من أعراق وشعوب غير عربية، بنسبة كبيرة في المفاصل العليا ومراكز القرار في دولة الخلافة الإسلامية العباسية.

ما أود الإشارة إليه هنا هو أن بلاد الشام وفي القلب منها سوريا الحالية كانت دائما حتى بعد الفتح الإسلامي تتميز بتعددها الديني والعرقي القومي والثقافي التي دمجت ثقافيا في إطار الثقافة العربية الإسلامية طور التشكل آنذاك، مما فرض على شعوب هذه المنطقة نمطا من التعايش والألفة واحترام الثقافات والأعراق والعبادات المتعددة فيما بينها. بالرغم من الحروب والمنازعات التي كانت تحدث بسبب تنافس الحكام والأمراء المحليين، وأغلبهم من أصل غير عربي، فيما بينهم، وبدرجة أساسية مع بدايات ضعف وتآكل وانهيار الدولة المركزية في بغداد. فالتطرف كان يظهر فقط أثناء تلك المنازعات وما ينتج عنها من حروب صغيرة واستمر الأمر هكذا حتى عام 1098م.

1098م هو العام الذي بدأت فيه حروب الإفرنج، كما سماها المؤرخون العرب والمسلمون، والتي جاءت تحت راية الصليب على المنطقة العربية الإسلامية، في لحظة ضعفها وتشتتها التاريخيين، وصولا إلى بيت المقدس في فلسطين بحجة حماية القبر المقدس من دنس المسلمين، علما أن كل الأماكن المسيحية المقدسة في القدس وبلاد الشام كانت مصانة ومحترمة

ولا تتعرض لأي تهديد خطير عليها أو أي تخريب، لأنه عدا عن النصوص الدينية الإسلامية المقدسة التي تدعو لاحترام ديانات أهل الكتاب، المسيحية واليهودية، واعتبار أتباعها بذمة الدولة الإسلامية في أوج انتصاراتها، فإن الجذر التاريخي لهذا الاحترام يعود أيضا إلى القصة التاريخية المعروفة للخليفة الراشدي الثاني (عمر بن الخطاب) عندما دخل القدس واستقبله مطران المدينة المقدسة ودعاه كي يصلي في الكنيسة فرفض دعوته قائلا له أخاف إن صليت فيها أن يحولها المسلمون من بعدي إلى مسجد' لأنه يريدها أن تبقى كنيسة ومكان عبادة للمسيحيين في المدينة.

1098م إذا هو التاريخ الذي أحدث منعطفا تاريخيا قويا عندما أحدث جرحا نرجسيا فظيعا لم يندمل حتى اليوم في الشخصية الإسلامية، كما حكم علاقتها، وما يزال، بالغرب الأوروبي عموما حيث أحدث فجوة روحية ثقافية معنوية كبيرة لم تجسر بعد نهائيا بينها وبينه.

خط مسير الحروب الإفرنجية داخل سوريا إلى بيت المقدس:

بدأت جيوش الفرنج زحفها الأول قادمة من عمق أوروبا بعد تحضير بدا عام 1095م بناء على دعوة وقرار من قبل بابا الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا آنذاك (أوربان الثاني)، عن طريق البوسفور والقسطنطينية ومن ثم انحدرت باتجاه الجنوب باتجاه "**نيقية**" التي احتلتها عام 1097م ومن ثم "**إنطاكية**" التي احتلتها عام 1098م بعد معارك كر وفر عديدة بينها وبين جيوش المسلمين بقيادة أمراء وملوك سلاجقة أتراك آنذاك، حيث ارتكبت فيهما بعد هزيمة الجيوش الإسلامية مجازر وحشية كبيرة بحق السكان المدنيين المتبقين من كافة الطوائف إسلامية ومسيحية شرقية، كما يقول العديد من المؤرخين.

وهو ما تسرده وتوثقه العديد من الروايات والمصادر التاريخية، ولعل ما يهمنا منها هنا هو الكتاب الهام "الحروب الصليبية كما رآها العرب" للكاتب والباحث اللبناني (أمين معلوف) الصادر عن دار الفارابي عام 1989م ترجمة د. (عفيف دمشقية). الذي يعتمد على تلك المصادر بأمانة ودقة متناهية.

<u>معرة النعمان:</u> تتوسط بلدة معرة النعمان المسافة بين حلب 84كم وحماة 60كم لذلك كانت منذ العصور الكلاسيكية لسوريا بحكم موقعها هذا محطة للقوافل التجارية بين حماة وحلب وكذلك بين الساحل الغربي وسهول الغاب المتاخمين لها وبين دمشق.

يقول (أمين معلوف) عنها في كتابه المذكور ضمن فصل بعنوان "اكلة لحوم البشر في المعرة":
"كان أهلها يعيشون حتى وصول الفرنجة عيشة راضية في حمى سورها الدائري، وكانت كرومهم وحقول زيتونهم وتينهم تؤمن لهم رخاء متواضعا ... ومفخرة المعرة هي أنها موطن أحد أكبر وجوه الأدب العربي، (ابي العلاء المعري) المتوفي عام 1057م ولقد جرؤ هذا الشاعر الضرير الحر التفكير على انتقاد عادات عصره من غير التفات إلى المحظورات. وكان لا بد من الشجاعة للقول:
اثنان أهل الأرض، ذو عقل بلا.. دين وأخر دين لا عقل له.
ولسوف يهيمن بعد اربعين سنة من وفاته تعصب وافد من بعيد فيقرر على ما يبدو أن ابن المعرة كان على حق في عدم تدينه وتشاؤمه الأسطوري على السواء. فسوف تتحول مدينته بالفعل إلى ركام من الأطلال، وسيكون للارتياب الذي طالما عبر عنه حيال أبناء جلدته أشنع الصور" ص61-62.
فما الذي حدث في المعرة أثناء اجتياح جيوش الفرنجة لها؟.
أحاطت جيوش الفرنجة بالمعرة منذ نهاية شهر تشرين ثاني 1098م ولم يكن للمعرة قوات نظامية محاربة وإنما حامية بسيطة وصغيرة استبسلت كثيرا في الدفاع عن سور البلدة المحاصرة وعندما تمكن المحاربون الإفرنج من فتح ثغرة بالسور وسيطروا عليه، خافوا من دخول البلدة والاشتباك المباشر مع الأهالي المستبسلين داخل الأحياء، لذلك بعد التوسط بين وجهاء الأهالي وقادة الحملة الإفرنجية تم الاتفاق على استسلام الأهالي دون قتال وإلقاء السلاح مقابل تأمين السلامة لهم بعد دخول المحاربين إليها.
وعندما تم ذلك في فجر الثاني عشر من كانون الأول 1098م دخل المحاربون الفرنجة المدينة وأعملوا السيف فورا فوقعت المذبحة التي كانت صورها واحدة من أبشع فظائع التاريخ. حيث ذهب ضحيتها 100 ألف من سكان المعرة حسب رواية (ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) كأحد مراجع أمين معلوف في كتابه، بينما (أمين معلوف) يرى مبالغة في الرقم الذي يقدره ب 10 الاف فقط.
لكن ليس هنا تكمن الفظاعة وإنما في الكيفية التي تم فيها قتل هذا العدد الهائل والذي استمر لمدة ثلاثة أيام متواصلة.
وهنا يرد (أمين معلوف) توثيقا للمؤرخ الإفرنجي (راول دي كين) يكشف فيه عن تلك الكيفية عندما يكتب:

"وكان جماعتنا في المعرة يغلون وثنيين بالغين في القدور ويشكّون الأولاد في سفافيد ويلتهمونهم مشويين"؟!!.
طبعا المقصود بالوثنيين هنا هم العرب المسلمين أبناء المعرة.
ثم يذكر قول لمؤرخ إفرنجي شارك وشاهد معركة المعرة بنفسه اسمه (ألبير دكس) حيث يقول:
"لم تكن جماعتنا لتأنف وحسب من أكل قتلى الأتراك والعرب، بل كانت تأكل الكلاب أيضا"!.
كيف يمكن لبشري أن يفعل ذلك مع بشري بعد أن أعطاه أمانا مهما بلغ حقده عليه أو رغبته الثأرية منه؟.
إنه التعصب الديني الأحادي المغلق والأحمق المنطلق من قاعدة بؤس اجتماعي واضطراب مجتمعي كبير كما كانت عليه أوروبا آنذاك، والمدفوع بشحن ديني طائفي بغيض من قبل رجال دين يعتبرون بمثابة قديسين أو أولياء، فيتحول الإنسان المتدين عندها إلى كتلة غرائز حيوانية تدفع به للقتل الوحشي. وتلك هي سمة الحروب الدينية والطائفية أو المذهبية في كل زمان ومكان حتى يومنا هذا.
طبعا تم تناقل أخبار هذه الفظائع بعد ذلك عبر الروايات الشفوية والشعراء المحليين في كافة أرجاء المنطقة بين حمص وحماة وحلب وأريافها جميعا مما ترك أثرا بالغا وحقدا دفينا مستمرا في النفوس، حيث سيرحل الجنود الفرنجة عن المعرة بعد شهر كامل من القتل والدمار وإضرام النار في كل منزل فيها وهدم سورها حجرا حجر.
يكتب أمين معلوف محقا في كتابه المذكور: "لسوف تسهم حادثة المعرة في حفر هوة بين العرب والفرنجة لن تكفي عدة قرون لردمها ...."
طرابلس:- بعد تقدم جيوش الفرنجة أكثر باتجاه الجنوب واستيلائهم على حصن الأكراد والسهول المحيطة به ممارسين في طريقهم جميع أشكال القتل والنهب صار كل حاكم محلي، من حمص حتى طرابلس، يطمع بملاقاتهم واسترضاء قادتهم وغمرهم بالهدايا النفيسة خوفا منهم ودرءا لشرهم الفظيع، ومن بين ذلك حكام مدينة طرابلس التي صاروا قريبين جدا منها. لذلك تجاهلوا دخول طرابلس وهم في طريقهم إلى القدس، لكنهم عادوا إليها بعد أن طمعوا بموقعها وخيراتها.
فطرابلس، حسب رواية أمين معلوف ومصادرها التاريخية، كانت تحكمها آنذاك سلسلة من القضاة المثقفين الذين ينتسبون لأسرة بني عمار كإحدى العشائر المحاربة التي لم تكتفي بالقوة فقط لبسط سيطرتها وتملكها، وإنما

اعتمدت الثقافة والعلم فسمي ملوكها بـالقضاة وجعلوا من طرابلس آنذاك "درة الشرق العربي" حيث كانت تتمتع بالأمن والازدهار واهتم حكامها القضاة ببناء فخم سموه "دار العلم" يحتوي على مئة ألف مجلد " فكان يعد أحد أهم المكتبات في ذلك الزمن" عدا عن أن المدينة كانت تحيط بها حقول من أشجار الزيتون والعديد من الأشجار المثمرة والزراعات الأخرى، بالإضافة لميناءها البحري النشط تجاريا. فكان ذلك كله سببا هاما لأن يطمع الفرنجة بدخولها والاستيلاء عليها لاحقا.

وعندما تم لهم ذلك فعلا في الثاني عشر من تموز 1109 "وبعد مقاومة باسلة طويلة من أهلها وقضاتها، خربت مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة المثقفين على يد محاربي الغرب، ونهبت الألف مجلد التي كانت في "دار العلم" ثم أحرقت لكي تمحى الكتب "الملحدة" من الوجود"ص113. ثم تم بيع من تبقى من أهاليها في سوق العبيد وبعضهم طرد بعد أن نهبت أملاكه.

وهو نفس الأسلوب الذي اتبعته جيوش الفرنجة أثناء دخولها بيروت وصيدا حيث كانت تعمل القتل والذبح للأهالي والقضاة والفقهاء وتخريب الأملاك مع تدمير وتدنيس المساجد.

أما عن الفظائع التي ارتكبت أثناء وبعد دخول جيوش الفرنجة إلى "القدس" التي احتلتها عام 1099م أي قبل طرابلس بعشرة أعوام، فالسرد يطول ويحتاج لعنوان مستقل لكنهم لم يوفروا قتلا وذبحا أو حرقا كل من وقع بين أيديهم مسلما كان أم مسيحيا من أبناء القدس أم يهوديا حيث ارتكبوا باليهود المقدسيين يومذاك أيضا مجزرة فظيعة.

<u>خاتمة:</u> وبذلك تكون حروب الفرنجة بمجازرها الوحشية البشعة تحت راية الصليب في بلدان المسلمين، والتي تسمى بـالحروب الصليبية، وتقدم زحفها على الخط المذكور من نيقية وأنطاكية فالمعرة وحصن الأكراد وطرابلس وبيروت وصيدا وصولا إلى القدس، قد فرضت على المسلمين عامة ومن خلال أبرز قادتهم ورجالاتهم وفقهائهم يومذاك، رد فعل مقابل تجسد باستنفار شعوب العالم الإسلامي للعمل على توحيد الصفوف وبناء الجيوش لمواجهة هذا الغزو وتحرير القدس.

ومدخلهم لذلك كان بإعادة إحياء وتفعيل فريضة "الجهاد" بحماس كبير من جديد بعد أن كانت هذه الفريضة قد تلاشت نسبيا إلا في تنميق الخطب الرسمية والدينية. ومن ثم بالعمل الميداني الحثيث في سبيل ذلك.

وهكذا فالتطرف الديني ليس وليد جوهر الدين ذاته، وإنما يكون مشروطا بسياق تاريخي ما أو ظرف مجتمعي قاهر.
فالأديان جميعها حمالة أوجه وتتعدد القراءات والتفسيرات فيها، فالدين المسيحي ذاته ، مثلا، الذي يتلخص جوهره الحقيقي بالدعوة اليومية للمحبة والتسامح والرهبنة في سبيل العبادة النقية فعلا، إلا أنه ظهر من الكثير من أتباعه ومعتنقيه في الشرق والغرب، دول وجماعات، وتحت راياته أشرس الحروب والمعارك التي ارتكبت فيها بعض أكثر المجازر وحشية عبر التاريخ حتى بين المسيحيين أنفسهم كما حدث في أوروبا خلال فترة الإصلاح الديني.
ونفس الأمر ينطبق على الإسلام واليهودية.
خلاصة القول أن الخلاص من التطرف الديني عموما إسلامي أو مسيحي لا يكون إلا ببناء مجتمعات حديثة تدار من قبل مؤسسات الدولة المدنية الديمقراطية التي تقوم بدورها على مبدأ تداول السلطات دستوريا، فتستوعب الجميع وتضع خطط تنمية مستدامة ترفع من المستوى المعيشي للسكان وتؤمن وتصون حرية القول وفرص العمل لهم جميعا بلا استثناء.

جدول المحتويات

صدر للمؤلف:

1- مقاربات في سوسيولوجيا الإخفاق- المجتمع العربي نموذجاً- أرواد والنشر 2015

2- فكرة الزمان والوعي التاريخي- أرواد للنشر 2019

دار أرواد للطباعة والنشر والتوزيع